في هذا العدد

الافتتاحية

يوحنا الذهبيّ الفم بولسُ زمانه، خادمٌ أمينٌ لكلمة الله ــــــ رئيس التحرير ٢

موضوعات

يوحنّا الذهبيّ الفم، ثماني عظات في المعموديّة ــــــ الخوري جان عزام ٧

كرازتان للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم في المعمودية ــــــ الأب دانيال كستورا....... ١٥

يوحنّا الذهبيّ الفم يواجه أونوميوس والأنوميّين ــــــ الخوري بولس الفغالي..... ٢١

المعطيات البيبليّة في نافور مار يوحنّا فم الذّهب بحسب مخطوط دير الشرفة ٦٢ (القرن السابع عشر) ــــــ الأب نجم شهوان......... ٣٥

مفهوم الآلام عند يوحنّا الذهبيّ الفم ــــــ الخوري أنطوان الدويهيّ ... ٤٧

العناصر البيبليّة والرعويّة عند يوحنّا الذهبيّ الفم ــــــ الخوري جوزف سلّوم..... ٦١

يوحنّا الذهبيّ الفم في قراءة إنجيل يوحنّا ــــــ الخوري بولس الفغالي..... ٦٧

مديح يوحنّا الذهبيّ الفم للقديس بولس الرسول ــــــ الأب أيوب شهوان........ ٧٧

يوحنّا الذهبيّ الفم والعظات في الرسالة إلى رومه ــــــ الخوري بولس الفغالي..... ٨٣

ثمن العدد

في لبنان : ٧٥٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها

في الخارج : ١٠٥٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الاشتراك السنوي (٤ أعداد)

في لبنان : ٣٠٠٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها

في الخارج : ٤٢٠٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الصف الإلكتروني، الإخراج،
فرز الألوان والطباعة:
Daccache Printing House
عمشيت (لبنان)

العنوان

كليّة اللاهوت الحبريّة

جامعة الروح القدس – الكسليك

ص.ب.: ٤٤٦ جونيه – لبنان

هاتف: ٠٩/٦٠٠٠٠٠

فاكس: ٠٩/٦٠٠١٠٠

E-mail: olmpac@hotmail.com

أسّس الأب لويس خليفة (✝)
جريدة بيبليا سنة ١٩٩٠،
وتحوّلت إلى **مجلة بيبليا**
سنة ١٩٩٨.

رئيس التحرير:
الأب أيّوب شهوان

هيئة التحرير:
الأب أيّوب شهوان
الخوري بولس الفغالي
الأخت باسمة الخوري
د. دانيال عيّوش

أسرة التحرير:
الأب غابي أبو سمرا
الأخت روز أبي عاد
د. نقولا أبو مراد
الأرشمندريت إسحق بركات
الأم كليمانس حلو
الأب ميلاد الجاويش
الأب أسعد جوهر
الأرشمندريت جاك خليل
الأب جورج خوّام
الخوري نعمةالله الخوري
الأب لويس الخوند
القس عيسى دياب
الأب نجم شهوان
الخوري جان عزّام
د. جوني عواد
الأب أنطوان عوكر
الأب هادي محفوظ
الخوري أنطوان مخايل
المطران بطرس مراياتي
الخوري جوزف نفّاع
الأب ريمون الهاشم

ISSN 1992-2094

جميع الحقوق محفوظة

مركز النشر والتوزيع
جامعة الروح القدس – الكسليك
ص.ب. : ٤٤٦ جونيه – لبنان
هاتف : ٠٩/٦٠٠ ٠٠٠
فاكس : ٠٩/٦٠٠ ١٠٠

الافتتاحية

يوحنا الذهبيّ الفم بولسُ زمانه، خادمٌ أمينٌ لكلمة اللّه

رئيس التحرير

مقدمـــــة

انصرف الذهبيّ الفم إلى دراسة الكتاب المقدس بطريقة معمّقة في أنطاكيا، لكن من المرجَّح جدًّا أن يكون قد قرأ الأسفار المقدسة كثيرًا، وتأمّل فيها، وغاص في أبعادها، عندما أمضى ستّ سنواتٍ على الجبل في حياة نسكيّة قَشِفَةَ عابدة مارس خلالها الأصوام والأسهار والإماتات بشكلٍ منقطع النظير. وإن كان قد عاد إلى أنطاكيا، بعد هذه السنوات التي طبعت حياته كلّها بطابع النسْك والزهد وروح العبادة، فإنّ ذلك لم يكن إلاّ بدافع خدمة الآخرين بالكلمة وبالفعل. ومن سنة ٣٨٦ (تاريخ سيامته كاهنًا) حتّى سنة ٣٩٢ (تاريخ سيامته أسقفًا على القسطنطينيّة) شغل منصب الواعظ الرسميّ في أنطاكيا، وجُلُّ وَعْظِهِ كان بيبليًّا إلى حدٍّ كبير.

١ – طريقة الذهبيّ الفم في تفسير كلام الله

درس يوحنا في مدرسة أنطاكيا، حيث الأفضليّة في التفسير هي للمعنى الحرفيّ، لينتقل بعد ذلك إلى المسائل الخُلُقيّة. بالطبع، يهتمّ الذهبيّ الفم قبل كلّ شيء بأن يبيّن معنى النصّ، فينطلق من معنى الكلمة حصرًا، ليصل إلى هدف هذا الأخير. من هنا ينظر العديد من مفسِّريّ الكتاب المقدّس إلى ما تركه لنا الذهبيّ الفم في مجال التفسير البيبليّ بأنه بذات الفعل شاهد جيّد وهامّ لِتَنَاقُل الأسفار المقدّسة.

لجأ الذهبيّ الفم في تبيانه لمعنى مقطعٍ ما إلى إبراز الموازاة بين النصّ الذي يعالج ونصوص أخرى مشابهة، مستعينًا بنصوص إضافية من رسائل بولس ومن الإنجيل، كما يُدرج أيضًا نصوصًا من العهد القديم إذا لزم الأمر. هكذا، مثلاً، في عظاته على الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين، يشير مرّات عدّه إلى مقاطع أخرى من الرسالة عينها، وذلك ليفسّر نصًّا ما بسياق الرسالة ذاتها.

ويضيف إلى ذلك عادةً أمثلةً يستلّها حيث يرى أنّها توضح المعنى وتُسهم في إيصال الرسالة. هكذا، مثلاً، يستعين بوجوه من العهد القديم، مثل إبراهيم وموسى وأيوب، ليعلّم مستمعيه التواضع، والضيافة، والصبر، واستعمال الغنى، كما أيضًا بوجوه من العهد الجديد مثل زكاّ، والرسل، وبولس، وصولاً إلى المسيح يسوع بالذات. بالمقابل، من النادر أن يلجأ الذهبيّ الفم إلى منهجية مدرسة الإسكندرية، أي إلى الألّيغوريّا.

ويتكلم على النُهيَويّة (الإسكاتولوجيا) بشكل ثابت في حَثِّهِ الذي يُدرجه في عظاته، مبيّنًا أكثر من مرّة أنّ البُعد النُهيَويّ مُتَضَمَّنٌ منذ الآن في وجودنا الأرضيّ.

أخيرًا، يتأكّد لنا أنّ الكتاب المقدس بالنسبة إلى يوحنا الذهبيّ الفم هو خزّان العِبَر والأمثولاتِ الخُلُقِيّةِ التي تقود مسيرتنا على الأرض، والتي يُفيضها العهدان القديم والجديد على القارئ النبيه والمفسِّر الناجح. لذلك، عندما يعظ،

ينطلق من المعنى الحرفيّ لمقطعٍ ما يفسّره، ليبلغ بسامعه إلى الخلاصات العملانيّة المسلكيّة التي على المؤمن أن يعتمدها في مسيرته الإيمانيّة والروحيّة. لقد آمَن الذهبيّ الفم بأنّ الكتاب المقدس، الذي هو ثمرة إلهام الروح القدس، يحتوي على كلّ القواعد الضرورية لحياة مسيحيّة صالحة وناجحة.

٢ – الذهبيّ الفم رجل الكلمة

تبيّن لنا عظاتُ الذهبيّ الفم حول رسالة القديس بولس الأولى إلى الكورنثيّين كيفيّة قيامه بمهمّته ككارز بالكلمة؛ فهو كان أبعد ما يكون عن السعي إلى أن يستحصل على إعجاب الناس به، وينتقد مَن كانوا يُلقُون المواعظ والخطب دون أن يضمّنوها رسالةً أو تعليمًا، بل كلامًا منمّقًا وفارغًا ليس إلاّ، ويزيّنون خطبهم بهدف الإغراء والمديح. فاستنادًا إلى الذهبيّ الفم، على من شاء أن يلقي عظة أو خطبة أن ينقل من خلالها الحقيقة التي يوحيها اللهُ والتي تتناقلها الكنيسة؛ فالواعظ أو الخطيب هو خادم الحقيقة النازلة من العلاء، وليس الحكمة الدنيويّة الباطلة.

٣ – الذهبيّ الفم حامل البشرى

لقد أمضى الذهبيّ الفم حياته في خدمة كلام الله، داعيًا الجميع، إكليريكيّين ومؤمنين كافة، إلى قراءة الكتاب المقدس، مُحيلاً سامعيه إلى هذا المقطع أو ذاك من العهدَيْن القديم أو الجديد، وعائبًا على هؤلاء عدم قيامهم بقراءة متنبّهة لهذه الآية أو تلك من الكتاب المقدس، التي يستغلّها الخصوم لإيذاء قطيع المسيح (رج عظة على ١ كو، ٢٤).

ويبدو أنّ مسيحيّي كنيسة أنطاكيا كانوا يمتلكون نسخًا مخطوطةً للكتاب المقدس، الأمر الذي كان يتيح لهم فرصة القراءة في بيوتهم، لذلك كان الذهبيّ الفم يسمح لنفسه بمطالبتهم بالقيام بذلك وبالتشديد عليه. ولكن، أكثر ممّا هو مطلوب من المؤمنين العاديّين، كان الذهبيّ الفم يشدّد على واجب مَن يعظ بأن يضمن لنفسه معرفةً معمّقة وراسخة للكتاب المقدّس؛ فهو شخصيًّا كان قد تلقّى تنشئته اللاهوتيّة في مدرسة أنطاكيا الشهيرة، والتي كان روّادها مدعوّون إلى تحصيل معرفة جيّدة ومتماسكة للكتب المقدسة وهضمها، وتفسيرها وفق المنهجية الأنطاكيّة المعروفة، أي التفسير الحرفيّ.

٤ – من القراءة والتعمّق إلى التطبيق الخُلقِيّ

إنّ ما يلفت النظر في هذا المجال لم تكن التفاسير النظريّة والعلميّة المعقّدة للكتاب المقدّس، بل الناحية التطبيقية والعملانية المفيدة لحياة المؤمن ولتقدّمه الروحيّ، وللسلوك الأدبيّ الواجب على كلّ المسيحيّين. من هنا كان الذهبيّ الفم ينطلق، ومن الكتاب المقدس بالذات، ليندّد بالتصرّفات غير اللائقة بالمسيحيّ، أو ليشدّد السالكين حسنًا في مسيرتهم ومقاصدهم. ومن المعروف أن مسألة الأخلاق في أنطاكيا كانت غير مَرْضيّة، الأمر الذي يفسّر سبب هجوم الذهبيّ الفم على كلّ المنحرفين في رعيّته، داعيًا الجميع إلى عيش المثال المسيحيّ السامي كي يتمكّنوا من الصمود على المبادئ الإنجيلية وسطَ كثرةٍ غير مسيحيّة.

إنّ تعمّق الذهبيّ الفم في كلام الله، والتزامه به أمام الله والناس، واستلهامه إيّاه في تعليمه ووعظه وسلوكه، كلّ ذلك دفع بالقديس العظيم إلى إيلاء الفقراء عنايةً أبويّة رائعة، فحنا عليهم، وكانوا الأكثريّة في أنطاكيا، هذا إذا أضفنا إليهم الغرباء، والأسرى، والمرضى، ومَن شابههم، واعتنى بهم بكلّ طاقته، رافعًا الصوت ضدّ تقاعس القادرين على مدّ يد المساعدة، ومندِّدًا باحتقار المساكين والمعوزين، وداعيًا المسيحيّين إلى أن يروا فيهم صورة المسيح الفقير.

٥ – لوحة عملانية: بكلام الله يخاطب الذهبيُّ الفم الأغنياء

لقد استنار الذهبيّ الفم بتعاليم يسوع، فاستلّ من مثل

الغنيّ ومن تعاليم بولس ما كان بحاجة إليه كي يتوجّه إلى الأغنياء الذين، كما في كل زمان ومكان، يكدّسون الأموال والمقتنيات ويقولون: "يا نفس، لك خيرات كثيرة لسنين عديدة، فكُلِي واشربي وتنعَّمي"، مُتناسِين أنّ هذا الذي أعدّوه لن يكون لهم، لأنه في ليلة لا يخالونها تأتي الساعة فلا يفلتون.

في أيام الذهبيّ الفم كانت عائلات مقتدرة تمتلك الغنى الكبير، بينما كانت الأكثرية تعاني من العوز والفاقة؛ فمقابل البذخ والموائد الفخمة، والألبسة النفيسة، وغير ذلك من مظاهر الغنى، كانت طبقة الفقراء هي الأكثرية الساحقة في أنطاكيا؛ هذا ما يفسّر ثورة الذهبيّ الفم على هذه الحالة المأساوية، لذلك كان يعمل جاهدًا، وبروح معلّمه، على التوعية والإرشاد والتوبيخ والحثّ، دون أن تكون لديه أيّة نزعة متطرّفة ضدّ الغنى أو الأغنياء بحدّ ذاتهم. هكذا، وانطلاقًا من روح الإنجيل، راح يدعو إلى ممارسة المحبة التي كان يعتبرها أولى الفضائل، لا بل روح كلّ الفضائل.

هكذا أضحى الذهبيُّ الفم خادمَ الكلمة بعلمه وعمله؛ فهو، بالإضافة إلى صفاته كخطيب مفوّه وواعظ بليغ، كان له قلب عامرٌ بالمحبّة، تدفعه غيرته الرعوية إلى الالتزام بقضايا الناس، وخدمة الجميع من خلال التبشير بمن هو الحقّ والخير والمحبة.

٦ – الذهبيّ الفم وشَغفه بالقديس بولس

إذا كان الذهبيّ الفم قد تتلمذ في شبابه في مدرسة أنطاكيا، فإنّه تتلمذ بصورة جذريّة في مدرسة القديس بولس، ونشّأ ذاته على فكر هذا الأخير المكنوز في رسائله، ولا عجب، فهو على شغف مُعْلَنٍ به، نتبيّنه من مدائحه الرائعة التي ساقها لشخص رسول الأمم، ببلاغته وفصاحة عباراته البديعة والمعهودة، الأمر الذي كان يثير إعجاب مستمعيه وحماسهم، مع الإشارة إلى أنّهم كانوا يصغون إلى صوت هذا الراعي الصالح بكلّ جوارحهم، ويبقون مسمَّرين في مقاعدهم مهما طالت العظة الذهبية.

لا عجب إذًا إذا ما شرح الذهبيّ الفم كلّ رسائل بولس، وإذا ما استشهد به بدون كلل، واعتبره مثالَه في عرضِ مضمونِ الإيمان، وفي الاندفاع في خدمة رعيّته، معتبرًا أنّه لا بُدّ له من أن يجهد النفس حتى يقتدي بالرسول العظيم إلى أقصى حدّ. لذلك كان يقرأ ويقرأ رسائل القديس بولس، يستخرج منها الغالي والثمين لحياته الخاصّة، روحيًّا وإيمانيًّا، ومذهبًا ورعايةً، عاملاً على أن يصبح على مثاله في الغيرة في حمل البشرى السارّة، والمحبة الشديدة للمسيح، والجرأة في "المناداة بالكلمة في وقت ذلك وفي غير وقته".

لقد كتب في مستهلّ تفسيره لرسالة بولس إلى الرومانيّين ما يلي: "في كلّ مرّة أستمع فيها إلى قراءةٍ من رسائل الطوباويّ بولس، مرّتين وغالبًا ثلاث أو أربع مرّات في الأسبوع، خلال الاحتفالات بذكرى الشهداء القدّيسين، أُسَرُّ وأفرح بأصوات هذا البوق الروحي"، أي بولس الرسول. ويضيف: "كل ما نعرفه قد تعلّمناه... في محادثة منتظمة معه، وفي الإعجاب العميق الذي نكنّه له". لقد خَصَّ الذهبيّ الفم القديس بولس بعدد هامّ من العظات تشكّل نوعًا من المدخل للعظات العقائدية التي كرّسها للرسالتَين إلى الرومانيين وللأولى إلى الكورنثيين. فعندما ألقى عظاته حول الرسالتَين الأخيرتَين ،كانت الجماعة التي يخاطبها تمرّ بتوترات شديدة ومؤذية؛ يُضاف إلى هذا كلّه التراخي الأخلاقيّ من فوضى في العلاقات، وممارسة الشَعْوذة، والشغف المفرِط بالمسرحيات، وارتياد المجامع اليهوديّة بخفّة ومن دون مسؤوليّة تجاه الإيمان الحقّ، وغير ذلك. لقد شكّلت رسائل القديس بولس مصدرًا هامًّا لمواقفه ولتعاليمه ولأعماله في خدمة الأسقفية والراعوية، فإذا به يضحي بولسَ زمانه ببلاغته واندفاعه وحبّه للمسيح ولإخوته الصغار.

خاتمـــة

ممّا لا شكّ فيه أنّ الذهبيّ الفم هو فريد عصره فكرًا وعلمًا وقيادةً أسقفيّة؛ فهو، في الواقع، الراعي الغيور، وهو

بالتالي الصورة الرائعة عن معلّمه، "الراعي الصالح". صوته تستعذبه الخراف وتتبعه لأنّها تعرفه، لذلك هو فخر زمانه وكلّ زمان، كاهنًا وحبرًا عظيمًا؛ هو حاضر أبدًا ومتأهبٌ لأن يعلّم، ولا عجب في ذلك، فهو ملفانُ يسوع والناطق باسمه وبكلمته، لا يتردّد في الحثّ على القراءة والتعلّم والتثقّف في مدرسة المسيح وتلميذِه بولس، وعلى أن يُعيد مؤمنيه عن الانحراف والضلال والخطيئة إلى السلوك المستقيم، إلى الحقيقة، وإلى الأمانة. ويشكّل الكتاب المقدّس بالنسبة إليه المرجعيّة الأسمى لحياة صالحة وللعيش في ما هو لله. هذا الواقع الذهبيّ لعظات الذهبيّ الفم البيبليّة، جعَلَ ما عَلَّم وكَتَبَ وترك لنا نقيًّا كالذهب، وخالدًا خلود إنجيل ربنا يسوع المسيح.

للقـــراءة

حاج (ال) اميل، **الذهبي الفم (٣٤٤–٤٠٧)**، سلسلة "الشهود"، رقم ٢٦، جونيه: المكتبة البولسية، ١٩٨٨.

كويتر الياس، **خطيب الكنيسة الأعظم القديس يوحنا الذهبي الفم : حياته وبعض من مواعظه**، ترجمها آباء مخلّصيّون، سلسلة "الفكر المسيحي بين الأمس و اليوم"، رقم ١١؛ جونيه: منشورات المكتبة البولسية، ١٩٨١.

ملطي تادرس يعقوب، **القديس يوحنا الذهبي الفم : سيرته، منهجه وأفكاره، وكتاباته**، سلسلة "أقوال الآباء وكتاباتهم، علم الباترولوجي"، رقم ٤، كنيسة الشهيد العظيم مار جرجس باسبورتج، ١٩٨٠.

زهر عبد المسيح، **القديس يوحنا الذهبي الفم**، سلسلة "موسوعة المعرفة المسيحية"، رقم ٥، آباء الكنيسة، طبعة ثانية منقحة، بيروت: دار المشرق، ١٩٩٣.

ترديف هنرى، **القديس يوحنا الذهبي الفم**، عربه عن الفرنسية رفائيل نخلة، المعادي، ١٩٦٣.

عساف ميخائيل، **سيرة القديس يوحنا الذهبي الفم بطريرك القسطنطينية، ٣٤٧–٤٠٧**، القاهرة: دار المعارف (دون تاريخ).

كتاب مواعظ الجليل في القديسين يوحنا فم الذهب رئيس أساقفة القسطنطينية، بيروت: مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، ١٨٧٤.

بدوي (ال) خليل، **نخبة النخب في ترجمة القديس يوحنا فم الذهب**، بيروت : المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٨٩١.

LEGEE Jacqueline, *Jean Chrysostome commente Saint Paul*, Paris: Desclée de Brouwer, 1988.

SCHAFF Philip, *A Select Library of the Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, First series 12, John Chrysostom: *Homilies on the Epistles of Paul to the Corinthians*, Grand Rapids: Eerdmans, 1989.

_____, *A Select Library of the Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, First series 13, John Chrysostom: *Homilies on the Epistles of Paul to the Corinthians*, Grand Rapids: Eerdmans, 1994.

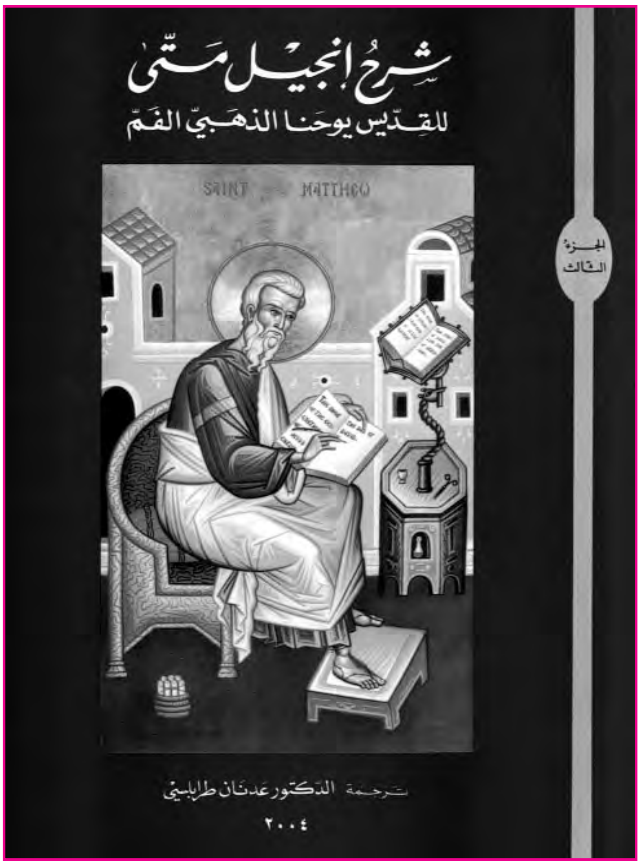

الفهرس

مقدمة الجزء الثالث ١١
مقدمة ١٥

الاصحاح الخامس عشر ٢٧
الاصحاح السادس عشر ٤٩
الاصحاح السابع عشر ٧٩
الاصحاح الثامن عشر ١٠٥
الاصحاح التاسع عشر ١٣٨
الاصحاح العشرون ١٥٨
الاصحاح الحادي والعشرون ١٧٦

ملحق الدراسات الكتابية: ٢٠١
١- نبوات المسيح عن آلامه ٢٠٢
معمودية المسيح وتجربته في البرية ٢٠٣
رفض يسوع في الناصرة ٢٠٥
النبوة الأولى عن الآلام ٢٠٦
تجلي المسيح والنبوّة الثانية عن الآلام ٢٠٨
النبوّة الثالثة عن الآلام ٢٠٩

٢- الأسبوع الأخير في أورشليم ٢١١
حجب يسوع لدوره المسياني عن عامة الشعب ٢١١
دخول يسوع المظفّر إلى أورشليم (الشعانين) ٢١٣
تطهير الهيكل ٢١٧
محاولة اصطياد يسوع بثلاثة أسئلة ٢٢٠
مثل الفعلة الأشرار ٢٢٣
حديث يسوع عن الحوادث الآتية قبل نهاية الدهر ٢٢٤
مصادر دراسة «نبوات المسيح عن آلامه» ٢٢٧

٣- مَن يقول الناس إني أنا؟ ٢٢٨
يسوع النبي ٢٣٠
يسوع المعلّم rabbi ٢٣٤
يسوع المسيح خريستوس ٢٣٥
يسوع ابن داود ٢٣٩
يسوع ابن الانسان ٢٤١
ألقاب يسوع في الكنيسة الأولى ٢٤٦
مصادر دراسة من يقول الناس إني أنا ٢٥٩

٤- تاريخ الصلب (اليوم الشهر والسنة) ٢٦١
يسوع والصلب ٢٦٤
ساعة الصلب ٢٦٤
تاريخ شهر الصلب ٢٦٦
محاولات التوفيق بين الإزائية ويوحنا ٢٧١
مقارنة تأريخ الصلب بين الإزائية ويوحنا ٢٧٢
الفكرة الأولى ٢٧٢
الفكرة الثانية ٢٧٣
الفكرة الثالثة ٢٧٤
الفكرة الرابعة ٢٧٥
تاريخ سنة صلب المسيح ٢٧٦
مراجع دراسة تاريخ الصلب ٢٧٩

يوحنّا الذهبيّ الفم

ثماني عظات في المعمودية [1]

دراسة نموذجية بسيطة للعظتين الأولى والثالثة

الخوري جان عزام
أستاذ مادة الكتاب المقدس في جامعة الروح القدس

مقدمــــة

"تؤلف هذه العظات الثماني مجموع العظات التي عثر عليها الأب أنطوان فنغر في دير ستافرونيكيتا في جبل آثوس، سنة ١٩٥٥. وما من حجة تصدّنا عن أن نذهب إلى أن يوحنا قد ألقى معظم هذه العظات"[2].

سنقتصر في دراستنا الموجزة على العظتَين الأولى والثالثة لأنهما تتضمّنان أهمّ ما جاء من موضوعات حول المعمودية، مع العلم أن العظة الثانية والرابعة تتضمّنان موضوعات لاهوتية أخرى مهمّة، لا مجال لذكرها هنا، كما أن العظات الأربع الأخيرة تحتوي على تعاليم أخلاقية ورعوية أكثر منها لاهوتية وعقائدية.

تتميز هاتان العظتان، التي يمكن أن نسمّيهما ميستاغوجية، ببُعْدٍ لاهوتيّ مهمّ يتمحور حول لاهوت المعمودية من الناحية البيبلية، والأسرارية، والكنسية، على أساس كريغمي[3] مميّز.

١ – تقديم العظتين

أ– تقديم العظة الأولى

ليس من الواضح لنا الوقتُ المحدد الذي أُلقيَت فيه هذه العظة، ولكنّها تسبق مباشرة رتبة المعمودية في ليلة الفصح، ويتوجّه فيها القديس يوحنا إلى الذين صاروا مستعدّين لدخول "زمن الفرح والحبور الروحي"، موضوع شوقنا وحبّنا"، وموضوع العظة الأساسيّ هو تهيئة الذين يستعدّون للعماد، الذين يشبّههم بالعروس "التي تستعدّ لتلج خدر العريس المقدّس"، لأنّ "ما يجري اليوم يجوز أن ندعوه عرسًا من غير أن نضلّ".

تبدأ هذه العظة إذًا بشرحِ معنى هذا العرس الروحيّ مؤكّدًا أنّه يصير بفضل "جودة المعلّم المحبّ البشر اللامتناهية"، لأنّ الذي خلب لبَّه "ليس عذوبتها ولا جمالها، ولا حتّى نضارة جسدها يوم استقبلها، فقد كانت قبيحة ومشوّهة وملطّخة كلّها بدناءتها، حتى ليُقال فيها إنها متمرّغة بجملتها في حمأة خطاياها. ولقد ولج بها، على حالتها تلك، إلى عتبة الخدر". ويسترسل الواعظ في شرح هذه النعمة الإلهيّة المجانيّة في المقاطع الأولى (١–١٠)، مرتكزًا على أقوال القديس بولس وبخاصّة ٢قو ١١: ٢: "لقد خطبتكم لرجل واحد لأهديكم عذراء عفيفة للمسيح"، شارحًا معاني هذه العفة التي

(١) لا نبحث هنا في صحّة إسناد هذه العظات إلى القديس يوحنا الذهبيّ الفم، ونعتبر هذا الإسناد ممكنًا انطلاقًا مما يؤكّده الذين عرّبوا العظات عن النصّ اليونانيّ المنشور في سلسلة Sources chrétiennes, no 50 bis، ونشروها في هذا الكتاب: **يوحنا الذهبيّ الفم، ثماني عظات في المعمودية**، ترجمة ج. معلوف، م. عون (سلسلة النصوص اللترجية، ٤)، منشورات المكتبة البولسية، جونيه، ١٩٩٣. نرتكز في دراستنا هذه إلى النصوص المعرّبة في هذا الكتاب.

(٢) نفس المرجع، ص ٢١.

(٣) من اليونانية *kerygma*، أي إعلان الخبر السارّ والدعوة إلى التوبة وتغيير الذهن.

تصير بفضل "إدراك العروس للشرور التي تحرّرت منها ومعاينتها الخيرات التي ستنعم بها". ويؤكّد أيضًا وأيضًا على فيض محبّة المسيح لها بالارتكاز على نص المزمور ٤٤: ١١: "إسمعي، يا ابنتي، وانظري وأميلي أذنك، وانسَي شعبك وبيت أبيك، فيصبو الملك إلى حسنك"، مؤكِّدًا، في المقابل، على ضرورة تخلّي المستعدّين للعماد عن ماضيهم الشرير ليستقبلوا "محبّة الله الممتنعة الوصف وعنايته الفائقة" هذه.

ويكمل الشرح في المقاطع اللاحقة (١١–١٨) مركِّزًا على معنى هذا الاتحاد الكامل بين العروس والعروسة بالارتكاز على نصّ سفر التكوين: "لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته، فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا". ويعبّر، انطلاقًا من هذا "الجسد الواحد"، عن أهمّيّة سرّ الزواج، وبالتالي عن السرّ الفائق الذي يتحقّق في زواج المسيح بالنفس المعمدَّة، مؤكِّدًا مرّة جديدة على مجانية الاختيار الإلهيّ الذي لا يسأل عن أصل من يتزوجهم وفصلهم، بل يسارع إلى خلاصهم "بنعمة وسخاء ومجّانيّة في العطاء". أما عن هدايا هذا العرس الروحيّ، فهي تتلخّص ببذل العروس نفسه عن العروسة، كما يؤكّد ذلك بولس في الرسالة إلى أهل أفسس، وبموافقة المعمَّد فكريًّا "على هذا التحوّل الحاصل".

في المقاطع اللاحقة (١٩–٣٠) تعليم عقائديّ على أساس أنّ "الإيمان أساس التقوى"، وهو عن الإيمان بالآب والابن والروح القدس، وضرورة الحذر من التعاليم الضالّة والهرطقات المنتشرة، وبخاصّة البدعة الأريوسيّة التي لا تعترف بالابن والآب من جوهر واحد.

المقاطع الأخيرة (٣٠–٤٧) تتضمّن تعاليم أخلاقية عن التواضع والوداعة، وحثًّا للنساء على عدم التلهّي بالزينة الخارجيّة، وتشجيع على عدم الانجرار وراء أكاذيب العرافة والسحر...

ب– تقديم العظة الثالثة

من المرجح أن هذه العظة قد ألقيت في خلال الاحتفال بمعمودية الموعوظين الذين قبلوا في عداد المختارين، ومن المرجح أن هذه الرتبة تصير في ليلة الفصح خلال الاحتفال بالأفخارستيا الفصحيّة كما جرت العادة، وكما هو واضح من خلال لجوء القديس إلى مقابلات عديدة للحدث مع ما حدث في الخروج وسيناء والعهد الموسويّ القديم.

تبدأ العظة الثالثة في المقاطع الأربعة الأولى (١–٤) بتشبيه الموعوظين "بنجوم من الأرض تضاهي بريقها نجوم السماوات"، وذلك على قاعدة الإيمان بسر التجسد، أي الإيمان بأن "الذي من السماوات (المسيح الابن) قد ظهر على الأرض"، وعلى قاعدة ما جاء في إنجيل متّى عن الصدّيقين (المؤمنين) الذين "يشعّون كالشمس في ملكوت أبيهم".

تكمل المقاطع الثلاثة اللاحقة (٥–٨) فتركز على التحول الذي حصل في حياة الموعوظين من حياة الأسر للخطيئة إلى حياة الحرية في البر والمواطنة الجديدة في الكنيسة، مع ما يتبع ذلك من نعم ومواهب عديدة لا تقتصر على نعمة غفران الخطايا بل على اقتناء مواهب عديدة مرتكزة على أقوال مختلفة لمار بولس خاصة في روم ٦–٨ حول مفاعيل المعمودية والتبرير بالإيمان.

أما المقاطع الأربعة اللاحقة (٨–١١) فتشجّع الموعوظين في ليلة معموديتهم على الاستعداد للمعركة المستمرّة مع الشيطان في حلبة حياتهم، مع التأكيد بأنهم لن يكونوا وحدهم، بل أن المسيح، حكم هذه المعركة، سيكون إلى جانب المعمّدين الجدد وسيكون ضمانتهم. ويلجأ إلى صورة حلبات المصارعة التي كانت تصير في أيامه للتأكيد أيضًا على أن المعركة تصير أمام الناس والملائكة. ويؤكد على أنهم بانتصارهم سينالون الإكليل، بينما انتصار الشيطان، الحية الروحية، سيؤدي به إلى عقاب جهنم، على مثال الحية في سفر التكوين. ولذلك يشجعهم على التجرد من ثيابهم، وهو أحد العناصر الليتورجية المعروفة في رتبة المعمودية، ليلبسوا ثيابا جديدة، هي بالأحرى أسلحة المعركة الجديدة، أي أسلحة البر والإيمان.

وهنا يستطرد الواعظ في المقاطع الثمانية اللاحقة (١٢-١٩) بموضوعين يتعلقان بدم المسيح الذي يتناوله المعمَّدون الجدد، مؤكّدًا من جهة، بأنه السلاح الأقوى الذي ينالونه في صراعهم مع الشرير، ومشبّهًا هذا الدم برمزه السابق، أي الدم الذي وضع على أبواب العبرانيين في مصر، فحمى أبكارهم من الموت الذي أصاب أبكار المصريين، ومبيّنًا أنّ الشيطان الذي هرب أمام الدم الرمزي، سيهرب بالأحرى أمام الدم الحقيقي، أي دم المسيح. ويؤكد، من جهة ثانية، على قوة هذا الدم الذي سال من جنب المسيح فأعطى المعمودية والأسرار الباقية التي تولد منها الكنيسة، كما ولدت حواء من جنب آدم، مع العلم أنّ هذا الدم هو الغذاء الذي يغذّي به المسيح الذين ولدهم من جنبه.

أخيرًا، يرتكز القديس على ما سلف ليستنتج، في المقاطع المتبقية (٢٠-٢٧)، بأنّ ما يحدث في المعمودية هو عهد مقدس بين المسيح والمعمَّدين، يحلّ محلّ عهد الخروج وسيناء، لأنّ هذا الأخير قد تمزّق بسبب الخطايا، بينما الجديد حقّقه المسيح بأن سمّر صكّ الذنوب على الصليب. وهنا يلجأ إلى مقارنات عديدة بين ما حدث إبان الخروج وما يحدث في المعمودية، مستعملاً كلام القديس بولس الذي يقول إنّ هذا العهد ليس مكتوبًا بالمداد بل بالروح، ويقوم على رفض طغيان الشيطان والاعتراف بسيادة الله الوحيدة، وهنا تلميح آخر إلى أحد عناصر رتبة المعمودية، أعني رتبة طرد الشياطين الكبرى الموجودة إلى الآن في كل طقوس المعمودية، والتي تقوم على نكران الشيطان وعلى الاعتراف بالإيمان. ولا يخلو الأمر طبعًا من تشجيع للمعمَّدين الجدد على عدم التراخي، وتحريض على التقدم من مائدة المسيح التي تحتوي على كل الخيرات.

٢- تحليل لاهوتي

تتميز هاتان الكرازتان بنَفَس لاهوتي قوي، له ثلاثة محاور: بيبلية وأسرارية وكنسية، وهذه الثلاثة مرتبطة فنعرضها معًا.

تركّز العظة الأولى، كما قلنا، على مقابلة المعمودية بسرّ الزواج، مبيّنة أنه زواج روحي يصير بين المسيح والمعمَّدين. لهذه المقابلة أهمية فائقة لأنها تشرح الزواج المسيحي على خلفية بيبلية وأنتروبولوجية مرتكزة على ما جاء في سفر التكوين، حول اتحاد الرجل بزوجته اتحادًا سريًا كاملاً فيصيران جسدًا واحدًا، بل أن الرجل يضحي للمرأة "أبًا وأخًا وزوجًا"، والعكس صحيح. لهذا الاتحاد إذا مفاعيل عديدة، تبدأ بالتحوّل من ارتباط الزوج والزوجة مع العائلة الأصلية، إلى ما هو أكثر من ارتباط، أي إلى "اتحاد" نهائي ودائم في العائلة الجديدة. يفترض هذا الارتباط الجديد تخلّياً كاملاً عن الماضي وانفصالاً دائمًا عن العائلة الأصلية، ويترتب عليه واجب الزوجين في تبادل الهدايا، علامة على الحب الذي يجمعهما. انطلاقًا من هنا، يفهم يوحنا عرس المعمودية الروحي بين المسيح والمعمد، معتبرًا، بالارتكاز على نص الرسالة إلى أهل أفسس (٥: ٢٥-٢٧) أن المعمودية هي اتحاد كامل بالمسيح. ولذلك فهي تفترض تخلّياً كاملاً من المعمَّد عن حياته الماضية بما فيها من وثنية وخطايا – وهي رمز لعائلته الأصلية – ليصير واحدًا والمسيح، الذي لا يأبه لبشاعته وحمأة خطاياه، بل "يرضى بسفك دمه من أجل الزوجة التي ستتحد به"، إذ أنه "أحاط عروسه بالعناية كي يقدسها بدمه الخاص، ويقدمها لنفسه كنيسة مطهَّرة وممجَّدة بماء العماد المقدس. ولقد أراق دمه وعانى الصليب من أجل أن يمنحنا نعمة التقديس وينقينا بغسل الميلاد الثاني".

أما في العظة الثالثة، فيلجأ يوحنا إلى المقابلة بين حقائق سر المعمودية ومفاعيله من جهة، وبعض الحقائق الثابتة في التاريخ الخلاصي، من جهة ثانية.

أول مقابلة مع العهد القديم هي في إطار حثه الموعوظين الجدد على مصارعة الشرير، حيث يؤكّد بأنّ الانتصار على الشرير ينيل المعمَّد الإكليل، ولكنه يؤكّد أيضًا أن انتصار

الشرير على المعمَّد ليس انتصارًا، بل يستجلب عليه العقاب والاندحار إلى جهنم، وهنا يذكر ما حدث بعد خطيئة آدم وحواء، عندما نالت الحية المجربة عقابًا قاسيًا على أثر انتصارها على الإنسان الأول، بدلاً من التمتّع بهذا الانتصار. ومع أنه لم يذكر الرحمة الكبيرة التي أظهرها الله لآدم وحواء بعد السقطة، ولكنّه سبق وأكّد أنّ المسيح وإن كان الحكم في صراع الإنسان مع الشرير، إلا أنه "لا يتوسّط الفريقين في المعركة التي نجابه فيها الشرير، بل يكون لنا بكلّيته... أما أنا، فإذا حصل لي أن تعثّرت، فهو يمدّ لي يده ويجعلني أنتصب، منتشلاً إياي من سقطتي، لأنه قيل: دوسوا الحيات والعقارب وقوة العدو" (لو ١٠: ١٩). من الواضح إذًا أنّ العقيدة الثابتة في تعليم يوحنا البيبلي هي أنّ محبة الله تبقى دائمًا إلى جانب الإنسان، وبالأحرى إذا سقط، وذلك بهدف إقامته من السقطة. هذا هو جوهر الكرازة التي، وإن أظهرت مفاعيل الخطايا السيئة على الإنسان، إلا أنّها تؤكّد له دائمًا جوهر الإيمان المسيحي، ألا وهو أنّ المسيح جاء، لأنه وجد أن خطيئة آدم لم تبقَ مفردة، مع أنها هي التي ذيّلت صك الاستدانة، ولكنها قد أثقلت بالهفوات اللاحقة، "فجلبت علينا اللعنة والخطيئة والموت والدينونة بالناموس. بيد أنّ المسيح أبطل ذلك كلّه مسامحًا إيّانا، كما يقول القديس بولس: لقد محا المسيح الصكّ المكتوب علينا الذي كان ضدّنا بأحكامه، وأزاله مسمّرًا إيّاه على الصليب" (قول ٢: ١٤). الخبر السارّ إذًا هو في ديمومة المغفرة الإلهية بالمسيح. ولكن لكي يقبل المعمَّد هذه المغفرة المجانية، ويعيش في ضمانة حبّ المسيح له ودفاعه عنه، يحتاج إلى أن يخلع عنه ثيابه، أي الإنسان العتيق، ويلبس الأسلحة الجديدة، أي الإنسان الجديد، المتميز بالبر والإيمان، أي بالثقة التامة بمن حرّره ويدافع عنه. وهذا ما سيعبّر عنه المعمَّدون الجدد في رتبة نكران الشيطان من جهة، وإعلان الإيمان، من جهة أخرى.

المقابلة الثانية مع العهد القديم تأتي في إطار الدعوة إلى الصراع مع الشيطان، إذ يؤكد يوحنا للمعمَّدين الجدد قوة دم المسيح الذي سيتناولونه كسلاح في صراعهم مع الشرير. وهنا يجري مقابلة بين دم الحمل المذبوح الذي لطخ على أبواب العبرانيين ليحميهم من ضربة الملاك المبيد لأبكار مصر. ويؤكد بأن فاعلية ذلك الدم في حماية أبكار العبرانيين ليست من ذاته بل من كونه رمزًا لدم المسيح. فدم الحمل ليس سوى رمز، ومع ذلك أبعد الملاك المبيد عن الأبواب المرشوشة به، فكم بالأحرى دم المسيح الذي هو حقيقة، أن يبعد الشيطان عن فم المعمَّد وقلبه! لا تكمن أهمية هذه المقابلة بين دم الحمل ودم المسيح في وجه الشبه بين الرمز والحقيقة فقط، بل أيضًا في كون الدم الأول قد هيّأ للتحرّر من عبودية مصر في إطار الفصح اليهودي الذي هو عيد العهد القديم ومركز الإيمان اليهودي، كما أنّ دم المسيح هو العهد الجديد الذي هو أيضًا وبشكل كامل ختم التحرّر النهائي للمعمَّدين الجدد من الخطيئة والموت، أي فصح خلاصهم بالمسيح.

هناك مقابلة أخرى مهمّة جدًّا هي أيضًا بين ولادة الكنيسة من جنب المسيح وتكوين حواء من جنب آدم، وذلك في إطار التشديد على كون المعمودية وباقي الأسرار التي تكوّن الكنيسة وتغذّيها قد تدفقت من جنب المسيح المطعون بالحربة، مع تشديد الواعظ على أولوية سرّ المعمودية، ثم باقي الأسرار، بالارتكاز على قول الإنجيل: "فخرج من جنبه ماء ودم"، إذ أنه بحسب يوحنا، الماء يرمز إلى المعمودية، والدم إلى باقي الأسرار. ويكمل في مقابلته الرمزية بالتنبيه إلى أن ولادة الكنيسة حصل بموت المسيح، كما كونت حواء من جنب آدم إبان نشوته، مؤكّدًا بذلك أيضًا على أنّ الموت ليس سوى رقاد. في هذه المقابلة الأخيرة تشديد واضح على ارتباط حدث المعمودية ببعدين مهمّين: البعد الأول هو ارتباط الأساسي مع سرّ الافخارستيا وباقي الأسرار التي هي الغذاء الأساسي للمعمَّد، والعضد له في حياة إيمانه وأمانته للعهد مع المسيح. والبعد الثاني هو ارتباط المعمَّدين

بالكنيسة لأنها هي التي "ولدت من هذين السرَّين، بواسطة غسل الميلاد الثاني والتجديد في الروح القدس". فليست المعمودية انتماء فرديًا أو شخصيًّا للمسيح فحسب، بل هي أيضًا انتماء إلى الكنيسة المكوَّنة من جماعة المعمَّدين معا.

المقابلة الأخيرة مع العهد القديم، نجدها في سياق تشبيه المعمودية بالخروج من مصر ومسيرة الصحراء، حيث يقرأ يوحنا بطريقة رمزية أحداث الخروج ومسيرة الصحراء ليبيِّن للمعمَّدين أن معموديتهم قد أعطتهم اختبارًا مشابهًا لقدرة الله ومرافقته للعبرانيين، بل اختبارًا أعظم وأكمل لأنه، إذا كان "موسى أجود رجال الأرض"، فبالأحرى "أن نخلع هذه الصفة على "موسانا" (المسيح)، لأنّ الروح القدس المساوي له في الجوهر قد آزره..."، ومع أنّ المسيح نفسه قد رافقهم – وهذه استعارة من تفسير بولس الرسول للصخرة الروحية التي كانت ترافقهم، أي المسيح – ، فكم بالأحرى سيسير معنا الآن؛ وإذا كان اليهود لم يستطيعوا أن يحدّقوا بوجه موسى الممجَّد، وهو ليس سوى خادم للسيد، فأنت قد عاينت وجه المسيح في مجده"...

نكتفي بهذا القدر الموجز من التحليل لبعض العناصر اللاهوتية، وننتقل في ما يلي إلى تقديم المفتاح اللاهوتي الأساسي لهاتَين العظتَين، أعني البعد الكريغمي الذي يشكل ركيزة التعليم اللاهوتي والأسراري ومنطلقًا لفهم البعد الأخلاقي والسلوكي، الذي، وإن لم نعالجه هنا، إلا أن عظات الذهبي الفم الثمانية تذخر به.

٣- البعد الكريغمي

لا يمكننا فهم عظات الذهبي الفم إلا من خلال فهم البعد الكريغمي للمعمودية، كما يبرزه دائما في العظات الأربع الأولى، وبشكل خاص في العظتَين الأولى والثالثة اللتَين نحن بصددهما. نتناول إذًا هاتين العظتين من هذا المنظار، لأن لاهوت يوحنا كما غيره من الآباء القديسين، كما بولس والكتاب المقدس كله، يبني تعليمه اللاهوتي والأخلاقي على إعلان الكريغما الذي يساعد الموعوظ على تغيير في ذهنه، فيقوده ذلك حتمًا إلى الإيمان بالعقيدة والأسرار وإلى تغيير مسلكه الأخلاقي.

فما هو إعلان الكريغما في هاتين العظتين اللتَين أسمح لنفسي أن أسميهما كرازتين منذ الآن فصاعدا؟

باختصار، يتضمن الكريغما ثلاثة مراحل، تتّسم كلها بالأسلوب الإعلاني وقد تتداخل أو تأتي الواحدة قبل الأخرى. وهذه المراحل هي: (١) إعلان واقع الخطيئة والموت، – ليس بالمعنى الأخلاقي بل الكياني – الذي كان موجودًا فيه طالب العماد قبل الموعوظية؛ (٢) إعلان الحبّ الإلهي المجاني الذي انتشل الإنسان من واقع الخطيئة وأعطاه المغفرة والحياة الجديدة بالإيمان في المسيح؛ (٣) حثّ طالب العماد على التحول الذهني والكياني من الحياة الماضية إلى الحياة الجديدة. هذه الإعلانات الثلاثة هي التي تتحكّم بالمضمون العقائدي للكرازة؛ ورتبة المعمودية بكل تفاصيلها تُظهِر، من خلال الصلوات والأفعال الأسرارية، ما أعلن عنه في التعليم العقائدي؛ ثم يأتي أخيرًا التعليم الأخلاقي ليبيّن ما هي الثمار المسلكية التي تنتج عن هذا التحوّل الذهني والكياني من الإنسان القديم إلى الإنسان الجديد بالمسيح.

يذكّرنا هذا الأمر بقول المسيح الشهير: "ليس من شجرة رديئة تعطي ثمارًا طيبة، ولا من شجرة طيبة تعطي ثمارًا رديئة! وقوله أيضًا: لا يوضع خمر جديد في آنية عتيقة! وبهذا المعنى قال القديس بولس إن الشريعة الأخلاقية لا تبرّر الإنسان، أي أنها لا تجعله قادرًا على أفعال البر، لأنها تكتفي بإظهار ما هو صالح وما هو سيّء دون القدرة على تغيير ذهنه وقلبه؛ فالإيمان هو الذي يبرّر الإنسان، لأنه يغير قلبه وكيانه من الداخل فيجعله قادرًا على القيام بأعمال البر. والقديس الذهبيّ الفم يتبع عن كثب هذه الحقيقة في كرازته، من هنا قوله في الكرازة الأولى، المقطع ٢٠: "بما أن الإيمان هو أساس التقوى، فحري بنا أن نتوقف

عليه، بعض الشيء كي نتمكّن من رفع البناء دون خوف، بعد أن نكون قد أرسينا هذا الأساس الراسخ". من جهة أخرى، يبيّن القديس ماهية الإيمان، في معرض تشبيه المعمودية بسر الزواج، بالتوجّه مباشرة إلى طالب العماد قائلاً: "أرأيت كيف أنه بقوله: ليطهرها ويقدسها لنفسه لا كلف فيها ولا غضن، يطلعنا على حالتها المدنسة التي كانت تحياها سابقًا؟ ألا تُمعنوا، يا جنود المسيح الجدد، في هذا كله، غير متوقّفين على جسامة بؤسكم وغير آبهين لفداحة خطاياكم...؟ فها قد وقفتم على سخاء المعلّم وعاينتم فيض نعمته وعظمة عطيته التي منحكم إياها... ألا اقتربوا منه بطيبة خاطر متخلّين عن كل ما فعلتموه حتى الآن، ولتظهر موافقتكم الفكرية التحوّل الحاصل". هذا الإعلان مزدوج في البداية، فهو يتضمّن، من جهة (١) اعترافًا بفداحة الخطايا، ويؤكّد، من جهة أخرى (٢) سخاء المعلم وفيض نعمته، ويليه بعد ذلك إعلان ثالث (٣) أي الدعوة إلى إظهار التحوّل الحاصل من خلال حركتَين: الابتعاد عن الخطيئة والاقتراب من المسيح. وهاتان الحركتان تشكلان جوهر ما نسمّيه رتبة طرد الشيطان الكبرى في رتبة المعمودية، والتي تقوم على نكران الشيطان والاعتراف بالإيمان. كما أنّ رتبة النزول في جرن المعمودية والصعود منه تعبّر بدورها عن جوهر ما تمّ إعلانه: ينزل الإنسان في مياه المعمودية بعد أن يخلع عنه ثيابه القديمة، – وهي رمز لذهنية الإنسان القديم المستعبَد للخطيئة– ويدفن برغبة شديدة، وبقوة السر المقدس، إنسانه العتيق في مياه المعمودية، أي أنه يتنكّر لهذا الإنسان ويتخلّى عنه، ثم يصعد، بقوة السر أيضًا، إنسانًا جديدًا ذا ذهن جديد وقلب جديد، فيلبس الثياب البيضاء علامة على التحول الجوهري في طبيعته التي طُعِّمَت بالطبيعة الإلهية بالمسيح وبختم الروح القدس[٤].

نجد بنية الكرازة نفسها في المقطعين ٢٥–٢٦ من العظة الأولى عندما يتوجه القديس إلى طالب المعمودية، في نهاية تعليمه العقائدي عن الإيمان بالثالوث، إذ يقول: "فاعلم إذن أن ما من خطيئة، مهما كانت عظيمة، بوسعها أن تجرّد المعلّم سخاءه! إذا كان أحد فاسقًا أو زانيًا، مخنّثًا أو لوطيًا، عاهرًا أو سارقًا، جشعًا أو سكيرًا أو عابدَ أصنام، فقدرة العطية وجودة المعلّم هما من الشدة بحيث يمحوان كلّ شيء، جاعلتَين هذا الإنسان أكثر تألّقًا من شعاع الشمس، شرط أن يبيّن عن حسن نية. تأمّل إذًا عظمة عطية الجودة الإلهية، واستعدّ قبل الأوان... بامتناعك عن الشر ومزاولتك الأعمال الصالحة". هنا أيضًا، نجد الإعلانَين الأساسيَّين عن (١) واقع الخطايا، من جهة (فسق، زنى، سرقة، إلخ.)، وعن (٢) قدرة المعلم (المسيح) على محو الخطايا وتغيير الكيان الجوهري للمعمد، من جهة أخرى. مع هذا التأكيد بأنّ الأمر يفترض "حسن نية" لدى طالب العماد، أي الإيمان بهذه القدرة والرغبة في هذا التحوّل. أمّا الإعلان الثالث، أي الدعوة إلى التخلي عن الشرّ ومزاولة الأعمال الصالحة، فيأتي كنتيجة لهذا التحوّل.

يمكننا أن نسوق أمثلة عديدة أخرى، ولكننا نكتفي بنقل حرفي للمقطع ٥ من الكرازة الثالثة، حيث يعبّر الكارز عن جوهر هذا التحوّل في حياة الموعوظ، والذي سيختمه الروح القدس في المعمودية، والذي سيقود المسيحي إلى حياة البرّ ومصارعة الشرير: "تبارك الله الصانع المعجزات وحده" الذي يخلق كل شيء ويجدّده"[٥]. فالذين كانوا في الأمس

(٤) يشرح الذهبيّ الفم هذه التفاصيل ومعانيها في العظة الثانية التي لم نتطرق إليها هنا؛ راجع المقاطع ٢٢–٢٧ بشكل خاص.

(٥) لاحظ الكلام عن خلق جديد يمهد للكلام عما يحصل في المعمودية.

أسرى، أضحوا اليوم أناسًا أحرارًا ومواطنين في الكنيسة[٦].

خاتمة: قدمنا في هذه الدراسة عظتين من العظات الثماني في المعمودية، المنسوبة إلى القديس يوحنا الذهبيّ الفم، وحاولنا أن نشرح بعض العناصر اللاهوتية البيبلية والأسرارية والكنسية التي تتضمنها هاتان العظتان، كنموذج للكريغما الذي هو في أساس تنشئة الموعوظين العقائدية والأخلاقية وتحضيرهم لنوال سرّ المعمودية.

عمل الكنيسة الأول، وعلى رأسها الأسقف، لا يقوم فقط على تعليم العقيدة والحثّ على السلوك الأخلاقي، لأنّ ذلك يفترض الإيمان لدى من يسمع! العمل الأول هو التنشئة على الإيمان، الذي يشكل الكريغما – الخبر السار – جوهره. هذا ما كان يعيه تمامًا أساقفة الكنيسة وما يزالون. في الأجيال المسيحية الأولى، كان إعلان الكريغما في أساس تنشئة الذين كانوا يرغبون في أن ينتقلوا من ظلام الوثنية إلى نور المسيحية، وهذا ما بيّناه في دراستنا.

أليوم، يشكّ الكثير من المعمَّدين بالتعليم العقائدي للمسيحية، ولا يفقهون تعليم البيبليا كتاريخ خلاصي، ويضعون موضع الشكّ انتماءهم إلى الكنيسة كجسد، ولا يهتمّون بالأسرار المقدسة، وهم أبعد ما يكون عن قبول تعليم الكنيسة الأخلاقي والاجتماعي. اليوم، وقد عادت الوثنية لتغزو الأرض وتتغلغل في قلوب أغلبية مَن نالوا المعمودية، لا عجب أن الأساقفة، وعلى رأسهم السعيد الذكر البابا يوحنا بولس الثاني الكبير، وخليفته البابا الحالي بندكتوس السادس عشر، يطلقون النداء من أجل بشارة جديدة للمعمَّدين أنفسهم. المعمودية لا تعطي الإيمان بل هي ختم له. والذي لم يصل إليه الخبر السار، ولم يختبر الإيمان، فلا تنفعه المعمودية بشيء! وكما قال السعيد الذكر، البابا بولس السادس: المهم هو التنشئة على الإيمان! إن حصل ذلك قبل المعمودية أو بعدها، المهم أن يحصل!

أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني والمجامع المحلية، وآخرها أعمال المجمع البطريركيّ المارونيّ، تذخر كلها بنصوص عقائدية وكنسية وأخلاقية ورعوية رائعة، ولكنها تشقّ بصعوبة فائقة طريقها إلى التحقق في حياة المعمَّدين والرعية والوطن... فهل نكتفي بالاستمرار في تأليف اللجان؟ أم نقتفي آثار يوحنا الذهبيّ الفم، ونعيد تنشئة المعمَّدين في الرعايا ليستعيدوا إيمان معموديتهم الذي فقدوه، ومن ثَمَّ يصبحون مهتمّين بما نقدّم لهم من تعاليم، وراغبين في عيش الأخلاق الحميدة التي تدعوهم إليها مجامعنا المقدسة؟ وهل نستمرّ في رمي البذور الطيبة على الأرض الحجرة وبين الشوك، أم نهيّئ الأرض الطيبة لتستقبل البذور فتثمر ثلاثين وستين ومائة؟

(٦) تعبير آخر عن التحوّل الكياني، من حالة الأسر (للخطيئة) إلى حالة الحرية (في الإيمان)، والمواطَنة الحرة في الكنيسة. هذا التشبيه مهمّ جدًا، لأنّ الذي يكتشف بأنّ الخطيئة تجعله عبدًا، يرغب بذات الفعل، وليس لأنّ أحدًا يفرض عليه ذلك، أن يتحرّر من العبودية. هذا ما نعنيه بالتغيير الذهني الذي يقود إليه إعلان الكريغما. لم يعد الشخص بحاجة إلى من يقول له إفعل كذا، أو لا تفعل! هو بنفسه يرغب في التحول من حالة إلى حالة. وبما أن العبد لا يمكنه أن يحرّر ذاته، كما أنّ الذي يعيش في الخطيئة لا يمكنه التخلّي عنها بقوته، حتى ولو رغب في ذلك، فلا تنفعه العظات الأخلاقية مهما كانت مقنعة! إنه يحتاج إلى مَن يحرّره، وهذا هو جوهر الكريغما، أي إعلان قدرة الله، في المسيح القائم، وفي الروح المحيي، على تحريره مجانًا وبحبّ غير مشروط. إنه الخبر السار الذي قامت عليه المسيحية، والذي من دونه، تتحوّل إلى مجرّد عقيدة جامدة، أو مجموعة أخلاقيات لا تخلّص أحدًا!

يوحنّا الذهبيّ الفم

بقلم
الشيخ ناصيف اليازجي

كتب المثلث الرحمة الشيخ ناصيف اليازجي العلامة الشهير عام ١٨٧٤ يقول[١]:

المجد لله المفيض مياه الحياة في فؤاد من كان من بحرها مستمدًا، المُنْزِل علوم النجاة على قلب من كان لها مستعدًا.
المودع صدور الكهنة أسراره الإلهية التي هدى بها من استهدى، الناطق على أفواه الأئمّة بما أفاد وأنار وأسدى وأجدى.
سبحانه مِن إله لم تزل سوابغ جوده شاملة لعباده، ومعبود بهرت نوابغ هَدْيه، فاسترشدت بها أعين عُبّاده.
ونستشفعُ إليه بتلاميذه المرسلين بالحق، وخلفائهم المخلوقين لنفع الخَلْق، وأتباعِهم المنيرينَ العقولَ إنارة الأفقِ بوميضِ البرق.
إن كلّ واحد من أفاضل البطاركة الأبرار، والعلماء الأطهار، قد وضع في البيعة ما رفع به عقول دراريها إلى واهبها، وحقّق به الديانة المسيحية، وأظهر محاسِنَ مناقبها.
فمنهم من صنَّفَ في التوحيد والتثليث والاتحاد، ومنهم من رَدَّ على من قال بالقدَمِ وأنكر المبدأ والمعاد؛
ومنهم من شرح النصوص وفسَّرها، ومنهم من وعظ البصائر ونوَّرها.
ولمّا طالعتُ جمهرة كتبهم، ولخّصتُ مقاصدها وأغراضها، لم أجد في البيعة أعمَّ نفعًا من مصنّفات الأب البطريرك يوحنّا فم الذهب، الذي هو لسانُ المسيح الأمجد، لا فمُ العسجد.
فإنَّ الذَهب عَرَضٌ تحدثُ منه عوارضُ البؤس، وتعليمه جوهرٌ يجوهر النفوس،
وذاك محبته علّة الموت ومعلولها، وهذا تلاوته صحّةُ الحياة موضوعها ومحمولها؛
فأدام الله لبنيه النفع بلسانه وبنانه وأقلامه، وحسب له برَّ تعبه واهتمامه؛
فإنّه لم يترك نصًّا إلا شرحهُ، ولا مشكلاً إلاّ أوضحه، ولا معنى مغلقًا إلاّ فتحهُ، ولا لفظًا مستهجنًا إلاّ هذَّبهُ ونقّحهُ.
ولم أجد في مصنّفات "يوحنّا فم الذهب" أنفع للخواص والعوام من مواعظه البديعة، وهي تروى كتب شروح البيعة...
فيا لمعجزات كتبه كم أحيت من نفوس كان الإثم قد أماتها، ويا لآيات خطبهِ كم فكّت قلوبًا من أسر ذنوبها وضمنت نجاتها!
ويا لعجب تعاليمه كم جذبت إليها عقولاً بلطائف كلماته، ويا لغرائب تقويمه كم ردَّت اعوجاج طبائع إلى استقامة هيئاتها!
فالغلام أنشأته تعاليمه مثالاً صالحًا، والفتى أفاحت منه رياض رياضتها لهُ عُرفًا نافحًا،
والكهل حملته على كاهل فضائلها غاديًا ورائحًا،
والشيخ شغلتهُ بمتجر الآخرة، فحيثما انقلب كان رابحًا،
والنساء جميعًا على اختلاف أعمارهنَّ وأحوالهنَّ اقتدين بها، فأصبح عملهنَّ ناجحًا،
وجميع الرؤساء والمرؤوسين منهم من صيّرتهُ راهبًا، ومنهم مَن جعلته سائحًا؛
والذين لم يسلكوا هذه المسالك أبقتهم في العالم عونًا لأولئك، وركنًا للدين والدنيا والمملوك ورحمة للعالم العامِل، ونقمة للجاهل التارك.
فطوبى له من إمام لم يدَعْ عيوبًا تلحق برعيّته إلاّ بادر إلى إزالتها، وهنيئًا له من راعٍ لم يترك نبذة من الفضيلة إلاّ ألزمتهم تعاليمهُ باكتسابها، ولا غادر صغيرة من الرذيلة إلا نهتهم مواعظه عن ارتكابها.
لقد أوسع في العبادة وأسهب، وأضرم القلوب المنتبهة بنار الزجر.
حقًّا لقد كان "يوحنّا فم الذهب" لسان المسيح الفصيح.

---

(١) مستلّة من كتاب **مقالات يوحنّا فم الذهب وسيرته**، دار العرب للبستاني، القاهرة ١٩٦٥، ص ٧–٨.

ملاحظة: تمّ تقطيع النص استنادًا إلى السجع الذي فيه.

كرازتان للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم في المعموديّة

الأب دانيال كستورا

إنّ النصّ الذي بين أيدينا هو كرازتان كانتا قد أُلقِيَتا في أنطاكية زمن صوم عام ٣٨٨[١]، وَجَّهَهما الذهبيّ الفم إلى جماعة مؤلّفة بالكامل من موعوظين، لإعدادهم للمعمودية التي كانت تُمنح للذين بلغوا أو تخطوا سن المراهقة، وكان عددهم يصل إلى حد الألف. الكرازة الأولى ألقيت ثلاثين يوماً قبل المعمودية، بينما الثانية يمكن تحديدها يوم الثلاثاء في الأسبوع المقدس.

تعود شواهد هذا النص إلى الترجمة الفرنسية، الموضوعة أصلاً في اليونانية، وهو ينتمي إلى سلسلة تدعى كرازات بابادوبولس (Papadopulos)، وهي مؤلفة من أربع كرازات.

عملنا هذا، الذي يختص بالكرازتين الأوليين، اعتمدنا فيه على كتاب پْيادَاچِل[٢].

١) المضمون

يخاطب الكاتب الموعوظين الذين يستعدّون لنيل العماد، وهو يضعهم في حالة انتظار مشوّقة لهذا الحدث المصيريّ لحياتهم، لأنه من خلاله يُمْنَحُون مغفرة جميع خطاياهم، وحياة جديدة. يقدّم هذا النص الكثير من الأوصاف والتسميات لهذا السر الذي يبدو غنيًا جدًا، ولذلك يتطلب تعمقًا فكريًا وردًا إيمانيًا والتزامًا حياتيًا. رغم ان العماد هو عمل النعمة الإلهية، فعلى من ينالها أن يتعامل معها من خلال سلوك أخلاقي جديد. يقدم الكاتب معاني روحية للعماد ووصفًا للاحتفالات المعمودية.

أ – العرض الأدبي

إن النص الحاضر مؤلّف من كرازتين مستقلتين، مرتبطتين في الوقت نفسه بالمعنى، ويوجد فيهما تسلسل وثيق.

الكرازة الأولى مقسّمة إلى خمسة أجزاء متصلة بعضها ببعض.

في الجزء الأول (الفصلان ١–٢) توجد دعوة إلى انتظار العماد.

في الجزء الثاني (الفصول ٣–٥) يوجد موضوع متعلّق بوقت منح العماد. يقول يوحنا إنه حتى يستطيع العماد أن يعطي ثماره الحقيقية، يجب إعطاؤه خلال الحياة وليس عند الموت. كثيرون كانوا ينتظرون لينالوا العماد قبل الموت بقليل، نظرًا إلى مفهومهم لهذا السر. يتطلّب العماد تغييرًا في السلوك والتزامًا حياتيًّا، ولذلك كان البعض يعتبره ثقلاً ويؤخّرونه حتى آخر حياتهم، وبهذه الطريقة كان يُطبّق وكأنه عمل سحري.

في الجزء الثالث (الفصلان ٦–٧) يعرض الحالات الخلقية الضرورية

(١) هناك خلاف بالنسبة إلى تاريخهما، فنحن نتبنى فكرة أوغوسط پْيادَاچِل الذي يحدده في عام ٣٣٨؛ راجع A. Piedaguel, *Introduction aux "Trois Catéchèses Baptismales de Jean Chrysostome"*, Sources Chretiennes n. 366, Cerf, Paris, 1990.

(٢) المرجع السابق.

لنيل هذا السر. يعلم يوحنا أن العماد نعمة من الله وأنه عطية غفران جميع الخطايا دون ارتباط باستحقاقات المعمَّد. ولكن، إلى جانب مجانية حب الله ورحمته، هناك قبول لهذه النعم أو رفضها من قبل الإنسان. وكل من يقبله ينال القوة ليغيّر سلوكه الحياتي، بل كان يمنح العماد كختم للذين سمعوا وآمنوا بالكلمة المعلَنة لهم، وبدأت تظهر فيهم ثمارها. لذلك نرى اهتمامًا كبيرًا من قبل يوحنا لسلوك مستمعيه.

الجزء الرابع (الفصول ٨-١٥) يقدّم بعض التسميات للعماد ويفسّرها. إن الكرازة للعماد هي نقل وديعة الإيمان إلى الأعضاء الجدد الذين يندمجون في الكنيسة. إن الكرازة إعلان كلمة الله بالفعل وجزء مهم للتقليد وعنصر أساسيّ له. موقع الكرازة هو بعد سماع الكرازة (الخبر السار). الأشخاص الذين سمعوا هذا الإعلان وقرّروا بأن يرتدّوا إلى إيمان المسيح، لا يعرفون بعد هذا الإيمان. لذلك عليهم اكتشافه المنظّم من الكرازة. تختلف هذه الأخيرة عن العظة التي هي التعليم العاديّ لجماعة المؤمنين الذين يعرفون مضمون إيمانهم، وتُعتبر تعمقًا[٢].

الجزء الخامس (الفصول ١٦-٢٣) يعالج بتوسّع آداب السلوك الأخلاقية المختصة بالمعمّد. على الإنسان أن يكون دومًا وفي كل حين معاهدًا وساهرًا على سلوكه، وعلى الأخصّ باحترام كرامة جسده العظيمة، التي تنبع من دعوة الإنسان إلى أن يصبح من خلال العماد مسكنًا للروح القدس، وابنًا لله الآب بلبسه جسد المسيح السريّ.

ينتقل القديس في عرض أفكاره ليصل إلى اللسان الذي ينعته بأنه سيف وسبب الموت، وبأنه من أخطر أعداء الجسد، وقد "أمات الناس أكثر ممّا أماتت الحروب والمعارك" (١ ك ١٧/ ٩-١٠).

الكرازة الثانية مقسمة إلى أربعة أقسام:

في الجزء الأول (الفصلان ١-٢) يوجد رابط مع الكرازة السابقة وتصميم للكرازة الحالية.

الجزء الثاني يتناول جوهر سر العماد اللاهوتي والروحاني، وهو مؤلّف من ثلاث فقرات: حول زمن العماد، وهو زمن الفصح (الفصل ٣)؛ حول موت وقيامة المسيح اللذين يشبهان موتنا وقيامتنا (الفصلان ٤-٥)؛ حول طرد الشيطان: رتبته ومعناه (الفصلان ٦-٧).

كان العماد يُمنح في عيد الفصح، وخاصة في الليلة الفصحية، لأن حدث الفصح هو الأنسب معنويًا لهذا السر"، لأن ملكنا قد انتصر في هذا الوقت على الحرب ضدّ البرابرة (الشياطين)... إنّه في هذا الوقت حطّم الخطيئة، وقضى على الموت وأخضع الشيطان وقبض على السجناء. إنّنا نحتفل باليوم الحاضر ذكرًا لهذا الانتصار" (٢ ك ٣ / ١٥-٢٢).

في الواقع، يتمّ هذا التطهير عبر موت الإنسان القديم وولادة إنسان جديد. يمكننا تحقيق هذا التحوّل من خلال اتّحادنا بموت المسيح وقيامته، فيقول: "إنّ الرب قد صُلب على خشبة، وأنت كُن مصلوبًا بالعماد، لأنّ العماد أيضًا صليب وموت، ولكن موت الخطيئة وصليب الإنسان العتيق" (٢ ك ٣ / ٤١-٤٣). "ففي الوقت ذاته الذي فيه نموت، فيه نقوم" (٢ ك ٥ / ١٦-١٧).

طرد الشيطان رتبة تحضيرية للاتحاد مع المسيح، وهو عملية أمر استبعاد الشيطان من شخص الموعوظ، ليأتي المسيح ويسكن فيه. كان الموعوظون يتقدّمون إلى طارد الشيطان بمشاعر التوبة، حفاة القدمين، لابسين قميصًا بسيطًا فقط، وكانوا يقفون رافعين أيديهم نحو السماء، مثل السجناء يلتمسون حريتهم، ولكن ما كانوا يطلبونه هو غفران الخطايا، وكرامة أبناء الله بالتبنّي

(٢) راجع J. Daniélou, *La catéchèse aux premiers siècles*, Fayard-Marme, Paris, 1968, p. 15-20

(راجع ٢ ك ٦). حينئذ كان طاردو الشيطان يطلقون بعض العبارات المألوفة، وهكذا كان يتم التطهير أكثر من مرّة خلال فترة الصوم.

الجزء الثالث يدور حول القَسَم: تفسيره (الفصل ٨) وقصة هيرودس وقَسَمُه، مع التعليق على الرقص (الفصل ٩).

نجد موضوع "القَسَم" أحد أهمّ الموضوعات التي يركّز عليها يوحنا الذهبيّ الفم في كرازته.

إحدى العادات التي يرفضها يوحنا ويحتجّ عليها باستمرار في وعظه هي الرقص؛ فعندما يرقص المرء يعطي أهمية قصوى لجسده، فينفعل هذا بكامل أحاسيسه وأهوائه، ويصبح ضبطه من الأمور الصعبة، حينها يكون فريسة سهلة أمام المجرِّب وأمام جميع أنواع الرذائل، وبالأخص الجنسية منها، كما حدث مع هيرودس الذي قطع رأس يوحنا المعمدان بعدما شاهد رقص ابنة هيرودية.

الجزء الأخير هو الخاتمة (الفصل ١٠).

ب – خلفيات النص

يظهر بوضوح من النصّ أنّ عند الكاتب خلفية كتابية نظرًا إلى كثرة الشواهد الكتابية المذكورة بانتظام، وإلى الدقّة التي من خلالها يختار الشاهد المناسب لحديثه. كان الكتاب المقدس مصدر إلهامه الرئيسي، وقاعدته الوحيدة للسلوك، ووسيلته الوحيدة ليهدي النفوس[٣].

تعلم الذهبيّ الفم التفسير الكتابي من ديودورس الطرسوسي المعلّم بدون منازع في ذاك العصر. تتبيّن من أسلوب تفسيره عناصر خاصة بمدرسة انطاكية. تأثر يوحنا في طريقة تفسيره بالرهبان السريان أكثر من اليونانيين[٤]. تأثير أوريجانس وأثناثيوس واضح فيه، ومن الملاحظ في ذلك الوقت التبادل الفكريّ بين الرهبان السريان والمصريّين.

يرتكز على خلفية خطابيّة (بلاغيّة) واضحة، درس في مدرسة أنطاكيا مع زميله تيودوروس المبسوسطي، على يد معلّم البلاغة ليبانوس.

هناك تأثير من اختباره الرهباني السابق على النص. المثل الأعلى للحياة الرهبانية يبقى بالنسبة إليه المثل الأعلى للحياة المسيحية.

٢) الأسلوب

يتناول الكاتب الموضوع بشكل تفسير لاهوتيّ للأسرار، مبينًّا جميع أبعاده بشكل خلاصة إيمانية وفكرية. يعتمد باستمرار على مستندات كتابية؛ فقد استشهد في هاتين الكرازتين خمسين مرة بالكتاب المقدس بطريقة مباشرة، وخمسة وخمسين مرة أشار إليه ضمنيًا.

أ – المنهجية الأدبية

هدف الكاتب هو تعليم أناس يُعتبرون غير عالمين بالموضوع، فلذلك أسلوبه بسيط، والنص هو كرازة تعليمية.

الكرازة هي قبل كلّ شيء عرض كامل، وفي الوقت ذاته ابتدائي، للسرّ المسيحيّ. لا تتعمق الكرازة في تفاصيل التفسير، بل تهدف إلى الضروريّ، وتُعطي الجوهر ذاته للإيمان.

الخاصة الثانية للكرازة ينالها الموعوظ في الوقت الذي يستعدّ فيه للعماد.

الميزة الثالثة والأساسية هي أن الكرازة تنشئة شاملة للحياة المسيحية، مبنية على معطيات الإيمان. نجد أيضًا في الكرازة وجهًا طقسيًا، متعلقًا بالرّتب الخاصة بالدخول وبطرد الشيطان وبالبركات. وبهذه الطريقة

(٣) راجع A.M. Malingrey, “Sentences des sages chez Chrysostome”, dans *Jean Chrysostome et Augustin*, Beauchesne, Paris, 1975, p. 199.

(٤) راجع R. Leconte, *St. Jean Chrysostome, exégète syrien*, Paris, 1942, chap. 3.

تمثّل الكرازة عملاً رعويًا كاملاً: ابتداءً من الدخول في الحياة المسيحية بفضل معرفة سر الإيمان، والدخول إلى آداب السلوك المسيحي والاندماج مع الجماعة المسيحية.

الميزة الأخيرة للكرازة هي أنها تكوّن الجزء الأثبت في التقليد المسيحي، نظرًا إلى تركيزها على جوهر الإيمان المسيحي. الإيمان الذي يقدّم في الكرازة هو النقل الشفهيّ للوديعة الموحى بها.

تتمثّل بنية الكرازة، من جهة بالتطور في الزمن من خلال عدة مراحل تقود إلى العماد، ومن جهة أخرى في وجود عدة طرق للتنشئة المسيحية. إلى جانب التنظيم على مراحل، توجد ثلاثة أبعاد كبرى للكرازة: البعد العقائديّ، البعد الخلقيّ والبعد السرّيّ. في الكرازتين الحاضرتين يندمج البعد الخلقيّ مع البعد العقائديّ ويُمثّل امتداده(٥).

يعطي يوحنا موقعًا مركزيًّا لسر المسيح الفصحيّ، ويشدّد كثيرًا على الطابع التكفيريّ لموت المسيح وعلى الفداء من الخطيئة.

كمبدأ عام يقدّم الكاتب جميع أفكاره من خلال صور الحياة اليومية، وأمثال واستعارات. ففي الكرازة الثانية (٣، ١٤-١٨)، مثلاً، يقول: "إن ملكنا انتصر على الحرب ضد البرابرة؛ في الواقع الشياطين كلهم برابرة، بل أكثر وحشية من البرابرة". صور أخرى يستعملها هي المريض، الأمبراطور، الزواج...، وهو يربطها بنص من الكتاب المقدّس. بهذه الطريقة هو يحاول أن يقنع المستمعين إليه عبر شاهدين: الخبرة البشرية المعترف بها من قبل جميع الناس، وكلمة اللّه، التي يعترف بمصداقيتها جميع الذين يؤمنون بالمسيح.

يستعمل يوحنا الكتاب المقدس بطرق مختلفة كي يشير إلى مؤلّف الكتب. في بعض الأحيان يُدخل آية بدون أي مرجع لها. وعندما يتكلم في الكرازة الثانية (٤ / ٣٣-٣٥) عن عمل المسيح الفادي، يفسّر إنجيل متّى، ثم يلحق الاية ٢:٢٢ من رسالة القديس بطرس الأولى وبدون أي مرجع يكمل شرحه.

يقدّم أحيانًا آيات ويضعها على فم الرب من خلال عبارات ثابتة مثل: "يقول الرب" أو "قال الرب".

يقدم أيضًا آيات وينسبها إلى مؤلف ونبيّ بدون أي ذكر لاسمه. مثلاً في الكرازة الأولى (١٧/٩-١٠) يقول: "كان المؤلّف يفسّر ذلك بقوله"؛ في بعض الأحيان يستعمل التعبير: "تقول الكتب المقدسة" (الكرازة الثانية، ٣/٤٠-٤١).

كثيرًا ما يستشهد بمقطع من الكتاب المقدس، ويُدخله شاهدًا صريحًا بأنه يرجع إلى "الرسل" أو إلى بولس، أو إلى داود أو أشعيا، ألخ، كما في الكرازة الأولى (١٠/١٤-١٧).

فَلْنرَ الآن كيف يستعمل يوحنا هذه الشواهد. كثيرًا ما نجد شواهد بشكل متسلسل مرتبطة ببعض من خلال حروف أو عبارات مثل "وأيضًا"، أو "ومن جديد"، أو "وفي مكان آخر"، أو بدون أي صيغة ربط. تدور هذه الشواهد في بعض الأحيان حول كلمة ما، مثلاً في الكرازة الأولى (١٧/٩-١٣)، عندما يتكلم عن الشيطان. تدور الشواهد، في أماكن أخرى، على موضوع واحد، عندما يتناول مثلاً التحرر من خلال طرد الشياطين في الكرازة الثانية (٦/٢٧-٢٩). إنه يقدّم أيضًا شبه استشهادات، يجمع فيها أفكارًا وكلمات من كتب مختلفة، كما في الكرازة الثانية (٣/٤٠-٤١). إلى جانب ذلك، يمكننا الافتراض أنه كانت لديه نصوصٌ أو مخطوطات كتابية تختلف قليلاً عن نصوص. أحيانًا لا يستشهد بطريقة حرفية، ولكنه يُدخل آيات من الكتاب المقدس من خلال أسلوبه وكلماته الخاصة؛ ففي الكرازة الثانية (٦/١٣-١٥)، مثلاً، يقول: "كما مشى عبدي أشعيا عاريًا وحافيًا، هكذا سيمشي

(٥) J. Daniélou, *op. cit.*, p. 15-20.

أبناء اسرائيل إلى الأسر عارين وحُفاة". لا يستعمل يوحنا آيات فقط بل أيضًا قصة كاملة من الإنجيل ليسند فكره؛ في الكرازة الثانية، الفصل ٩، يروي بطريقة غير حرفيّة قصة هيرودس ويحلّلها، مستندًا على النصوص التالية: مر ٦: ٢١-٢٩ متّى ١٤: ٦-١٦[٦].

يقدم كل موضوع على حدة، مبتدئًا بإعلان فرضية (thèse)، ثم يقدم عكسها (antithèse) (مستخدمًا في كثير من الأحيان عبارة "في الواقع")، ويختم بخلاصة (synthèse)، كما في الكرازة الأولى (١٩/٨-٢١).

يفسّر الكتاب المقدّس تفسيرًا مثل كل المدرسة الأنطاكية.

ينطلق يوحنا من المعنى الحرفيّ للنص، ثم يؤوّنه على الواقع الحاليّ لكي يمرّر رسالته الروحية، أو الرعوية، أو الخلقية. لا يبتعد عن المعنى الحرفيّ والتاريخيّ لنصّ الكتاب المقدس؛ فعندما يروي، مثلاً، قصة هيرودوس، ومن ضمنها رقص ابنة هيروديا، فهو يستغل الفرصة ويقول: "إسمعوا، أيها الرجال والنساء، أنتم جميعًا الذين تكرمون موائدكم بمثل هذا الرقص وبأغاني تناسبهم، ليست هذه زلاّت صغيرة، حتى ولو ظهرت بريئة. إن هذا المظهر البريء هو الذي يجعل منها كارثة كبيرة، لأنه لا يؤخذ منها الحذر كثيرًا" (٢ ك ٩/ ٢١-٢٦).

ب- الأسلوب اللغوي والأدبي

الأسلوب الأدبيّ المستعمل هو النثر.

يستخدم المؤلف لغة نقية، إبداعية وواقعية، كما أن أسلوبه مباشر، وصريح وحيوي سهل. إنه غني بالصور، التي يستعملها الكاتب بأوصاف دقيقة. في الواقع كان يلقي الكارز كرازته شفهيًا، ونظرًا إلى هدفه التعليميّ يجوز الاستنتاج بأنّه كان يعتمد كثيرًا على الاتصال المباشر مع الموعوظين؛ فقد يتكلم بصفة المتكلم المفرد، وبشكل مباشر إلى المستمعين.

٣) الأبعاد

أ - البعد الراعوي

أوّل ميزة رعوية ليوحنا الذهبيّ الفم هي أسلوبه التعليميّ التربويّ. إنّ تعليمه ليس مقيّدًا بإيصال عقائد أو سلسلة من الحقائق، بل عنده قبل كلّ شيء همّ لإعطاء الشعب ما هو بحاجة إليه. ففي الكرازة الثانية كان قد صمّم بأن يشرح جميع الرتب، ولكنّه خلال حديثه غيّر اتّجاهه (٢ ك ١/٢٧-٣٠). رأى ضرورة تركيز على عادات السلوك، خاصة القَسَم، فغيّر خطّته. يجب الأخذ بعين الاعتبار الإطار الذي نتكلم فيه، ووضع المستمعين الذين نتوجه إليهم، وما الأخطار التي يتعرضون لها.

يتميّز أسلوبه التعليمي أيضًا بإعطاء كلمة ما، وانتظار أن تعطي ثمارها، كما في الكرازة الأولى. بعدما نبّه إلى خطورة القَسَم (١ ك ٢٣/٢-٦)، إبتدأ حديثه، في الكرازة الثانية، بالسؤال عن تحقيق هذه الكلمة: "هل انتزعتم من فمكم عادةَ القَسَم المحتقرة؟ لأني لم أنْسَ ما قلته لكم، ولا ما وعدتموني به حول هذا الموضوع" (٢ ك ١/١-٥).

يضع المؤلّف نفسه في مستوى المستمعين ذاته بصفته مسيحيًّا مثلهم، وهو يطلب منهم الصلاة لأجله. وهذا بعد مرحلة معيّنة فقط: "لأن من الآن صار مسموحًا لكم بأن تصلّوا أيضًا من أجل معلّميكم" (٢ ك ٣٣-٣٤).

ب- البعد الروحي

يشدّد يوحنا كثيرًا على أنّ العماد يطهّر من جميع أنواع الخطايا: "حَنَثٌ أو قَسَمٌ، دعارة أو زنى، أو حتى جميع الرذائل" (٢ ك ١٠ /٢٧-٢٩). لذلك لا يمكن إطار العماد إلاّ أن يكون جوّ سعادة وعيد في الكنيسة.

يُعتبَر الله العريس، والنفس القابلة للعماد هي العروس، ومن خلال العماد يتمّ اتحادهما الصوفي (١ ك ٣٠/٢-٣٤).

يمنح العماد المسيحي ملكية روحية وسماوية بعمل الروح القدس

(٦) A.M. Malingrey, art. cit., p. 201-202.

(١ ك ١/١٣-١٦)، ويصير هو بذاته قصر الملك (٢ ك ١٠/٧-١٥).

إن قمة هذا الاتحاد الصوفي مع الله هي الإفخارستيا: إنها سر قداسة (١ ك ٢٤/٢-٢٦).

ضد جميع هذه العظائم التي حضّرها الرب ويريد أن يعطيها للإنسان، يقوم عمل الشيطان الذي يدفع إلى قبول الخطأ مع كل نتائجه. في الواقع، جميع الخطايا متسلسلة مع بعضها: كل خطيئة تجرّ خطيئة أخرى. للابتعاد عن الخطايا، وخاصة الكبرى منها، من الضروري أن نتجنّب فرص الخطايا. ففي الكرازة الثانية، مثلاً، عندما يتناول قَسَم هيرودس، يتكلّم عن الشيطان.

ج– البعد الخلقي

يساعد اللّهُ النفسَ في هذا الصراع من خلال إعطائها الحشمة، وهي الخفر في النظر، الزهد، أي الاعتدال في السلوك الأخلاقي، وقد اعتبر الآباء أنه عطية العفة بذاتهان وضبط النفس، أي الاحترام والتبجيل (رج ٢ ك ٣٩/٩-٤٠). في موضوع آخر يحدثنا الذهبيّ الفم عن الطهارة، فيقول بأن هذه الأخيرة ليست نتيجة لأمور خارجية فقط، بل نابعة من داخل الإنسان. هو يتنجس عندما يعمل أعمالاً ميتة (رج ١ ك ١٠/٥-٧).

د – البعد الليتورجي

إنّ تعليم يوحنا الذهبي الفم وكرازاته مرجع أساسيّ في الكنيسة، وخاصة بالنسبة إلى مراحل الليتورجية العمادية. يقدّم لنا يوحنا مسيرة التنشئة المسيحية، مقسّمًا إياها إلى إحدى عشرة مرحلة: تسجيل الاسم، والتعليم اليوميّ، وطرد الشياطين، ونكران الشيطان، والانضمام إلى المسيح، والمسحة الأولى قبل العماد، والمسحة الثانية قبل العماد، وخلع الثياب، والمعمودية بالتغطيس، وقبلة السلام، وأخيرًا التناول. في هاتين الكرازتين نجد إشارة مباشرة إلى الشياطين (١ ك ٧؛ ٢ ك ٦-٧)، والعماد (١ ك ٨-١٥؛ ٢ ك ٤-٥)، وتناول الإفخارستيا (١ ك ١-٢؛ ٢ ك ١). عندما كان الموعوظ يطلب تسجيل اسمه لنيل العماد في الليلة الفصحية، كان يدخل في جماعة الذين سينوّرون (Illuminandi).

كان تسجيل الأسماء يتمّ في بدء الصوم، وكان يستمر ثلاثين يومًا قبل الفصح.

بالنسبة إلى فعل العماد بحدّ ذاته، كان الموعوظون يخلعون ثيابهم قبل دخولهم في الحوض المقدّس، وكان الكاهن يغطّس جسد المرشّح في الماء، واضعًا يده على رأسه وهو يقول: "يُعَمَّد فلان باسم الآب والابن والروح القدس". هذه هي طريقة العماد في أنطاكيا، علمًا أن المياه يجب أن تكون جارية (١ ك ٣٢/٢).

بعد خروج المعمَّد الجديد من الماء، كان يلبس ثوبًا أبيضًا يسمّيه يوحنا الرداء الملكي (١ ك ٢٨/٢).

يتكلّم الذهبي الفم أيضًا عن تاج لامع (١ ك ٣٠/٢)، وهو يرمز إلى الملوكيّة الروحيّة للمعمَّد، أو إن إكليلاً من قطن على رأس المسيحيّ الجديد، علامة لحالته الحرّة الجديدة.

كان المعمَّدون الجدد يتوجّهون بعد التغطيس إلى المذبح ليتناولوا الأفخارستيا المقدّسة، التي كانت تُعطى تحت الشكلَين أسوةً بجميع الكنائس في القرون الأولى.

الخاتمـــة

تقدّم هاتان الكرازتان لنا فكرة عن الأهمية الكبرى التي كانت تُمنح لتعليم الموعوظين للعماد. ولقد فقدنا فترة التحضير لهذا السرّ، نظرًا لمنح العماد للأطفال. إذا لم يقم بهذه التنشئة والدَا الطفل أو المسؤولون عنه، سيظلّ هذا السرّ ناقصًا لأنه، يتطلّب موقفًا إيمانيًا مسؤولاً من المسيحي.

لا يمكن هذه التنشئة أن تتمّ إلاّ عن طريق الكرازة المباشرة الصادرة من الشهادة الشخصيّة ومن الأمانة لتعليم الكنيسة الجامعة. قلب الانسان لا يتغيّر عبر الأجيال والأزمنة، لذلك يمكننا تطبيق كرازات يوحنا الذهبي الفمّ على مؤمنيّ اليوم، عالمين أنّ الحياة المسيحية مسيرة مستمرة نحو الاتحاد الكامل بالله الآب.

يوحنّا الذهبيّ الفم
والعظات في الرسالة إلى روما

الخوري بولس الفغالي
باحث في الكتاب المقدس

"إنَّ كنوز الحكمة التي نجدها عند يوحنّا (الذهبيّ الفم) العالِم، هي وافرة بشكل خاصّ في تفسيره للرسالة إلى الرومانيّين. وأظنُّ... أنّه لو أراد بولس الإلهيّ أن يقدِّم في لغة أثينة أقواله الخاصَّة، لما كان تكلَّم بشكل مغاير عن هذا المعلِّم (يوحنّا) الشهير، الذي تفسيره لافتٌ بالمضمون والمبنى الرائع والعبارة المميَّزة".

ذاك ما كتبه إيزيدور (+٤٣٥) الراهب البيلوسيّ (بيلوسيون، قرب بورسعيد في مصر) في الرسالة الخامسة (٥: ٢٣). فماذا في شرح هذه الرسالة التي وعظها يوحنّا الذهبيّ الفم في أنطاكية، والتي اعتبرت تفسيرًا مميَّزًا بين تفاسير الآباء، وأجمل ما تركه الذهبيّ الفم من مؤلَّفات؟

بعد أن نتعرَّف إلى عظات يوحنّا في هذه الرسالة، نتوقَّف عند طريقة التفسير الكتابيّ التي أخذ بها من كان تلميذ ديودور الطرسوسيّ، مؤسِّس مدرسة أنطاكية التفسيريَّة. نستبق فنقول إنَّ الطريقة في تفسير العهد الجديد، تختلف عن تفسير العهد القديم، كما سبق ودرسنا في **مجلَّة المسرَّة** (٢٠٠٧، ص ٧٠٩-٧٣٩). لا شكَّ، في البداية نقرأ النصَّ ونحاول أن نستخلص منه العبرة الروحيَّة والدراسة الخلقيَّة. ولكنَّ العهد القديم يجب أن يوصلنا إلى العهد الجديد وشخص يسوع المسيح. أمّا التفسير اليوحنّاويّ للعهد الجديد، فهو يعرف أنَّنا نعيش التدبير الخلاصيّ في كماله، بحيث لا نحتاج إلى قفزة جديدة. ففي المسيح يسوع نلنا الملء كلَّه ومعه نبلغ إلى الكمال.

١ - الرسالة إلى روما

جاءت الرسالة إلى روما في قسمين كبيرين، القسم العقائديّ والقسم الأخلاقيّ. وتبع الذهبيّ الفم هذه القسمة وراح في الخطِّ البولسيّ، فقدَّم أجمل عرض حول الحياة المسيحيَّة. ولكن قبل عرض الموضوع الأساسيّ الذي يعلن أنَّ الإنجيل هو قدرة الله لخلاص كلِّ مؤمن، نتعرَّف في مقدِّمة الرسالة إلى بولس وإلى أهل روما.

أ) مقدِّمة وتمهيد

اعتنى بولس أو كاتبه (= ترتيوس، ١٦: ٢٢) عناية خاصَّة بهذه الرسالة التي جاءت تتوِّج الرسائل الكبرى، ولا سيَّما ١ و٢ كورنتوس، ثمَّ غلاطيا وفيليبي. فطرح السؤال الأساسيّ: من هو الرسول؟ ما هو دور الإيمان في قيادة المسيحيّ؟

أ- من بولس عبد المسيح ورسوله

انطلق الذهبيّ الفم من بداية الرسالة: "من بولس عبد المسيح يسوع، دعاه الله ليكون رسولاً، واختاره ليعلن بشارته التي سبق أن وعد بها على ألسنة أنبيائه في الكتب المقدَّسة، في شأن ابنه الذي، في الجسد، جاء من نسل داود، وفي الروح القدس، ثبت أنَّه ابن الله، في القدرة، بقيامته من بين الأموات، ربّنا يسوع المسيح" (١: ١-٤).

بولس هو عبد يسوع المسيح. ويبدأ يوحنّا في العظة الأولى، فيشرح النصَّ عبارة عبارة، ولا يخرج عنه، كما اعتاد أن يفعل في مقاطع أخرى. يقول:

"لماذا بدَّل له الله اسمه؟ ولماذا دعاه

هذه البدعة التي قدَّمت تعليمًا ضالاً، جذريًّا، متشبِّثًا، حملت اسمها من اليونانيَّة: "لاشبيه" (حاشية ٤). الابن لاشبيه بالآب. وهكذا رفضت الجوهر الواحد(٦) والجوهر المشابه(٧). وفي النهاية، جعلت أداة النفي أمام "شبيه" ارتبط اسمهم بالأنوموس، كما بأونوميوس وأئيتيوس، فدُعوا الأنوميّين والأئيتيوسيّين. واتَّخذوا اسمين آخرين مع أصحاب الأريوسيَّة المشدَّدة، الذين اعتبروا أنَّ الابن أُخذ من العدم(٨)، من اللاشيء، وأنَّه من جوهر غير جوهر الآب(٩).

منذ البداية، لاتاريخ للأنوميّين سوى تاريخ رئيسهم: إئيتيوس وأونوميوس. فحين كان الانقسام، في عهد الإمبراطور كونستانس، بين خصوم إيمان نيقية، شكَّل هذان حزبًا ودافعا عن قضيَّة مشتركة مع سائر الأريوسيّين، فأعلنوا أنَّ الآب أسمى من الابن، أو رفضوا الجوهر الواحد (أوموأوسيُّوس) والجوهر المشابه (أومويٍ أوسيُّوس)، كما كان في سينودس سيرميوم سنة ٣٥٧، أو سينودس أنطاكية سنة ٣٥٨، في أيّام الأسقف الأريوسيّ أودوكسوس. غير أنَّه في تلك السنة عينها، أي سنة ٣٥٨، هاجم الأريوسيّون الوسط الأنوميّين في اجتماع أنقيره ثمّ سيرميوم، وحُرِم "أونوميو". وأُرسل إلى المنفى(١٠) أونوميوس وأئيتيوس(١١) وأهلُ حزبهما(١٢). ولكنَّ المنفى لم يدم طويلاً. فعرض أقاق، أسقف قيصريَّة، عبارة أريوسيَّة مخفَّفة تأخذ بلفظ "أومويوس" (شبيه) في شكل غامض، وترذل "أنومويوس" (لاشبيه). كتب أئيتيوس وأودوكسوس إلى العديدين لمساندة تعليم "الجوهر الآخر" المغاير لجوهر الآب. نجحت جماعة أقاق في القصر الإمبراطوريّ، فأُرسل أئيتيوس إلى المنفى. أمّا أونوميوس فساندة أودوكسوس المنتقل من كرسيّ أنطاكية إلى كرسيّ القسطنطينيَّة، فصار أسقف ميسية(١٣) (تركيّا الحاليَّة).

ولكن برزت صعوبات بين أونوميوس وأودوكسوس، فتكوَّن حزبان. الأنوميّون ارتبطوا بأونوميوس

---

(٦) ομοουσιος (ομο ουσια)

(٧) ομοιουσιος (ομοιος / ουσια)

(٨) "من لاكائن"، εξ ουκ οντων

(٩) ετερο ουσιος (ετερος ουσια)

الاسم الأوَّل Exonucontiens

الاسم الثاني Héteroousiens

(١٠) لم يكن منفى أونوميو بالسهل. أُرسل أوَّلاً إلى Halmiris. ولكن جاء القوطيّون واحتلُّوا المدينة، فنُقل إلى قيصريَّة الكبادوك، موطن باسيل، فرفض السكّان استقبال من عامل أسقفهم بقساوة. أخيرًا، أعيد إلى مزرعته في Dakora، في سفح جبل Argée في الكبادوك؛ Voir *Philostorge*, HE, X, 6, éd. Bidez, p. 128, SC 396, p. 15; M. SPANNEUT, «Eunomius de Cyziques», in *Dict. D'Hist. et de Géo. Eccl.*, t. 15, col. 1399-1405.

(١١) نشير إلى أنَّ Aétius (Aèce) هو معلِّم أونوميو. لُقِّب "باللاديني" (ο επικλθεις αθεος). S. Athanase, *De Synod.* II, 6, PG 26, 689; Socrate, *Hist. Eccl.*, II, 35, PG 67, 297. ولد في البقاع اللبنانيّ Coelésyrie. النقطة الأساسيَّة في هرطقته، كما قال إيفان أسقف سلامين في كتاب **الهرطقات** ٧٦: ٢. **الآباء اليونان** ٤٢: ٥١٧: "تجرَّأ أئيتيوس فقال: إنَّ الابن لا يشبه الآب (ανομοιον)، ولا يماثل الآب على (τη θεοτητι) مستوى اللاهوت. ونتج بالضرورة عن هذا الطرح طرحان آخران: الابن هو من جوهر آخر (ετερας ονσια). لهذا دعي حزبه héterousiens. وبما أنَّ الابن مخلوق (κτιστος)، جاء الابن من لا شيء (εξ ουκ οντων)، لهذا دعيت جماعته ex-ouc-ontiens.
V. ARMONI, "Aétius", *DHGE*, t. 1, col. 667-668

(١٢) إليك كيف جاء قرار المنفى: "الأوغسطيّان (أركاديوس وهونوريوس) إلى أوطيخايانس، المدير في الحاكميَّة (prétoire). ليُطرَد إكليروس البدعة الأنوميَّة والمونتانيَّة من الحياة المشتركة، ومن الدخول إلى جميع الحواضر وإلى جميع المدن. فإن أقام بعضهم في ضيعة من الضياع وثبت عليهم أنَّهم جمعوا الشعب أو نظَّموا اجتماعًا، فلينُفوا على الدوام. وصاحب الضيعة يُعاقَب أقسى معاقبة كما المسؤول الخاصّ على الضيعة، حيث يتبيَّن أن عُقدت هذه الاجتماعات القاتلة والمحرَّمة، شرط أنَّهما عرفا وما أخبرا". وجاء التوقيع مع التاريخ، ٤ آذار ٣٩٨. SC 396, p. 16-17

(١٣) Cyzique en Mysie

ودُعوا أونوميّين، وأصحاب أودوكسوس صاروا أريوسيّين[١٤]. عندئذٍ، قام أونوميوس برسامات في حزبه، بحيث يكون له أسقف في القسطنطينيَّة، وتوسَّعت هذه البدعة في أيّام يوليان الجاحد الذي ساندها نكاية بأصحاب الإيمان القويم. وفي سينودس انعقد في أنطاكية، سنة ٣٧٢، في أيّام أوزويوس، طلب بعض الأساقفة إعادة اعتبار أيئيتوس وأعلنوا التعليم الأنوميّ بوضوح: الابن لا يشبه الآب أبدًا[١٥]، على مستوى المشيئة، كما على مستوى الجوهر[١٦]. انقسامات عديدة من الداخل، بعثرت هذه البدعة، ولا مجال لذكرها[١٧].

ب- التعليم الأنوميّ

التعليم الأنوميّ[١٨] حول الثالوث، هو إجمالاً، تعليم الأريوسيَّة في بدايتها. يكفي أن نقابل اعتراف أريوس الإيمانيّ الذي رفعه إلى الإسكندر، أسقف الإسكندريَّة أوَّلاً، ثمَّ إلى أثناسيوس[١٩] مع فعل إيمان أونوميوس[٢٠] أو بالأحرى مع مُلخَّص لتعليمه نقرأه في نهاية دفاعه الأوَّل[٢١]. والكلام يقع في ثلاث مقولات:

إله واحد لامولود (αγεννητος). فاللامولود هو جوهر الله؛ ذاك هو الطرح الأوَّل. قال أونوميو: "نعترف بإله واحد حسب مفهوم الطبيعة φυσικη εννοια، وتعليم الآباء". ذاك هو تعليم الرواقيّين: ما صار الله من ذاته (παρ' εαυτου) ولا من غيره (παρ' ετερου). والطرح الثاني: اللامولود لا يمكن أن يلد. لا يقدر أن يقاسم طبيعته مع الذي يلد، ولا أن يشبَّه به. وأنهى أونوميوس كلامه: واحد هو إله الكون، لامولود ولا مقابل له (ασυγκριτος)[٢٢].

والابن. هو وحيد أيضًا (μονογενης). دُعيَ فرع (γεννημα) وخليقة مصنوعة (ποιημα). وهكذا بان الفرق في الجوهر بين الآب والابن. فالابن لم يُولَد ساعة كان موجودًا. وبما أنَّ الآب لم يُولَد، لا نستطيع القول إنَّ هناك لامولودَين. ثمَّ، لا يمكن أن يضاف شيء على الله. هذا لا ينفي أن يكون الابن فوق الخلائق. "وحده وُلد وخُلق بقدرة اللامولود، فصار أكمل خادم لإتمام كلِّ عمل وكلِّ قرار من لدن الآب" (الكتّاب الشرقيّون ٣٠٥، ص ٢٦٥). أمّا الروح القدس، فهو الثالث في الترتيب وفي الطبيعة. وهو أوَّل خليقة خلقها الابن. هو لا يشارك في الألوهة ولا في القدرة على الخلق، دوره دور التقديس ودور التعليم (ص ١٨٦-١٨٧).

نلاحظ في عرض أونوميوس المنطق اليونانيّ الذي يفرض نفسه على العقيدة[٢٣]. وبعد ذلك، يستند إلى الكتاب المقدَّس. نورد هنا مقطعًا من الدفاع (٣٠٥، ص ٢٧٧-٢٧٨):

"وفي أيِّ حال، ولئلاّ أعطي فكرة بأنّنا نعنِّف الحقيقة، باستنباطاتنا واستدلالاتنا، بحسب افتراء رُفع إلينا وانتشر، نقدِّم برهانًا من الكتب المقدَّسة

---

(١٤) THEODORET, *Histoire des hérésies*, IV, 3, PG 83, 421.

(١٥) κατα παντα ανομοιος

(١٦) SOCRATE, *Histoire Ecclésiastique*, II, 45, PG 67, 360.

(١٧) SOZOMENE, *Histoire Ecclésiastique*, VII, 17, PG 67, 1464.
NICEPHORE CALLISTE, *Histoire Ecclésiastique*, XII, 30; PG 146, 842.

(١٨) X. LE BACHELET, “Anoméens”, *Dict. de Th. Cat.*, t. 1, col. 1322-1326.

(١٩) *De synodis*, par. 15, PG, t. 26, col. 706-708.

(٢٠) εκθεσις πιστεως, PG, 30, 868.

(٢١) *Apologie*, PG, 30, 868.

(٢٢) *Apologie* 11, SC 305, p. 257.

(٢٣) J. DANIELOU, “Eunome l’Arien et l’exégèse platonicienne du Cratyle”, *Revue des Études Grecques*, 69 (1956) 412-432.

(٢٤) في ف ١-٢٠ من **الدفاع**، لا نجد سوى بضعة إيرادات كتابيَّة، هي خر ٣: ١٤ (١٧: ٢)؛ مز ٥٥: ٢٠ (١٠: ١١)؛ يو ١: ٣ (١٥: ١٥)؛ ٥: ١٩ (٢٠: ٢٦)؛ ١٤: ٢٤، ٢٨ (١١: ١٢)؛ ١٧: ٣ (١٧: ٢)؛ روم ٨: ١٨ (٣: ٧)؛ ١كور ٨: ٦ (٥: ١، ٣)؛ ١٢: ٧ (٥: ٥)؛ ٢تم ٢: ٢٥ (١٩: ١٠). مع ف ٢١ تكثر ولاسيّما في ف ٢٦.

عينها[٢٤]. هو إله واحد تعلنه الشريعة والأنبياء. هذا الإله، يعترف به المخلِّص على أنَّه الإله الوحيد (μονογενης). قال: "أمضي إلى إلهي وإلهكم" (يو ٢٠: ١٧). هنـاك إلـه واحـد (μονος) حقيقـيّ (αληθινος؛ يـو ١٧: ٣). واحد حكيم (σοφος؛ روم ١٧: ١٦)، واحـد صـالح (αγαθος؛ مـت ١٩: ١٧)، واحـد قـديـر (δυνατος؛ ١تـم ٦: ١٥)، واحـد مـالـك الخلود وعدم الموت (αθανασιαν؛ ١تم ٦: ١٦). ولكن لا يتبلبل أحد أو يقلق فكره. فنحن لا نستعمل ما قيل لكي ننكر ألوهيَّة الوحيد (του μονογενους θεοτητος)، أو حكمته، أو خلوده، أو صلاحه، بل لنشدِّد على سموِّ الآب، لأنَّنا نعترف بإله وحيد، ربّنا يسوع المسيح، اللافاسد واللامائت، والحكيم والصالح. ولكنَّنا نقول عن تكوينه (συστασεως)، وعن كلِّ ما هو أنَّ الآب هو علَّة (وجوده)، وهو اللامولود، لا عـلَّـة لجوهـره (ουσιας) ولا لصـلاحه. ذاك هو المدلول الذي تـقـدِّمه المعطيات التي عُرضت سابقًا[٢٥].

ج- الردّ على الأنوميّين

أوَّلاً: الأنوميَّة والأريوسيَّة

قبل كلام عن الذهبيّ الفم، نتذكَّر أنَّ الأنوميَّة جاءت في خطِّ الأريوسيَّة، كما أوجزها أريوس في هذا المقطع من "تاليا"[٢٦] أو "الوليمة": "ندعو الله αγεννητος (لامولود)، تجاه ذاك الذي هو في الطبيعة (γεννητος، مولود). ندعوه (αναρχος، لازمنيّ) تجاه الذي هو في الطبيعة، في الزمن". هاتان الصفتان هما ما ينطبق على الله لوصف طبيعته، ولا ينطبقان إلاّ على الله، وعلى الله وحده، وبالتالي لا يمكن أن ينطبق على المسيح. هنا نفهم الصراعات التي دارت حول هاتين الصفتين في مجمع نيقية سنة ٣٢٥[٢٧]. فإذا كانت اللفظتان αγεννητος وαναρχος لا تصفان المسيح، فالابن لا يشبه الآب. فدُعيَ الذين يقولون هذا القول: "اللاشبيهيّون" أو ανομοιοι.

شدَّد الأنوميّون على αγεννητος، على أنَّه الاسم الخاصّ بالله، الذي يعبِّر وحده عن جوهره: "إذا تبيَّن أنَّه لم يُوجَد قبل ذاته، وأنَّ لا شيء آخر وُجد قبله، بل أنَّه هو ذاته قبل كلِّ شيء، فهذا يعني أنَّ اللامولود مترابط به، أو بالأحرى أنَّه هو ذاته جوهره اللامولود"[٢٨].

من هذه الصفة (اللامولود) استخرج أونوميوس نتيجتين: الأولى، لا يعود استنباط الأسماء إلى البشر، بل إلى الله وحده الذي احتفظ لنفسه بوضع اسم للأشياء قبل وجودها[٢٩]. وبما أنَّ الله دعا نفسه αγεννητος، فقد أعلن الإنسان الإمكانيَّة بأن يعرف جوهره. يكفي أن نعرف معنى "لامولود" لكي نفهم كلَّ شيء عن الله (الينابيع ٣٠٥، ص ٢٥٩). والنتيجة الثانية: الله لا مولود، إذًا هو بسيط ولا ينقسم: هو لا يلد. كما لا يمكن أن يشارك المولود في طبيعته الخاصَّة (الينابيع ٣٠٥، ص ٢٥١). وهكذا نكون أمام تأكيدين: معرفة جوهر الله معرفة تامَّة، وإنكار المساواة بين الآب والابن (الينابيع ٣٩٦، ص ٨-١٠).

---

(٢٥) كلّ تشبيه بين الآب والابن هو بحسب النشاط (SC 305, p. 279)، مع العلم أنَّ نشاط اللامولود يختلف عن جوهره (ص ٢٨٣). "كلُّ ما يمكن قوله هو أنَّ الابن صورة الآب، بحسب كو ١: ١٥-١٦.

(٢٦) *Thalie ou le Banquet*, Des fragments ont été conservés par ATHANASE, *Oratio I contra Arianos*, 1, 5-6, PG. 26, 20-24; Ch. KANNENGIESSER, “Où et quand Arius composa-t-il la Thalie?”, *Kyriakon, Festschrift Quasten* I, Münster, 1970, p. 346-347. نشير إلى أنَّ "تاليا" هي مجموعة من القطع فيها النثر والشعر، ألَّفها أريوس لكي يجعل فكره قريبًا من الأشخاص الأمِّيِّين أو القليلي الثقافة، والذين لا يستطيعون الولوج في لطائف المقالات اللاهوتيَّة (Philostorge, HE, II, 2, PG. 65, 465).

(٢٧) E. BOULARAND, *L’hérésie d’Arius et la foi de Nicée*, 2 vol. Paris, 1972; M. SIMONETTI, *La crisi ariana nel IV secolo* (Studia Ephemeridis “Augustiniarum” 11) Roma, 1975.

(٢٨) أثناسيوس، **الخطبة الأولى ضدّ الأريوسيّين** (حاشية ٢٦)، الآباء اليونان ٢٦: ٢٤.
αι ουσιαι του πατρος και του υιου... ανομοιοι
تختلف الأقانيم الثلاثة الواحد عن الآخر على مستوى الجوهر (ουσια) وعلى مستوى المجد (δοξα).

(٢٩) Daniélou, *op. cit.* (n 23), p. 416, 421.

ثانيًا: غريغوار وباسيل

اتَّهم أونوميوس، فكتب دفاعًا (أبولوجيّا) أوَّل احتفظ لنا التاريخ به: بدأ فربح ودَّ السامعين، وقدَّم نفسه على أنَّهم يتَّهمونه ويفترون عليه[٣٠]، هو الضعيف الذي يُظلَم ويُطلَب منه أن يدافع عن نفسه. فردَّ باسيل بأنَّ أونوميو دُعيَ إلى مجمعين، واحد في سلوقية سنة ٣٥٩. تهرَّب مع "محازبيه" فحُكم عليهم غيابيًّا، والثاني إلى القسطنطينيَّة سنة ٣٦٠، حين كان الحزب الأريوسيّ قويًّا، وصار أونوميوس أسقفًا. إذًا، هذا الدفاع الذي يقدِّمه أونوميوس هو مهزلة وحيلة. وهكذا تحدَّى باسيل أونوميوس بأن يقدِّم جوابًا[٣١].

جاء كلام باسيل في ثلاثة كتب أو مقالات، λογοι. الأوَّل مع عنوان: "من أبينا القدّيس باسيل رئيس أساقفة قيصريَّة في الكبادوك، ردّ على دفاع أونوميوس الكافر[٣٢]. ردَّ على طروح أونوميوس حول اللامولود. والثاني ردّ على هرطقة أونوميوس في ما يتعلَّق بالابن. قال باسيل: "في براهينه حول إله الكون، أعدَّ أونوميوس قدر المستطاع، تجاديفه βλασφημιας على ابن الله. منذ الآن، يفلت لسانه على الإله الوحيد μονογενει θεω[٣٣]. والكتاب الثالث يعالج مسألة الروح القدس: "ما إن شبع (أونوميوس) من تجاديفه على الابن الوحيد (مونوجين) حتّى عاد إلى الروح القدس ليقول فيه أقوالاً توافق نواياه" (الينابيع ٣٠٥، ص ١٤٤–١٤٥).

في سنة ٣٦٤–٣٧٨، أي في عهد وَالِنس، عاش الأنوميّون حقبة صعبة. مات أئيتيوس سنة ٣٦٥–٣٦٦. وأرسل أونوميوس مرَّة أخرى إلى المنفى. وفي نهاية سنة ٣٨٧، نشر "دفاع الدفاع"[٣٤] ردًّا على ردِّ باسيل. ضاع الكتاب. ولكن وُجدت مقاطع عديدة عند غريغوار النيصيّ في كتابه: ضدّ أونوميوس[٣٥]. فالقدّيس غريغوار كتب مقالات أربعة ضدَّ أونوميوس. الأوَّل، ردّ على دفاع الدفاع (جاء بعد ١٤ سنة على كتاب باسيل). والثاني جاء مثل الأوَّل. في الثالث ردَّ غريغوار على هجوم آخر على باسيل. والرابع جاء نقدًا قاسيًا على اعتراف إيمانيّ أعلنه أونوميوس أمام تيودوز[٣٦].

وبعد غريغوار النيصيّ، انبرى غريغوار النزينزيّ، الذي صار أسقف القسطنطينيَّة، للردِّ على أونوميوس. ألقى خمس عظات[٣٧]، جمعها البنديكتان

(٣٠) حين دافع أونوميوس عن نفسه أمام الشعب، صفَّقوا له "لأنَّه أورد، في الوقت المناسب، النصَّ الكتابيّ: "ها هو دفاعي أمام خصومي" (١كور ٩: ٣).

(٣١) BASILE de CÉSARÉE, *Contre Eunome* I (SC 299) Paris, Cerf, 1982, p. 163.

(٣٢) المرجع السابق ص ١٤١: هو لا يعرف التقوى δυσσεβους

(٣٣) BASILE de CESAREE, *Contre Eunome* II (SC 305) Paris, Cerf, 1983, p. 10-11.
ردًّا على أنَّ الابن هو "نسل وخليقة"؛ فأونوميوس يحوِّل كلمات الكتاب المقدَّس (أع ٢: ٣٦). اختبأ أونوميوس وراء المبدأ اللغويّ، فلاحقه باسيل إلى هناك.

(٣٤) مرافعة تردَّ (υπερ της απολογιας πολογια) على مرافعة. كتاب جاء في ثلاث مقالات (λογοι).

(٣٥) EUNOMIUS, *The Extant Works, Text and Translation*, éd. R. P. Vaggione, Oxford, 1987, *Liber Apologeticum*, 7, p. 79; κατα ευνομιου: Plusieurs traits en 380-381. *Contra Eunomium*, ed. Jaeger; *Refutatio confessionis Eunomiani*, Leyde, ²1960
هنا نتذكَّر أنَّ غريغوار النيصيّ هو شقيق باسيل، وقد واصل عمله في أكثر من مجال، ولا سيَّما في مؤلَّفه **الأيّام الستَّة** *Héxaméron*

(٣٦) J. QUASTEN, *Initiation aux Pères de l'Église*, t. III (Paris, 1962) p. 368-369.

(٣٧) GRÉGOIRE de NAZIANZE, *Discours* 27-31 (SC 250), Cerf, Paris 1978. L'édition des Bénédictins de Saint-Maur est reproduite dans PG. 36.
وكان كتّاب آخرون ردّوا على أونوميوس (M. SPANNEUT, "Eunomius de Cyzique", *DHGE* (Paris, 1963) col. 404).
ديديم الأعمى، تيودور المصيصيّ، كيرلُّس الإسكندرانيّ... L. DOUTREFEAU, "Le De Trinitate est-il l'œuvre de Didyme l'aveugle?", *RSR*, 45 (1957); B. PRUCHE, "Didyme l'aveugle est-il bien l'auteur des livres *Contra Eunomius*, IV et V attribués à Basile de Césarée?", *Studia Patristica*, X, Berlin, 1970. TU 107, p. 151-155.
نشير إلى أنَّ جيروم قدَّم لائحة بالذين عارضوا أونوميو (**الآباء اللاتين** ٢٣: ٣٤٧). ثمَّ كانت لائحة ثانية، أوسع في FABRICIUS-HARLES, *Bibliotheca Graeca*,vol. IX, Hamburgi 1804, p. 208-209.

ودعوها "الخطب اللاهوتيَّة"، وفيها وصل غريغوار إلى النضج الكبير في دراسة العقيدة حول الثالوث. العظة الأولى هي مقدِّمة لعظات الأربع الباقية، وتعالج الشروط المطلوبة لمناقشة الحقائق اللاهوتيَّة: "إلى الماهرين في الكلام يتوجَّه هذا الكلام. بداية ننطلق من الكتاب المقدَّس: "ها أنا عليك، أيَّتها الوقحة" (إر ٥٠: ٣١): على مستوى التعليم وطريقة السماع والتفكير" (**الينابيع** ٢٥٠، ص ٧٠-٧١). أمّا العنوان فهو: "مقدِّمة الجدال ضدَّ الأنوميّين".

في العظة الثانية، عالج غريغوار اللاهوت، بشكل حصريّ، أي وجود الله، وطبيعته، وصفاته، بقدر ما الفكر البشريّ يستطيع أن يحدِّد ويفهم. "نضع في رأس هذا الكلام، الآب والابن والروح القدس، الذين هم موضوع (العظة): ليكن الأوَل راضيًا، والثاني معينًا، والثالث ملهمًا. أو بالأحرى، تأتي الألوهيَّة الواحدة، المميَّزة في الاتِّحاد، والمجتمعَة في التمييز. يا للعجب!" (العظة ٢٨، **الينابيع** ٣٠٥، ص ١٠٠-١٠٣).

وبيَّنت العظة الثالثة وحدة الطبيعة بين الأقانيم الإلهيَّة الثلاثة، ولا سيَّما لاهوت اللُوغُس ومساواته مع الآب (العظة ٢٩). والعظة ٣٠ تفنِّد اعتراضات الأريوسيّين حول لاهوت الابن، وطريقة استعمال النصوص الكتابيَّة استعمالاً كاذبًا. وأخيرًا يدافع غريغوار عن ألوهيَّة الروح القدس في العظة ٣١ مع ردٍّ على الماقيدونيّين[٣٨].

٢- يوحنّا الذهبيّ الفم

بعد كلام عن علاقة الذهبيّ الفم بالأنوميَّة، نتوقَّف عند كتابين من كتبه (حاشية ١، حاشية ٣) أو بالأحرى، سلسلة مواعظ طُبعت في جزأين، فجاءت بشكل دِبْتِيكًا مع درفتين تقدِّمان "لاإدراكيَّة الله" و"مساواة الآب والابن".

أ- يوحنّا والأنوميَّة

اهتمَّ يوحنّا مرَّتين بالأنوميّين، مرَّة أولى حين كان كاهنًا، ومرّة ثانية حين صار أسقف القسطنطينيَّة. مثل هذا الانقسام في عاصمة الإمبراطوريَّة، أضعف عمل الكنيسة وحدَّ من شهادتها ولا سيَّما بين اليهود، وبين الوثنيّين الذين لبثوا كثُرًا في نهاية القرن الرابع.

فهذه البدعة، التي ظهرت سنة ٣٥٠ في أنطاكية، صارت الضلالة الكبرى سنة ٣٨٠. ونظرتها إلى معرفة الله، لخَّصها أونوميوس نفسه: "الله لا يعرف عن ذاته شيئًا لا نعرفه؛ فكيانه واضح له كما هو واضح لنا. فكلُّ ما نعرفه عنه، يعرفه هو أيضًا، وكلُّ ما يعرفه عن ذاته، نجده فينا بسهولة وبدون اختلاف"[٣٩]. الجوهر الإلهيّ بسيط جدًّا، ولهذا تسهل معرفتُه. إذًا، الآب وحده الله، بسبب بساطته، ولا يشاركه أحد في كيانه. خلق الابن ونقل إليه قدرته، نشاطه، لا لاهوته، ليكون أداة في يده في خلق الكون. وأوَّل خلائق الابن هو الروح.

عند هذا الحدّ وصلت الديانة المسيحيَّة مع نظام يستند إلى جدال فارغ، سفسطائيّ. لم نعد أمام اللاهوت (تيولوجيا)، بل أمام التقنيَّة (تكنولوجيّا)[٤٠]. تفكير منظَّم، عدوٌّ كبير. ففهم يوحنّا الذهبيّ الفم أنَّ مهمَّته تقوم في محاربة تأثيرهم، والعمل على إعادتهم إلى الكنيسة الجامعة. أحسَّ أنَّه ليس أمام هرطقة ماتت ودُفنت، بل أمام ضلالة حاضرة، حيَّة، ساحرة ببساطتها ووضوحها الكاذب، ورفْعها للعقل البشريّ مع التشديد على التقوى والحياة النسكيَّة. لهذا، عمل يوحنّا على الدفاع عن الإيمان القويم وعن جدِّيَّة الحياة المسيحيَّة.

أعلن الذهبيّ الفم أنَّه ضدَّ الأنوميّين ونظرتهم التعيسة إلى الله. انتظر وانتظر طويلاً، وعدد من الأنوميّين كانوا يسمعون مواعظه ويطلبون منه أن يرجئ

---

(٣٨) QUASTEN (n. 36), p. 347-348.

(٣٩) SOCRATE, *Hist. eccl.*, IV, 7 (PG 67, 474B).

(٤٠) THEODORET, *op. cit.* (n. 14): θεολογιαν, τεχνολογιαν.

المواقف القاسية. ولكنَّهم الآن يطلبون منه أن يعالج الموضوع. يتحدّونه، بل يتخيَّلون أنَّهم انتصروا عليه. وقضيَّة الإيمان القويم قضيَّة خاسرة. فقبل يوحنّا التحدّي بحماس المتأكِّد من النصر وإحقاق الحقيقة، وبمحبَّة تريد أن تعيد إلى الحظيرة هذه النفوس الضالَّة، المريضة، التائهة بعد أن يستنيروا. وخاض أسقف القسطنطينيَّة المعركة لا يثنيه عن عزمه شيء. يمكن أن يتوقَّف بسبب ظرف طارئ، ولكنَّه يعود سريعًا[٤١]. وأوَّل كلام له كان لاإدراكيَّة الله.

هنا يتوسَّل يوحنّا قوَّة الخطابة عنده. فسامعوه يعجّون بالحياة، مزيج من فئات مختلفة، مشغوفون بالخطابة، كما بالجدالات اللاهوتيَّة[٤٢]. قال يوحنّا في كتابه حول الكهنوت (الينابيع ٢٧٢، ص ٣٠٢، سطر ٤٩–٥٢): "أما تعلَمُ أيَّ اندفاع نحو البلاغة يسيطر اليوم على نفوس المسيحيّين؟ والذين يهتمّون بها هم أهل للاحترام، لدى الوثنيّين كما لدى المسيحيّين". وفي المعنى عينه قال غريغوار النيصيّ: "امتلأت المدينةُ كلُّها بالجدالات: الشوارع، والأسواق، والساحات، والأحياء، وبيّاعو الثياب، والذين يقفون وراء مكاتب الصيرفة، والذين يبيعوننا الطعام. إذا تحدَّثت عن المال، حادثك الواحد عن المولود واللامولود. وإن حصل واستعلمت عن ثمن الخبز، يجيبك: الأب هو الأكبر، والابن خاضع له. وإن تساءلت: هل الحمّام جاهز؟ يعلن لك آخر أنَّ الابن خرج من اللاكائن. لا أعرف كيف أدعو هذا الهيجان أو هذا الجنون، أو هذا الشيء الذي يشبه وباء تكثر فيه الحجج والاعتراضات"[٤٣].

همّ يوحنّا الأوَّل عرضُ الفكر المسيحيّ عرضًا أمينًا، ليقاسم يقينه مع الذين إليهم يوجِّه كلامه. هذا ما نكتشفه في العظة العاشرة. "بعد أن أخفيتُ (هذا الخير) في فكري، فإذا احتفظت به على الدوام دون أن أشارك فيه أحدًا، يخفُّ ربحي، ومواردي تضعف. ولكن إن قدَّمته للجميع، إن شاركتُ فيه الكثيرين، وإن قسمتُ معهم كلَّ ما أعرف، يزداد غناي الروحيّ من أجل خيري" (الينابيع ٣٩٦، ص ٢٤٠–٢٤١).

ب– لاإدراكيَّة الله

نُشر هذا الكتاب اليونانيّ مع ترجمة فرنسيَّة سنة ١٩٥١، ثمَّ سنة ١٩٧٠، فقدَّم خمس عظات.

أوَّلاً: العظات الخمس

ردَّت العظتان الأولى والثانية على قول أونوميوس بأنَّ الإنسان يستطيع أن يعرف جوهر الله معرفة تامَّة. فكان جواب الواعظ: جوهر الله لا يدركه العقل البشريّ. لهذا ورد اللفظ περι ακαταληπεου. الفعل هو καταλαμβανω، "أخذ"، "أمسك"، "أدرك". نحن لا نقدر أن نمسك الله، وإلاّ كان صنمًا في يدنا. لا ندركه وكأنَّ عقلنا يمكن أن يحيط به. لهذا نقرأ في بداية العظة الأولى: "من أبينا الذي في القدّيسين، يوحنّا الذهبيّ الفم رئيس أساقفة القسطنطينيَّة، في غياب الأسقف[٤٤] حول اللامدرك περι ακαταληπτου، في ردٍّ على الأنوميّين، الخطبة (ογος) الأولى" (الينابيع ٢٨ مكرَّر، ص ٩٢).

وفي الكتاب عينه ص ١٤٠ نقرأ: "منه (= أي يوحنّا) أيضًا. بضعة أيّام (بعد الخطبة السابقة) ردًّا على الأنوميّين، تكلَّم على اليهود. ثمَّ توقَّف عن الكلام بسبب

---

(٤١) حاشية ١، ص ٩–١٤.

(٤٢) كان أسلوب باسيل وغريغوار النيصيّ مغايرًا لأسلوب يوحنّا. لحق بالخصوم خطوة خطوة، في "ملعبهم" لكي يردَّ عليهم. M. VAN PARYS, "Exégèse et théologie dans les livres Contre Eunome de Grégoire de Nysse", dans *Actes du colloque de Chevetogne* (22-26 sept, 1969) Leyde, 1971, p. 169-196; B. SESBOUÉ, *L'apologie d'Eunome de Cyzique et le Contre Eunome (livres I-III/de Basile de Césarée*, Rome, 1980).

(٤٣) هي عظة تعود إلى شهر أيّار سنة ٣٨٣: **حول ألوهيَّة الابن والروح القدس، الآباء اليونان ٤٦ : ٥٥٧ب.**

(٤٤) نشير إلى أنَّ يوحنّا ألقى هذه العظة وهو بعد كاهن. كان فلافيان غائبًا، فبدأ يوحنّا عظته كما يلي: "ماذا أرى؟ الراعي غائب والخراف قائمون في ترتيب تامّ. ذاك هو أجمل نجاح بالنسبة إلى الراعي، بأن يدلَّ قطيعه على غيرة كبيرة، لا في حضوره وحسب، بل في غيابه أيضًا".

وجود الأسقف، وتذكُّرًا لشهداء عديدين. وعاد الآن إلى الأنوميّين، في كلام عن اللامدرَك". هنا نقرأ النصَّ السريانيّ: "مرَّت أيّام عديدة تكلَّمتُ فيها على الأنوميّين، ثمَّ على اليهود، ثمَّ صمتُّ بسبب اجتماع الأساقفة عندنا، وتذكارات العديد من الشهداء المشهورين التي حصلت. أمّا الآن فنعود أيضًا...". ويتواصل النصُّ كما في اليونانيَّة: "ندخل في الحلبة لكي نقاتل الأنوميّين الكافرين، اللامؤمنين (απιστους). إن استاؤوا حين ندعوهم كافرين، فليبدِّلوا سلوكهم وأنا أبدِّل كلامي. فليتخلّوا عن أفكارهم الكافرة وأنا أتخلّى عن تسمية لائمة. فإذا كانوا لا يختفون تحت الأرض، ساعة يدنِّسون الإيمان بأعمالهم، لماذا يغضبون علينا، نحن الذين نلومهم فقط بكلمات تريهم ما يقومون به من أعمال"(٤٥).

العظتان الثالثة والرابعة تتحدَّثان عن استحالة معرفة جوهر الله، حتّى على الملائكة والقوّات السماويَّة. لم ينتظر الذهبيّ الفم العظة الثالثة للكلام عن الملائكة، بل انطلق في العظة الأولى: "إذا شئتَ نترك بولس والأنبياء، ونرتفع إلى السماء: ربَّما نجد هناك أرواحًا تعرف الله في جوهره! إن وُجدت أرواح تنعم بالمعرفة، فهي لا تشاركنا في شيء، لأنَّ المسافة عظيمة التي تفصل الملائكة عن البشر. ولكن إن أردت أن تعرف يقينًا أنَّ ما من قوَّة مخلوقة، وإن تكن علويَّة، تمتلك هذا العمل، فلنسمع الملائكة. ماذا إذًا؟ هل يتحدَّثون في العلاء عن الجوهر الإلهيّ، هل يتجادلون في ما بينهم؟ كلاّ ثمَّ كلاّ. ولكن ماذا يفعلون؟ هم يمجِّدون، يسجدون، يُصعدون على الدوام أناشيد الظفر والسرّ، باحترام عميق. بعضهم يهتف: المجد لله في أعلى السماوات (لو ٢: ١٤). والسرافيم بدورهم: "قدّوس، قدُّوس، قدّوس" (أش ٦: ٣). ويميلون بعيونهم لأنَّهم لا يقدرون أن يحتملوا تنازلَ الله. أمّا الكروبيم فينشدون: "مبارك مجده من موضع سكناه" (حز ٨: ١٢). هذا لا يعني أنَّ الله محصور في موضع ما، لا قطعًا. فكأنَّنا نقول في لغتنا البشريَّة: حيث يكون، أو: كيفما يكون، إن كانت الحكمة بأن نتكلَّم هكذا عن الله، ولكنَّنا لا نمتلك سوى التعبير البشريّ" (الينابيع ٢٨ مكرَّر، ص ١٢٦-١٢٩).

والعظة الخامسة واصلت ما قيل عن استحالة إدراك الله. فمثلُ هذه المعرفة محفوظة للابن والروح. انطلق الواعظ من كلمة يوحنّا، ابن الرعد: "ما من أحد رأى الله (εωρακε)، الابن الوحيد الذي في حضن الآب، هو الذي أخبر (εξηγησατο) يجب علينا اليوم أن نتعلَّم في أيِّ موضع قدَّم ابن الله الوحيد هذا الإعلان. قال يوحنّا: "أجاب اليهود". وقال لهم: "ما من أحد رأى الآب سوى ذاك الذي أتى من لدن الله. فهو من رأى الآب" (يو ٦: ٤٦). معنى "رأى" هنا، هو "عرف".

ويواصل يوحنّا كلامه: "ما اكتفى بأن يقول: "ما من أحد رأى الآب"، ثمَّ صمت. فقد نظنُّ هكذا أنّنا لسنا أمام البشر، بل إذ أراد أن يبيِّن أنَّه لا الملائكة، ولا رؤساء الملائكة، ولا القوّات العلويَّة تعرفه، قدَّم ذلك بوضوح بالكلمات التالية. فبعد أن قال: "ما من أحد رأى الآب"، أضاف: "إلاّ ذاك الذي أتى من لدن الله؛ فهو من رأى الآب"(٤٦). فلو قال فقط: "ما من أحد، لظنّ ربَّما كثيرون من الذين سمعوا كلامه، أنَّ هذا قيل فقط بالنسبة إلى جنسنا البشريّ، ولكن حين قال: "ما من أحد"، وأضاف "سوى الابن"، استبعد الخليقة كلَّها حين ذكر الابن الوحيد (μονογενης). ولكن يقال لي: "هل

---

(٤٥) راجع **الينابيع** ٢٨ مكرَّر، ص ١٨٦: "حول اللامدرَك. تنازل (συγκαταβασις) لا يحتمله السرافيم". ثمَّ ص ٢٢٨: حول اللامدرَك. ونقرأ الشيء عينه ص ٢٧٠.

(٤٦) مثل هذا القول الذي يفتح الطريق أمام معرفة مميَّزة بين الآب والابن، غير مقبول لدى أونوميوس؛ فالله كشف عن نفسه لكلِّ خليقة حين سمّى نفسه αγεννητος. بهذه الوسيلة وحدها يقدر الابنُ أن يعرف الآب.

يستبعد أيضًا الروح القدس؟ كلاّ ثمَّ كلاّ. لأنَّ الروح ليس جزءًا من الخليقة. وعبارة "ما من أحد" تستعمَل دومًا لتعارض سائر الخلائق. وهكذا، حين يتكلَّم عن الآب، فهو لا يستبعد الابن. وحين يتحدَّث عن الابن لا يزيح الروح القدس"[٤٧].

ثانيًا: اللاإدراك والرعب المقدَّس

ما لاحظناه حتّى الآن هو أنَّ الذهبيّ الفم ترك طريق الفلسفة في الردِّ على أونوميوس، على غرار ما فعل النيصيّ والنزينزيّ، فعاد إلى الكتاب المقدَّس وأورد نصوصه وشرَحَها. أمّا الهدف الأخير، فهو التعليم اللاهوتيّ وبالتالي التصرُّف العمليّ.

ونبدأ باللاإدراك للجوهر الإلهيّ، وهو موضوع هذه العظات الخمس. سبق يوحنّا فقال: "الخير الأعظم هو أن نُدرك أنَّ الله لا يُدرَك (ακαταληπτος) بحسب جوهره" (κατα το ειναι). ثمَّ: "لا نستطيع أن نعرف من الله سوى وجوده وتجلّياته". هذا الكلام الذي يعود إلى فيلون، قد تبنّاه يوحنّا، فدلَّ على تسامٍ جذريّ لله كما في الكتاب المقدَّس.

كيف تصوَّر يوحنّا هذا التسامي الإلهيّ؟ اتَّخذ عبارات تُبرز اللاهوتيّ المُصمِت (apophatique)، الذي يمنع الإنسان من الكلام، ويدعوه إلى الصمت الساجد. منها ما أخذه من بولس الرسول (αορατος)، "ما لا يُرى" (روم ١: ٢٠): "ندعوه إذًا الإله الذي لا يمكن التعبير عنه (ανεκφραστον)، ولا تصوُّره، ولا رؤيته (αορατον) ، ولا إدراكه. ولنعترف أنَّه يتجاوز قدرة كلِّ لسان بشريّ، أنَّه يفلت من قبضة كلِّ عقل مائت. الملائكة لا يستطيعون أن يكشفوه، ولا السرافيم أن يشاهدوه ولا الكروبيم أن يدركوه، لأنَّه غير منظور (αορατον) للسلاطين والرئاسات والقوّات وجمع الخلائق بلا استثناء. لا يعرفه سوى الابن والروح (ص ١٩٠-١٩١).

والصفة الثانية نقرأها عند الرسول (٢كور ١٢: ٤) وخبرته الصوفيَّة. αρρητος: لا يجوز له أن ينطق بما رأى. قال يوحنّا: "بقدر ما هذه القوّات تمتلك الحكمة، وأقرب منّا إلى هذا الجوهر السعيد واللامُقال، فهي تعرف أفضل منّا كم أنَّ طبيعة الله لا تُدرَك. فحين تنمو الحكمة، تُنمي معها السجود والعبادة" (ص ٢٣٢-٢٣٥).

والصفة الثالثة: لا يمكن أن نرويه، أن نخبر به (ανεκδιηγητος). استعملها الرسول في الكلام عن هبة الله (٢كور ٩: ٥). هي من العظمة بحيث لا نقدر أن نتحدَّث عنها. "ماذا تقول؟ أحكامه لا تُسبَر، وطرقه لا تُكشَف، سلامه يتجاوز كلَّ فهم، عطاياه لا يمكن أن نخبر بها. ما أعدَّه الله للذين يحبّونه، لم يصعد إلى قلب بشر، عظمته لا حدود لها. فهمه لا قياس له. كلُّ ما فيه لا يُدرَك. وتظنّ أنَّه يُدرَك هو وحده. فكيف تظنُّ ذلك ولا تكون في قمَّة الجنون؟ أمسكْ بالهرطوقيّ. لا تتركه يُفلت. قل له: ماذا يقول بولس؟ "نحن نعرف بعض المعرفة". فتجيب: لم يَقُل هذا عن الجوهر الإلهيّ، بل عن تدبير الأكوان. اتَّفقنا μαλιστα... إذا كان هذا التدبير لا يُدرَك، فبالأحرى الله ذاته. ولكنَّه يتكلَّم في هذا الموضع عن الله ذاته، لا عن تدبير الكون". فاسمع ما يلي. فبعد أن قال "نعرف بعض المعرفة، ونتنبّأ قليلاً، أضاف: "الآن أعرف قليلاً، ولكن حينئذٍ أعرف كما عُرفت". من يعرف، الله أم تدبير الكون؟ بل تدبير الكون. إذًا يعرف الله قليلاً εκ μιρους (ص ١٢٤-١٢٧).

وتتوالى الصفات البولسيَّة التي يستعملها الذهبيّ الفم: لا يُسبَر (ανεξερευητος، روم ١١: ٣٣). لا يُكشَف (ανεξιχνιαστος، أي ٥: ٩؛ روم ١١: ٣٣). لا يمكن الوصول إليه (απροσιτος، ١تم ٦: ١٦). قال الرسول: "مسكنه نور لا يُقترَب منه، ما رآه إنسان ولن يراه، له العزَّة والإكرام". والذهبيّ الفم: "ما قال: هو يسكن نورًا لا يُدرَك، بل لا يمكن البلوغ إليه. وهذا أقوى بكثير. يُقال عن شيء إنَّه لا مُدرَك، حين لا يتوصّل

(٤٧) الحاشية الأولى SC 28 bis, p. 272-277.

الدارسون إلى الإمساك به رغم أبحاثهم واستقصاءاتهم. ولكن ما لا يمكن البلوغ إليه (απροσιτος) هو ما يفلت منذ البدء من كلِّ استقصاء، بحيث لا يستطيع إنسان أن يقرِّبه. مثلاً نقول إنَّ البحر البعيد لا يُعرَف، لأنَّ السبّاحين الذين ينزلون فيه ويغطسون لا يستطيعون أن يصلوا إلى أعماقه. ولكن ما ندعوه "لا يمكن الوصول إليه" هو ما يستحيل علينا منذ البدء أن نبحث عنه (τητηθεναι) ولا أن نسبره ερευνηθεναι (ص ١٩٦-١٩٩)[٤٨].

ولماذا هذه الاستحالة؟ لماذا لا يجرؤ الإنسان أن يقترب من الله؟ قيل في الكتاب: هو نار آكلة. لا يُدنى منه. والقُربُ منه لا يُحتمَل (αφορητον): ها نحن نحاول أن ننقلكم مرَّة أخرى، بالكلام، إلى السماء، لا لنمارس فضولاً باطلاً مزعجًا، ولكن لأنّنا معجِّلون لكي ندمِّر حججًا واهية ليست في محلِّها، لدى الذين لا يعرفون أنفسهم، ويرفضون القبول بحدود الطبيعة البشريَّة. في هذا الإطار بيَّنّا وأفضنا أنَّ لا ظهور الله وحسب، بل ظهور ملائكته أيضًا ما استطاع أن يتحمَّله هذا البارّ الذي قدَّمنا لكم خبره كلَّه. أريناكم دائمًا الطوباويّ دانيال، أصفر اللون، مرتجفًا، في حالة قريبة من المائتين، ونفسه تحاول أن تقطع كلَّ رباط بالجسم البشري"[٤٩].

عاد الذهبيّ الفم مرارًا إلى هذه الفكرة. فقال مثلاً عن دانيال: "امتلأت نفسه مخافة، فما استطاع أن يحتمل منظر عبد الرب الآخر الحاضر هنا، ولا أن يتقبَّل لمعان هذا النور. ولهذا تبلبل" (٣: ٢٥١-٣٥١).

في هذا الوضع، لا يعود الإنسان يُمسك بزمام نفسه. هي الدهشة (εκπληξις) تلك عاطفة زكريّا حين ظهر عليه الملاك في الهيكل. لهذا قال له الملاك: "لا تخف يا زكريّا" (لو ١: ١٣). والسرافيم يرتعبون في حضرة الله القدّوس: "هم يميلون بعيونهم، ويبسطون أجنحتهم أمام وجههم، ويقفون منتصبين على ركبهم، ويُطلقون هتافات متواصلة" (ص ٢٣٣).

فالمخافة هي العاطفة الدينيَّة السميا. وطبيعة الإنسان أن يخاف الله (١: ٨٣-٨٤). هي مخافة الإكرام والوقار، التي تفترض تعلُّقًا بالله. ينسحق الإنسان أمام عظمة الله، فيندهش ويتبلبل، ولكنَّه يحسُّ بانجذاب داخليّ. يريد أن يبتعد ولا يقدر (φοβος). خاف دانيال أمام الملاك، فاصفرَّ وجهه. والملائكة أنفسهم يخافون أمام الله. كم هم بعيدون عن موقف الأنوميّين وما فيه من وقاحة (καταφρονειν). هنا يقول الذهبيّ الفم:

"هل لاحظت أيَّةَ مخافة تسود هناك، وأيّ استخفاف هنا؟ أولئك (الملائكة) يؤدّون المجد، وهؤلاء (الأنوميّون) يسعون إلى إرضاء روح الفضول (περι εργαζεσθαι، ٢تس ٣: ١١). أولئك ساجدون، وهؤلاء مهتمّون بأمور تافهة. أولئك يميلون بنظرهم، وهؤلاء يتواقحون ويحدِّقون بنظرهم إلى المجد الذي لا يُوصف. فمن لا يئنّ؟ ومن لا يبكي على مثل هذا الشذوذ وهذا الجنون؟" (ص ١٢٩).

ومع المخافة (φοβος) هناك الرعدة (τρομος)، في عبارة تدلّ إلى بولس الرسول (٢كور ٥: ١٥؛ أف ٦: ٥): "قل لي، هل الله هو من تعتدُّ أن تجعله تحت ناظرك؟ الإله الذي لا بداية له، الذي لا يناله التبدُّل، اللاجسديّ، اللافاسد، ذاك

(٤٨) **الينابيع** ٢٨ مكرَّر، ص ١٧. وهناك كلمات تعود إلى فيلون فيلسوف الإسكندريَّة
απερινοητος: inconcevable (4, 73)
απεριγραπτος: impossible à circoncire (3, 171)
ασχηματιστος: impossible à figurer (σχημα) (4, 186)
αθεατος (2, 147): impossible à contempler
وتبقى الصفة الأهمّ: اللامدرَك. نجد هذه العبارات عند كليمان الإسكندرانيّ، غريغوار النيصيّ...

(٤٩) العظة الثالثة، سطر ٢٢٣-٢٣٧. بدا دانيال مثل حوذي لم يعد يستطيع أن يمسك زمام نفسه، فغدا كالميت. راحت قوَّته. ثمَّ قام وهو يرتجف (εντρομος).

الحاضر في كلِّ مكان، الذي يتجاوز كلَّ شيء، ويسمو على الكون كلّه. إسمع الاعتبارات التي يتفوّه بها الكتّاب الملهمون وامتلئ خوفًا (φοβηθητι). "يلقي نظره على الأرض فترتعد" (مز ١٠٤: ٣٢، τρεμειν). إذًا، نظرٌ منه واحد، هو كافٍ ليهزَّ الأرض في كلِّ اتّساعها. "يلمس الجبال فتتحوَّل دخانًا" (مز ١٠٤: ٣٢). يحرِّك الأرض من تحت السماء بدءًا بأساساتها، فتتأرجح عواميدها (أي ٩: ٦). يهدِّد البحر وينشِّفه (أش ٥١: ١٠). "رآه البحر فهرب (εφυγεν) ، والأردنُّ تراجع إلى الوراء". الجبال قفزت كالكباش، والتلال مثل صغار الغنم" (مز ١١٤: ١٣-١٤). الكون كلُّه ارتعش (σαλευεται)، ارتجف (δεδοικε)، ارتعد (τρεμει). وهؤلاء الناس وحدهم (الأنوميّون) يستخفّون بخالقهم، يحتقرونه، يهملونه، بل يهملون سيِّد الكون (ص ١٥١-١٦١).

واللفظ الثالث φρικη (horror) هي المخافة المقدَّسة في ذروتها. تجعل شعر الإنسان يقف. تُمسك بالإنسان أمام كلِّ ما يلامس الله. أمام تجديف الأنوميّين، يقشعرُّ الذهبيّ الفم. "نعود الآن إلى كلامنا في المرّة الماضية... ونحاول أن نقتلع الجذر القاتل الذي هو أمُّ جميع الشرور، والذي منه نبتت هذه التعاليم التي أخذوا (= الأنوميّون) بها. ما هو جذر جميع شرورهم؟ صدِّقوني. هي قشعريرة تمسك بي حين أذكرها. وأنا أرتجف بأن أتلفَّظ بفمي ما يحرِّكونه على الدوام في عقولهم. وما هو جذر هذه الشرور؟ تجرَّأ إنسان فقال: "أنا أعرف الله كما الله ذاته يعرف ذاته" هل يحتاج إلى ردٍّ مثلُ هذا القول؟ هل يطلب أن نجعل تجاهه البراهين؟" (ص ١٥٤-١٥٥).

هذه المخافة هي عاطفتنا أمام قداسة الله (αγιωσυνη)، وعظمته (μεγαλωσυνη). فلا يبقى لنا سوى أن نمجِّده (δοξαζειν)، ونعبده ونسجد له (προσκυνειν)، وأخيرًا نقف أمامه صامتين على مثال إيليّا على جبل حوريب، ευφημειν (ص ١٢٨-١٢٩). ذاك ما يفعل الرسول في بداية رسائله. حين يذكر الله، لا يعجِّل في عرض تعليمه، بل يبدأ بإطلاق المديح اللائق به. اسمع ما كتب إلى أهل غلاطية: "النعمة والسلام لكم من الله أبينا ومن الربِّ يسوع المسيح، الذي بذل نفسه عن خطايانا، لينقذنا من هذا العالم الشرّير عملاً بمشيئة إلهنا وأبينا. له المجد إلى أبد الدهور. آمين" (غل ١: ٣-٥). وفي ١تم ١: ١٧: "لملك الدهور اللامائت واللامنظور، إلى الإله الواحد والحكيم، الإكرام والحمد في الدهور. آمين"[٥٠].

ج- مساواة الآب والابن

في "لاإدراكيَّة الله" قدَّمنا خمس عظات، وها نحن في جزء ثانٍ، عنوانه "مساواة الآب والابن"[٥١]، نقدِّم ستَّ عظات[٥٢]. العظات ٧-١٠ تعود إلى سنة ٣٨٦-٣٨٧، يوم كان يوحنّا بعدُ كاهنًا. أمّا العظتان ١١-١٢ فقد ألقاهما يوحنّا سنة ٣٩٨، بعد اختياره أسقفًا على كرسيّ القسطنطينيَّة (٣ شباط ٣٩٨).

شدَّدت العظات الخمس الأولى على الله الذي لا يُدرَك. أمّا الستُّ الأخيرة فتدور حول ضلالة أونوميوس الثانية: ليس الابن من جوهر الآب. وبالتالي، ليس مساويًا لله. ونبدأ بالعظة السابعة.

ارتبطت العظة السابعة بما سبقها. ونحن نقرأ ص ١١٤-١١٦[٥٣]: "مجدُ الابن الوحيد، مرَّة أخرى، هو موضوعُ عظتنا. منذ وقت قليل، بيَّنّا لكم أنَّ إدراك جوهر (της ουσιας) الله يتجاوز كثيرًا حكمة البشر والملائكة ورؤساء

(٥٠) **الينابيع**، ٢٨ مكرَّر، ص ١٩٤-١٩٥. راجع ص ٣٠-٣٩.

(٥١) **الينابيع المسيحيَّة**، ٣٩٦. راجع حاشية ٣. نتذكَّر **الباترولوجيّا اليونانيَّة** ٤٨: ٧٠١-٨٠٢.

(٥٢) وهكذا تكون العظات إحدى عشرة عظة، لا اثنتي عشرة. فالعظة حول القدّيس Philogone (**الآباء اليونان** ٤٨: ٧٤٧-٧٥٦) قد استعملها Montfaucon على أنَّها العظة السادسة لكي تحلَّ محلَّ العظة التي تحمل رقم ﺡ (٦) في التقليد المخطوطيّ. غير أنَّ هذه العظة هي، في الواقع، العظة الحادية عشرة (**الينابيع** ٣٩٦، ص ٧، حاشية ١)

(٥٣) نذكر هنا **الينابيع** ٣٩٦، إمّا بحسب العظة، وإمّا بحسب الصفحة.

الملائكة καταληιμις، وبمختصر الكلام، الخليقة كلُّها، ولا يعرفه بوضوح سوى الابن الوحيد والروح القدس. أمّا الآن، فينطلق كلامنا على حلبة أخرى من الصراع: نبحث إن كان الابن يمتلك القدرة ذاتها (δυναμις) والسلطان ذاته (εξουσια) والجوهر ذاته كالآب، أو بالأحرى نحن نطلب ذلك لأنّنا وجدناه مع نعمة المسيح ونحافظ عليه باطمئنان تامّ" (ص ١١٤-١١٧).

إذًا، انتقل الواعظ من "موضوع" إلى "موضوع"، وهذا ما نفهمه من عنوان العظة السابعة: "من أبينا الذي هو بين القدّيسين، يوحنّا الذهبيّ الفم، إلى الذين تركوا الجماعة συναξεως والبرهان بأنَّ الابن هو من جوهر الآب. فإن كانت أقواله وأعماله تمتلك طابع التنازل (ταπεινως)، فلمَ تتمُّ هذه ولم تُقَل بسبب نقص في القدرة، ولا بسبب دونيَّة، بل لأسباب مختلفة. هي الخطبة السابعة من الخطب التي تعالج اللامدرَك، والتي تلي سابقاتها" (ص ١١٠-١١١).

ضلَّ الهراطقة فاستعملوا خطأ لفظ "ابن" (υιος) ولفظ "إله" (θεος) فردَّ عليهم الواعظ: "إذا كان للابن القدرة عينها والجوهر عينه، وإن كان يعمل كلَّ شيء بالنظر إلى سلطان سامٍ، فلماذا إذًا يصلّي؟" (٧: ١٤٣-١٤٥). ذاك كان اعتراض الأنوميّين؟ ردَّ يوحنّا على هذا السؤال في أربع محطّات، تعود كلُّها إلى تنازل من قبل المسيح، دون أن ينقص مجده.

والعظة الثامنة واصلت الجدال حول جواب يسوع على طلب أمِّ ابنَي زبدى: "ليس لي أن أعطي ذلك، لأنَّه للذين أعدَّه لهم أبي" (مت ٢٠: ٢٣). كان هذا القول مناسبة فِسَارٍ (herméneutique) يستند إلى الفرق بين المعنى الحرفيّ والمعنى الاستعاري، يجب علينا أن نقرأ الكتب المقدّسة بتفهُّم، وهي تقدِّم الجواب الحقيقيّ للاعتراضات التي يحرِّكها الهراطقة حول تنازل المسيح. ونقرأ كلام يوحنّا (ص ١٩٤-١٩٧):

"حين قدَّموا هذا الطلب، اسمعوا ما أجابهم: "أنتم لا تعرفون ماذا تطلبون!" (مت ١٠: ٣٨). هل نجد أوضح من هذا الكلام؟ أرأيت أنَّهما لا يعرفان ما يطلبان حين يتحدَّثان عن تيجان ومُجازاة وأوليَّة وكرامة، وهم لم يفهموا بعد أنَّ القتال لم يبدأ بعد. حين قال: "لا تعرفون ماذا تطلبون" أفهمنا أمرين: الأوَّل، تكلَّما عن مملكة لم يذكرها المسيح، لأنَّه لم يعلن مملكة أرضيَّة منظورة. الثاني، طلبا الأوَّليَّة وكرامات السماء، وأرادا تجاوز الآخرين بالشهرة والمجد. لم يعبِّرا عن طلبهما في الوقت المناسب، بل في لحظة لم تكن في محلِّها. فليس الوقتُ وقت أكاليل وجوائز، بل وقت قتال وصراع ومجهود وعرق واستعداد وحروب. وإليك ما أراد أن يقول: لا تعرفان ماذا تطلبان حين تتوجَّهان إليّ في هذا الموضوع، وأنتما ما تعبتما، وما تعرَّيتما من أجل القتال، ساعة الأرض كلُّها في الضلال، والكفر يسود، وجميع البشر يهلكون. ما عبرتم بعدُ خطَّ الانطلاق، وما تعرَّيتم من أجل القتال.

"هل تستطيعان أن تشربا الكأس التي أشرب، وتقبلا المعموديَّة التي أقبل؟" (مت ١٠: ٣٨). دعا هنا "الكأس" و"المعموديَّة"، صليبَه وموته. الكأس: إليها يمضي مبتهجًا. والمعموديَّة: بها ينقّي الأرض كلَّها. وليس فقط بسبب ذلك، بل بسبب السهولة التي بها يقوم. كما أنَّ ذاك الذي يعمَّد في الماء يقوم بسهولة دون أن تمنعه طبيعةُ الماء، كذلك ذاك الذي نزل في الموت قام أيضًا بسهولة. لهذا يدعوه معموديَّة..."

العظة التاسعة استندت إلى قيامة لعازر، وإلى الشفاءات العجائبيَّة التي أجراها الرسل، فردَّت على أقوال الأنوميّين حول دونيَّة الابن بالنسبة إلى الآب.

"اليوم لعازر حين قام، يتيح لنا أن نضع حدًّا لشكوك عديدة، مختلفة. فلا أعرف كيف أنَّ هذه القراءة (في سبت لعازر، وقبل أحد الشعانين، كما هي العادة في الكنائس الشرقيَّة) قدَّمت فرصة للهراطقة، ومناسبة رفض من قبل اليهود، لا بحقّ، لا سمح الله، بل نتيجة مهارة نفسهم الفاسدة".

ماذا يقول الهراطقة؟

"من جهة، يقول هراطقة عديدون إنَّ الابن غير مساوٍ (ουχ ομοιος) للآب. لماذا؟ لأنَّ المسيح (كما قالوا) احتاج أن يصلّي لكي يقيم لعازر. فلو لم يصلِّ لما كان أقام الميت (لعازر). وقالوا: كيف أنَّ ذاك الذي وجَّه صلاة هو مساوٍ لمن تقبَّل تضرُّعه؟ فواحد يصلّي، وآخر يتقبَّل صلاة المتضرِّع إليه. هم يجدِّفون، لأنَّهم لا يفهمون كيف تكون الصلاة

تنازلاً، وسببها ضعف الفكر لدى الحاضرين...".

هكذا راعى يسوع الضعف البشريّ، بل هو تنازل وغسل أقدام التلاميذ بمن فيهم يوضاس. وبعد ذلك انتقل يوحنّا إلى اليهود لكي يردَّ عليهم. قالوا: "كيف يعتبر المسيحيّون إلهًا، من جهل الموضع الذي فيه وُضع جثمان لعازر بعد موته؟ فالمخلِّص قال لمرتا ومريم: "أين وضعتموه؟" (يو ١١: ٣٤). فقالوا: هل رأيت الجهل؟ هل رأيت الضعف؟ فالذي يجهل حتّى الموضع، أيكون الله؟

وكان جواب يوحنّا على هذا الاعتراض. إنَّ الله الآب جهل الموضع الذي فيه اختبأ آدم في الفردوس. قال: "آدم، أين أنت؟" (تك ٣: ٩).

العظة العاشرة وازت بين الشريعة القديمة وبين الشريعة الجديدة التي تكمِّل القديمة. تداخلت عند يوحنّا نصوص العهد القديم والعهد الجديد، فوصل الواعظ إلى الكلام عن مساواة تامَّة بين الآب والابن. جاء العنوان كما يلي: "منه (أي من يوحنّا) عظة حول واقع يجعلنا لا نقول ما نعلم ولا ننقله إلى الآخرين، حول الصلوات التي تلاها المسيح، حول سلطانه على كلِّ شيء، حول التفسير الصائب للشريعة القديمة. وأخيرًا، التجسُّد لا يقلِّل من مساواة الابن مع الآب، بل يثبِّتها" (ص ٢٣٨-٢٣٩).

العظة الحادية عشرة هي تفسير لما في تك ١: ٢٦: "نصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا". فصيغة الجمع تدلُّ على أنَّ الابن الوحيد شارك في الخلق لأنَّه في مساواة مع الآب. "في ذلك الوقت، كان يتوجَّه إلى الابن الوحيد" (ص ٢٩٦-٢٩٧).

العظة الثانية عشرة هي تأمُّل طويل حول أعمال المسيح وأقواله، بحسب القراءة التي تُليَت في ذلك اليوم: شفاء المخلَّع. مع العنوان: "أبي يعمل دائمًا وأنا أيضًا أعمل" (يو ٥: ١٧). هنا يشرح يوحنّا الذهبيّ الفم الفصلَ الخامس من إنجيل يوحنّا. في مقطع أوَّل، يدور الكلام حول بركة بيت حسدا. في مقطع ثانٍ يتحدَّث الواعظ عن الشفاء. في مقطع ثالث، نقرأ اعتراض اليهود في ما يخصُّ السبت.

وتنتهي العظة الثانية عشرة ومعها الكتاب: "إذا أردنا أن نصير أصدقاء الله يا أحبّائي، نهتمُّ كلَّ الاهتمام، كلَّ يوم، بهذا الجمال. نتخلَّص من كلِّ نجاسة فنقرأ الكتاب المقدَّس، ونصلّي، ونعطي الصدقات، ونتَّفق بعضنا مع بعض، لكي يرانا الملك المحتجب بما لنفسنا، أهلاً لملكوت السماوات. يا ليتنا نناله بنعمة ربِّنا يسوع المسيح ومحبَّته، فله المجد كما للآب والروح القدس من الآن وإلى الأبد وفي دهر الدهور. آمين" (٣٥٤-٣٥٧).

الخاتمـــة

في إطار الردِّ على بدعة شكَّلت خطرًا على الكنيسة في وقت من الأوقات، بدعة اعتبرت أنَّنا نعرف الله كما يعرف ذاته، بدعة أنزلت يسوع المسيح إلى مستوى الإنسان، بعد أن صرنا آلهة وهو صار إلهنا معنا، فما تميَّز عنّا حتّى على مستوى معرفة الآب وعلاقته بالآب، بدعة استندت إلى الكتاب المقدَّس لتبرِّر موقفها فأعلنت أنَّ الابن لا يشبه الآب، فاتَّخذت اسمها "الأنوميّين" (αν-ομοιοι). في هذا الإطار جاء كلام يوحنّا الذهبيّ الفم. ترك البراهين الفلسفيَّة التي عاد إليها الخصوم مستعمليها سلاحًا على الإيمان، وتوقَّف عند البراهين الكتابيَّة. وهكذا كانت لنا شروح عن آيات عديدة وعن مشاهد. لا، الله لا يُدرَك. فالملائكة لا يدركونه. والابن مساوٍ للآب ولو صلّى أمام قبر لعازر ولو قال هذا القول أو ذاك. وشرح يوحنّا النصوص الكتابيَّة في إطار التنازل الإلهيّ. هذا على مستوى اللاهوت. أمّا على مستوى الكتاب المقدَّس، فبانَ هذا الواعظ في أنطاكية والقسطنطينيَّة تلميذًا لديودور، ورفيقًا لتيودور، وسابقًا لتيودوريه في تفسير للكتاب ينطلق من الحرف والواقع، ليصل إلى الروح والحياة العمليَّة. كلُّ هذا جاء في شكل دفاع وهجوم مع سعي إلى إقحام الخصم. إلاّ أنَّ يوحنّا لبث ذاك الراعي الذي يدعو هؤلاء "الضالِّين" للعودة إلى الكنيسة. وهكذا اجتمع فيه همُّ الكنيسة وهمّ المؤمنين، فكان العلم في خدمة المحبَّة، لأنَّ العلم ينفخ أمّا المحبَّة فتبني. بعد ذلك، هل نعجب أن يكون يوحنّا الذهبيّ الفم بعدُ عائشًا معنا بعد ألف وستمئة سنة على وفاته!

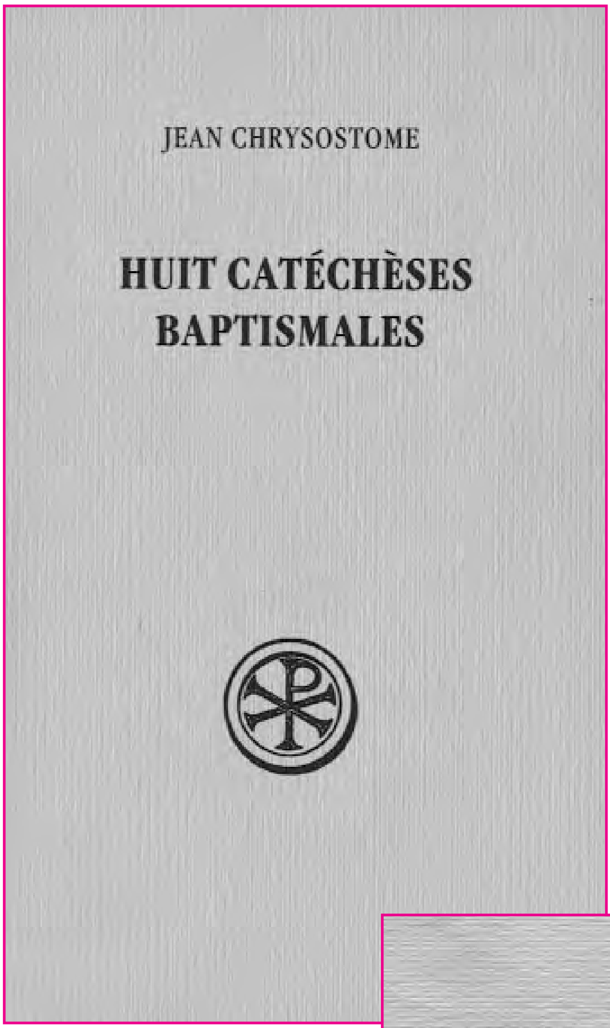
JEAN CHRYSOSTOME
HUIT CATÉCHÈSES BAPTISMALES

JEAN CHRYSOSTOME
COMMENTAIRE SUR ISAÏE

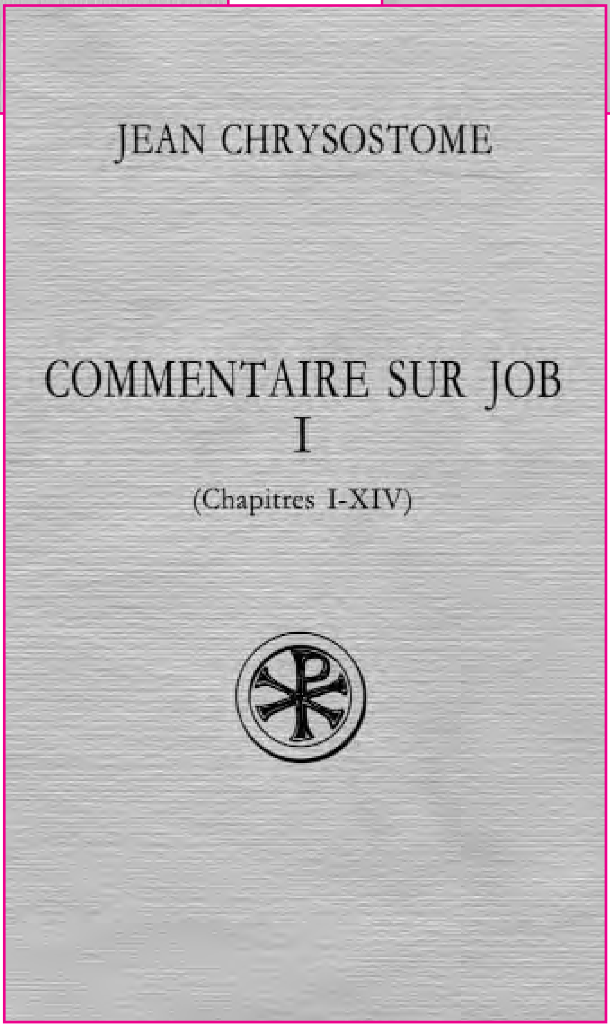
JEAN CHRYSOSTOME
COMMENTAIRE SUR JOB
I
(Chapitres I-XIV)

المعطيات البيبليّة في نافور مار يوحنّا فم الذهب بحسب مخطوط دير الشرفة ٦٢ (القرن السابع عشر)

الأب نجم شهوان (ر.ل.م.)
أستاذ مادة الليتورجيا في جامعة الروح القدس، الكسليك

مقدّمة

يشكّل نافور مار يوحنّا فم الذهب واحدًا من النوافير المتّعبة، ولو بشكلٍ غير متواتر، في طبعات القدّاس الماروني ابتداءً من سنة ١٩٩٢/٤، الذي طُبع في روما، وحتّى سنة ٢٠٠٥، الذي طُبع في بكركي، لبنان، محورًا من محاور لاهوت النوافير السريانيّة المارونيّة، كونه واحد من آباء الكنيسة الكبار، وأحد أقمار كنيسة القسطنطينيّا، ولهذا يأتي ذكره ما بين الذين دافعوا عن الإيمان المستقيم، وعززوا هويّة الكنيسة.

وأمّا على صعيد المخطوطات التي ذكرت نافور مار يوحنّا فم الذهب، ما بين النوافير التي صلّتها الكنيسة المارونيّة، فلدينا كمٌّ لا بأس به حضنته المكتبات اللبنانيّة والمكتبات الأوروبيّة، وكلّها كتب صلوات، وليست كتب دراسات. ولهذا يُعتبر نافور مار يوحنّا الذهبيّ الفم، وهو ذات أصل أنطاكي، بحسب دراسات الخوري سركيس، وربّما يؤيّد الكثير من الباحثين فكرته، خاصّة وأنّ يوحنّا قد انطلق من أنطاكيا وأخذ معه تراثها، ولكنّه عدّل في معطيات النافور المعروف بنافور الاثني عشر.

سوف نتوقّف عند وصف المخطوط الذي تحفظه مكتبة دير سيّدة النجاة البطريركيّة للسريان الكاثوليك، الشرفة–درعون، حريصا، وهو يعود إلى تراث الكنيسة المارونيّة، لننتقل بعد وصف المخطوط إلى معطيات النافور الذي اختير للمعالجة، ومن بعد ذلك نعرض العناصر التأسيسيّة للاهوت النافور، خاصّة العناصر التعليميّة، والعناصر البيبليّة التي ولجت هيكليّة هذه الصلوات.

١. وصف المخطوط

ورد وصف لهذا المخطوط في دليل المخطوطات الذي وضعه الأب بهنام سوني[١]، تحت الرقم ٦٩٨، ووضع له عنوان 'كتاب العِبّ للموارنة'، وفيه صلوات وعبادات بحسب طقس الكنيسة المارونيّة. كُتب المخطوط بالحرف الكرشوني[٢] وبالحرف السرياني على السواء، وهو يشتمل على مواضيع متعدّدة: كتاب الاعتراف بالخطايا، مديحة لمار يعقوب المقطّع، صلوات لشمعون الشيخ وعلى النفساء، رتبة العماد، حلّ الخطايا. دخول الإمرأة إلى البيعة، تناول المشرف على الموت، مسحة المرضى، بركة الرماد في مستهلّ الصوم، رتبة القنديل (ستّة قومات)، تفسير الإنجيل للأعياد، رتبة الخاتم (الإكليل)، نافور مار بطرس، نافور مار يوحنّا فم الذهب، نافور الاثني عشر رسولاً.

(١) الأب الدكتور بهنام سوني، فهرس المخطوطات البطريركيّة في دير الشرفة ، بيروت–لبنان ١٩٩٣، ص ٢٥٠.

(٢) كرشوني من الأصل السرياني ܟܪܫܘܢܝ من كلمة ܟܪܫܐ وتعني البطن أو الحشا، وهي تعني هنا اللغة العربيّة المكتوبة بأحرف سريانيّة.

هناك دفَّتان في المخطوط تسجِّلان بعض الأحداث التي رافقت تكوين المخطوط، وهي تعود إلى ما بين سنة ١٦٤٩ وإلى سنة ١٦٦٩، وهناك ذيل فيه يقول: "في ١١ كانون أوَّل سنة ١٧٧٩، دخل بملك الحقير يوسف بن نعمة الله غنطوز، ولهذا من المفترض أيضًا أن يكون هذا المخطوط عائدًا إلى القرن السابع عشر، أو إلى القرن الثامن عشر ميلادي.

يقع نافور يوحنَّا فم الذهب، الذي اخترناه للمعالجة ما بين **الورقة ٩٠أ والورقة ٩٤ب**، وهو تحت عنوان "**ܐܦ ܢܦܘܪ ܠܩܕܝܫܐ ܐܝܘܢܝܣ ܦܘܡ ܕܗܒܐ**" وتعني "أيضًا نافور القدِّيس يوحنَّا فم الذهب" (الورقة ٩٠أ). يُستهلُّ النافور، ما يُعرَف بالـ *Incipit*، بالصلاة التالية: "اللهم ذلك العظيم الأبدي الذي أنت هو الأمان والسلام والمحبَّة وينبوع الرحمة" (الورقة ٩٠أ). ويختم النافور، ما يُعرَف بالـ *Desinit*، بالصلاة التالية: "وارحم واصفح عن أمواتنا، لكيما دائمًا وبجميع الأوقات نمجِّدَكَ ولأبوك الصالح، ولروحك الحيّ القدُّوس الآن وإلى كلِّ أوان وإلى دهر الداهرين. الشعب: آمين. (الورقة ٩٤ب).

قياس المخطوط ٢١٠x ١٥٥x ٣٠مم، نوعيَّة الخط غير أنيقة، ولكنَّه يستعمل اللون الأسود للنصوص، واللون الأحمر للتوجيهات وللعناوين. بالإمكان قراءته بسهولة، وهو يتألَّف من ٩٧ ورقة. يشوب المخطوط بعض المشاكل المنهجيَّة، من حيث توزيع النصوص بشكل متوازن، أو بسبب الزيادات الظاهرة على الهوامش. كما أنَّ عوامل الزمن أضاعت من أطرافه بعض الوريقات، بالإضافة إلى عامل الرطوبة والعثّ التي ساهمت في تشويه بعض معالمه الأولى.

٢. نص المخطوط وترجمته

هناك نوعان من اللغة: السريانيَّة والعربيَّة، ولكن بحرف واحد للغتَين، هو الحرف السرياني. سوف نورِد النصَّ السرياني، وستكون ترجمته ملاصقة له بين هلالَين، وأمَّا النصّ العربي، المخطوط بالحرف السرياني، سنقلبه إلى الحرف العربي مباشرةً، بالحرف الأصيل له، تاركين كتابته كما هي، شهادة على الأدب العربي المسيحي في القرن السابع عشر في الكنيسة؛ أمَّا إذا كان هناك التباس في معنى الكلمة سنشرحه في الحاشية، بالإضافة إلى تصحيح بعض أخطاء الصرف، ولكن مرَّة واحدة لكلّ كلمة وليس في كلِّ مرَّة. كما سنعرض أرقام ورقات المخطوط في بدايتها، لمعرفة بداية الصفحة، ودائمًا بحسب المخطوط، وأمَّا الكلمات أو النصّ الناقص فسنكمله واضعين إيَّاه ما بين قوسَين. هناك ثلاثة أدوار: دور الكاهن، دور الشمَّاس، ودور الشعب. سوف نلاحظ أنَّ النصوص الخاصّة بالكاهن هي شبه كاملة، وأمَّا النصوص الخاصّة بالشمَّاس فلا يوجد منها سوى البدايات أو مستهلّ مداخلاته، وكذلك دور الشعب القليل نسبيًّا وهو نفسه فلا نجد سوى بدايات أجوبته على الكاهن المحتفل. وبالنسبة إلى الروبريكات أو التوجيهات فستكون هي أيضًا بين هلالَين، وإذا اقتضى الأمر لتكملتها سوف تخضع لتدبير ما هو ناقص أيضًا.

«أيضًا نافور القدِّيس إيونيس[٣] فم الذهب»

«صلاة ما قبل السلام»

[الكاهن :] (الورقة ٩٠ب) أللهمَّ ذلك العظيم الأبدي الذي أنتَ هو الأمان والسلام والمحبّه وينبوع الرحمه، أصلِح يا ربُّ لبيعتِك[٤] واحفظْ العالم بنعمتك، ونصعد لك المجد.

الشمَّاس : (يقول:) **ܢܩܘܡ ܫܦܝܪ** (فلنقفْ حسنًا)

الكاهن : حلّ يا ربّ مراحمك وابسط

(٣) يوحنَّا.
(٤) بيعتَك.

يمينك الملانة(٥) بركات، وبارك على عبيدك وجواريك، هولاي(٦) الذين الآن منحنين قدّام عظمتك، ونصعد لك المجد.

الشعب : آمين.

الكاهن : قوِّينا(٧) أيُّها الربّ كيما نقدّم لك هذه الذبيحة الروحانيَّة الذي(٨) هي بغير دمّ لأجل خطايا وزلاَّت رعيَّتك، كيما تُمحى وتُغفر جميع خطايانا، ونصعد لك.

الشعب : آمين.

الشمّاس : ܢܬܠ [ܫܠܡܐ ܟܠܚܕ ܠܩܪܝܒܗ ܒܚܘܒܐ ܘܒܗܝܡܢܘܬܐ ܕܫܦܪܝܢ ܠܐܠܗܐ. ܬܐ ܒܫܠܡܐ ܐܒܘܢ ܟܗܢܐ ܕܟܝܐ] (ليعطِ كلٌّ واحدٍ السلامَ لقريبه بحبٍّ وإيمانٍ يرضيان الله. هلمَّ بسلامٍ يا أبانا الكاهن النقيّ).

«الحوار»

الكاهن : ܠܥܠ ܢܗܘܘܢ [ܪ̈ܥܝܢܝܢ ܘܗ̈ܘܢܝܢ ܘܠܒ̈ܘܬܢ] (لتكن أفكارنا وعقولنا وقلوبنا مرتفعةً إلى العلى).

الشعب : ܐܝܬܝܗܘܢ [ܠܘܬܟ ܡܪܝܐ] (إنَّها لديك يا ألله).

الكاهن : ܢܘܕܐ [ܠܡܪܝܐ ܒܕܚܠܬܐ ܘܢܣܓܘܕ ܒܪܬܝܬܐ] (لنشكر الربَّ متهيِّبين ونسجد له خاشعين).

الشعب : ܫܘܐ ܘܙܕܩ (إنَّه لحقٌّ وواجب).

«تدبير الآب»

الكاهن (يقول سرًّا:) ܠܟ ܡܠܟܐ ܕܥܠܡܐ ܠܐܠܗܐ ܐܒܐ ܥܡ ܒܪܐ ܘܪܘܚܐ ܕܩܘܕܫܐ ܙܕܩܐ ܘܫܘܝܐ ܟܠ ܬܘܕܝܬܐ (لك يا ملك العالمين، أللهمَّ الآب مع الابن والروح القدس، يليق ويجب كل شكر) (يرفع صوته:) جميع الرتبات والطقوس (الورقة ١٩١) وتغمات(٩) السماويِّين، الملايكه(١٠) وروسا(١١) الملايكه، الكاروبيم والساروفيم، والجلاَّس والارباب الغير منظورين والغير محصيِّين، بغير سكوت يمدحون ويهلِّلون إذ بأفمام(١٢) غير متجسِّمه وبأصوات غير ملتفظه تسبحة الغلبه، يسبِّحون ويصرخون ويقولون:

«التقديسات المثلَّثة»

الشعب : ܩܕܝܫ ܩܕܝܫ ܩܕܝܫ [ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܚܝܠܬܢܐ ܨܒܐܘܬ. ܕܡܠܝܢ ܐܢܘܢ ܫܡܝܐ ܘܐܪܥܐ ܡܢ ܬܫܒܘܚܬܐ ܘܐܝܩܪܐ ܕܪܒܘܬܟ ܡܪܝ. ܐܘܫܥܢܐ ܒܡܪ̈ܘܡܐ. ܒܪܝܟ ܕܐܬܐ ܘܕܐܬܐ ܒܫܡܗ ܕܡܪܝܐ. ܐܘܫܥܢܐ ܒܡܪ̈ܘܡܐ] (قدُّوس قدُّوس قدُّوس أيُّها الرب القويُّ إله الصباؤوت. السماء والأرض مملوءتان من مجدك العظيم. هوشعنا في الأعالي. مبارك الذي أتى وسوف يأتي باسم الربّ. هوشعنا في الأعالي)

الكاهن (سرًّا:) ܫܪܝܪܐܝܬ ܩܕܝܫ ܐܢܬ ܐܠܗܐ ܐܒܐ. ܘܪܘܚܟ ܕܩܘܕܫܐ. ܕܡܩܕܫ ܐܢܬ ܬܡܝܕܐܝܬ ܥܡ ܒܪܟ ܩܕܝܫܐ ܡܪܢ ܝܫܘܥ ܡܫܝܚܐ. (حقًّا إنَّك قدُّوس أللهمَّ الآب. وروحك القدُّوس. لأنَّك تُقدَّس على الدوام مع ابنك القدُّوس، ربِّنا يسوع المسيح)

---

(٥) الملآنة.
(٦) هؤلاء.
(٧) قوِّنا.
(٨) التي.
(٩) طغمات.
(١٠) الملائكة.
(١١) رؤساء.
(١٢) أفواه.

«كلام التأسيس»

ܟܗܢܐ: ܩܠܐ ܟܪܝܗܐܝܬ ܘܐܡܪ:
ܒܝܘܡܐ ܗܘ ܕܩܕܡ ܚܫܐ ܕܝܠܗ. ܢܣܒ ܠܠܚܡܐ ܒܐܝܕܘܗܝ ܩܕܝܫܬܐ ܘܐܪܝܡ ܥܝܢܘܗܝ ܠܘܬܟ ܐܠܗܐ ܐܒܘܗܝ ܐܚܝܕ ܟܠ. ܘܐܘܕܝ ܠܟ. ܘܒܪܟ. ܘܩܕܫ. ܘܩܨܐ. ܘܝܗܒ ܠܬܠܡܝܕܘܗܝ ܟܕ ܐܡܪ: ܣܒܘ ܐܟܘܠܘ ܡܢܗ ܟܠܟܘܢ. ܗܢܐ ܕܝܢ ܐܝܬܘܗܝ ܦܓܪܐ ܕܝܠܝ. (جهرًا: يحمل القربانة ويقول:)

في اليوم الذي قبل ألمه. أخذ الخبز بيديه المقدَّستَين ورفع عينَيه نحوك أللهمَّ أبيه الضابط الكلّ. وشكرك، وبارك، وقدَّس، وكسر، وأعطى تلاميذه إذ قال: خذوا كُلُوا منه جميعكم، هذا هو جسدي

(يوضع الجسد على الصينيَّة ويركع. ويأخذ الكاس ويقول:)

(الورقة ٩١ب) ܒܗ ܕܝܢ ܒܪܡܫܐ ܡܢ ܒܬܪ ܕܐܣܬܒܥܘ. ܢܣܒ ܒܐܝܕܝܐ ܕܝܠܗ ܕܟܝܬܐ ܟܣܐ ܗܢܐ ܕܟܝܐ. ܘܐܘܕܝ ܠܟ. ܘܒܪܟ. ܘܩܕܫ. ܘܝܗܒ ܠܬܠܡܝܕܘܗܝ ܟܕ ܐܡܪ: ܣܒܘ ܐܫܬܘ ܡܢܗ ܟܠܟܘܢ. ܗܢܐ ܕܝܢ ܐܝܬܘܗܝ ܟܣܐ ܕܕܡܝ. ܕܕܝܬܩܐ ܚܕܬܐ ܕܠܥܠܡ ܪܐܙܐ ܕܗܝܡܢܘܬܐ. ܕܚܠܦܝܟܘܢ. ܘܚܠܦ ܣܓܝܐܐ ܡܬܐܫܕ ܠܫܘܒܩܢܐ ܕܚܛܗܐ.

(من ثَمَّ بعدما شبعوا. أخذ في يدَيه الطاهرتَين هذه الكأس الطاهرة، وشكرك، وبارك، وقدَّس، وأعطى تلاميذه إذ قال: خذوا اشربوا منه كلُّكم. هذه هي كأس دمي، للعهد الجديد إلى الأبد سرّ الإيمان، لأجلكم ولأجل الكثيرين يُهرَق لمغفرة الخطايا)

(ويوضع الكاس موضعه ويغطِّيه[13] بالنافور الصغير ويركع ويقول:)

«تذكار الابن»

واتقدّم[14] وأوصاهم وحرّضهم إذ يقول: كل ما في هذا السرّ تتلذلذون١٥، لموتي وقيامتي تكونوا ذاكرين إلى حين مجيئي.

الشعب : ܠܡܘܬܟ [ܡܪܢ ܡܬܕܟܪܝܢܢ. ܘܒܩܝܡܬܟ ܡܘܕܝܢܢ. ܘܠܡܐܬܝܬܟ ܕܬܪܬܝܢ ܡܣܟܝܢܢ. ܘܪܚܡܐ ܘܚܢܢܐ ܡܢܟ ܒܥܝܢܢ. ܘܫܘܒܩܢܐ ܕܚܛܗ̈ܐ ܫܐܠܝܢܢ. ܢܗܘܘܢ ܪ̈ܚܡܝܟ ܥܠ ܟܠܢ] (نذكر موتك، يا ربّ، ونعترف بقيامتك، وننتظر مجيئك الثاني، ونطلب منك الرحمة والحنان، ونسألك مغفرة الخطايا. فلتشمل مراحمك كلّنا)

الكاهن : نحن يا ربّ عبيدك الخاطيين[16] والجاهلين نذكر جميع احتياط تدابيرك المخلّصة، ولمجيك[17] الثاني المخوف الممجّد الذي منه نفزع ونرتعد. طِلبه وتخشُّع لك نقدّم، ومنك لابوك[18] نتضرّع إذ نقول:

الشعب : ܪܚܡܥܠܝܢ [ܐܒܐ ܐܚܝܕ ܟܠ. ܪܚܡ ܥܠܝܢ] (إرحمنا أيُّها الآب الضابط الكلّ، إرحمنا)

الكاهن : ܐܦ ܚܢܢ [ܡܚ̈ܝܠܐ ܘܚ̈ܛܝܐ ܥܒ̈ܕܝܟ ܡܪܝܐ. ܟܕ ܡܩܒܠܝܢ ܛܝܒܘܬܟ. ܡܘܕܝܢ ܠܟ ܚܠܦ ܟܠܗܝܢ ܘܥܠ ܟܠܗܝܢ] (نحن أيضًا، يا ربُّ، أبناءَك الخطأة، فيما نقبل نِعَمَك، نشكرك عنها ومن أجلها كلِّها)

الشعب : ܠܟ ܡܫܒܚܝܢ [ܠܟ ܡܒܪܟܝܢ. ܠܟ ܣܓܕܝܢ. ܠܟ ܡܘܕܝܢ ܘܡܢܟ ܒܥܝܢ. ܚܘܣ ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܘܐܬܪܚܡ ܥܠܝܢ ܘܥܢܝܢ ܠܢ] (إيَّاك نسبِّح. إيَّاك نمجِّد. إيَّاك نبارك. لك نسجد. بك نعترف. ومنك نطلب: فاشفق أللهمَّ علينا وارحمنا واستجب لنا)

الكاهن : ܫܠܡܐ [--].

الشمّاس : ܐܬܪܟܢܘ [--]

(١٣) وتوضع الكأس موضعها وتُغطَّى.
(١٤) وتقدَّم.
(١٥) تتلذَّذون.
(١٦) الخاطئين.
(١٧) مجيئك.
(١٨) لأبيك.

«دعوة الروح القدس»

ܡܳܐ ܕܚܺܝܠܳܐ [ܗ̱ܝ ܫܳܥܬܳܐ ܚܰܒܺܝܒܰܝ. ܕܒܳܗ̇
ܪܽܘܚܳܐ ܕܩܽܘܕܫܳܐ ܚܰܝܳܐ ܘܢܳܚܶܬ ܘܫܳܪܶܐ ܥܰܠ
ܩܽܘܪܒܳܢܳܐ ܗܳܢܳܐ ܕܣܺܝܡ ܠܩܽܘܕܳܫܰܢ. ܩܽܘܡܘ
ܡܨܰܠܶܝܢ ܘܡܣܓܕܝܢ ܒܫܶܠܝܳܐ ܘܒܕܶܚܠܬܳܐ] (ما أرهبها ساعة، أحبَّائي، ينحدر فيها الروح الحيُّ القدُّوس، ويحلُّ على هذا القربان الموضوع لتقديسنا، فلنقف مصلِّين خاشعين)

الكاهن : (ܩܳܪܶܐ ܒܩܳܠܳܐ:) (دعوة الروح) ܪܽܘܚܳܐ ܕܩܽܘܕܫܳܐ (الورقة ١٩٢) ܫܰܕܰܪ ܡܳܪܝܳܐ ܡܶܢ ܡܰܥܡܪܳܟ ܩܰܕܺܝܫܳܐ. ܘܬܶܓܶܢ ܘܬܶܫܪܶܐ ܥܰܠ ܐܪܳܙܳܐ ܗܳܢܳܐ ܘܬܶܗܘܶܐ ܗܳܢܳܐ ܠܗ ܕܢܐ ܘܡܢ ܠܐ ܥܢܝܢ. (أرسِلْ يا ربُّ الروح القدُّوس من مقرِّك المقدَّس، وليحلَّ ويستقرَّ على هذا السرّ)

(ويركع ويقول:) ܥܢܺܝܢܝ ܡܳܪܝܳܐ. (إستجِبْني يا ربّ)

الشعب : ܩܘܪܝܐܠܝܣܘܢ. (كيرياليسون)

[الكاهن :] ܘܢܶܥܒܕܝܘܗܝ ܠܠܰܚܡܳܐ ܗܳܢܳܐ ܦܰܓܪܳܐ ܕܡܫܺܝܚܳܐ ܐܠܳܗܳܐ ܕܝܠܰܢ. ܢܶܗܘܶܐ ܕܢܶܗܘܶܐ ܠܦܽܘܪܩܳܢܳܐ ܕܝܠܰܢ. (وليجعل هذا السرَّ جسد المسيح إلهنا، ليكون لخلاصنا)

الشعب : آمين.

الكاهن : ܘܢܶܥܒܕܝܘܗܝ ܠܟܳܣܳܐ ܗܳܢܳܐ ܕܡܳܐ ܕܡܫܺܝܚܳܐ ܐܠܳܗܳܐ ܕܝܠܰܢ. ܢܶܗܘܶܐ ܕܢܶܗܘܶܐ ܠܦܽܘܪܩܳܢܳܐ ܕܝܠܰܢ. (وليجعل هذه الكأس دمَ المسيح إلهنا، ليكون لخلاصنا)

الشعب : آمين.

الكاهن : لكيما جميع الذين يشتركون بهم[19] يكونوا وارثين ملكوت السما[20] وفي حياة الجديدة مع قدِّيسيك نتلذذ[21] ونصعد لك.

«التذكارات»

(سرًّا:) ܠܪ̈ܳܥܰܘܳܬܳܐ ܘܡܕܰܒܪ̈ܳܢܶܐ ܕܥܺܕܬܳܐ. ܘܠܟܽܠܶܗ ܬܰܓܡܳܐ ܟܗܰܢܳܝܳܐ. ܐܶܬܕܟܰܪ ܡܳܪܝܳܐ. (للرعاة ومدبِّري البيعة، وكلِّ الجسم الكهنوتي، أُذكُرْ يا ربّ)

(يرفع صوته:) أضي[22] لنا يا ربّ بنور تعاليمك الإلهيَّة، وأوقات صالحة وحياة هادية[23] وسلامًا وافرًا إمنحنا، ونصعد لك.

(سرًّا:) ܠܥܰܡܳܟ ܡܗܰܝܡܢܳܐ ܘܫܰܪܺܝܪ ܫܽܘܒܚܳܐ ܕܩܳܐܶܡ ܒܕܽܘܟܬܳܐ ܗܳܕܶܐ ܘܒܟܽܠ ܕܘܽܟ. ܐܶܬܕܟܰܪ ܡܳܪܝܳܐ. (أُذكُرْ يا ربُّ شعبَك المؤمن والمستقيم المجد، القائم في هذا المكان وفي كلِّ مكان)

(يرفع صوته:) للمتعوبين[24]، وللمطرودين، وللمرضا[25]، وللحزينين[26]، وللمساكين وللمعتازين، وللغربا، وللبايسين، ولليسرا[27]، وللشحّادين، وللأيتام، (الورقة ٩٢ب) وللأرامل أقيت[28]، ودبِّر بمراحمك يا ربّ. ونصعد لك.

(سرًّا:) ܠܡܰܠܟܶܐ ܡܗܰܝܡܢܶܐ ܘܫܰܠܺܝܛܳܢܶܐ ܥܳܒ̈ܕܰܝ ܨܶܒܝܳܢܳܟ ܐܶܬܕܟܰܪ ܡܳܪܝܳܐ. (أُذكُرْ يا ربُّ الملوك المؤمنين والحكَّام صانعي إرادتك)

(يرفع صوته:) ولنا أعطي[29] وامنح بنعمتك يا ربّ حياة هاديه ولذيذه حتّى نعيش قدّامك، وفي الرحمه ننتظر بأعين الذين يدبّرونا[30]، ونصعد لك.

(سرًّا:) ܠܒܬܽܘܠܬܳܐ ܝܳܠܕܰܬ ܐܠܳܗܳܐ. ܘܠܝܽܘܚܰܢܳܢ ܡܰܥܡܕܳܢܳܐ . (البتول والدة الله، ويوحنَّا المعمدان)

---

(١٩) بها.
(٢٠) السماء.
(٢١) نتلذَّذ.
(٢٢) أضئْ.
(٢٣) هادئة.
(٢٤) المتعبين.
(٢٥) المرضى.
(٢٦) والحزانى.
(٢٧) وللغرباء، وللبائسين وللأسرى.
(٢٨) قُتْ.
(٢٩) أعطِ.
(٣٠) يدبِّروننا.

(يرفع صوته:) في طلبات وفي تضرُّعات أوليك[٣١] الذين في تدابير العدل أرضوك أهّلنا. ولجزوهم[٣٢] وقرعتهم يا ربّ، ونصعد لك.

(سرًّا:) ܠܐܒܗ̈ܬܐ ܩܕ̈ܝܫܐ ܘܡܠܦ̈ܢܐ ܒܚ̈ܝܪܐ ܘܬ̈ܪܝܨܝ ܫܪܪܐ. ܐܬܕܟܪ ܡܪܝܐ. (أُذكُرْ يا ربُّ الآباء القدِّيسين والملافنة الممتحنين والمطَّلعين على الحقّ)

(يرفع صوته:) وعلى أساس الأمانة المستقيمة المجد الذي للأربع مجامع القدِّيسين حقّق إلى جمعنا بنعمتك يا ربّ.

(سرًّا:) ܠܐܒܗ̈ܝܢ ܘܐܚ̈ܝܢ ܘܪ̈ܒܝܢ. ܘܠܟܠܗܘܢ ܥܢܝ̈ܕܐ ܡܗܝܡ̈ܢܐ. ܐܬܕܟܪ ܡܪܝܐ. (أُذكُرْ يا ربُّ آباءَنا وإخوتَنا ومعلِّمينا، وجميع الموتى المؤمنين)

(يرفع صوته:) والغير مقبوضين إلى قوّات الظلمه أرويهم، ومن المَسْك الذي لأرواح الشرِّيره (الورقة ٩٣أ) نجِّهم. وأشرقِ علينا وعليهم نور ابنك الوحيد الذي بوصاطته[٣٣] نحن نترجًّا أن نوجد الرحمه وغفران الخطايا الذي لنا ولهم.

الشعب : ܐܝܢ [ܐܝܢ ܐܝܟ ܘܗܫܐ ܘܡܘܕܐ ܠܐܠܗܐ ܡܫܒܚܬܐ ܘܡܘܪܐ ܐܕܟܠܝ. ܐܘ ܡܪܚܡܢܐ ܐܘܦ ܠܢ

ܚܘܣ ܐܠܗܐ] (أرحَم اللهمَّ، واغفِرْ خطايانا التي اقترفناها بمعرفةٍ وبغير معرفة)

الكاهن : إسمع لنا أيُّها الربّ لأجل كثرة مراحمك. وخلِّص لنا ولهم من الحكم المزمع. ومن العذاب المحفوظ للمنافقين. لكيما أيضًا بهذا وفي الجميع يتمجّد ويمتدح اسمك المعظَّم بالكلّ والمبارك مع سيِّدنا يسوع المسيح وروحك الحيّ القدُّوس من الآن وإلى كلّ أوان وإلى دهر الداهرين.

الشعب : ܐܝܟܢܐ [ܕܐܝܬܘܗܝ ܗܘܐ ܘܐܝܬܘܗܝ ܘܡܩܘܐ ܠܕܪ ܕܪܝܢ ܘܠܥܠܡ ܥܠܡܐ ܕܥܠܡܝܢ ܠܥܠܡܝܢ ܐܡܝܢ] (كما كان هو الآن هكذا يكون إلى الأبد)

الكاهن : ܫܠܡܐ ܠܟܠܟܘܢ (السلام لجميعكم)

الشعب : ܥܡ ܪܘܚܐ ܕܝܠܟ ܐܒܘܢ (مع روحك يا أبانا)

الكاهن : ܢܘܗܝ [..]

الشمّاس : ܟܪܘܙܘܬܐ (الكرازة)

«رتبة الكسر»

الكاهن : ܡܩܪܒܝܢ ܘܩܨܝܢ [ܘܡܩܪܒܝܢ ܠܚܡܐ ܫܡܝܢܐ ܐܘܟܪܣܛܝܐ ܘ ܦܓܪܐ ܕܡܠܬܐ ܘܡܠܬܐ ܐܠܗܐ ܚܝܐ] (آمنَّا وتقدَّمنا. نختم ونكسر هذا القربان، الخبز السماوي جسد الكلمة الإله الحيّ)

«الصلاة الربيَّة»

(وأيضًا صلاة أبونا[٣٤] الذي في السماوات)

أللهمَّ ربَّنا العظيم القويّ ذلك الذي أنت بمحبّة ناسوت ابنك الوحيد دعيتنا وقدّمتنا لمواهبك الإلهيَّة الذي[٣٥] بوصاطتها[٣٦] نحن أيُّها الآب لك (الورقة ٩٣ب) ممجِّدين ولروحك القدُّوس ساجدين. ولصلاة الربَّانيَّة تلك الذي[٣٧] علَّمنا ابنك الوحيد معظّمين. إذ في صفاوة العقل وبتظيف اللسان، وبنقاوة الجسد وبنفس مقتنيه دالّة، نقدر ندعيك أللهمَّ الآب السماوي ضابط الكلّ القدُّوس، ونصلّي ونقول أبونا الذي في السماوت.

(٣١) أولئك.
(٣٢) ولجزائهم.
(٣٣) بواسطته.
(٣٤) أبانا.
(٣٥) التي.
(٣٦) بواسطتها.
(٣٧) التي.

أمّا الرسائل البولسيَّة فترد مرّات عديدة، سواء تلك التي كتبها بيده أو بيد معاونيه، أو تلك التي دُوِّنت بعده. وما نلاحظ هو حضور الرسالة إلى العبرانيّين التي تعتبرها الكنيسة الأنطاكيَّة بولسيَّة، شأنها شأن سائر الرسائل.

"ثمَّ، بما أنَّه أعطانا فريضة هامَّة، وأمرنا بأن نتخلّى عن كمالنا الشخصيّ، لكي نقوِّم ضعف القريب، عاد أيضًا وذكر مثَل المسيح: "فالمسيح لم يطلب ما يرضيه" (رو ١٥: ٣). وذاك كان موقف بولس الدائم. لأنَّه حين تحدَّث عن الرحمة أشار إليه: "فأنتم تعرفون سخاء ربِّنا الذي كان غنيًّا فصار فقيرًا من أجلكم" (٢ كو ٨: ٩). وحين دعا الأفسسيّين إلى المحبَّة، دعاهم فأعطاهم مثله: "كما المسيح أحبَّكم" (أف ٥: ٢٥). وحين نصح العبرانيّين (الذين كتب إليهم رسالته) بأن يحتملوا العار والأخطار، لجأ أيضًا إلى المسيح: "تحمَّل الصليب مستخفًّا بالعار، من أجل الفرح الذي ينتظره" (عب ١٢: ٢).

وخلال شرحه لهذه الرسالة، عاد إلى العهد القديم، ولا سيّما إلى سفر المزامير التي يمكنها أن تنطبق على المسيح. وما نسيَ بداية سفر التكوين وما يتعلَّق بإبراهيم والأنبياء، وهذا ما نذكره في المقطع الآتي.

ج- وجوه من الكتاب

بما أنَّ يوحنّا يقدِّم "درسًا" للمؤمنين، فهو يحتاج أن يقدِّم لهم أمثلة حيَّة. سبق وذكرنا دانيال والفتية الثلاثة في أتون النار. كما أشرنا إلى إبراهيم بشكل عابر. وها نحن نقدِّم بعض هذه الوجوه، في العهد القديم أوَّلاً، ثمَّ في العهد الجديد.

أوَّلاً: من العهد القديم

في معرض الكلام عن آدم الأوَّل وآدم الثاني، أطلَّ وجه آدم: "لهذا يكون آدم صورة نبويَّة عن المسيح. وتقولون: كيف ذلك؟ أوَجْهٌ نبويّ؟ فكما صار آدم من أجل نسله مع أنَّهم لم يأكلوا من ثمر الشجرة، علَّة موتهم، حين أكل الثمرة المحرَّمة، كذلك المسيح صار للبشر، أبنائه، سيِّد البرّ مع أنَّهم لم يمارسوا البرّ".

ذاك ما قال يوحنّا في العظة العاشرة، مشدِّدًا على عصيان آدم تجاه طاعة المسيح، بحيث حمل الأوَّل الخطيئة والثاني النعمة. ثمَّ أعطى أمثلة عن الإيمان، فذكر راحاب وإبراهيم، كما هو وارد في الرسالة إلى العبرانيّين: "بالإيمان راحاب الزانية لم تهلك مع اللامؤمنين، لأنَّها استقبلت الجواسيس بسلام" (عب ١١: ٣١). لو أنَّها قالت: كيف يستطيع هؤلاء العبيد الفارّون أن يغلبونا في مدننا وأسوارنا وبروجنا، لكانت هلكت هي والجواسيس. وإبراهيم هو البارّ الذي تلقّى أمر الربّ وما جادل. تقبَّل الوصيَّة بسبب كرامة الذي أمر بها، وأطاع. وقال يوحنّا: "قولوا لي، أيَّ عبث مثل عبث أن نرى والدًا يذبح ولده الوحيد، ابن لحمه الوحيد، الذي ولدَه!".

وفي كلام عن الضيافة، برز مثل الشونميَّة التي استضافت أليشاع أو إبراهيم الذي "استضاف الملائكة" كما قالت أيضًا الرسالة إلى العبرانيّين.

"لهذا أضاف: "شاركوا في حاجات القدّيسين" (رو ١٢: ١٣). هو ما قال: "تعالوا لمساعدتهم في حاجاتهم"، بل شاركوا في حاجاتهم للدلالة على أنَّهم يأخذون أكثر ممّا يعطون، وعلى أنَّهم أمام بيع وشراء لأنَّ هذا مشاركة: تحملون الفضَّة فيحملون لكم قول الله الأكيد: مارسوا الضيافة وامضوا باحثين عنهم. ما قال: "مارسوا الضيافة، بل مارسوها وامضوا في طلبهم"، لكي يعلِّمنا أنَّه لا ينبغي أن ننتظر أن يأتي إلينا أولئك الذين يحتاجون إلينا، بل ينبغي علينا أن نسرع إلى لقائهم ونمضي فنبحث عنهم. ذاك ما صنعه لوط وإبراهيم. فإبراهيم أمضى نهاره منتظرًا هذه "الطريدة" الحلوة. وحين شاهدها انطلق

إلى لقائها، وخضع إلى الأرض وقال: "يا سيِّدي، إن وجدتُ حظوة في عينيك، فلا تعبر بعيدًا عن عبدك...".

"وكم من الأرامل في إسرائيل، ولكن ما من أرملة استقبلت إيليّا. وكم من الأغنياء أيضًا في زمن أليشاع! ولكنَّ الشونميَّة وحدها قطفت ثمرة الضيافة وذاك ما فعله إبراهيم بسخاء وحماس. إذًا، ينبغي أن نعجَب به لأنَّه قدَّم الضيافة دون أن يعلم من الذي يحلُّ عنده. فلا تطرحوا بعد اليوم سؤالاً، لأنَّكم تستقبلون المسيح".

وأيّوب الذي اشتهر بصبره. كما غلب إبليس حين أطلَّت التجربة وعرف كيف يشكر الله في الغنى كما في الضيق. وننهي مع شخص داود. ففي قلب العظة الثامنة، كان كلام عن الإيمان والأعمال:

"بعد هذا العمل (الذي نقرأه) في خبر إبراهيم، ذكر بولس أيضًا خبر داود، لكي يثبت ما قال. ماذا قال داود؟ ومن هو الذي يعلنه سعيدًا؟ أذاك الذي يفتخر بأعماله، أو ذاك الذي نال النعمة وحصل على الغفران والموهبة؟..."

ثانيًا: من العهد الجديد

نقدِّم أوَّل ما نقدِّم شخص بولس: "توسَّع قلبي" (٢كو ٦: ١١). غير أنَّ هذا القلب الواسع جدًّا كان يضيق مرارًا، وينقبض بهذا الحبِّ الذي يوسِّعه: "كتبتُ إليكم وقلبي يفيض بالكآبة والضيق" (٢كو ٢: ٤).

"أودُّ أن أرى غبار هذا القلب المنفجر، الذي يحترق حبًّا لجميع الذين يهلكون، هذا القلب المريض حين يلد مرَّة أخرى أولاد سقطٍ، هذا القلب الذي كان يرى الله، لأنَّه قيل: "طوبى لأنقياء القلوب، لأنَّهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨).

"غبار هذا القلب الذي صار ضحيَّة: "ذبيحتي لله روح منسحق" (مز ٥٠: ١٩). غبار هذا القلب الأرفع من السماء، الأوسع من الأرض، الأشعّ من شعاع الشمس، الأكثر حرًّا من النار، الأمتن من الماس، هذا القلب الذي منه تجري أنهار ماء حيّ، لأنَّه قيل: "من جوفه تجري أنهار ماء حيّ" (يو ٧: ٣٨).

"غبار هذا القلب الذي منه جرى ينبوع يسقي نفوس البشر، لا وجه الأرض (تك ٢: ٦). الذي منه سالت لا أنهار فحسب، بل سيول الدموع على مدِّ الأيّام والليالي. هذا القلب الذي عاش من الحياة الجديدة، لا من حياتنا. أنا أحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ" (غل ٢: ٢٠).

"قلب المسيح، ذاك ما كان قلبُ بولس، لوحة الروح القدس وكتاب النعمة، الذي ارتجف لخطايا الآخرين. لأنّي "خفتُ أن أكون تعبتُ عبثًا لأجلكم" (غل ٤: ١١). "أخاف أن تزوغ ضمائركم عن الصدق والولاء الخالص للمسيح، مثل حوّاء التي أغوتها الحيَّة بحيلها" (٢ كو ١١: ٣). ولكن بالنسبة إليه (إلى بولس)، شعر هذا القلب بمخافة ممزوجة بالثقة: "أخاف بعد أن ناديتُ الآخرين بإنجيل المسيح أن أكون من الخاسرين" (١ كو ٩: ٢٧). ولكن أيضًا: "وأنا على يقين أن لا الملائكة ولا الرئاسات تستطيع أن تفصلنا" (رو ٨: ٣٨). أودُّ أن أرى هذا القلب الذي استحقَّ أن يحبَّ المسيح، كما لم يحبَّه أحدٌ في العالم، الذي احتقر الموت والجحيم، الذي تحطَّم حين رأى دموع إخوته: "ما لكم تبكون وتحطِّمون قلبي؟".

ويتواصل مديح بولس بفم الذهبيّ الفم: "هذا القلب الصبور الذي لم يعد يصبر حين خاف تراجعَ التسالونيكيّين". ويودُّ الواعظ أن "يرى غبار هاتين اليدين المقيَّدتين"، و"غبار هاتين القدمين اللتين جالتا الأرض كلَّها وما تعبتا". أودُّ أن أرى أسد الروح هذا الذي انقضَّ على زمرة الأبالسة والفلاسفة. كان بولس من طبيعتنا وشابهنا في كلِّ شيء. ولكنَّه دلَّ على حبٍّ كبير للمسيح بحيث ارتفع فوق السماوات واتّخذ مكانًا وسط الملائكة. فإن أردنا أن نرتفع بعض

الشيء ونُشعل فينا هذه النار، نستطيع أن نمشي في خطى هذا القدّيس. فلو لم يكن ذلك ممكنًا، لما كان تفوّه بهذه الكلمات: "إقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح" (١كو ١١: ١).

"إذًا، لا يكفي أن نُعجَب به ونبقى مخطوفين، بل ينبغي علينا أن نقتدي به لنستحقّ أن نراه، حين نترك الحياة الأرضيَّة، نستحقّ أن نقاسمه مجده اللاموصوف. يا ليتنا نقاسمه كلُّنا هذا المجد بنعمة ومحبَّة ربِّنا يسوع المسيح الذي له ولأبيه وللروح القدس المجد والقدرة والإكرام، الآن وعلى الدوام وإلى دهر الدهور. آمين".

هكذا تنتهي العظة وما فيها من مديح لبولس الرسول الذي يكون مثالاً للمؤمنين. ولكنَّ المثال الأعلى للمؤمنين يبقى يسوع المسيح. ففي كلِّ عظة يدعوه الواعظ أمامنا: في حياته كما في آلامه وموته وقيامته. وفي معرض الكلام عن إعلان الإنجيل في العظة الأولى، يعيدنا الرسول إلى الكتب المقدَّسة، ويحدِّثنا عن ذاك الذي هو ابن داود وفي الوقت عينه ابن الله.

"ما اكتفى الأنبياء بأن يتكلَّموا، بل كتبوا ما قالوا. "ما كتبوا فقط، بل صوَّروا في شكل عمليّ. مثل إبراهيم الذي قاد إسحاق (إلى الذبح)، أو موسى الذي رفع الحيَّة، أو مدَّ يديه على عماليق، أو ذبح الحمل الفصحيّ.

في شأن ابنه الذي، في الجسد، جاء من نسل داود (١: ٣). ماذا تفعل يا بولس؟ بعد أن رفعت نفوسنا إلى العلاء، بعد أن جعلتنا نستشعر الأسرار الكبيرة، بعد أن حدَّثتنا عن الإنجيل، إنجيل الله، بعد أن أدخلتَ جوق الأنبياء وبيَّنت أنَّهم أنبأوا بالمستقبل منذ زمن طويل، كيف تعيدنا إلى داود؟ قل لي: عن أيِّ إنسان تتكلَّم؟ من تعطي أبًا لابن يسّى؟ وما هي العلاقة مع ما قلت في ما سبق؟

"ولكنَّه يقول لنا: هذا ما نريده في الحقيقة، لأنَّنا لسنا أمام إنسان عاديّ. لهذا أضفتَ "بحسب الجسد"، فلمَّحتَ إلى ولادة أخرى بحسب الروح...

"وفي الروح القدس ثبت أنَّه ابن الله..." (١: ٤).

"ماذا يقول إذًا؟ نحن نعظ بمن وُلد من داود. هذا واضح. ولكن من أين يأتي أن يكون أيضًا ابن الله الذي تجسَّد؟ السبب الأوَّل يأتي من الأنبياء. لهذا قال: "سبق ووعد به بواسطة الأنبياء في الكتب المقدَّسة". مثل هذا البرهان له أهمِّيَّته. السبب الثاني يأتي من طريقة الولادة: "من نسل داود بحسب الجسد". فولادته تتنكَّر لنواميس الطبيعة. والثالث يأتي من المعجزات التي أجرى ليعطي البرهان

على قدرته الفائقة. ذاك هو معنى لفظ "القدرة". والرابع يخرج من الروح القدس الذي أعطاه الذين يؤمنون به، الذي به يجعلنا جميعًا قدّيسين. لهذا قال: "بحسب روح القداسة؛ فالله وحده بمقدوره أن يمنح مثل هذه المواهب. وأخيرًا، السبب الخامس يأتي من قيامة المسيح، لأنَّه الأوَّل والوحيد الذي قام بذاته، وتلك علامة فاعلة لتُقفل فم الوقحين، لأنَّه قال: "دمِّروا هذا المعبد وأنا أقيمه في ثلاثة أيّام" (يو ٢: ١٩). وأيضًا حين ترفعون ابن الإنسان تعرفون أنّي أنا هو" (يو ٨: ٣٩).

فماذا يعني أقيم ابن الله؟ "عُيِّن، سُمِّي"، حُسب، عُرف في استفتاء عام، بالأنبياء، بولادته المخالفة لكلِّ ما نتوقَّع، بحسب الجسد، بقدرته التي في الآيات، بالروح الذي بواسطته منح التقديس، بالقيامة التي بها دمَّر طغيان الموت".

مقطع رائع، فيه الإثبات من العهد القديم، والإيرادات من العهد الجديد؛ فيه العقيدة والنظرة إلى المسيح، شرح فيه يوحنّا النصّ كلمة كلمة ليسِّهل الفهم على السامعين.

الخاتمة

رافقنا يوحنّا الذهبيّ الفم في شرح الرسالة إلى رومة، بشكل عظات قيلت

العربيّة

«ثم انطلقت إلى العربية» (غلا ١/١٧)

نشرة غير دوريّة تصدر عن مطرانيّة بصرى حوران وجبل العرب والجولان للرّوم الأرثوذكس

القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم مسيحاً من المسيح

الأرشمندريت توما (بيطار)

القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم.. مولده، نشأته وكهنوته

الأرشمندريت جبران (رملاوي)

القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم.. مؤلفاته، أهميته

إيَما غريِّب خوري

من عظات القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم

السنة السابعة (٢٠٠٧) ـ العدد السادس

يشرح بعدُ السبب. لا جدوى من ذلك. وبولس يتوقّف فقط عند الشروح الضروريّة. وقواعد "الحرب" لا تفرض عليه ذلك، كما على اليهوديّ، أن يقول. ولكن إن طلب واحدٌ منكم أن يعرف هذا الجواب، نقول لهم إنّنا لم نخسر شيئًا بأن نموت ويُحكَم علينا، شرط أن لا نسيء إلى ذواتنا، بل إنّنا ربحنا بأن نكون مائتين. ربحنا أوّلاً بأن لا نخطأ في جسد لامائت، ثمَّ بأن ننال ألف مناسبة لممارسة الحكمة، فالاعتدال والحكمة والعفّة والابتعاد عن كلِّ شرّ، هي الدروس من حضور الموت وقرب حدوثه.

"بالإضافة إلى ذلك، يعطينا الموتُ أمورًا أخرى أكثر أهمِّيَّة وتفضيلاً على تلك: فهي في أصل سعف الشهداء، وإكليل الرسل. هكذا تبرَّر هابيل، هكذا تبرَّر إبراهيم بذبح ابنه. هكذا يوحنّا (المعمدان) الذي مات لأجل المسيح. هكذا الفتية الثلاثة ودانيال. وإذا شئنا، ليس الموت فقط من لا يقدر أن يسيء إلينا، بل الشيطان نفسه أيضًا.

"ثمَّ يجب أن نقول أيضًا إنّنا ننال اللاموت (أو: الخلود)، وإنّنا، بعد أوقات قليلة من المحنة، ننعم بحرّيَّة تامَّة بالخيرات الآتية وكأنَّ حياتنا الحاضرة هي مدرسة تدريب، حيث المرضى والضيقات والتجربة والفقر وكلُّ ما يبدو لنا مخيفًا، حيث كلُّ هذا يعلِّمنا أن نستحقَّ الخيرات الآتية".

أطلنا الكلام في هذه العظة (العاشرة) لما فيها من لاهوت عميق، ومن نظرة إلى النعمة التي نالها بعد الخطيئة التي فُرضت علينا. ولاحظنا مناخ الصراع مع العالم اليهوديّ الذي كان فاعلاً جدًّا في تلك الحقبة، مع تلمود أوّل ظهر في فلسطين، وتلمود آخر سيظهر في القرن الخامس في بابل، وفيه ما فيه من تهجُّم على المسيحيّين وعقائدهم، ولا سيَّما بتوليَّة مريم، وقيامة الربِّ يسوع الذي لا يُعتبَر نبيًّا بين الأنبياء ولا بارًّا، بل هو ابن زانية. وفي إطار تنبيه المؤمنين، تُرسَم وجوه من العهد القديم، بدءًا بهابيل وصولاً إلى يوحنّا المعمدان. هؤلاء ماتوا، لا شكَّ في ذلك، ولكنَّهم نالوا الإكليل كما شهداء العهد الجديد والرسل.

ب- الله يعمل مع الذين يحبّونه

ذاك هو عنوان العظة الخامسة عشرة حول الرسالة إلى رومة، وموضوعها عناية الله ومحبَّته في المسيح.

"هنا يبدو لي هذا المقطع وكأنَّه يتوجَّه كلُّه إلى الذين يواجهون الأخطار، لا هذا المقطع فقط، بل أيضًا كلُّ ما ذكرناه أعلاه: "آلام الزمن الحاضر لا توازي المجد الذي سيظهر فينا" (٨: ٢٨). "الخليقة كلُّها تئنّ" (آ٢٢). "ففي الرجاء كان خلاصنا" (آ٢٤). بالصبر ننتظره" (آ٢٥). "لا نعرف أن نصلّي كما يجب" (آ٢٦).

"جميع هذه الأقوال موجَّهة إليهم. لأنَّ بولس يعلِّمهم ألاّ يختاروا بشكل منهجيّ ما يعتبرونه مفيدًا، بل ما يلهمهم الروح به، فيحصل مرارًا أنَّ هذه الفائدة الظاهرة لا تحمل إلاّ الأضرار. هم يحسبون إحسانًا، حياة هادئة، بعيدة عن الأخطار. لا عجب إن فكَّروا كذلك، إذ إنَّ بولس نفسه شارك في هذا الرأي عينه. غير أنَّه تعلَّم في ما بعد أنَّ العكس هو ما يفيد، ولبث هذا الوعيُ عزيزًا على قلبه. صلّى ثلاث مرّات إلى الربِّ أن يبعد عنه الأخطار، حينئذٍ سمعه يقول: "تكفيك نعمتي، لأنَّ قدرتي تكمل في الضعف" (٢ كو ١٢: ٩). بعد ذلك، ابتهج في الاضطهاد والإهانة واحتمل ما لا يُحتمل.

"لذلك أنا أرضى بالضعف والإهانة والضيقات" (٢كو ١٢: ١٠). ولذلك قال لهم: "لا نعرف أن نصلّي كما يجب". ولهذا حثَّهم جميعًا على الاستسلام إلى الروح، لأنَّ الروح القدس يعتني عناية كبيرة بنا، وهذا ما يُرضي الله".

أجل، يستسلم المؤمن. فالله يدبِّر الأمور لخيرنا. الله يعتني بنا. قال الرسول: "نحن نعرف أنَّ الله يوجِّه كلَّ شيء لخير الذين يحبّونه" (٨: ٢٨). وشرح يوحنّا: "بهذا اللفظ "كلّ" فهم بولس أيضًا كلَّ ما يبدو لنا نكبة ومصيبة: الضيق، الفقر، السجن، الجوع، الموت أو أيّ شرٍّ آخر. فالله يقدر أن يقلب الأوضاع قلبًا تامًّا لأنَّ علامة قدرته اللاموصوفة تقوم في تخفيف ما ندعوه أثقالاً وفي تحويلها

إلى مناسبات خلاص. لهذا هو ما قال: "لا يحصل شرٌّ للذين يحبّون الله"، بل: "كلُّ شيء يعمل من أجل خيرهم"، أي إنَّ الله يستعمل هذه الشرور عينها لكي يمجِّد الذين ينالون الاضطهاد".

احتاج الواعظ إلى مثَل حيّ، فعاد إلى العهد القديم مع الفتية الثلاثة في أتون النار في بابل (دا ٣: ١٩-٢٥). قال: "ذاك كان وضع أتون بابل. لم يمنع الله أن يُرمى فيه القدّيسون الثلاثة. وحين رُموا لم يمسَّهم اللهيب: تركه يشتعل لكي يجعلهم أهلاً للدهش بواسطة هذه المحنة. وحقَّق أيضًا، بالنسبة إلى الرسل، المعجزات عينها في كلِّ الظروف. فإذا استطاع أناس تنشَّأوا على الفلسفة (الرواقيّون) أن يحوِّلوا الطبيعة إلى ما يعاكسها، مثلاً أن يَحيوا في الفقر ويبدون أكثر ارتياحًا من الأغنياء، أو أيضًا أن يستخرجوا المجد من احتقار به يُحتقَرون، فكم بالأحرى يفعل الله من أجل الذين يحبّونه، ويزيد!".

شرط واحد لكي تتمَّ عناية الربّ: أن نحبَّه بصدق. وبعد مثَل من العهد القديم، ها هو مثل يسوع المسيح الذي يفهمنا الضرر الذي يناله من لا يحبُّ الله.

"أنظروا اليهود: فظهور عجائبه (= يسوع) واستقامة معتقده، وحكمة تعليمه، سبَّب هلاكهم؛ فبسبب عجائبه، دعوه "حليف إبليس". بسبب معتقده، دعوه "عدوَّ الله". ولقاء هذه العجائب سعوا إلى قتله. فبالرغم من صليبه، وبالرغم من قيوده، وبالرغم من الشتائم، فاللصّ الحامل ألف فظاعة لم ينل سوءًا، بل نعم بفائدة كبيرة. فانظروا "كيف يوجِّه الله كلَّ شيء لخير الذين يحبّونه".

٣- القسم الأخلاقيّ

في الفصل الحادي عشر ينتهي الرسول من القسم العقائديّ ويبدأ بالقسم الأخلاقيّ: "فأناشدكم، أيُّها الإخوة، برأفة الله، أن تجعلوا من أنفسكم ذبيحة حيَّة، مقدَّسة..." (١٢: ١). ويتواصل القسم الأخلاقيّ حتّى الفصل الخامس عشر. وبما أنَّ الذهبيَّ الفم هو الراعي الذي يهمُّه سلوك القطيع، توسَّع في هذا القسم وأطال: إحدى عشرة عظة. أمّا نحن فنقرأ فقط العظة الحادية والعشرين وموضوعها المحبَّة، حيث الأعضاء الكثيرون يعملون معًا، في الجسد الواحد، مهما تعدَّدت "وظائفهم". أمّا نقطة الانطلاق فهي الجسد الواحد:

"استعمل بولس أيضًا التشبيه الذي استعمل في الرسالة إلى كورنتوس لكي يلجم الرذيلة عينها. فكبيرة هي قدرة هذا الدواء، وكبيرة قوَّة هذا المثل للشفاء من هذا الجنون المرَضيّ... لماذا تنتفخون كبرياء؟ ومقابل هذا، لماذا تحتقرون نفوسكم؟ أما نحن كلُّنا جسد واحد موحَّد، صغارًا وكبارًا؟ وبما أنَّنا جسد واحد مرتبط برأس واحد وأعضاء بعضنا لبعض، لماذا يمزِّقنا هذا الجنون؟ لماذا نستحي من أخينا؟ فكما هو عضوُك، أنت عضوُه.

"هكذا يكون التعبير عن الشرف المتساوي والعظيم. ويقدِّم لنا بولس برهانَين يستطيعان أن يقتلعانا من هذا الجنون: أوّلاً، نحن أعضاء بعضنا لبعض، لا أنَّ الكبير فقط يضمُّ الصغير، بل أنَّ الصغير يضمُّ الكبير أيضًا. ثمَّ نحن كلُّنا جسد واحد موحَّد، بل أفضل من ذلك، قدَّم لنا بولس ثلاثة براهين: بيَّن لنا أنَّ موهبة واحدة أعطيَت لنا. فلا تنتفخوا كبرياء، لأنَّ الموهبة جاءت من الله، وأنتم لا اقتنيتموها ولا وجدتموها. وإذ عالج تيمة (thème) المواهب، لم يقل: واحد نال موهبة أكبر وآخر موهبة أصغر، بل: (موهبة) مختلفة: "فبعضهم هذه وبعضهم تلك" (١كو ٧: ٧).

كلُّ هذا يدعو المسيحيّ إلى التواضع وعيش المحبَّة:

"بعد ذلك، بيَّن كيف تتمُّ هذه الأعمال الحسنة، فذكرَ أمَّ جميع الفضائل: الحبّ المحبّ. "ولتكن المحبَّة صادقة" (١٢: ٩)، لا كذب فيها ولا خداع. فإن كان فيكم هذا الحبّ، لن تحسُّوا حين تصرفون مالكم، ولا حين يتعب جسدكم. لن تحسُّوا بأنَّ كلامكم ثقُل عليكم ولا عرقُكم ولا خدمتكم، بل تحتملون كلَّ شيء بوقار لكي تحملوا العون إلى قريبكم من شخصكم، من

كلامكم أو من أيَّة وسيلة أخرى. وكما طالب بالموهبة ولكن ببساطة، وبالمساعدة ولكن بحرارة، وبالرحمة ولكن بفرح، كذلك ما طالب بالحبِّ فقط، بل بالحبِّ الذي لا رياء فيه.

"هنا يكون الحبّ. فإن كان الحبُّ هنا، فالباقي كلُّه يتبع. فالرحيم يمارس الرحمة بفرح. والمسؤول يمدُّ يد المساعدة بحرارة، لأنَّه يساند نفسه، والمعطي يعطي بسخاء، لأنَّه يعطي نفسَه هذه الموهبة".

ويرد هنا كما في سائر العظات مثل المسيح، خصوصًا عند الصليب:

"أنتم عبيد لذلك الذي يشفي معذِّبه، لذلك الذي كلَّل شاتمه على الصليب عينه. فمن يقدر أن يوازيه؟ شتمه اللصان في البداية، ومع ذلك فتح باب الفردوس لواحد منهما. بكى على الذين استعدُّوا لكي يميتوه. تبلبل، اضطرب حين رأى الخائن، لا لأنَّه هو نفسه سوف يُصلَب، بل لأنَّ يهوذا سوف يهلك. ما يبلبله هو أنَّه رأى مسبقًا شنقَ الخائن، وبعد الشنق القصاص الأبديّ. عرف شرَّه، ولكنَّه تحمَّله حتّى الساعة الأخيرة وما استبعده. أعطاه قبلته. ربُّكم أعطى قبلة، لمس بشفتيه ذاك الذي سوف يريق قريبًا دمه الثمين".

٤- طريقة التفسير عند الذهبيّ الفم

أردنا في ما كتبنا أن نتعرَّف إلى بعض الغنى الذي تزخر به الرسالة إلى رومة. كما اكتشفنا أمثلة من هذه العظات تبيِّن لنا كيف شرح الذهبيّ الفم العهد الجديد، ولا سيَّما رسائل القدّيس بولس، وهو من تفرَّد وشرحها كلَّها، فتميَّز عن جميع آباء الكنيسة في هذا المجال. أمّا الأسلوب الذي أخذ به هذا الشارح الذي رافق تيودور المصيصيّ، وتعلَّم معه لدى ديودور الطرسوسيّ، فهو الأسلوب الأنطاكيّ، الذي يختلف كلَّ الاختلاف عن الأسلوب الإسكندرانيّ؛ فالإسكندريَّة نسيَت الحرف بعض المرّات وراحت حالاً إلى الرمز، بل إلى المعنى التكيُّفيّ لتكتشف في كلِّ تفصيل معنى روحيًّا، خلقيًّا. أمّا أنطاكية التي سار في خطِّها العالم السريانيّ منذ أفرام وصولاً إلى ديونيسيوس برصليبي وإيشوعداد المروزيّ، فبرزت في خمس سمات. الأولى، قراءة النصّ وشرحه عبارة عبارة، مع التوقُّف عند ما يبرز من صعوبات. الثانية، تقديم المتوازيات في عودة إلى سائر الرسائل البولسيَّة والأناجيل مع إيراد ما نحتاج إلى إيراده من نصوص العهد القديم. الثالثة، تقديم الأمثلة من العهد القديم مثل إبراهيم وموسى وأيّوب في توسُّع حول التواضع والضيافة والصبر، ومن العهد الجديد مثل زكّا والغنيّ الجاهل، والرسل وخصوصًا بطرس وبولس، والمثل الأوَّل يبقى يسوع المسيح. الرابعة: البعد الإسكاتولوجيّ والكلام عن الآخرة، في التحريض الأخير. ولكن نعرف أنَّ الآخرة هي في داخل وجودنا على الأرض. وهكذا تبتعد مدرسة أنطاكية، ومعها يوحنّا، عن معارضة بين هذا العالم والعالم الآخر. فلا نظرة ثنائيَّة كما في أسفار الرؤيا والجليان. والسمة الأخيرة هي التطبيق الأخلاقيّ. فالكتاب المقدَّس هو في نظر الذهبيّ الفم، كنز لا ينفد من الدروس الخلقيَّة العالية التي تتيح للمؤمن أن يوجِّه حياته بحسب متطلِّبات الإنجيل. أمّا نحن فنتوقَّف هنا عند السمات الثلاث الأولى.

أ- قراءة النصّ وشرح العبارات التي ترتبط بالتفسير ارتباطًا مباشرًا

في إطار تفسير الرسالة إلى رومة وغيرها من النصوص، نلاحظ كم أنَّ الذهبيّ الفم قريب من النصِّ الكتابيّ. ونحن نستطيع أن نكتشف النصَّ اليونانيّ الذي كان يُقرأ في الكنيسة الأنطاكيَّة خلال القرن الرابع. ونشير هنا بشكل عابر، إلى أنَّ العلماء اكتشفوا تفسير يوحنّا لأشعيا، حين أرادوا أن يبحثوا عن نصِّ السبعينيَّة. والسبب هو أنَّ يوحنّا يورد النصَّ أكثر من مرَّة، لأنَّه يعتبر أنَّ كلامه يُسنِد كلام الله ولا يحلُّ محلَّه.

ونعطي مثلاً أوَّل نأخذه من العظة الخامسة عشرة. أمّا النصّ فهو رو ٨: ٢٨-٣١ وعنوانه: "الجميع مدعوّون". وها نحن ندرج النصِّ الكتابيّ بخط غليظ:

"**أولئك الذين دعاهم حسب قصده**" (٨: ٢٨). نلاحظ سريعًا ما يقوله عن الدعوة. لماذا لم يدعُ الله جميع البشر منذ البداية؟ ولماذا لم يدعُ بولس في الحال مع الآخرين، لأنَّ هذه المهلة بدت لامؤاتية؟ ومع ذلك، برهنت الوقائع أنَّ ذلك كان مفيدًا. تكلَّم بولس هنا عن قصده لئلاّ يمنح كلَّ شيء للدعوة، وإلاّ عارضه اليونانيّون واليهود. فإن كانت الدعوة تكفي، فلماذا لا يخلص؟ لهذا قال: ما يُتمُّ الخلاص، ليست الدعوة وحدها، بل قصْدُ المدعوّين. فلا إكراه في الدعوة ولا جبر. إذًا، الجميع دُعوا ولكنَّ الجميع لم يطيعوا.

"**فالذين سبق فعرفهم (فاختارهم) سبق فعيَّنهم ليكونوا على مثال صورة ابنه**" (آ٢٩). أنظروا ذروة هذا الشرف! فما كانه الابنُ بالطبيعة صاروه هم بالنعمة. غير أنَّ بولس ما اكتفى بأن يقول مثال (موافقين)، فأضاف شيئًا آخر: "**حتّى يكون هو بكرًا**". وما توقَّف (الرسول) هنا، بل واصل (كلامه): "**بين إخوة، كثيرين**". وهكذا بيَّن رباط القرابة. فافهموا فهمًا أنَّ كلَّ هذا ننظر إليه من وجهة التدبير. أمّا من وجهة اللاهوت، فهو الابن الوحيد".

لا شكَّ في أنَّ الذهبيّ الفم لا يفسِّر كما في دراسة أكاديميَّة، فيورد الألفاظ اليونانيَّة ويعود إلى جذورها. إنَّه قبل كلِّ شيء الراعي، وهو يسعى إلى تنوير المؤمنين في قراءتهم للأسفار المقدَّسة. عندها يصل بالمؤمنين إلى مخطَّط الخلاص فيقول: "أنظروا جميع النعم التي منحنا. ولا تشكُّوا بعد اليوم بالمستقبل. فقد بيَّن لنا، في مكان آخر، عنايته حين صوَّر مسبقًا هذه الأحداث. أمّا البشر فيستخرجون أفكارهم من الأحداث؛ وأمّا الله فقد قرَّرها من قبل ورتَّبها لأجل البشر منذ زمن بعيد".

والمثل الثاني نأخذه من العظة الحادية والعشرين، في كلام عن المواهب المختلفة في الكنيسة التي هي جسد المسيح.

"**ولكنَّ لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة التي أعطِيَتْ لنا؛ فمن له موهبة التنبُّؤ فليتنبَّأ وفقًا للإيمان**" (١٢: ٦). بعد أن عزّاهم بما فيه الكفاية، أراد الآن أن ينزلهم إلى القتال ويشدِّد عزيمتهم فيبيِّن لهم أنَّ لديهم مناسبات لتقبُّل المواهب الكبيرة والصغيرة. فقد سبق وقال إنَّ هذا الامتياز يأتينا أيضًا من الله. "**كلُّ واحد بمقدار الإيمان الذي أعطي له**". وأيضًا: "حسب النعمة التي أُعطِيَت لنا". وهكذا يحطُّ المتكبِّرين. ثمَّ يقول لهم إنَّ الأصول هي فيهم بحيث يوقظ المتهاملين، على ما فعل أيضًا في الرسالة إلى الكورنثيّين مع هذين الهدفين الاثنين. فبيَّن لهم بهذا القول: "إطمحوا إلى المواهب السامية" (١ كو ١٢: ٣١)، أنَّهم هم علَّة اختلاف المواهب. وحين يقول: "وكلُّ هذا يمنحه الروح الواحد موزِّعًا مواهبه على كلِّ واحد كما يشاء" (١ كو ١٢: ١١)، فهو يبيِّن أنَّه ينبغي لهم أن لا يتكبَّروا لأنَّهم قبلوها. ويعمل كلَّ ما في وسعه لكي يشفيهم من أهوائهم، مرَّة أخرى. ثمّ أضاف أيضًا ليحرِّك الذين سقطوا:

فمن له موهبة النبوءة فليتنبَّأ وفقًا للإيمان: فإن كانت هذه نعمة، فهي لا تجري بلا سبب، بل تستخرج قدرها من الذين تقبَّلوها وتجري بحسب رفد الإيمان الذي تلاقيه في طريقها.

"**ومن له موهبة الخدمة فليخدم**". أعلن بولس هنا عبارة عامَّة. فالرسالة تُدعى خدمة. وكلُّ عمل روحيّ هو أيضًا خدمة. ونستطيع أيضًا أن نفهم بهذا اللفظ: تدبير خاصّ. غير أنَّه يتكلَّم هنا بشكل عامّ.

"**ومن له موهبة التعليم فليعلِّم**". أنظروا كيف أنَّه لا يبالي بترتيب هذه المواهب: أوَّلاً الصغيرة، ثمَّ الكبيرة؛ فبولس يعطينا دومًا الدرس عينه: لا تشامخ، لا كبرياء.

"**ومن له موهبة الوعظ ليعظ**" (١٢: ٨). هو أيضًا شكل من أشكال التعليم. قيل (لبولس ولبرنابا): "إذا كان لكما كلام إرشاد للشعب فتكلَّمَا".

"وإذ بيَّن أنَّه لا يكون للفضيلة منفعة كبيرة إذا لم نمارسها بحسب القاعدة اللائقة، أضاف: **من يعطي فليعطِ بسخاء** (ببساطة). فلا يكفي أن نعطي، بل يجب أن نفعل بسخاء. اتَّخذ بولس دومًا هذه الكلمة (البساطة) في هذا

المعنى؛ فقد احتاجت العذارى إلى الزيت في مصابيحهنّ، وإذ لم يكن لهنّ الكفاية، خسرنَ كلَّ شيء.

"ومن يرئس فليرئس باجتهاد" . لا يكفي أن نرئس، بل ينبغي أن نعمل بغيرة واجتهاد.

"ومن يرحم فليرحم بسرور. لا يكفي أن نكون رحماء، بل ينبغي أن نصنع (الرحمة) بسخاء وبدون فكر حزين. وليس فقط بدون حزن، بل بنفس مشرقة ومبتهجة؛ فالحزن والسرور ليسَا الشيء عينه. وهذه النصيحة أعطاها بولس في رسالته إلى الكورنثيّين، بغيرة كبيرة. وقال لهم لكي ينبِّههم إلى السخاء: من يزرع بالشحّ يحصد بالشحّ أيضًا، ومن يزرع كثيرًا يحصد كثيرًا" (٢كو ٩: ٦-٧).

شرح يوحنّا النصّ، واستعان بآيات من العهد الجديد لكي يوضح كلامه. عاد إلى أعمال الرسل وإلى المراسلة مع الكورنثيّين، فجاء الاستشهادُ بيِّنةً من أجل السخاء في العطاء.

ب- التوازيات الكتابيَّة

المبدأ المعروف: كلام الله يشرح كلام الله؛ فلا حاجة للذهاب إلى الخارج. لا شكَّ في أنَّ الذهبيّ الفم يأخذ صورًا من العالم الذي يحيط به، ليقرِّب كلام الله من مفهوم السامعين، وهم المأخوذون بما يحصل حولهم من أمور. ولكن يبقى الاستناد إلى النصوص الكتابيَّة أفضل ضوء لشرح النصِّ الذي يقرأ، وهنا نصّ الرسالة إلى رومة. ونبدأ بقراءة حول حبِّ المال حيث الآيات الكتابيَّة تتوالى فتؤثِّر على السامعين:

"وفي موضع آخر قال لنا بولس: "إبتعدوا عن كلِّ أخ يعيش في البطالة" (٢تس ٣: ٦). ولمّا تحدَّث إلى تيموتاوس عن الذي يصبُّ الرصاص، حثَّه بالشكل عينه: "احتفظ منه أنت أيضًا" (٢تم ٤: ١٥). ثمَّ هزئ من الذين يتجرَّأون على مثل هذه الأعمال، وأعطى السبب الذي لأجلهم يفكِّرون بالشقاقات: **"هؤلاء لا يخدمون ربَّنا يسوع المسيح، بل بطنهم"**. ذاك ما قاله لأهل فيلبّي في رسالته: "إلههم بطنهم" (٣: ١٩).

"يبدو لي في هذا المقطع أنَّه يلمِّح إلى بعض اليهود الذين يدعوهم "شرهين". فقال عنهم في الرسالة إلى تيطس: "وحوش خبيثة وبطون كسالى" (تي ١: ١٢). هذه الرذيلة وبَّخهم يسوع عليها: "تأكلون بيوت الأرامل" (مت ٢٣: ٣٤). والأنبياء وجَّهوا إليهم الاتِّهامات عينها: "فسمن بنو يعقوب (أو: أحبّائي) وبطروا" (تث ٣٢: ١٥). لهذا حثَّهم موسى: "حين تأكل وتشرب وتشبع، تذكّر الربَّ إلهك" (تث ٦: ١٢-١٣).

وهكذا وردت عند الذهبيّ الفم الآيات الكثيرة من العهد الجديد، كما من العهد القديم. من الأناجيل أوَّلاً وخصوصًا من إنجيل متّى: من عظة الجبل (مت ٥: ١ي)، من العظة على الجماعة (مت ١٨: ١ي)، من التنبيهات إلى الرسل قبل أن يطلقهم. ويُذكر لوقا ولا سيَّما ما حصل على الصليب والغفران المعطى للصّ (لو ٢٣: ٤). وفي معرض تجرُّد يسوع بحيث يكون مثالاً للمؤمنين". وهكذا لنُظهر المسيح فينا من كلِّ جهة. ولكن كيف يظهر؟ حين نصنع ما صنع. وماذا صنع؟ قال يسوع: "ليس لابن الإنسان موضع يُسند إليه رأسه" (لو ٩: ٥٨). فاقتدوا به أنتم أيضًا. أوجَبَ عليه أن يغتذي؟ شبع من خبز شعير. أوجب عليه أن يسافر؟ لا جياد ولا مركبة، بل كان يسير على القدمين حتّى التلف...".

لم نقع على نصٍّ من مرقس، بل بعض يوحنّا، ولا سيَّما بعد العشاء الأخير. قال يوحنّا: "إذًا نحن سفراء من أجل المسيح" (٢كو ٥: ٢٠). وهو المحامي عنّا لدى الآب. **يصلّي من أجلنا** (٨: ٣٤). هو المسكن والساكن: "يقيم فيَّ وأنا فيه (يو ١٥: ٥). إنَّه الصديق: "أنتم أحبّائي" (آ١٤).

يديه إلى الفقراء وإلى البؤساء الجياع. لكن الديدان والكلوم كانت تسبّب لأيوب آلامًا قاسية لا تُطاق؛ أنا أوافق، لكن إذا ما قارنتم معها ضربات السوط التي تلقّاها بولس خلال العديد من السنوات، والجوع المتواصل، والعري، وقيود الحديد، والسَجْن، والأخطار، والمؤامرات التي كان يحوكها ضدّه أقرباؤه، والغرباء، والطُغاة، والأرض برمّتها، وأضيفوا إليها آلامًا أَمَرَّ أيضًا، أعني الآلام التي عاناها لأجل الذين يسقطون، والقلق على كل الكنائس، والنار التي كانت تلهبه في كلّ مرّة كانت هناك عثرة، ترون أنّ النفْس التي كانت تقاسي كل هذا كانت أصلب من صخر، وكانت لها القوّة لتنتصر على الحديد وعلى الألماس. ما قاساه أيوب في جسده، تحمّلَته نفْسُ بولس، وكلُّ ديدان أيوب كانت تعذّبه بقساوة أقل ممّا كانت تفعله رؤية المعاثر في نفْس الرسول الطوباوي. من هنا، منابع الدموع التي كانت تتدفّق باستمرار من عينَيْه، ليس فقط خلال ساعات النهار، بل الليل، وليس هناك من امرأة، فريسة آلام الإيلاد، تتمزّق بألمٍ أكبر من ألمه. وكان يقول: "يا أولادي الصغار، الذين لأجلهم أشعر من جديد بآلام الإيلاد" (غل ٤: ١٩)[٥].

٨ – موسى وبولس

مَنِ الذي، بعد أيوب، نبدي إعجابنا به؟ موسى، بالتأكيد، لكنّ هذا الأخير أيضًا يرى بولسَ فوقَه بكثير. من بين فضائل عظيمة وعديدة، إنّ ما يوجد في نفس موسى القديسة هذه إلى هذا الحدّ، والتي ترفعه خاصة، وهي إكليله، هو أنه أراد أن يُمْحى من كتاب الله من أجل خلاص اليهود (خر ٣٢: ٣٢). لكن، هل أراد موسى أن يَبيد مع الآخرين؟ إنّ بولس قد وافق –لأجل الآخرين، وليس معهم، كونهم مخلَّصين– على أن ينحطّ عن المجد الأبديّ. لقد جاهد موسى ضدّ فرعون، لكن بولس كان يصارع ضدّ إبليس كلّ يوم؛ الأول كان يتحمّل كلّ أتعابه لصالح شعبٍ واحد، أما الآخر فكان يقاسي العناء الأقسى لصالح الأرض كلّها، وكان يغطّيه ليس العرق فقط، بل، وبدل العرق، الدم الذي كان يجري من كلّ جسده؛ لم يكن يجتاز فقط البلدان المأهولة، بل الأماكن غير المأهولة أيضًا؛ ليس فقط اليونان، بل أصقاع البرابرة أيضًا.

٩ – يشوع (بن نون)، وصموئيل، والأنبياء وبولس

بإمكاني أن أعرض أمامكم يشوع (بن نون)، وصموئيل، والأنبياء الآخرين، ولكن، من أجل أن لا أُطيل هذه الخطبة، فلن نعرض إلا الرئيسيّين منهم؛ فإن كان بولس يبدو أسمى منهم، فلن يعود هناك مجالٌ للشك في تفوّقه على الآخَرين.

مَن هم الرئيسيون بين الأنبياء؟

بعد أولئك الذين تكلّمنا عليهم، مَن هم، إن لم يكونوا **داود، وإيليا، ويوحنا**؛ أحدهم هو سابق للمجيء الأول، والآخر لمجيء الرب الثاني، وبالتالي يُدْعَى هذا وذاك إيليا. ما الذي يميّز **داود**؟ إنهما تواضعه ومحبّته لله؛ ولكن، أبهذين الأمرَيْن هو متفوّق على بولس، الذي لا يبقى دونَه؟ ماذا لدى **إيليا** من مثير للإعجاب؟ أنه أغلق السماء، أتى بالجوع، أنزل النار؟ أنا لا أعتقد! فَلْنُبْدِ إعجابَنا به بمحبّته للربّ، محبّة حارقة أكثر من النار. لكن، إذا ما اعتبرتم غيرة بولس، لوجدتموه مساويًا لإيليا بالسموّ، وهو يعلو على الأنبياء الآخَرين. فماذا يمكننا أن نقارن مع هذه الأقوال التي كانت توحيها لبولس غَيْرتُه على مجد الرب، أي "أودّ أن أكون أنا نفسي محرومًا، مفصولاً عن المسيح، في سبيل إخوتي، أقربائي بالجسد" (روم ٩: ٣)؟

ولأنّ السماوات والأكاليل وكل جوائز المعركة قد اقتُرِحَت عليه كهدف

[٥] "يا أولادي الذين أعود أتمخّض بهم حتّى يُصَوَّر المسيح فيكم" (ترجمة الكسليك).

لجهوده، فقد كَبَح شهوته وصَبَرَ: "من المفيد أكثر أن أبقى متّحدًا بهذا الجسد" (فل ١: ٢٤).

كذلك، لا تبدو لبولس الخليقة المرئية ولا الخليقة التي يتخيّلها العقلُ كافيتَيْن للتعبير عن كلّ قوّة محبّته وغَيْرته؛ كان يتصوّر طريقة أخرى للوجود، وكان يذهب إلى حدّ افتراض المستحيل، ليعبّر هكذا عمّا كان يشتهي. لكنّ يوحنّا كان يغتذي من الجراد ومن عسل البَرّ (مت ٣: ٤)، لكنّ بولس، في وسط مساكن الناس، عاش كيوحنّا في الصحراء؛ لم يكن يأكل الجراد ولا عسل البَرّ؛ كان غذاؤه أكثر بدائية؛ لم يكن يأخذ حتّى الغذاء الضروريّ للحياة لأنه كان مأخوذًا بغَيْرة التبشير. لكنّ يوحنّا أظهر في وجه هيرودوس حريّة كبيرة في الكلام (مت ١٤: ٤)، أما بولس فلم يهاجم طاغيةً واحدًا، أو اثنين، أو ثلاثة، بل آلاف الطغاة، كهيرودوس مثلاً، الذين أسكتَهم، ولْنَقُلْ بطريقة أفضل، طغاة أكثر وحشيّة أيضًا.

١٠- بولس والملائكة

لم يبقَ لنا سوى المقارنة بين بولس والملائكة؛ لِنَدَعْ، إذًا، تحت أقدامنا، الأرض؛ لِنَصْعَدْ إلى أعالي السماوات، ولا يَشْكُوَنَّ أحدٌ جرأةَ خطابنا، فإنّه، إن كان الكتاب المقدس قد أعطى يوحنا اسمَ "ملاك"، كما أعطاه للكهنة، فما الذي يُثير العجَب أن يُقارَن من قِبلنا الذي يتفوّق عليهم جميعًا بالقِوى العليا؟ على ماذا تقوم عظمة الملائكة؟ على أنهم يعتنون جيّدًا بأن يطيعوا الله. إنّ ما يعبّر عنه داود هكذا، في تعجّبه: "قوى مملوءة قوة، تنفّذ ما يقوله" (مز ١٠٢: ٢٠). تلك هي العظمة التي لا تُقارن، حتى لو كانت عشرة آلاف مرّة غير جسدانية؛ إنّ أعلى درجة من طوباويّتهم، هي هذه: إنها طاعتهم، وهو أنّ هذه الطاعة ليست أبدًا ناقصة. بولس أيضًا حفظ تلك الطاعة الكاملة؛ فإنه لم يتمّم فقط كلام الله، بل وصاياه، وأكثر من وصاياه، وهذا ما بيّنه بهذه الكلمات: "إذًا فأيّ أجرٍ لي؟ هو أنّي، حين أبشّر، أمْنَحُ الإنجيلَ مجّانًا" (١ كو ٩: ١٨). ما هي أيضًا العَظَمة التي يُعْجَب بها النبيّ في الملائكة؟ "الذي يجعل ملائكته أرواحًا، وخدّامه لهيب نار" (مز ١٠٣: ٤). بولس هو الدليل الواضح على ذلك؛ كنسيم، وكنارٍ، عَبَرَ العالَمَ كلَّه وطَهَّرَه. لكنّه لم يَنَلْ بعد السماء. هذا ما هو بالحصر عجيبٌ بكلّ معنى الكلمة. أيضًا على الأرض، رجل كهذا، في جسد مائت، كان يضارعُ القوى غير الجسديّة فضيلةً.

الخاتمـــة

أيّ شجب إذًا قد لا نستحق نحن لدى رؤية إنسان جمع في ذاته وحده كلّ الفضائل، ولا نجهد ذاتنا في اقتفاء ما هو أقلّ من تلك التي مارسها؟ فلنفكّرْ في ذلك، ولنعملْ على أن نُفْلِتَ من تهمة كهذه، ولنجهد ذاتنا للوصول إلى هذه الغَيرة، من أجل أن نتمكّن من أن نحصل على الخيرات ذاتها، بنعمة ربنا يسوع المسيح وصلاحه، الذي له المجد والقدرة، الآن ودائمًا، وإلى أبد الآبدين، آمين.

بولس بدل شاول؟ لكي لا يحسّ نفسه في هذا المجال أدنى من الرسل، بل ينعم بذات الامتياز الذي نعِمَ به رئيس التلاميذ (= بطرس)، ويشعر شعورًا حميمًا أنَّه مرتبط بمجموعتهم. وبحقٍّ دعا نفسه "عبد المسيح" لأنَّ هناك أشكالاً كثيرة من العبوديَّة".

ولكن كيف يكون هذا الرسول العظيم "عبدًا"، ونحن نعرف ما كانت عليه العبوديَّة في العالم الرومانيّ بشكل خاصّ؟ لهذا، توسَّع الذهبيُّ الفم في مفهوم العبوديَّة (أو: الخدمة)، قبل أن يطبِّق الكلام على بولس:

"(الشكل) الأوَّل ينتج عن الخلق، كما قيل: "الكون هو في خدمتك" (مز ١١٩: ٩١. كذا في اليونانيّ. في العبريّ: "الكلّ عبيد لك"). وفي موضع آخر: "نبوخذنصَّر عبدي" (إر ٢٥: ٩)؛ فالصُنْعُ هو في خدمة ذاك الذي صنعه.

"(وشكل) آخر ينجم عن الإيمان، الذي يقول فيه هو نفسه: "ولكن شكرًا لله! فمع أنَّكم كنتم عبيدًا للخطيئة، أطعتُم بكلِّ قلبكم تلك التعاليم التي تسلَّمتموها، فتحرَّرتم من الخطيئة وأصبحتم عبيدًا للبرّ" (٦: ١٧-١٨).

"(وشكل) آخر أيضًا يرتبط بنوع الحياة التي نعيش. في هذا المجال، نقرأ: "موسى عبدي مات" (يش ١: ٢). لا شكَّ في أنَّ جميع اليهود كانوا عبيدًا، ولكنَّ موسى كان بينهم كلِّهم مشعًّا بحياته. وكذلك كان بولس عبد الله بحسب جميع أشكال العبوديَّة، فتزيَّن بهذا اللقب وكأنَّه أجمل مجدٍ له فقال عن نفسه: "عبد يسوع المسيح"، وارتبط بكلمات التجسُّد، صاعدًا من الأسفل إلى الأعلى. فاسمُ يسوع حُمل من أعلى السماوات بواسطة الملاك حين ولدته العذراء. واسم المسيح يأتي من المسحة، وهذا يخصُّ أيضًا الجسد. وتقولون لي: بأيِّ زيتٍ مُسِحَ؟ (أجيب:) لا بأيِّ زيت، بل بالروح. وفي الحقيقة، هؤلاء هم الذين يدعوهم الكتاب "مسحاء" لأنَّ الرئيسيّ في المسحة هو الروح. أمّا الزيت فهو عرضيّ. (وتقولون:) ولكن أين يدعو الكتاب "مسحاء" أولئك الذين لم يُمسَحوا بالزيت؟ (فأجيب:) هناك حيث قيل: "لا تمسُّوا مسحائي، ولا تسيئوا إلى أنبيائي" (مز ١٠٥: ١٥). هناك، لم يكن كلام عن المسحة بالزيت".

بولس هو الرسول الذي دُعيَ، جُعل جانبًا كما تُجعل الذبيحة الفصحيَّة في خدمة إنجيل الله. قال يوحنّا: "لم يكن متّى ومرقس الإنجيليَّين الوحيدَين، كما بولس لم يكن الرسول الوحيد، غير أنَّ اسم الرسول أُعطيَ بشكل سامٍ لبولس، كما اسم الإنجيليّ هو لمرقس ومتّى".

ب- إيمانكم ذاع خبره

"قبل كلِّ شيء أشكر إلهي بيسوع المسيح من أجلكم جميعًا، لأنَّ إيمانكم ذاع خبرُه في العالم كلِّه. والله الذي أخدمه بروحي، فأبلِّغ البشارة بابنه، يشهد لي أنّي أذكركم كلَّ حين" (١: ٨-٩).

تحدَّث الذهبيّ الفم عن إيمان الرومانيّين الذي بلغ إلى العالم كلِّه. قال: "ماذا؟ هل العالم كلُّه سمع كلامًا عن إيمان الرومانيّين؟ أجل، بحسب بولس. وهذا معقول جدًّا، لأنَّ رومة لم تكن مدينة مجهولة. كانت كما على قمَّة، وبدت منظورة من كلِّ مكان. لاحِظوا هنا قوَّة كرازة بولس! كيف أنَّها في وقت قصير، بوساطة العشّارين والخطأة، احتلَّت عاصمة العالم. كيف أنَّ أناسًا آتين من سورية صاروا أسياد الرومان وموجِّهيهم. وشهد لهم هنا شهادة مضاعفة بسبب أعمالهم الجميلة: آمنوا وآمنوا واثقين بحيث ذاع خبرهم في الأرض كلِّها".

تلك كانت العظة الثانية، حيث الإيمان يقود المسيحيّ في حياته. أمّا العبادة فتكون "في الروح". قال الذهبيّ الفم:

"بيَّن أيضًا شيئًا آخر فأضاف "في روحي": هذه العبادة هي أسمى من العبادة اليونانيَّة ومن العبادة اليهوديَّة. فاليونانيّ كاذب، لحميّ. واليهوديّ حقيقيّ، ولكنَّه أيضًا لحميّ. أمّا عبادة الكنيسة فهي عكس العبادة اليونانيَّة وتسمو عاليًا على العبادة اليهوديَّة. فعبادتُنا لا تتَّخذ بشكل ذبائح الخراف والعجول، والدخان وشحم الضحايا، بل تتمُّ بالنفس في شكل روحيّ. ذاك ما بيَّنه المسيح حين قال: "الله روح،

والذين يعبدون ينبغي أن يعبدوا في الروح والحقّ" (يو ٤: ٢٤).

ونتعرَّف إلى حكمة الرسول وتواضعه حين يتحدَّث عن اشتياقه إليهم واهتمامه بتشجيعهم: "أنظروا حكمة المعلِّم. قال: "لكي أقوّيكم". عرف أنَّ أقواله مرهقة، متعبة لتلاميذه. فأضاف: "لكي أشجِّعكم". في الحقيقة، ما زالت مرهقة بالرغم من هذه الملاحظة، بل هو يقول: "لكي يشجِّع بعضنا بعضًا"... ثمَّ يضيف: "بالإيمان المشترك بيني وبينكم" (آ ١١-١٢).

"يا للسماء! أيُّ تواضع هذا التواضع! بيَّن هو أيضًا أنَّه يحتاج إليهم، لا أنَّهم وحدهم يحتاجون إليه. أعطى التلاميذ مكانة المعلِّمين وتخلّى عن كلِّ تفوُّق شخصيّ ليدلَّ أنَّه مساوٍ للجميع. قال: اهتمامنا واحد. فأنا أحتاج إلى تشجيعكم، وأنتم تحتاجون إلى تشجيعي. وكيف يكون هذا ممكنًا؟ "بالإيمان المشترك بيني وبينكم؛ فإن جمعنا في نار واحدة لهائب شعلات عديدة، نخرج شعلة ساطعة. ونقول الشيء نفسه بالنسبة إلى المؤمنين. فحين ننفصل بعضنا عن بعض، نشعر ببعض الإحباط، ولكن حين يرى الواحد الآخر، وحين يضمُّنا الآخرون بين أذرعهم كإخوة في أسرة واحدة، فهذا الاتّصال يمنحنا تشجيعًا كبيرًا".

٢- القسم العقائديّ

مواضيع عديدة تطرّق إليها بولس الرسول في هذه الرسالة التي توجز عمق فكره. أمّا نحن فنتوقَّف عند اثنين منها: الخطيئة والنعمة، عناية الله ومحبَّته في يسوع المسيح.

أ- الخطيئة والنعمة

"كما أنَّه بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت، وهكذا عمَّت الخطيئة جميع البشر لأنَّهم جميعًا خطئوا...، فبالأولى أن تسود الحياة بواحد هو يسوع المسيح، أولئك الذين ينالون فيض النعمة وهبة البرّ" (٥: ١٢، ١٧).

"إنَّ أفضل الأطبّاء يعملون كلَّ ما في وسعهم ليجدوا أصول الأمراض، بحيث يصعدون إلى نبع الشرِّ نفسه. هذا ما فعله بولس المطوَّب. قال لنا إنَّنا تبرَّأنا، وبرهن لنا ذلك بواسطة أبي الآباء (إبراهيم) والروح القدس وموت المسيح؛ فهو ما كان ليموت لو لم تكن نيَّته أن يبرِّرنا. والآن هو (بولس) يؤكِّد بدليل آخر البرهان السابق، فيعالج الموضوع من طرف آخر، أي من وجهة الخطيئة والموت. ويتساءل: كيف وبأيِّ طريق دخل الموت إلى العالم؟ من أين جاء وكيف ساد؟".

هكذا بدأت العظة العاشرة في عظات الذهبيّ الفم حول الرسالة إلى رومة: كلام عن الشريعة، عن آدم الأوّل وآدم الثاني، عن اللاتناسب بين الخطيئة والبرّ الذي حصلنا عليه، عن وفرة النعمة التي هي ينبوع حياة. وبعد كلام عن الخطيئة والضعف البشريّ، يدعونا الذهبيّ الفم إلى أن نعرف وضعنا الجديد كمسيحيّين بعد أن اعتمدنا في موت يسوع من أجل الحياة.

"إذًا، كيف دخل الموت إلى العالم وكيف ساد؟ بخطيئة إنسان واحد. ولكن ما معنى هذا الكلام؟ "لأنَّهم جميعهم خطئوا"؟ بعد سقطة آدم، حتّى الذين لم يأكلوا من ثمرة الشجرة، أضحوا كلُّهم مائتين بسببه. "حتّى الشريعة، كان هناك خطيئة في العالم، ولكن لا حساب للخطيئة حين لا تكون شريعة" (٥: ١٣)

حتّى الشريعة. هنا توقَّف يوحنّا فقال:

"ظنَّ بعضهم أنَّ بولس تحدَّث عن تلك الحقبة التي سبقت عطيَّة الشريعة، أي حقبة هابيل ونوح وإبراهيم، حتّى ولادة موسى. فما كانت هذه الخطيئة في ذاك الزمان؟ ظنَّ بعضهم أنَّه يتكلَّم عن خطيئة اقتُرفت في الفردوس، لأنَّه قيل ما كان بعدُ ترقّق، بل كانت ثمرته بعد في كلِّ نضارتها: بالخطيئة انصبَّ الموت على الجميع، ساد، وأسَّس الطغيان. ولماذا أضاف بولس: "لا حساب للخطيئة حيث لا تكون شريعة"؟

"قال: كان لليهود رأي معاكس فجعل بعضَنا يظنُّ أنَ بولس أراد أن يطرح هذا السؤال: إن لم يكن هناك خطيئة من دون شريعة، كيف أصاب

الموتُ أولئك العائشين قبل الشريعة؟ في رأيي، ما سوف نقوله يطابق فكر الرسول مطابقة أفضل.

"وما هو شرحنا؟ قال (الرسول): حتّى الشريعة، كانت الخطيئة في العالم. هذا يعني، في رأيي، أنّه بعد عطيَّة الشريعة، سادت الخطيئة المولودة من المعصية وسادت، وذلك ما دامت الشريعة موجودة لأنَّ الخطيئة المولودة تستمرُّ (كما قال) إذا لم يكن هناك شريعة. ولكن يقولون: إن كانت هذه الخطيئة المولودة من المعصية قد أنجبت الموت، لماذا، قبل الشريعة، مات البشرُ كلُّهم؟ فإن لم تكن جذور الموت في الخطيئة، فكيف ساد الموت ساعة لم تكن شريعة ولم يكن حساب للخطيئة؟ ذاك هو إذًا البرهان الواضح أنَّ هذه الخطيئة ليست خطيئة تجاوزِ الشريعة، بل هو عصيان آدم الذي خسر كلَّ شيء. وما هو البرهان؟ موت جميع العائشين قبل الشريعة".

لاحظنا هنا كيف ناقش يوحنّا الآراء ليقدِّم في النهاية رأيَه الخاصّ، في شرح الخطيئة التي سبقت الشريعة. وخطيئة إنسان واحد قويَّة، فكيف لا تنتصر قوَّة الله. "أن يعاقَب شخص بدل شخص آخر، أمر لامنطقيّ. ولكن أن يخلص شخص بواسطة آخر، فأمر لائق ويوافق العقل. فإن كان العقاب حصل، فبالأحرى الخلاص حصل. ويقرأ يوحنّا ٥: ١٧ فيتحدَّث عن النعمة التي هي ينبوع حياة.

"هذا ما يريد أن يقوله: من أعطى الموتَ سلاحًا يحارب به الأرض كلَّها؟ هو إنسان واحد أكل من ثمر الشجرة. فإذا كان الموت اتَّخذ مثل هذه القوَّة بذنب (إنسان) واحد، فكيف يمكن للبعض أن يخضعوا بعدُ للموت حين يجدون نفوسهم وقد قبلوا نعمة كبيرة وبرًّا أكبر من الخطيئة؟ ذاك هو السبب الذي لأجله قال (الرسول) في هذا المقطع: لا نعمة واحدة، بل "فيض النعمة".

"فنحن لم نحصل فقط على كمِّيَّة من النعمة ضروريَّة، بل حصلنا على أكثر من ذلك من أجل غفران الخطيئة: نجونا من العقاب، تخلَّصنا من كلِّ شرّ، وُلدنا من علُ، وبعد أن دَفنَّا الإنسان العتيق، قمنا. نلنا الفداء والقداسة وصرنا إخوة الابن الوحيد. أُقمنا وارثين معه وأعضاء جسده. صرنا جزءًا من جسمه واتَّحدنا به كما الجسد بالرأس. هذا كلُّه يدعوه بولس "فيض النعمة" ويبيِّن لنا أنَّنا لم نحصل فقط على دواء لشفاء جرحنا، بل حصلنا على الصحَّة والجمال والشرف والمجد والكرامات التي تتجاوز طبيعتنا بشكل واسع. كان باستطاعة كلِّ واحد منها أن يدمِّر بنفسه الموت. ولكن حين تلاقت جميعُها معًا لن نستطيع أن نرى ظهور أثر للموت ولا ظلّ الموت الذي زال بشكل نهائيّ".

وننهي هذه العظة مع إيراد ٥: ١٩: "وكما أنّه بمعصية إنسان واحد صار البشر خاطئين، فكذلك بطاعة إنسان واحد يصير البشر أبرارًا". يقول يوحنّا: مثل هذا الكلام يطرح سؤالاً لا يكون بسيطًا. ولكن مع بعض التنبُّه، نحلُّه بسهولة. فما هو هذا السؤال؟ حين يقول بولس إنَّ بمعصية واحد صار الجميع خاطئين. أن يُضحي الإنسانُ الخاطئ مائتًا ويصبح نسلُه مثله، أمرٌ معقول جدًّا. ولكن أن نصير خطأة بمعصية آخر، فهل هذا تسلسلٌ منطقيّ؟ فنحن نوافق أنَّ الإنسان الذي اقترف خطيئة شخصيَّة ينبغي أن يُعاقَب".

أسلوب الذهبيّ الفم أسلوب خطابيّ. يبدو وكأنَّه يحاور الجماعة التي يوجِّه إليها كلامه. وهو أسلوب رعائيّ، حيث يطرح الأسئلة التي يمكن أن يطرحها المؤمنون. كيف نرضى أن نعاقَب بسبب خاطئ آخر؟ وأين هي العدالة الإلهيَّة؟ ويجيب الواعظ في كاتدرائيَّة أنطاكية، بحضور الأسقف فلافيان:

"إذًا، ما معنى "خاطئين"؟ في رأيي، خاضعون للعقاب ومحكوم عليهم بالموت أن يكون الجميع أضحوا مائتين بعد موت آدم، فهذا ما بيَّنه بولس بوضوح وبأشكال عديدة. والسؤال المطروح هنا هو أن نعرف لماذا. هو ما شرحه بعد، لأنَّه ليس بعدُ موضوعه. هنا يحارب اليهوديّ الذي يرتاب ويهزأ بالبرِّ الذي ناله إنسان واحد. لهذا، دلَّ على أنَّ العقاب انتقل من إنسان واحد إلى جميع الناس. ولكنَّه لا

في أنطاكية. تعرَّفنا أوَّلاً على الغنى الذي تزخر به هذه الشروح لرسالة هي أغنى ما ترك بولس الرسول من كتابات، على المستوى العقائديّ كما على المستوى الأخلاقيّ. وفي قسم ثانٍ عالجنا الطريقة الأنطاكيَّة في تفسير كتب العهد الجديد، التي أخذ بها يوحنّا الذهبيّ الفم، كما سوف يأخذ بها تيودوريه القورشيّ وغيره من تلاميذ هذه المدرسة. غير أنَّ يوحنّا تميَّز عن الشرّاح بأسلوبه الشفهيّ الذي يتوجَّه إلى سامعين في الكنيسة، ويحاول أن يحثُّهم أن يعيشوا العيش المسيحيّ في خطِّ ما تقوله الرسائل البولسيَّة التي شرحها كلَّها، بحيث جاء قريبًا من القدّيس أوغسطين الذي جُمعت عظاته بعد أن دُوِّنت عن طريقة الاختزال فوصلت إلينا مجلَّدات ومجلَّدات.

وهكذا بدا الذهبيّ الفم خادم الكلمة. هو الذي اعتبر أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُحصَر في يد الإكليروس، بل يصل إلى العوام أيضًا. هو الذي اعتاد أن يلمِّح إلى نصٍّ من نصوص العهد القديم أو العهد الجديد، فيطلب من سامعيه أن يبحثوا عنه ويقرأوه. هو الذي وبَّخ السامعين لأنَّهم لم يمارسوا القراءة المتنبِّهة إلى هذه الآية أو تلك، ومخطوطات الكتاب المقدَّس موجودة في بيوتهم. مثل هذا الواعظ الذي حفظ الكتاب المقدَّس عن ظهر قلبه يوم اعتزل في البرِّيَة، تعمَّق في كلام الله، عاشه، أطلقه في غيرة كالنار، فكلَّفته هذه الغيرة في النهاية المنفى والموت. ولكنّ مثل هؤلاء العظماء لا يموتون، بل لا يزالون حاضرين في كنائسنا، وما قالوه في الماضي نستمع إليه اليوم من أجل خدمة الحقيقة وعيش المحبَّة في كنيستنا.

على تفاسيرهم المدجَّلة، مستندًا إلى أقوال حول الضعف البشريّ عند يسوع، حول خوفه وآلامه. وتوسَّع في تعاليم التنازل الإلهيّ.

في العظة السادسة، توسَّع الواعظ في يو ١: ٩: "أرسل رجلٌ من لدن الله. اسمه يوحنّا". هذا كان سفير الله لدى البشر. ولكن ما حيلتنا والضلال؟

"فكيف يستطيع الهراطقة أن يؤكِّدوا أنَّ المقطع القائل: "كان في صورة الله" لا يبيِّن أنَّ الابن مساوٍ للآب، لا لفظ "الله" ("تيُو" في اليونانيَّة) لا يسبقه ألـ التعريف. ولكن ها هو موضع (يو ١: ٩) بدون ألـ التعريف. فيقول: ليس الكلام على الآب. ولكن ماذا يجيبون أيضًا حول هذه الكلمات للنبيّ: "أنا أرسل أمامك ملاكي الذي يهيِّئ لك (أنت) الطريق" (ملا ٣: ١؛ م ١١: ١٠). فالضميران "أنا" و"أنت" يعنيان شخصين اثنين.

"جاء ليشهد، ليؤدِّي شهادة للنور. قد يقول قائل: هل الخادم يشهد لسيِّده؟ ولكن حين ترون السيِّد يتقبَّل شهادة خادمه، بل يأتي إليه ويعتمد على يده مع اليهود، أما تكونون في دهشة أعظم وفي شكٍّ أكبر؟ ولكن ينبغي أن لا تندهشوا أو تضطربوا، بل ينبغي أن تُعجَبوا بطيبة الله اللاموصوفة. وإن لم يلبث أحدٌ مأخوذًا بالدوار والاضطراب، فيسوع المسيح يقول له ما قال ليوحنّا (المعمدان): "أتركني أفعل في هذه الساعة، لأنَّ هكذا نُتمُّ كلَّ برّ" (مت ٣: ٥). وإن تضاعفت وحشتُه، يقول له ما قال لليهود: "أنا لا أقبلُ شهادةً من إنسان" (يو ٥: ٣٤).

"فإن لم يكن في حاجة إلى هذه الشهادة، لماذا أرسل يوحنّا من لدن الله؟ لم يكن ذلك لأنَّ الكلمة احتاج إلى هذه الشهادة. لو قلنا ذلك لكان قولُنا كفرًا، ولكن لماذا؟ أعلمنا يوحنّا نفسه ذلك حين قال: "لكي يؤمن الجميع على يده". ولكن بما أنَّ يسوع المسيح قال بعد أن تكلَّم عن يوحنّا: "هناك آخر يشهد لي وأنا أعرف أنَّ شهادته لي حقّ"، وها هو يقول الآن: "أمّا أنا فلا آخذ شهادة من إنسان". يبدو للمجانين والجهّال أنَّه يعارض نفسه بنفسه بواسطة هذه الأقوال الأخيرة. لهذا يأتي الشرحُ في الحال: "ولكنّي أقول هذا لكي تخلصوا" (يو ٥: ٣٤). فكأنَّه يقول: "أنا الله. والابن الحقيقيّ لله، الذي صدر عن هذا الجوهر الخالد والمغبوط. ولا يمكن أن أنقصَ في طبيعتي. غرتُ على خلاص العالم، فانحدرتُ وتواضعت حتّى أردتُ أن أكلِّف إنسانًا بأن يشهد لي".

ويعود الواعظ إلى موضوع التنازل في العظة الحادية عشرة:

"والكلمة صار بشرًا وسكن بيننا. فبعد أن قال الإنجيليّ القدّيس إنَّ الذين قبلوه وُلدوا من الله وصاروا أولاده، أورد السبب اللاموصوف لمثل هذه الكرامة العظيمة، وهي: الكلمة صار بشرًا. ثمَّ: أخذ الربُّ شكلَ عبد. بما أنَّه الابن الحقيقيّ لله، جعل نفسه ابن البشر ليجعل البشر أولاد الله. فحين يقترب السامي ممّا هو وضيع ودنيء، يرفعه دون أن يؤذي مجدَه الخاصّ في شيء. وذاك ما حصل في شخص يسوع المسيح؛ فهو ما قلَّل طبيعته في هذا الاضطهاد العميق، ولكنَّه رفعنا إلى مجد لا يُوصَف، نحن الذين لبثنا في العار وفي الظلمات: فملك يتكلَّم بحبّ ولطف مع فقير ومع شحّاذ، لا يعيِّر ولا يعمل شيئًا قبيحًا، فيجعل هذا المسكين مشهورًا ويغطِّيه بالمجد تجاه العالم كلِّه. فإن كان ذاك الذي ارتدى الكرامات البشريَّة المستعارة، يستطيع أن يعاشر من هو أدنى منه ولا يسيء إلى نفسه، فبالأحرى يكون الأمرُ حقيقيًّا بالنسبة إلى هذا الجوهر الخالد والمغبوط الذي ليس فيه شيء مستعار ولا عرضيّ أو عابر، بل جميع صفاته ثابتة وأدبيَّة. ولذلك، حين تسمعون هذا الكلام "والكلمة صار بشرًا" فلا تضطربوا ولا تشكِّكوا؛ فالجوهر "الإلهيّ" لم يتحوَّل إلى "بشر". فمثلُ هذه الفكرة كفرٌ: فالله لبث على ما هو حيث أخذ شكل عبد".

ولماذا هذا الكلام؟ ليردَّ على الهراطقة الذين قالوا إنَّ الكلمة تجسَّد في الظاهر، لا في الحقيقة، وذلك في خطٍّ بدعة برزت في بداية الكنيسة. فالظاهريَّة أعلنت أنَّ جسد المسيح كان في الظاهر فقط. فأنكرت واقع آلام المسيح وموته بعد أن وصلت الطبيعة

والـتـي لا تـروي الأرض، بـل تـوقـظ خِصْبَ الفضيلة في نفوس البشر. أيّ كلام لا يكون دونَ كمالٍ كهذا؟ أيّ كلام يقدر على أن يؤدّي مدحًا يليق بمَن يـنـبـغي أن يُـعَـظَّـم؟ إنّ كـلّ الـفـضـائـل البشريّة مجتمعةً في نَفْسٍ واحدة، وكلّ واحدة من هـذه الـفـضـائـل على أعلى الدرجات، ليس فقط الفضائل البشرية، بـل تـلـك التي لـلـمـلائكة، وكـل كـلـمـة عظيمة لا تكفي لِمدْحِ هذه العظمة كـمـا يـلـيـق! لـكـن، أهـذا سـبـب لـكـي نـصـمـت؟ كـلاّ، هـذا، عـلـى الـعـكـس، سببٌ، وسببٌ حاسم لكي نتكلّم، لأنه الموضوع الأعظم للمديح الذي يتحدّاه كـمـالُ الـفـضـيـلـة، ويـفـوق كـلَّ مـديـح، وكـلَّ اسـتـفـاضـة خطابيّة؛ وهـزيمتنا هنا هي أفضل من كلِّ الانتصارات المحتملة للكلمة. من أين نبدأ مدائحنا؟ من أين، إنْ لم يكن بتِبْيَانِ ما أَسْلَفْنا، وعرفنا أنه يمتلك الـفـضـائـل الـتـي نـراهـا في كـلّ الناس؟ فإنّه، مهما كانت العَظَمَةَ التي أبْدَاها الأنبياء، أو الآباء، أو الأبرار، أو الرسل، أو الشهداء، إجمعوا كلّ هذه الفضائل، تجدون أنّ بولس قد أنتجَها كلَّها معًا في شخصه من جديد، وعلى درجةٍ عاليةٍ جدًّا من الكمال، إلى حدّ أنّـه لا أحـد، بمـا عـنـده مـن الأفـضـل، يستطيع أن ينافسه في ذلك.

١ – هابيل وبولس[٢]

أنظروا، لقد قدّم هابيل ذبيحة (تك ٤: ٤)، من هنا شهرةُ اسمه؛ ولكن إذا نَظرتم مَليًّا في ذبيحة بولس، لرأيتُم أنه يـفـوق الآخـر كـمـا تـفـوق الـسـمـاءُ الأرض. وكون ذبيحة واحدة لم تَكْفِهِ، عـن أيّـة واحـدة مـنـهـا تـريـدون أن أكلّمكم؟ ففي كلّ يوم كان (بولس) يقدّم ذاته ذبيحةً (١كو ١٥: ٣١)، وكان يفعل ذلك بطريقة مضاعفة، فيموت كلّ يوم من أجل يسوع، ويجول في كلّ مكان لأجـل ذلك (رج ٢ كـو ٤: ١٠). كـان يـواجـه دون كَـلَـلٍ المخاطر، ويضَـحِّي بنفسه بطيبة خاطر، مميتًا في ذاته الطبيعة الـلـحـمـيّـة، ذبـيـحـة حـقـيـقـيّـة لـلـه، أو بـالأحـرى ذبـيـحـة مـفـضَّـلَـة عـلى تلك القديمة؛ فإنّه لم يكن يذبح عجولاً ولا نعاجًا، بل كان يضحّي بذاته كلَّ يوم، وبطريقة مضاعفة. من هنا الثقة التي كانت تدفعه إلى أن يقول: لقد تلقَّيتُ النَضْحَ لكي أُضحَّى[٣] (٢ تيم ٤: ٦). إنّ هذا النَضْح يعني أنه قد أفاضَ دَمَهُ هو بالذات.

إعـلـمـوا جـيّـدًا أنّه لم يَكْتَفِ بهذه الذبائح، بل إنّه، وبعدما تكرّس كليًّا لله، قرّب أيضًا تقدمةً من الشعوب، ومن الأقطار، ومن البحار؛ لقد حَلّقَ فـوق بـلـدان الإغـريـق، فـوق بـلـدان البرابرة، فـوق كـل المدى الـذي تَـلُـفُّـه الشمسُ، وكان يطير كَنَسْرٍ، كان يطير في كلّ مكان، ليس كمجرّد مسافر، بل كان يقتلع أشواك الخطايا، مُفيضًا كلمةَ الـتـقـوى، ومـبـدّدًا الـضـلال، وجـالـبًا الحقيقة. من البشر كان يصنع ملائكةً، أو بـالأحـرى مـن الأبـالـسـة كـان يـصـنـع ملائكةً، هؤلاء كانوا بشرًا. أيضًا، قُبيل رحيله، وبعد عَرَقٍ كثير، وفوزٍ متكرِّر، ولكي يعزّي تلاميذه، كان يقول: "بل لـو أنّي أُراقُ عـلـى ذبـيـحـة إيمانـكـم وخدمته، فَلأَفْرَحَنَّ وأبتهجنَّ معكم جـمـيـعًـا. وأنـتـم أيـضًـا فـافـرحـوا الـفـرح نفسه، وابتهجوا معي" (فل ٢: ١٧-١٨). أية ضحيّة تقدر إذًا أن توازي تلك التي ذَبَـحَـهـا بـولـس بـسـيـف الـروح، الـتي قـدّمـهـا عـلـى المذبح المُقَام في أعلى السـمـاوات؟ لـقـد هلك هـابـيـل بسبب فساد قايين وغَيظه القاتل (تك ٤: ٨)؛ من هنا مجدُ هابيل. أما أنا فَعَلَيَّ أن أبيّن لكم أنه، على قدر ما هناك من موتى، آلاف المـوتـى، عـلـى قـدر ذلك أمضـى هـذا الـرسـول الـطـوبـاويّ من الأيام يبشّر بـالـرب. والآن، إذا كـنـتـم تـريـدون أن تعتبروا موت بولس، ليس فقط الموت الـروحـانـيّ، بـل الـحـقـيـقـيّ، فـإنـكـم ستلاحظون أنّه، إذا كان هابيل قد قُتِل

(٢) عناوين المقاطع وأرقامها هي إضافة منا.

(٣) حرفيًّا: "أمّا أنا فذَبيحَةٌ يُراقُ دَمُها وساعةُ رَحيلي اقتَرَبَت" (الترجمة المشتركة)، أو: "فهاءنذا أُراق، وقد حضر وقت انحلالي" (ترجمة الكسليك).

على يد أخٍ لم يكن له ما يتشكّاه منه، فإنّ بولس قد حماه أولئك الذين كان يريد أن يقتلعهم من شرورٍ لا عَدَّ لها، الذين لأجلهم قاسى كلّ ما تألّمه.

٢ – نوحٌ وبولس

كان نُوحٌ رجلاً صدّيقًا في وسطِ ناسِ زمانه (تك ٦: ٩)، ولم يكن له من مثيل بينهم جميعًا، وبولس كان دون مثيلٍ له بين الناس في كل الأزمنة. نجا نُوح وحده مع بنيه، وبولس، بدوره، رأى العالَم مغمورًا تحت طوفان جديد أكثر رعبًا من القديم؛ لم يَصنع فُلْكًا من ألواح (خشبية)؛ وبدلاً من هذه الأخيرة، نظم الرسائل؛ لكنه لم يخلّص اثنين، أو ثلاثة، أو خمسة من أهله، بل خلّص من الخطر الكونَ كلَّه الذي كانت تغمره اللجج. لم يُحصَر فُلْكُه في عبور مكانٍ واحد، بل كان يضمّ الأرض حتى حدودها الأخيرة؛ إذاً، والآن أيضًا، يُدْخِلنا بولس في هذا الفُلْكِ الذي بُنِيَ لكي يخلّص الجماهير؛ الحَمْقى المُعْدَمِينَ من العقل أكثر من انعدام الحيوانات يحوّلهم، جاعلاً منهم كائناتٍ أهلاً لأنْ تنافس القوات العُلْوية، وفي ذلك نَصْرٌ للفُلْكِ الجديد على فُلْكِ ذاك الزمان...؛ فهذا الأخير تلقّى غرابًا، وترك غرابًا يخرج منه؛ تلقّى ذئبًا، ولم يلطّف شهوة الافتراس لديه؛ أمّا بولس فقد صنع أفضل من ذاك، إذ تلقّى ذئابًا، فجعل منها نعاجًا، وحوّل البازَ والصقر إلى حمائم؛ كلّ ما كان غباوة وشهوة افتراس طرده من الطبيعة البشرية، وأحلّ مكانه نعومةَ الروح؛ والآن أيضًا يَعُومُ الفُلْكُ الذي لا ينكسر على الأمواج، إذ لا قدرة لعواصف الفساد على تشقيق ألواح كهذه: هو الفُلْكُ من يسود على الأمواج التي يمخرها، وهو الفُلْك مَن يسكت العاصفة؛ وهذا حقّ، فإنّ الذي يضمّ الألواح إلى بعضها ليس القار ولا الزفت، بل الروح القدس.

٣ – إبراهيم وبولس

أنظروا الآن إبراهيم: الجميع يُعْجَب به؛ عندما سمع هذه الكلمات: "أخرج من أرضك ومن قرابتك" (تك ١٢: ١)، ترك الوطن، والمسكن، والأصدقاء، والأهل؛ لقد كان أَمْرُ اللهِ كلَّ شيء بالنسبة إليه. نحن أيضًا، واعلموا ذلك جيّدًا، نبدي إعجابَنا بهذه الطاعة. ولكن مَن يستطيع أن يُقارنَ ذاتَه مع بولس؟ فهو لم يترك لأجل يسوع وطنَه، ومسكنَه، وأهلَه فقط، بل العالَمَ بالذات؛ أكثر من ذلك، احتقر السماء بالذات، وسماء السماء، ولم يَسْعَ إلاّ في إثْرِ شيء واحد، هو محبّة يسوع. إسمعوه هو نفسه يبيّنه لكم، يقوله لكم: "لا الأشياء الحاضرة ولا المستَقبلة، ولا علو ولا عمق... تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله" (روم ٨: ٣٨ و٣٩).

قد يُقال إنّ إبراهيم، إذ عرّض ذاته للمخاطر، انتزعَ ابنَ شقيقه من يد الأعداء، لكنّ بولس لم يخلّص فقط ابن شقيقه، ولا ثلاث وخمس مُدُن، بل الأرض بكلّيّتها، ولم ينتزعها من أيدي البرابرة، بل من أيدي الأبالسة بالذات، مواجهًا كلَّ يوم أخطارًا لا عَدَّ لها، على حساب مِيتاتِه الخاصّة، ومؤمّنًا للآخرين أمانًا كُلّيًّا. لكن، هل كمال الفضيلة وإكليل الحكمة يعودان إلى مَنْ ضحَّى بابنه؟ هنا أيضًا، سنجد أن المقام الأولّ يعود إلى بولس؛ فهو لم يُضَحِّ بابنه، بل بذاته، وأكثر من ألف مرّة، كما قلتُ قبل قليل.

٤ – إسحق وبولس

بماذا نعجب في إسحق؟ بين الكثير من الفضائل، صَبْرُه؛ فقد كان يحفر آبارًا، وكان يُطْرَدُ من ممتلكاته (تك ٢٦: ١٥، ١٨، ٢٠، ٢٢)، ولم يكن يُقاوِم؛ وكلّما كانت الآبار تُمْلأ، كان ينتقل إلى مكان آخر؛ لم يكن يَنْقَضّ، مع كلّ ذويه، على الذين كانوا يعذّبونه، بل كان ينسحب، تاركًا في كل مكانٍ الأراضي التي كانت له، كي يُشبع جَشَعَ أعدائه. أمّا بولس فلم يَرَ فقط أبارًا، بل جَسَدَهُ الخاصّ مغطًّى بحجارة مكدّسة فوقه؛ لم ينسحب كإسحق، بل كان يذهب إلى الذين كانوا يرجمونه؛ كان يريد، وبكلّ قوّة أن يخطفهم معه إلى السماء. وعلى قدْرِ

ما كان ينبوع النِعَم هذا يُسَدّ، على قدر ذلك كان يتدفّق بقوّة، وعلى قدر ذلك كان يسكب من هذه المياه التي تعطي الصبر.

٥ – يعقوب وبولس

لكنّ ابنه يعقوب، في الكتاب المقدّس، يثير الإعجاب بقوّته الكامنة في نفسِه. أيّ نَفْس من ألماس تستطيع أن توازي صبرَ بولس؟ ليس هذا عبوديةً لمدّة أربع عشرة سنة، بل ما يوازي مدّةَ حياته كلّها، وقد قاساها لأجل عروسة المسيح؛ فهو لم يُحْرَق بحَرِّ النهار وبجليد الليل فقط، بل تألّم ألف مرّة بسبب الثلوج، والأمطار، وبَرَد المحنة؛ يومٌ يتلقّى ضرباتِ السَوْط، ويومٌ الحجارةَ وهي تتساقط على كلّ أعضائه، يومٌ آخر أيضًا كان عليه أن يصارع الوحوش المفترسة، ومرة أخرى الأمواج العاتية، وليلاً نهارًا الجوع والبَرْد؛ في كلّ مكان، ومقابل ألف معركة، كان ينتزع (٢كو ١١: ٢٣–٣٣) النعاج من فم إبليس.

٦ – يوسف وبولس

أمّا يوسف فكان الطُهْرَ بالذات! قد أخشى ما يثير السخرية، إذا ما عظّمتُ، انطلاقًا من هنا، مَن صَلَبَ ذاتَه لأجل العالم (غل ٦: ١٤)، والذي لم يكن ينظر فقط إلى ما في الأجساد من مُغْرٍ، بل كلّ الأشياء البشرية بذات العين كما الغبار والرماد؛ كان كميْتٍ لا إحساس لديه أمام ميت. وإذ كان دقيقًا ومتنبّهًا إلى رَدْع كلّ وَثْباتِ الطبيعة الفاسدة، لم يُعانِ أبدًا، ولا في أية مناسبة، أيًّا من هذا الضعف الذي تخضع له سرعةُ العطب البشرية.

٧ – أيوب وبولس

هل يثير أيوبُ الإعجاب لدى كلّ الناس؟ نحن بحقّ نبدي إعجابنا بهذا المصارع العظيم، الذي يمكن مقارنته مع بولس من حيث صبره، وطهارة حياته، والشهادة التي أدّاها لله، لا بل بالبسالة التي أظهرها في جهاد شهير، وبالنصر العجيب الذي كلّل معاركه. لكنّ معارك بولس لم تدم عدّة أشهر فقط، بل عدّة سنوات؛ لم يكن يمسح بالخَزَفات ما ينزّ ويخرج فاسدًا من أعضائه؛ لم يكن يبقى ممدّدًا على المزبلة، بل كان يهاجم فم الأسد الروحيّ، وألف ألف مرّة، مجاهدًا ضدّ التجارب؛ كان أصلب من صخر. لم يكونوا فقط ثلاثة أصدقاء، أو أربعة، بل كلّهم كانوا يهينونه: جاحدون، وإخوة كَذَبَة، ومستهزئون، ومحقّرون. لكن هل كانت ضيافة أيوب رائعة، كما أيضًا همّه تجاه الفقراء؟ نتحفّظ جيّدًا على أن ننكر ذلك، لكننا نجد كلّ ذلك أدنى من فضائل بولس، كما الجسد هو أدنى من النفْس. ما كان أيوب يصنعه للأجساد العليلة، كان بولس يمارسه للأنفس المريضة، مقوِّمًا كلّ الأذهان العرجاء، وموشّحًا العقول الفقيرة العارية بثوب الحكمة. وإذا ما اعتبرنا المنافع بالذات التي تتوجّه إلى الأجساد، كان لبولس كلّ التفوّق الذي يرفع الجائع والفقير، مُعينًا العوَز، إلى أعلى من الغنيّ الذي يعطي ممّا يفيض عنه. كان مسكن أيوب مفتوحًا لكل مَن يأتي إليه، أمّا نفْسُ بولس فكانت تتفتّح للأرض برمّتها، إذ كان يُقيم استقبالاً لجميع الشعوب. من هنا كلماته: "لم تَضِق أحشائي لأجلكم، لكنّ أحشاءكم ضاقت لأجلي"[(٤)].

كانت لأيوب قطعانٌ لا عَدَّ لها من العجول والنعاج، وكان نديَّ الكفّ تجاه الفقراء؛ أمّا بولس فلم يكن يمتلك شيئًا سوى جسده، لكنه كان يجد فيه ما يسدّ به حاجات المعوزين؛ من هنا كلماته: "هاتان اليدان قد خدَمَتا حاجاتي وحاجات الذين كانوا معي" (أع ٢٠: ٣٤). كان ينسب دَخْلَ عمل

(٤) حرفيًّا: "لستم متضايقين بسببنا، لكنكم متضايقون في داخلكم" (ترجمة مارونية)؛ "لستم عندنا محصورين، بل في داخلكم أنتم محصورون" (ترجمة الكسليك).

مديح يوحنّا الذهبيّ الفم للقديس بولس

تحقيق الأب أيوب شهوان
أستاذ مادة الكتاب المقدس في جامعة الروح القدس – الكسليك

تقديم

إذا ما استعرضنا مجملَ ما خلّفه لنا الذهبيّ الفم من مؤلّفات، تَبَيَّن لنا، وبشكل ملفت، أنّ للقديس بولس الرسول موقعًا هامًّا في فكره وحياته، في عظاته وتعاليمه؛ فهو لا يَمَلُّ من مدح بولس المرّة تلو الأخرى، ومن الاستزادة كلّما رأى ذلك مناسبًا، كما تشهد على ذلك آثاره المكتوبة التي تضجّ بالكلام العطر على رسول الأمم. ولدينا على ذلك برهانٌ من فمه بالذات، إذ يقول في مستهلّ عظته حول غُرَّة الشَّهْر عند الرومان ما يلي: "مؤخّرًا، بينما كنتُ أمدحُ بولس الطوباوي، ارتعشتم فرحًا، وكأنكم رأيتموه هو بالذات حاضرًا أمامكم. أريد أن أعود اليوم أيضًا إلى الموضوع ذاته، الخ". من الواضح إذًا أنّ "رغبتَه في العودة تكرارًا إلى الموضوع ذاته" ترتبط بمسلسل من التعليم، وتشير بالتالي إلى ما خصّ به القديس بولس عندما وضع المدائح السبعة المرفوعة إلى هذا الأخير. ويبدو أكيدًا أنّ هذه المدائح قد أُلقِيَت في أنطاكيا، لأنّ الذهبيّ الفم يذكر، في المديح الرابع، اسمَ دَفْنِه (Daphné)، التي كانت ضاحية من ضواحي هذه المدينة؛ ويشهد، في بداية المديح السادس، أنه ألقاها متقاربةً الواحدة من الأخرى؛ مع هذا ليس من السهل تحديد تاريخ إلقائها بدِقَّة.

لن يكون هنا ممكنًا إدراج كلّ المدائح الموجَّهَة إلى القديس بولس، لذلك سنكتفي بالأولى منها، نظرًا لغنى مضمونها، وتنوّع لوحاتها، وبُعدها التعليميّ الواضح المعالم. لقد نقلنا نصّها عن الفرنسيّة، آملين أن يُتاح لنا أو لغيرنا نقْل كلّ مدائح الذهبيّ الفم للقديس بولس إلى العربية[1].

العظة الأولى

لقد جمع القديس بولس، وبدرجة عالية، كلّ ما هو حَسَن وعظيم، ليس فقط بين الناس، بل أيضًا بين الملائكة. فهو يمتلك كلَّ فضائل هابيل، ونوح، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وموسى، وداود، وإيليا، ويوحنا المعمدان، والملائكة. حقلٌ مزخرف جدًّا بالفضائل، بستانٌ روحيّ، بإمكاننا أن نقول ذلك من دون خشية، هكذا لمعت نفسُ بولس الطوباويّ؛ فإلى الكثير من أزاهير النعمة الإلهية، عرف أن يضمّ حكمةً إلهيّة من هذه النعمة التي من فوق. لقد كان هذا إناءًا مختارًا؛ اجتهد بشكل مجيد في أن يتطهّر، فَسَكَبَ له فيضُ الروح كلَّ عطاياه. ومن هذا الينبوع دَفَّقَ لنا أنهارًا عجيبة، ليس فقط أربعة أنهار، كما في الفردوس، بل تيارات عديدة من المياه الروحيّة التي تجري باستمرار،

(١) بعد أن أنجزنا هذه الترجمة لنشرها على صفحات **مجلة بيبليا**، علمنا أنّ الخوري بولس الفغالي قد أدرج الموضوع عينه، ولكن بطريقة مختلفة وبالإيجاز، في مؤلّفه الذي ظهر حديثًا: **بولس الرسول بعد ألفَي سنة**، سلسلة دراسات بيبلية ٣٦، لبنان ٢٠٠٨، ص ٤٠٢–٤٠٨، خاصة ٤٠٢–٤٠٥.

يوحنا الذهبي الفم
يواجه أونوميوس والأنوميّين

الخوري بولس الفغالي
باحث في الكتاب المقدّس

سنة ٣٨٦–٣٨٧، ألقى الذهبيّ الفمّ سلسلة عظات ردًّا على الأنوميّين، وشدَّد على أنَّ الله لا يُدرَك[١]. كان يوحنّا كاهنًا جديدًا، فاستفاد من خبرته حين كان شمّاسًا في كنيسة أنطاكية، فعرف حياتها الحميمة. أمّا مدينة أنطاكية فكانت في ذلك الوقت ملتقى الحضارات والتعاليم والآراء[٢]، من الوثنيَّة إلى اليهوديَّة، وإلى مختلف أشكال المسيحيَّة. وسنة ٣٩٧، ألقى سلسلة ثانية من العظات، بعدما صار أسقف القسطنطينيَّة، عاصمة الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الثانية، وبالتالي المدينة المسيحيَّة الثانية بعد رومة، عنوانها المساواة بين الآب والابن[٣]. فمن هم الأنوميّون؟ وماذا نعرف عن مؤسِّسهم أونوميوس ورفاقه؟ أمّا القسم الثاني والأهمّ فيتطرّق إلى يوحنّا الذهبيّ الفمّ في مواجهته لهذه البدعة.

١– الأنوميّون والهرطقة الأنوميَّة

الأنوميّون جماعة ارتبطت بالأريوسيّين، فأعلنت أنَّ ابن الله يختلف[٤] عن الآب. ظهروا في التاريخ حوالي سنة ٣٦٠ في خطِّ أئيتيوس وأونوميوس، فشكَّلوا الوجهة المتطرِّفة في "الحزب" الأريوسيّ[٥].

(١) Jean CHRYSOSTOME, *Sur l'incompréhensibilité de Dieu*, Cerf, Paris (SC 28 bis), 1970 (2ème éd.). Une première éd. paraissait en 1951; elle donnait le texte de la Patrologie Grecque (48, 701-748) qui reproduisait l'édition de Montfaucon (œuvres complètes, t. I, 2ème partie, Paris, 1718). La nouvelle éd. a profité de la source manuscrite très riche en grec. Mais aussi en syriaque (p. 76-79); Le Londoniensis, British Museum Add. 14567. Cf v-57 (Wright cod 597).

(٢) بولس الفغالي، **الخلاصة الكتابيَّة والآبائيَّة**، الرابطة الكتابيَّة، ٢٠٠٦، دراسات بيبليَّة، ٣٣، ص ٣٣٥–٣٤٦.

(٣) Jean CHRYSOSTOME, *Sur l'égalité du Père et du Fils*, Paris, Cerf (Sc 396), 1994. Un titre secondaire: Contre les Anoméens, Homélies VII-XII.

نقرأ هذه العظات مع التي سبقتها في **الآباء اليونان** ٤٨: ٧٠١–٨٠٢.

A. M. MALINGREY, «La tradition manuscrite des homélies de Jean Chrysostome De incomprehensibili», *Studia Patristica* X (Berlin, 1970) TU 107, p. 1970; Id, «Prolégomènes à une édition des homélies de Jean Chrysostome Contra Anomeos» dans *Studia Patristica* XXII, Louvain, 1989, p. 154-158.

(٤) dissemblable و ανομοιος.

(٥) G. BARDY, "Anoméens", in *Catholicisme*, I (Paris, 1948) col. 609.

نشير إلى أنَّهم وجدوا مؤرِّخًا مدافعًا في شخص Philostorge وُلد حوالى سنة ٣٧٠ في الكبادوك. توفّي بعد سنة ٤٢٥، لأنَّ ولنطينيان الثالث هو آخر من يُذكر في **التاريخ الكنسيّ**. هذا "التاريخ" هو، بحسب فوتيوس الذي قرأ الكتاب وأوجزه مرّتين، تقريظ (εγκωμιον) للهراطقة، واتّهام (φογος και κατηγορια) لأصحاب الإيمان القويم (PHOTIOS, *Bibl. Codex*, PG, 103, 72).

فإنَّ Philostorge هو أنوميّ حتّى العظام. أعلن أن "أئيتيوس وأونوميو وحدهما أبرزا العقائد التي أخفيَتْ في تضاعيف الزمن". وأعلن أنَّه يكره تعليمًا يقول: إنَّ الابن شبيه بالآب بحسب الجوهر. مثل هذا القول يُعتبَر تجديفًا في نظره (G. FRITZ, "Philostorge" *DTC*, 12, col. 1495-1498).

نورد هنا وصف Philostorge لدفاع أونوميوس أمام الكهنة في القسطنطينيَّة نهاية سنة ٣٦٠ أو سنة ٣٦١: "بعض الكهنة في Cyzique اتَّهموا أونوميوس لدى أودوكسوس بأنَّه علّم أنَّ الابن لاشبيه بالآب. انطلقوا من عبارة "شبيه" ولكن لا بحسب الجوهر، لكي يتَّهموه بأنَّه أكَّد لاشبهَ الآب بالنسبة إلى الابن. ثمَّ اتَّهموه بأنَّه بدَّل الطقوس القديمة، وأنَّه تلاسن مع الذين لا يقاسمون كفره. عند ذلك، حصلت بلبلة في كنيسة القسطنطينيَّة...، فقدَّم أونوميوس مرافعته أمام كهنة القسطنطينيَّة، وربح القضيَّة لدى الذين افتعلوا الضجَّة، فانتقلوا إلى الرأي المعاكس، بل صاروا شاهدين متحمِّسين لتقواه"، **التاريخ الكنسيّ** ٦: ١، **الآباء اليونان** ٦٥: ٥٣٢–٥٣٣.

بشريَّتنا، لا ليتركها في ما بعد، بل ليسكن فيها على الدوام. فلو لم يُرِدْ أن يحتفظ بها على الدوام، لما كان كرَّمها وجعلها على العرش الملكيّ، وإذ حملها معه جعلها موضوع سجود لكلِّ الجيش السماويّ: الملائكة، رؤساء الملائكة، العروش، السلطات، الرئاسات، القوّات. أيُّ عقل، أيُّ لسان يستطيع أن يتمثَّل الكرامة العظيمة التي منحها الله لطبيعتنا، هذه الكرامة التي هي في الوقت عينه مهيبة وفائقة الطبيعة؟ أيُّ ملاك؟ أيُّ رئيس ملائكة؟ لا، لا أحد في السماء ولا على الأرض يقدر على ذلك...

"لهذا ننهي عظتنا هنا: في الصمت. وذلك بعد أن ندعوكم إلى رفع آيات الشكر إلى هذا الإله الكثير الإحسان".

٣- الذهبيّ الفم، المربّي

لاحظنا حتّى الآن أنَّ الذهبيّ الفم لا يشرح إنجيل يوحنّا كما نشرحه في أيّامنا. ننطلق من النصّ، نقرأه قراءة حرفيَّة. نحاول أن نكتشف المعنى الروحيّ. كلاّ، بل النصُّ الكتابيّ هو مناسبة لعرض العقيدة، وسند لما يريد أن يقول الكاهن لرعيَّته والأسقف لأبرشيَّته.

إلى الآن رأينا كيف أنَّ هذا الواعظ عرض الحقيقة، وردَّ في الوقت عينه على الخصوم. ذاك هو القسم الأوَّل من العظة. والقسم الثاني، يتوقَّف عند الحياة المسيحيَّة العمليَّة. هذا ما قاله في نهاية العظة الحادية عشرة: "إذًا، لنمجِّد حنان الله من أجل هذه الإحسانات العديدة، لا بكلامنا فقط، بل أكثر بكثير، بأعمالنا، لكي نقتني الخيرات المقبلة التي أتمنّاها لي ولكم بنعمة ورحمة ربِّنا يسوع المسيح الذي به ومعه يكون المجد للآب والروح القدس، الآن وفي دهر الدهور. آمين".

وهكذا تمرُّ الفضائل المسيحيَّة والرذائل التي يجب أن نتجنَّبها، كما "نسمع" مع السامعين في أنطاكية، في نهاية القرن الرابع، كلامًا يحثُّنا على العيش المسيحيّ. ففي العظة الأولى، يقابل الواعظ بين الذهاب إلى المسرح والمجيء إلى الكنيسة. وينهي كلامه: "أنتم الذين تنشَّأتم في أسرارنا المقدَّسة، تعرفون بأيِّ شروط قبلناكم، وما وعدتمونا به، أو بالأحرى ما وعدتم به يسوع المسيح، لأنَّه هو الذي نشّأكم: تعرفون ما قلتُم له، أيَّ كلام أعطيتم له حول أبَّهات الشيطان، كيف كفرتم بالشيطان وبملائكته، وكيف وعدتم بعدم العودة إليها. فمن حنث بوعوده عليه أن يخاف أن لا يكون جديرًا بهذه الأسرار".

في العظة الثانية، طلب الواعظ من السامعين أن يتحرَّروا من الأمور الكثيرة، لكي يكون لهم الانتباه الكامل بحيث يقرأون إنجيل يوحنّا ويستفيدون: "فاحتفظوا، أيُّها الإخوة الأعزّاء، بأن تفكِّروا في الكنيسة بأشغالكم المبينيَّة، بل بالأحرى حين تعودون إلى بيوتكم تحدَّثوا بما تعلَّمتم هنا. فينبغي أن تكون لكم هذه الأشياء أثمن من أيِّ شيء آخر، هذه تصيب النفس، وتلك تصيب الجسد، بل ما نعلِّمكم يفيد الجسد والنفس...".

ويواصل الواعظ كلامه: "إذًا نعتني فنكون متنبِّهين لقراءة الكتاب المقدَّس وشرحه، بحيث لا نتعب في ما بعد في فهمه، إذا كنّا قد فهمنا المبادئ والأسس. وإن تعبنا بعض التعب في البداية، نكون بعد ذلك في حال قادرة على تعليم الآخرين، كما يحثُّنا القدّيس بولس؛ فإنجيل الرسول القدّيس يوحنّا، رفيع جدًّا وسامٍ، والعقائد فيه كثيرة. فلا نسمعه يتهامل. أتوسَّل إليكم، يا إخوتي الأحبّاء، وأنا أشرحه لكم شيئًا فشيئًا، لكي يسهل عليكم أن تفهموا كلَّ شيء وأن لا تنسوا شيئًا. وينبغي أن نخاف أن لا يُلفَظ علينا القولُ الذي تفوَّه به يسوع المسيح حين قال: "لو لم أكن أتيتُ وكلَّمتهم، لما كانت عليهم خطيئة" (يو ٥: ٢٢). أيُّ امتياز يكون لنا على الذين لم يسمعوا شيئًا، إن خرجنا من العظة و لم نحمل معنا شيئًا، فاكتفينا بالإعجاب بالكلام؟ فتصرَّفوا بحيث نرمي الزرع في الأرض الجيِّدة. تصرَّفوا هكذا إذا كنتم تريدون أن تشجِّعونا وتشجِّعونا. وإن كان لأحد شوك، فليحرقه بنار الروح القدس. وإن كان له قلب قاسٍ، عنيد، فليليِّنه بنار الروح القدس. وإن هاجمه في

الطريق عددٌ من الأفكار، فليعتزل في سرِّ قلبه، ولا يستمع إلى أعدائه الذين يريدون أن يدخلوا لكي يسرقوا. هكذا نتعزّى حين نراكم تعطون الحصاد الكثير والوافر. فإن سهرنا هكذا على نفوسنا، وإذا سمعنا بعناية كلام الله، نتخلّص من كلِّ اهتمامات هذا الدهر، إن لم يكن في الحال فشيئًا وشيئًا. ولنتصرَّف إذًا بحيث لا يُقال فينا: "لهم سمّ كسمِّ الحيَّة، كأفعى صمّاء تسدُّ أذنها" (مز ٥٧: ٥).

في العظة الثالثة، بدأ الواعظ وطلب من السامعين أن يكرِّسوا للربِّ يومًا في الأسبوع. تقودون أولادكم إلى المسارح وحلبات السباق. أمّا أن تعطوا بعضًا من وقتكم، فتتذرَّعون بأنَّ عليكم أن تهتمّوا بأولادكم. ولكن يهمُّكم المجد الباطل الذي يُعمي الفكر ويدعوه إلى الكذب ورفض الحقّ. فاليهود خافوا أن يُطرَدوا من المجمع، فخسروا خلاصهم حبًّا بالآخرين؛ فالذي يطلب هكذا مجد العالم، لا يقدر أن يقتني المجد الآتي من عند الله. لهذا وبَّخهم يسوع هكذا: "كيف يمكنكم أن تؤمنوا، حين تطلبون مجد الناس ولا تطلبون المجد الآتي من الله؟" (يو ٥: ٤٤).

في العظة الرابعة، شدَّد الواعظ على الغضب. هو تحرُّك عنيف، أكثر جماحًا من النار. فلنمسك هذه البهيمة ونكبحها. نمسكها بمخافة الدينونة المقبلة؛ وحين يغيظك صديق، أو يثيرك أحد أقاربك، فكِّر في كثرة الخطايا التي اقترفتها ضدَّ الله. وحين تغضب لا تفكِّر في الانتقام.

وتجاه الرذيلة، الفضيلة. هي بالنسبة إلى النفس كالصحَّة للجسد. ونحن نطلبها بحرِّيَّة، لأنَّ الله لا يكرهنا بل يريد أن يقنعنا. فيكفي أن نمشي معه. العشّار (متّى) صار رسولاً. والمضطهد والمجدِّف الكافر (بولس) صار معلِّم الكون. والمجوس كانوا معلِّمي اليهود. واللصُّ صار مواطن السماء. والزانية شعَّت بإيمانها الكبير. السامريَّة دعت مواطنيها إلى يسوع المسيح وكأنَّها أخذتهم في شبكة. والكنعانيَّة أخرجت الروح النجسة من ابنتها (العظة ١٢).

ففي حياة الفضيلة يضيء نوركم للناس. قال سفر الأمثال: "طريق الأبرار تشعُّ كالنور" (أم ٤: ١٨). تضيء الذين في الداخل، كما تصل إلى الخارج. فيبقى علينا أن نضع الزيت في مصابيحنا (العظة ١٣).

وشبَّه يوحنّا الذهبيّ الفم نفسه، بذلك المشاهد الذي شجَّع الأبطال لكي يجاهدوا ويركضوا فينالوا إكليل الظفر. فعمله هو عمل المربّي الذي يهتمُّ بالرعيَّة كما الوالدون بأولادهم. وإن توسَّل وحثَّ ووبَّخ ولام وامتدح، فيجب أن لا يستاء المؤمنون. ذاك ما نقرأ في نهاية العظة الرابعة عشرة:

"لا تستاؤوا أن نحثَّكم مرارًا لتعيشوا حياة بسيطة، فاضلة. فإرشاداتنا ليست اتِّهامًا بأنَّكم مهملون، بل تدلُّ فقط على الآمال الطيِّبة التي نضعها فيكم. وفي النهاية، ما نقوله وما سوف نقوله بعد، لا يتوجَّه إليكم وحدكم، بل إلينا أيضًا، فنحن أيضًا نحتاج الدروس عينها. فمع أنَّها في أفواهنا، فهذا لا يعني أنَّها لا تعنينا؛ فالكرازة تصلح الخاطئ، وتبعد عن الخطيئة الإنسان الخيِّر البعيد عنها، فنحن أيضًا لسنا بلا خطيئة. والدواء مشترك بيننا وبينكم، والعلاجات تُقَدَّم لنا جميعًا، أمّا الشفاء فيرتبط بإرادتنا. فالذي يستعمل الدواء كما ينبغي، يستعيد الصحَّة، والذي لا يضع الدواء على جرحه، يزداد السوء فيه ويمضي إلى الدمار. فلا نتذمَّر من المعالجة، بل نبتهج حين الكرازة توجعنا وتمرمرنا، لأنَّ الثمرة تكون ألذّ. لا ننسى شيئًا، لا نهمل شيئًا من أجل الوصول إلى الحياة الأبديَّة محرزين من الجراح والكلوم التي سبَّبتها للنفس أسنانُ الخطيئة. هكذا نكون جديرين بأن نمثل أمام ربِّنا يسوع المسيح، ولا نُسَلَّم في ذلك اليوم الرهيب إلى قوى العذاب والانتقام، بل إلى تلك التي تدخلنا في ميراث السماوات المعدِّ للذين يحبّون الله. أدعوه لكي يشركنا فيه جميعنا بنعمة ورحمة ربِّنا يسوع المسيح الذي له المجد والسلطان في جميع دهور الدهور. آمين (العظة ١٣).

خاتمة

ثمانٍ وثمانون عظة حول إنجيل القدّيس يوحنّا، نقلها إلى العربيَّة في القرن الحادي عشر الشمّاس عبدالله بن الفضل الأنطاكيّ، فجاءت كلُّ عظة في قسمين: القسم العقائديّ، والقسم الأخلاقيّ، هذا إذا استطعنا أن نقسم بين موضوعين لدى يوحنّا الذهبيّ الفم. فهذا القدّيس الذي اشتعل بغيرة النفوس، أراد قبل كلِّ شيء أن يحرِّك القلوب من أجل حياة مسيحيَّة وسط عالم صاخب، سواء في أنطاكية أو في القسطنطينيَّة. فإن هو قدَّم العقيدة، فلكي يقوّي المؤمنين في تعلُّقهم بالمسيح. وإن دافع بشكل خاصّ عن مجمع نيقية في وجه الخصوم من آريوسيّين وأنوميّين، فلكي يبعد خطر الضلال عن سامعيه. فسواء كان المعلِّم أو المدافع، فهو قبل كلِّ شيء ذاك الذي يربّي شعبه. كما الأب والأمّ يربِّيان الأولاد، وهو يريد منهم قبل كلِّ شيء أن يتحلَّوا بالفضائل والصفات الحسنة لكي يكونوا شاهدين للمسيح وسط عالم ما زالت الوثنيَّة مسيطرة على أفكاره وعاداته. من أجل هذا كانت هذه العظات، التي ابتعدت عن الشرح الذي سينتشر بعد ذلك الوقت في الكنيسة. فالكتاب، كما قال بولس الرسول، "يفيد في التعليم والتفنيد والتقويم والتأديب في البرّ، ليكون رجلُ الله كاملاً، مستعدًّا لكلِّ عمل صالح" (٢تم ٣: ١٦-١٧). ذاك كان هدف يوحنا الذهبيّ الفم حين قدَّم عظاته حول إنجيل القدّيس يوحنّا.

فأوقفه وقال: "كان مع الله" قبل أن يقول من كان. وإذ خاف أيضًا أن يفكِّر أحدٌ بأنَّ الابن كان كلامًا خارجيًّا أو باطنيًّا، دمَّر هذا الظنَّ والفكر بالتعريف (ألـ) السابق، كما قلتُ أعلاه وبما قال في ما بعد. هو ما قال: "كان الكلمة في الله"، بل "كان مع الله"، وهكذا دلَّ على أزليَّة أقنومه، فأضاف قائلاً في وضوح أكبر: "كان الكلمة الله".

وجب على الواعظ أن يتجنَّب خطرَين: الأوَّل، أن يُحسَب الكلمةُ الآب، وهكذا يكون الثالوث كلُّه تجسَّد، فما عاد من فرق، على مستوى التدبير الخلاصيّ، بين الآب والابن. والخطر الثاني، أن يتوقَّف المؤمن عند لفظ "لوغوس" الذي يمكن أن يعني في اللغة العاديَّة الكلمة التي تخرج من أفواهنا فلا تعود، أو تلك التي نحتفظ بها في قلبنا، بحيث لا تكون علاقة بعدُ بين الآب والابن. قال: الابن مولود، والآب لامولود. ويواصل الخطيب كلامه على السامعين في أنطاكية:

"أرى أنَّكم سوف تقولون لي: "الكلمة كان الله". هذا حصل لأنَّه صُنع إلهًا. إذًا لا شيء كان يمنع القدّيس يوحنّا أن يقول: "في البدء صنع الله الكلمة". ولكنَّ موسى حين تكلَّم على الأرض لم يقل: "في البدء كانت الأرض، بل قال: "الله صنع الأرض". أو: "الأرض صُنعت". فما الذي كان يمنع يوحنّا من أن يقول: "في البدء صنع الله الكلمة، وها هو"؟ فلو قال موسى: "صُنعت الأرض"، لأنَّه خاف أن يقول أحد إنَّها لم تُصنَع، فكان يوحنّا بالأحرى على حقٍّ أن يخاف، لو كان الابن خُلق، أن يُقال عنه إنَّه لم يُخلَق. فالأرض التي هي منظورة، تعلن بنفسها الخالق كما قال النبيّ (داود): "السماوات تروي مجد الله" (مز ١٩: ١)، ولكنَّ الابن لامنظور وهو، بلا حدود، فوق جميع الخلائق. إذًا، وإن لم تكن هناك حاجة إلى الكلام وإلى المعتقد لكي نتعلَّم أنَّ العالم صُنع، فمع ذلك دلَّ النبيُّ على ذلك بوضوح. وقبل كلِّ شيء كان القدّيس يوحنّا على حقّ أن يقول ذلك عن الابن على أنَّه خُلق".

منذ البداية نلاحظ مناخ الجدال؛ ففي خلفيَّة كلام الواعظ تعليم أريوس مع الفعل "صنع"، وبالتالي خلق؛ فكان ردُّ مجمع نيقية: "الابن مولود (من الآب) غير مخلوق" ولا مصنوع بيد الآب، شأنه شأن العالم.

"فتعترضون أيضًا: ولكنَّ بطرس يقول ذلك بوضوح وجلاء. (أجيب): أين ومتى يقول هذا؟ (فتقولون): حين وجَّه كلامه إلى اليهود، قال لهم: "الله صنعه ربًّا ومسيحًا" (أع ٢: ٣٦). ولكن قولوا لي أنتم أنفسكم: لماذا لم تضيفوا ما يلي: "يسوع هذا الذي صلبتموه"؟ أتجهلون أنَّ هذه الكلمات يرتبط بعضها بالطبيعة اللامائتة (الخالدة) والبعض الآخر بالتجسُّد: إن لم يكن الأمرُ هكذا. وإن طبَّقتم كلَّ شيء على اللاهوت، تستنتجون أنَّ الله يتألَّم، وتبيِّنون لنا ذلك، ولكن إن كان لا يتألَّم، ينتج أيضًا أنَّه لم يُصنَع. فإن كان الدمُ المراق سال من الطبيعة الإلهيَّة واللاموصوفة، وإن كانت هذه الطبيعة، لا اللحم، تمزَّقت وانغرزت فيها المسامير على الصليب، تستند السفسطة التي تقدّمت على العقل. ولكن، إن لم يكن الشيطان نفسه جدَّف مثلَ هذا التجديف، فأنتَ لماذا "تتظاهر بجهلٍ لا مغفرة، جهل لم يلمحْه الشياطينُ أنفسهم؟".

وجاء البرهان الثاني ردًّا على هرطقة اعتبرت أنَّ الآب نفسه تألَّم، لأنَّ الابن تألَّم. وكانت النتيجة: الله تألَّم. هو برهان بالمحال فيعارض المنطق والعقل: إذا كان الله يتألَّم فهذا يعني أنَّه صُنع. وإن كان لا يتألَّم فمزج الآخرون الإلهيّ مع البشريَّة، بدوا أنَّهم يجدِّفون تجديفًا لم يعرفْه الشياطين.

"ثمَّ إنَّ هذين الاسمين "ربًّا ومسيحًا" هما اسمَا كرامةٍ ولا يدلاّن أبدًا على الجوهر. واحد يشير إلى القدرة، والآخر إلى المسحة بالزيت. فماذا تقول إذًا عن ابن الله؟ إن هو خُلق، كما أنتَ تقول، كلُّ ما قيل عنه يسقط ولا يكون في محلِّه. فإن لم يكن خُلق من قبل، فيمدُّ الله إليه يده ليدلَّ على اختياره له ويرفعه، فهذا يعني أنَّ لا أصل له ولا بداية دنيئة، حقيرة. ولكن ما هو في ذاته، هو إيّاه بطبعه وجوهره. وحين سألوه إن كان ملكًا، أجاب: "من أجل هذا وُلِدتُ" (مت ١٨: ٣٧). إذا

تحدَّث بطرس عن شخص اختير وأُعِدَّ، لأنَّه عن إنسان (الطبيعة البشريّة) يتكلَّم".

أورد الذهبيّ الفم كلام بطرس فميَّز بين الطبيعة البشريَّة والطبيعة الإلهيَّة. وها هو يبيِّن أنَّ بطرس لا يتفرَّد في ما يقول، فيورد كلام بطرس إلى أهل أثينة.

"لماذا تتعجَّبون من كلمات القدّيس بطرس هذه؟ فحين وعظ القدّيس بولس على الأثينيّين، وصف الابن فقط بأنَّه إنسان، فقال: "بواسطة إنسان أعدَّه ليكون الديّان، وأعطى البراهين على ذلك إلى العالم كلِّه، حين أقامه من بين الأموات" (أع ١٧: ٣١). هو ما قال: له شكل الله. ولا قال: إنَّه مساوٍ لله. ولا قال: هو بهاء مجده. وكان على حقٍّ في ذلك. فالوقتُ لم يَحِنْ بعد لكي يقول هذا، فيكفيهم حينئذٍ بأن يؤمنوا أنَّه إنسان وأنَّه أُقيم من بين الأموات. فيسوع المسيح نفسه صُنع هكذا، والقدّيس بولس الذي تعلَّم منه، قدَّمَا كذلك كلام الإنجيل. فيسوع لم يكشف لنا أوَّلاً لاهوته، بل إنَّ النبيّ المسيح كان يُنظَر إليه فقط على أنَّه إنسان. وبعد ذلك بواسطة أقواله وأعماله، عرَّفنا من هو في الحقيقة. لهذا استعمل بطرس في البداية مثل هذه الكلمات التي استشهدتم بها أمامي، والتي هي من أولى خطب يسوع إلى اليهود. بما أنَّه لم يكن بعدُ قادرًا أن يعلِّمهم شيئًا عن لاهوت المسيح، كلَّمهم عن طبيعته البشريَّة. وبعد أن تعتاد آذانُهم على ذلك، تصبح جديرة ومستعدَّة لتقبُّل ما يلي من المعتقد. فإن أراد واحد أن يعود إلى الوراء ويقرأ كرازة الرسول هذه، يجد فيها البرهان اليقينيّ لما أقول، ويفهم أنَّ القدّيس بطرس دعا يسوع المسيح إنسانًا، وأن يطيل الكلام عن حاشه (= آلامه) وقيامته وولادته بحسب اللحم (والدم). أمّا في ما يقوله القدّيس بولس عن ابن الله "أنَّه وُلد بحسب اللحم والدم ومن نسل داود" (رو ١: ٣)، فهو لا يعلِّمنا شيئًا آخر بهذا الفعل "وُلد" إلاّ عن التجسُّد، وهو بذلك يثبِّتنا في إحساسنا".

تكلَّم العهد الجديد عن بشريَّة يسوع المسيح، ثمَّ عن لاهوته. ولكنَّ يوحنا، ابن الرعد، كما دعاه يسوع، يشدِّد على "كان"، وما في هذا الفعل من تجاوز للزمن وتطلُّع إلى خارج الزمن، في الأزل أو في الأبد.

"ولكنَّ ابن الرعد يكلِّمنا الآن عن وجوده (= الابن) اللاموصوف، الذي هو قبل جميع الدهور. لهذا فهو لا يقول: "صُنع"، بل "كان"، وهذا ما وجب أن نبرزه هنا بصراحة، لو أنَّه خُلق. خاف القدّيس بولس أن يظنَّ جاهلاً أنَّ الابن كان أكبر من الآب، وأنَّ الآب كان خاضعًا للابن. فمثلُ هذه المخافة جعلته يقول للكورنثيّين: "حين يقول الكتاب إنَّ كلَّ شيء كان خاضعًا له، فمن الواضح أنَّه يستثني الله الآبَ الذي أخضع كلَّ شيء للمسيح" (١ كو ١٥: ٢٦-٢٧). ومن يستطيع أن يظنَّ أنَّ الآب خضع للابن مع جميع الأشياء. ومع ذلك، خاف القدّيس بولس أن يكون هناك أناسٌ يتصوَّرون أفكارًا عبثيَّة بحيث قال: "ما عدا ذاك الذي أخضع له كلَّ شيء". أمّا يوحنّا فكانت له أسباب أكثر أن يخاف أنَّه إن كان الابن مخلوقًا أن يعتقد أحدٌ أن يكون لامخلوقًا وأن يعلِّمنا ذلك قبل أيِّ شيء آخر. ولكن بما أنَّه مولود، فلا يوحنا كان بحقّ قال، ولا أحد آخر، رسولاً أو نبيًّا، إنَّه خُلق، بل الابن وحده، ما كان تأخَّر عن القول لو أنَّه خُلق حقًّا. فالذي يقول عن نفسه عددًا كبيرًا من الأشياء الوضيعة، تنازلاً، أيكون صمت وقال إنَّه خليقة؟ بل اعتقد أنَّه معقول جدًّا أنَّه بالأحرى صمت، وأخفى جزءًا من عظمته وتساميه، وما صمت ولا أخفى ما ينقصه وما أهمل أن يعلن أنَّه لا يمتلكه. إذ أراد أن يعلِّم التواضع للبشر، كان من المعقول أن يحفظ الصمت حول أسمى صفاته. "أمّا هنا، فبالنسبة إلى خلقته المزعومة" لا تستطيعون أن تقدِّموا لي أيَّ سبب هامّ لكي يصمت. لهذا، فالذي ترك عددًا كبيرًا من الألقاب، ما كان يخفي "خلقته" لو أنَّه خلق. فالذي أراد أن يعلِّم التواضع تحدَّث مرارًا في ألفاظ لا تخصُّه ولا تليق به، كيف يمكن أن لا يقول إنَّه خُلق ولو أنَّه خُلق؟".

جاء البرهان هذا على مستوى من

فمك أدينك، فواجه الواعظ الخصم كلامه وردَّ على حجَّته. أنتم تقولون إنَّ الكلمة تواضع، تنازل، فلو كان خليقة، لكان في تنازله أعلن ذلك، ولكنَّه لم يفعل.

"وما ترى أنَّه لم يعمل شيئًا و لم يقل كلمة لكي يمنع أن يُقال إنَّه وُلد، بل قال أشياء أدنى من كرامته وطبيعته، أنَّه تجاور حتّى صفة النبيّ الوضيعة: "أحكم بما أسمع" (يو ٥: ٣٠). وقال: أبي علَّمني ما يجب أن أقول وما يجب أن أعلِّم. هي أقوال تخصُّ فقط الأنبياء؛ فإن كان لا يستحي أن يقول مثل هذا الكلام لكي يستبق هذا الظنّ، فبالأحرى كان تكلَّم هكذا لو أنَّه خُلق لئلاّ يظنَّ أحد أنَّه لامخلوق. لقد كان قال مثلاً: إحفظوا نفوسكم ولا تعتقدوا أنّي مولود من الآب. أنا صُنعتُ وما وُلدتُ، أنا لا أكون من جوهر الآب بالذات، ولكنَّه الآن تصرَّف كلِّيًّا عكس ذلك. قال كلامًا يدفعنا حتّى بالرغم عنا، لكي نأخذ بالشعور المقابل. مثلاً، "أنا في أبي وأبي فيَّ" (يو ١٤: ١٠)؛ وأيضًا: "أنا معكم من زمان طويل ولا تعرفني يا فيلبّا؟ من رآني رأى أبي" (يو ١٤: ٩). وقال: "لكي يُكرم الجميعُ الابن كما يكرمون الآب" (يو ٥: ٢٣)؛ وأيضًا: "كما أنَّ الآب يقيم الموتى ويحييهم، هكذا الابن يُعطي الحياة لمن يشاء" (يو ٥: ٢١)؛ وأيضًا: "أبي يعمل في كلِّ حين، وأنا أعمل مثله" (يو ٥: ١٧). وقال: "كما أنَّ الآب يعرفني، أنا أعرف أبي" (يو ١٠: ١٥)؛ أو: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠). وفي كلِّ مكان يضع "مثل" و"هكذا". يقول إنَّ أباه وهو هما واحد. ويعلن أنَّ لا خلاف بينهما.

بل يدلُّ على قدرته ويكشفها، بهذه الأقوال وبكثير غيرها. كما حين يقول (للبحر): "أسكُتْ، أصمتْ!" (مر ٤: ٣٩). أو: "أريدُ فاطهر" (مت ٨: ٣، للأبرص)، أو: "آمرك أي الشيطان الأطرش والأخرس: أخرج من هذا الولد" (مر ٩: ٢٤). وهذا القول أيضًا: "عرفتم أنَّه قيل للأوّلين: لا تقتل. أمّا أنا فأقول لكم: من غضب على أخيه بدون سبب استحقَّ حكم الدينونة" (مت ٥: ٢١-٢٢). وهناك فرائض عديدة ومعجزات تكفي لكي تبرهن على قدرته. ماذا أقول؟ بل أكثر ممّا يجب لكي يربح ويقنع كلَّ إنسان لم يخسر بعد الحسَّ والعقل".

كلُّ ما تعلَّمه يوحنّا الذهبيّ الفم من ديودور الطرسوسيّ، معلِّمه في شرح الكتاب، برفقة تيودور المصيصيّ، كلُّ البلاغة التي أخذها، من ليبانيوس الشهير الذي تمنّى أن يكون خليفته يوحنّا الذهبيّ الفم، ولكنَّ المسيحيّين أخذوه منه، كلُّ الفلسفة وطريقة الإقناع، اللتين أخذهما من أندراغاتيوس، كلُّ هذا جُعل في خدمة الوعظ والإرشاد، لكي يسلِّح المؤمنين في وجه الخصوم الذين ينكرون لاهوت الابن، وبالتالي يهدِّدون عقيدة الثالوث. وبعد أن ردَّ على براهين الخصوم أورد الآيات من إنجيل يوحنّا، كما في سبحة، بحيث لا يستطيع الخصم بعدُ أن يجد جوابًا.

٢- الذهبيّ الفم، المدافع

خصوم يوحنّا نوعان: في إطار المسيحيَّة يقف الآريوسيّون والأنوميّون، وفي الإطار العامّ، يقف الوثنيّون، الذين ما زال تعليمهم يُعطى في أماكن عديدة، من أثينة إلى الإسكندريَّة وأنطاكية، وإلى سائر حواضر الإمبراطوريَّة الرومانيَّة. ولن تقفل أثينة أبوابها قبل عهد الإمبراطور، سنة ٥٢٩. ونحن لا ننسى أن ليبانيوس نفسه كان وثنيًّا.

أ- في وجه الفلسفة

هنا نقرأ العظة الثانية التي فيها يبيِّن الذهبيّ الفم أنَّ القدّيس يوحنّا الذي كان فقيرًا وما تعلَّم الآداب والفلسفة، تفوَّق على أشهر الفلاسفة؛ فالكلام الإنجيليّ هو الفلسفة الحقَّة.

"لنرَ، أيُّها الإخوة الأعزّاء، ما تعلَّم هذا الصيّاد (يوحنّا) الذي قضى حياته قرب المستنقعات، وهو منشغل بالشباك والسمك، هذا الرجل الذي من بيت صيدا الجليل، هذا الذي هو ابن صيّاد فقير، بل فقير جدًّا، هذا الجاهل الذي كان جهله عميقًا جدًّا، وقد لبث أمِّيًّا قبل وبعد أن تعلَّق بيسوع المسيح. أما يحدِّثنا عن الحقول

والسواقي وتجارة السمك؟ قد لا ننتظر خطابًا آخر من صيّاد! ولكن لا تخافوا. لن نسمع شيئًا من هذا النوع. بل هو يحدِّثنا عن الأمور السماويَّة، عن أمور لم يعرفها أحدٌ قبله. إنَّه يعلِّمنا عقيدة سامية، وخلقيَّة رفيعة، وفلسفة جميلة بقدر ما نستطيع أن نستقي من كنوز الروح القدس، وقد نزلت الآن من السماء. أو بالأحرى، قد لا يكون الملائكة أنفسهم الذين في السماء قد عرفوا ما سوف يعلِّمنا قبل أن يتكلَّم.

"أسألكم: هل هذه لغة صيّاد، أو رجل بلاغة، لغة سفسطائيّ أو فيلسوف، أو إنسان متعمّق في العلوم البشريَّة؟ كلاَّ ثمَّ كلا. فما من عقل بشريّ يستطيع أن يقدِّم الفلسفة أو أن يُعمل العقل حول الطبيعة المغبوطة واللامائتة، حول القوى الخاضعة لها، حول الخلود والحياة الأبديَّة، حول الأجساد المائتة التي سوف تصبح لامائتة، حول العذاب المقبل والدينونة، حول الحساب الذي يجب أن يؤدّيه كلُّ واحد عن أقواله وأعماله وأفكاره، حول معرفة الإنسان وحول معرفة العالم: ما هو الإنسان حقًّا، بخلاف ما يبدو أن يكون وما هو كذلك. بِمَ تقوم الفضيلة، وبِمَ تقوم الرذيلة؟".

رفع الذهبيّ الفم يوحنّا الإنجيليّ إلى قمَّة المعرفة الفلسفيَّة، وطرح المواضيع الأساسيَّة التي يعالجها الإنجيل بطريقة تتعدّى المفهوم البشريّ. فهل يستطيع مفكّرو العالم الوثنيّ أن يصلوا إلى هذا المستوى؟ لا، يقول الواعظ، فكلُّ ما يقولونه هو هذر وسخافة.

"حرَّك أفلاطون وفيتاغور بعض هذه الأسئلة، أمّا سائر الفلاسفة فلا يستحقّون أن يُدعوا (كذلك) لأنَّهم جعلوا نفوسهم موضوع هزء. فأشهرُهم لدى الوثنيّين، الذين يُعتبَرون عندهم أمراء العلم قد سمَّيتهم. نحن مدينون لهم مثلاً ببعض مقالات حول الجمهوريَّة والشرائع. كلُّ هذا لم يمنعهم بأن يكونوا موضع هزء بسبب آراء يستحي منها الأطفال وجماعة النساء وتقلُّبات المجتمع واحتقار الزواج. صرفوا حياتهم كلَّها لكي يُعلنوا هذه السخافات. ولكن لا شيء أشنع من معتقداتهم حول طبيعة النفس: علَّموا أنَّ نفوس البشر تصبح كالذباب والذباب الصغير، كالنبات. (وعلَّموا) أيضًا أنَّ الله ذاته هو النفس، وفظاعات أخرى. وهم لا يستحقُّون اللوم بسبب ذلك فقط، بل أيضًا بسبب تناقضاتهم التي لا عدَّ لها: تبلبلوا مثل قنال (Euripe) في مدّ وجزر في إحساساتهم وفي معتقدهم، فما كان لهم شيء حقيقيّ أو متين يقولونه".

هؤلاء هم الفلاسفة. أمّا الصيّاد (يوحنّا) فقد قُبل في معبد السماء، وتكلَّم بإلهام من الربّ، فما عرف كلامُه ضعف الكلام البشريّ. أمّا الفلاسفة فما قُبلوا في هذا البلاط السماويّ، بل إنَّ أفلاطون ورفاقه فاستقبلهم طاغية هو ملك صقلِّية. من أجل هذا، كان الذهبيّ الفم معارضًا للفلاسفة ولا سيَّما تعليمهم حول التقمُّص وانتقال النفس من جسد إلى آخر.

"أحد فخاخ إبليس يقوم بأن لا يحفظ الاعتدال ولا الوسط، بل أن يدفع من طرف إلى آخر، أولئك الذين سمَّمهم بمعتقد سيِّئ. تارة يقول أفلاطون، تكوَّنت النفس من جوهر الله، وطورًا، وبعد أن يكون رفعها عاليًا وبشكل شرّير، يُلبسها العار في مبالغة أخرى ينقلها إلى الخنازير وإلى الحجر وإلى أحقر الحيوانات ولكنَّ هذا يكفي حول معتقَد الفلاسفة. بعد أن أطلنا الكلام أكثر ممّا يجب. ونكون على صواب إن توقَّفنا أطولَ من ذلك لو كانت له فائدة قليلة. ولكن بما أنَّنا تكلَّمنا عنهم على قدر ما يجب، لكي نكشف عندهم العار والخزي، ما أوردناه عنهم أكثر من كافٍ...".

ب- في وجه التعاليم الضالَّة

عدوّان كبيران، هما في الواقع ينطلقان من نظرة واحدة إلى الابن تبعده عن الآب. أثارت الآريوسيَّة ألوهيَّة المسيح واعتبرته مخلوقًا من المخلوقات وإن كان أرفع منها. أمّا الأنوميَّة فرأت أنَّ الابن لا يشبه الآب، وبالتالي هو أدنى منه.

استعمل الأريوسيّون، والأنوميّون بشكل خاصّ، النصوص اليوحنّاويَّة، لكي يقدِّموا البرهان على الاختلاف الجوهريِّ بين الآب والابن. ردَّ الواعظ

البشريَّة إلى هذه الحالة من التعاسة، تأنَّس الابن ليرفعها. في التجسُّد أخذ الابنُ بشريَّتنا لئلاّ يتركها بعد، وها هي جالسة على العرش الملكيّ ويعبدها الجيش السماويّ كلُّه.

"ولكن، لماذا استعمل القدّيس يوحنّا هذا الفعل: "صار"؟ لكي يُغلق فم الهراطقة، لأنَّ هناك من يعتقد أنَّ المسيح لم يصر إنسانًا حقًّا، وأنَّ كلَّ ما يتعلَّق بالتجسُّد هو ظاهر، مجاز، وهم. فاستعمل الإنجيليّ القدّيس هذا اللفظ "صار" لكي يستبق هذا التجديف: هو ما أراد أن يتكلَّم هنا عن تبدُّل في الجوهر (حفظنا الله من هذا الفكر)، بل أن يبيِّن أنَّه اتَّخذ البشريَّة حقًّا وحقيقة. فحين قال القدّيس بولس: "إنَّ يسوع المسيح افتدانا من لعنة الشريعة حين صار هو نفسه لعنة لأجلنا" (غل ٣: ١٣)، ما أراد أن يقول إنَّ جوهره انفصل وانحرم من المجد وإنَّه سقط في اللعنة. فلا الشياطين أنفسهم، ولا أكثر الناس جنونًا وغرابة يستطيعون أن يكونوا بهذا الإحساس الغريب والكافر في الوقت عينه".

نلاحظ النعوت في إطار الكلام الذي اعتاد يوحنّا الذهبيّ الفم وعصره، على الخصوم: غرابة، جنون، جهل... بعد ذلك يشرح النصَّ الكتابيّ كما يجب أن يُشرَح.

"هذا ما لم يعنِه الرسول القدّيس، بل إنَّ يسوع اتَّخذ على عاتقه اللعنة التي استوجبناها. فما سمح أن نكونُ بعدُ خاضعين لها فحرَّرنا منها. وكذلك في هذا الموضع، قال القدّيس يوحنّا: "الكلمة صار بشرًا". هو ما بدَّل جوهره إلى بشر، بل لبث ما كانه من قبل بعد أن أخذ البشريّ. فإن قال هؤلاء الهراطقة إنَّ الله قادر على كلِّ شيء فتحوَّل إلى البشريّ، نجيبهم إنَّه يقدر على كلِّ شيء ما دام الله. لكن إن استطاع أن يتقبَّل تبدُّلاً وتبدُّلاً إلى البشر، فكيف يكون الله؟ كلُّ تبدُّل، كلُّ تحوُّل، بعيد كلّ البعد عن هذه الطبيعة التي لا يصل إليها الفساد. لهذا قال النبيّ: "فهي تبيد وأنتَ تبقى، وكلُّها كالثوب تبلى، وكاللباس تغيِّرها فتتغيَّر، أما أنت فلا تتغيَّر وسنوُك يا ربّ لن تفنى" (مز ١٠٢: ٢٧-٢٨).

طريقتان في إفحام الخصم: طريقة المنطق السليم، حيث الإنسان يفكِّر فيعود إلى جادَّة الصواب، وطريقة الاستناد إلى نصِّ الكتاب المقدَّس. نحن لا ننسى أنَّنا في إطار المدرسة الأنطاكيَّة، حيث التشديد على "الحرف"، على لفظ من الألفاظ يكون برهانًا من أجل العقيدة. هنا لاحظنا الفعل "صار". فيحثُّ يوحنّا الذهبي الفم عن عبارات يرد فيها هذا الفعل، لكي يبيِّن أنَّ الخصم أخطأ التفسير. وقبل ذلك أشرنا إلى لفظ "الله" ("تِيُوسْ") الذي ورد بدون أل التعريف، فما استطاع بعدُ أن يدلَّ على الله الآب، بل على اللاهوت، والمثل المعروف جدًّا هو مع "حتّى" في إطار الكلام عن بتوليَّة مريم، في المقطع حول ميلاد يسوع (مت ١: ١٨-٢٥). قال النصُّ الكتابيّ: "ولكنَّه ما عرفها حتّى ولدَت ابنَها فسمّاه يسوع" (آ٢٥). حينئذٍ قال اليهود ومن سار في خطِّهم على مرِّ العصور: "إذًا، بعد أن ولدت مريم يسوع، عرفها يوسف، بمعنى أنَّه كانت مساكنة زوجيّة! معاذ الله!" أورد الذهبيّ الفم عددًا كبيرًا من الآيات حيث ترد الأداة "حتّى" ἕως على مثال ما في المزمور ١١٠: "قال الربُّ لربّي: إجلس عن يميني حتّى أجعل أعداءك موطئًا لقدميك" (آ١-٢). ويشرح الذهبيّ الفم: هل توقَّف هذا بعد أن صار الأعداء موطئًا لقدمي هذا الملك؟ ويطبِّق الكلام على مريم العذراء.

فاللفظ "صار" هو هنا لكي يمنع الظنَّ بأن تجسُّد الكلمة وهمٌ وسراب. لهذا قال الإنجيليّ: "وسكن بيننا". ولكن كيف حصل ذلك؟ أجاب الواعظ: لا تسألوني. الله وحده يعرف. هنا يدخلنا الواعظ في إطار اللاهوت الخفائيّ، الذي يقول الشيء لكي يتراجع عنه لأنَّه يسمو على الإدراك البشريّ. ونحن لا ننسى أحد كتب يوحنّا الذهبيّ الفم: الله لا يمكن إدراكه. فلا يبقى لنا سوى الدخول في السرّ.

"تأمَّلوا هذا السرّ، أيُّها الإخوة الأحبّاء، هذا السرّ الرهيب الذي لا يمكن ولوجه؛ فالكلمة لبث دومًا في هذا البيت (في البشريّ). فقد ارتدى

يوحنّا الذهبيّ الفم
في قراءة إنجيل يوحنّا

الخوري بولس الفغالي
باحث في الكتاب المقدس

مقدمـــة

ثمانٍ وثمانون عظة حول إنجيل القدّيس يوحنّا ألقاها يوحنّا الذهبيّ الفم حوالى سنة ٣٩١، جاءت أقصر من العظات حول إنجيل القدّيس متّى، بحيث لم يتجاوز بعضها العشر دقائق أو الربع ساعة. بعضها قيل في الصباح، وأكثرها في المساء. في الصباح كان يعظ الرجال والنساء أصحاب الغيرة والقادرين أن يستفيدوا من هذا المعلّم الكبير، وبالتالي القادرين أن يحاربوا الهراطقة ويردُّوا على براهينهم. وفي المساء يعظ الجميع وهمُّه همّان: أن "يربّي" المؤمنين في التقوى والفضيلة، ويحذِّرهم من كلِّ أنواع الرذائل. والهمُّ الثاني، إعطاء "السلاح" المناسب في محيط أنطاكية الذي يضجُّ بالضّالين، ويجتذب الناس إلى المسارح والملاعب على حساب الاجتماعات في الكنيسة. ونحن لا ننسى أنَّ الروح الوثنيَّة كانت بعدُ مسيطرة بعباداتها وملاهيها وحياتها الصاخبة.

ذاك هو الإطار الذي قيلت فيه المواعظ حول إنجيل يوحنّا. بعد التعليم، نتوقَّف عند الردِّ على الخصوم. وأخيرًا، نتوقَّف عند الأمور العمليَّة في الحياة المسيحيَّة.

١ – الذهبيّ الفم، المعلم

منذ كان الذهبيّ الفم شمّاسًا، بدأ يعظ في حضرة الأسقف الأنطاكيّ، ميليتيوس، وحين صار كاهنًا بيد الأسقف فلافيان، ضاعف التعليم وشرح الكتب المقدَّسة. ولبث على هذه الحال اثني عشر عامًا، حتّى اختياره ليكون أسقف القسطنطينيَّة. عند ذاك رأى الحاجة عند الشعب، فما توقَّف عن الإرشاد بالرغم من صحَّته الضعيفة وبنيته النحيلة. ولبث على هذه الحال حتّى وفاته، فجاء القلم والحبر يواصلان ما كان الفم يتفوَّه به.

لاهوت الابن ومساواته بالآب

سنة ٣٢٥، حدَّد مجمع نيقية تعليم الكنيسة حول الثالوث، وردَّ على أريوس في ما يتعلَّق بلاهوت الابن، كما نتلو في قانون الإيمان النيقاويّ. لهذا انبرى الآباء يواصلون التعليم في هذا المجال، من أفرام السريانيّ إلى باسيل القيصريّ إلى غريغوار النازينزي. ومثلهم فعل الذهبيّ الفم الذي استفاد من يوحنّا "اللاهوتيّ" ليقدِّم العقيدة للمؤمنين، ونقرأ العظة الثالثة التي عنوانها: "في البدء كان الكلمة" (١: ١).

بعد كلام عن تكريس يوم للربِّ خلال الأسبوع، أشار إلى نظرة الهراطقة إلى "الكلمة"، ابن الله. وقبل أن ينهي على المستوى الخلقيّ، كانت البراهين في أزليَّة الكلمة. أمّا نقطة الانطلاق فالفعل "كان".

"ماذا أقول إذًا؟ أقول إنَّ هذا اللفظ "كان" الذي يُقال عن الكلمة، لا يدلُّ إلاَّ على الوجود الأزليّ. فالإنجيليّ قال: "في البدء كان الكلمة". ثمَّ "كان" الذي يأتي بعد ذلك، يعني أنَّ الكلمة كان مع "أحد". بما أنَّ هذا أخصُّ صفة لله، بأن يكون أزليًّا وبدون مبدأ، ذاك ما وضعه الإنجيليّ أيضًا وثبَّته. ثمَّ، إذا خاف أن يفهم أحدُهم هذه العبارة "في البدء كان"، فيقول إنَّ الكلمة كان لامولودًا "مثل الآب". استبق الأمور حالاً،

تفاسير بولسية للذهبيّ الفم
في مجلة بيبليا

إعداد الخوري بولس الفغالي

"غضب الله (روم ١: ١٨) حسب تفسير يوحنّا فم الذهب"، ٦ (٢٠٠٠) ٥٣.

"يوحنّا الذهبي الفم والعظة الأولى في ٢ كورنتس"، ١٨ (٢٠٠٣) ٤٩.

"عظات في الرسالة إلى أفسس: يوحنّا الذهبيّ الفم"، ٢١ (٢٠٠٤) ٥٧.

"عظة الذهبيّ الفم السادسة حول كولوسي"، ٢٣ (٢٠٠٤) ٢٨.

"عظات الذهبيّ الفم في الرسالة الأولى إلى تسالونيكي"، ٢٩ (٢٠٠٦) ٦٣.

"يوحنّا الذهبيّ الفم والعظة الأولى على الرسالة الثانية إلى تسالونيكي"، ٣٠ (٢٠٠٦) ٦٧.

"يوحنّا الذهبيّ الفمّ، في الرسالة إلى أهل فيلبّي"، ٣٣ (٢٠٠٧) ٧٥.

يوحنّا الذهبيّ الفم والليتورجيا

محاضـــرة

الأب نجم شهوان (ر.ل.م.)، "النافور المارونيّ للقدّيس الذهبيّ الفم (+٤٠٧)"، ضمن سلسلة محاضرات في الدار البطريركيّة – الربوة. يصدر قريباً عن البطريركية عينها.

الروحانية الانطاكية المشرقية، وترتكز شروحاته على البعد الرعوي الذي يحياه الإنسان في حياته اليومية. فيوجد دراسات في العهد القديم عن سفر التكوين وصموئيل وداود النبي وشاول والمزامير والأنبياء، وأشهرها شرح كتاب أشعيا. أما في العهد الجديد فهناك شرح لإنجيل متّى بكامله، ولإنجيل يوحنا، ثم شرح لكتاب أعمال الرسل، ولرسائل القديس بولس.

كان الكتاب المقدس المصدر الوحيد لأفكاره؛ طريقته في شرح الأفكار رائعة. عندما يتأمل في نصوصه يبدع. يلجأ الى الصور والتشابيه، مُظهرًا معاني مخفية لا تخطر على بال أحد. يعطي حياةً للكلمات فيجعلها تتحرك أمامنا، وتتطاير من الصفحات لتصل إلى السامع. مخيلته غنية، باهرة، خصبة، ملوّنة، تضفي على عباراته بريقًا وتنوعًا وقوة وروعة.

العظات

أغلب كتابات الذهبيّ الفم عظات يرمي من خلالها إلى التوسّع في شرح الكتب المقدسة، وفكّ رموزها، والإبانة عن مقاصدها السّنيّة. ولقد تلا معظمها على مسامع المؤمنين إبّان خدمته في إنطاكية (٣٨٦-٣٩٧). وبأمانة كليّة لمدرسة أنطاكية التي كانت تخالف مدرسة الإسكندريّة في استخراج المعاني من نصوص الكتب المقدّسة، عكف يوحنا على المعنى الحرفيّ، وأغناه بمكنوناته الروحيّة التي غالبًا ما كان يَعبُر منها إلى نصائح خُلقيّة ومسلكية تصلح لحياة المؤمنين اليومية. ومع إيثاره لكتابات بولس التي أفرد لها نحو نصف عظاته، فإنّه جال جولات واسعة في مختلف كتب العهدين القديم والجديد.

لم نُعطَ الكتابات المقدّسة لكي نُبقيها في الكتب، بل لكي نحفرها، بالقراءة والتأمل، في قلوبنا. الناموس يجب أن يكتب على ألواح من لحم، على قلوبنا (العظة ٣٢: ٣).

– العظات التفسيرية

أ– العهد القديم

- **في التكوين**: عظات مؤلّفة من سلسلتين متكاملتين، ألقى الاولى منهما في أثناء صوم ٣٨٦، والثانية في سنة ٣٨٨.
- **في المزامير**: عظات تعود إلى نهاية الحقبة الأنطاكيّة، اختار فيها يوحنا ٨٥ مزمورًا تناولها بالتفسير والشرح والتعليق.
- **في أشعيا**: عظات منها ما يرقى إلى الحقبة الأنطاكية، ومنها ما يرقى إلى زمن الأسقفية القسطنطينية.
- **في غموض الأنبياء**: عظات تتناول الأنبياء بصورة عامة.
- **في حنّة**: خمس عظات تعود الى سنة ٣٨٧.
- **في داود وصموئيل**: ثلاث عظات في الزمن عينه.

ب– العهد الجديد

- **في إنجيل القدّيس متّى**: مجموعة من ٩٠ عظة أُلقيت في أنطاكية سنة ٣٩٠، ناهض فيها يوحنا المانويّين، وبيّن أنّ إله العهد القديم وإله العهد الجديد يمثّلان مشترعًا واحدًا، وأنّ ناموس المسيح هو مكمّل لناموس العهد القديم، وناهض الأريوسيّين مُظهرًا أنّ الابن مساوٍ للآب في الجوهر.
- **في إنجيل القدّيس يوحنا**: مجموعة من ٨٨ عظة تمتاز عن سابقاتها بالقِصَر والإيجاز، ألقاها يوحنا حوالى سنة ٣٩١، وضمّنها دفاعًا عن لاهوت الابن ضدّ الأريوسيّين والأونوميّين، مُظهرًا بوضوح التنازل أو التخلي الذي آثره الابن افتداءً للبشرية.
- **في أعمال الرسل**: سلسلتان من العظات تشتمل الأولى منها على أربع عظات تتحدّث عن مقدمة كتاب الأعمال، أُلقيت في فصح ٣٨٨، وتتضمّن الثانية ٥٨ عظة أُلقيت عام ٤٠٠، وتتناول الكتاب كلّه.
- **في الرسالة إلى الرومانيّين**: ٣٢ عظة ترقى إلى الحقبة الأنطاكية، وتعدّ من أنصع ما وصلنا من شروحات آبائيّة لهذه الرسالة.
- **في الرسالتين إلى الكورنثيين**: مجموعة من ٤٤ عظة في الرسالة الأولى، و٣٠ في الثانية، ترقى أيضًا إلى الحقبة الأنطاكية. تضاف إليها سبع

عظات تشرح مواضيع شتّى من الرسالتين.

- في الرسالة إلى الغلاطيّين: ترقى إلى الحقبة الأنطاكية (فصح ٣٨٨)، وهي عبارة عن تفسير متتابع للرسالة يشرح الآيات الواحدة تلو الأخرى، ويرصّ فيها الآراء التفسيرية المختلفة.
- **في الرسالة إلى الأفسسيّين:** ٢٤ عظة أُلقيت كلّها في أنطاكية، ما خلا ثلاثًا (السادسة والعاشرة والحادية عشرة) أُلقيت في القسطنطينيّة ما بين ٤٠٣ و٤٠٤.
- **في الرسالة إلى الفيليبيّين:** ١٥ عظة ترقى إمّا إلى الحقبة الأنطاكيّة، وإمّا إلى زمن القسطنطينيّة، ينشط فيها الكلام ضدّ مرقيون وآريوس وبولس السّاموساطي، على كمال الناسوت واللاهوت في المسيح.
- **في الرسالة إلى الكولوسيّين:** إثنتا عشرة عظة أُلقيت في القسطنطينيّة سنة ٣٩٩.
- **في الرسالتين إلى التسّالونيكيّين:** إحدى عشرة عظة في الرسالة الأولى، وخمس في الثانية، ترقى إلى زمن القسطنطينيّة.
- **في الرسالة إلى تيموثاوس وتيطس وفيلمون:** ثماني عشرة عظة في الرسالة الاولى إلى تيموثاوس، وعشر عظات في الثانية، وعشر عظات في الرسالة إلى تيطس، وثلاث عظات في الرسالة إلى فيلمون، ترقى كلّها إلى الحقبة الأنطاكية.
- **في الرسالة إلى العبرانيّين:** ٣٤ عظة أُلقيت في أواخر سنوات البطريركيّة (٤٠٣ – ٤٠٤).

٢– العناصر الرعوية عند يوحنا الذهبيّ الفمّ

يوحنا طبيب ماهر في إضاءة البعد الرعوي، فإنّه يعالج الناس في لطف الآسي، كما يعالجهم بالصراحة والقسوة، عندما تكون الصراحة كشفًا للداء، والقسوة استئصالاً للشرّ والفساد.

وكان هدف يوحنا الوحيد إنماء المحبة المسيحية بين المؤمنين، وقد قضى حياته يحارب الفساد، ولكنه كان يعلم أنّ رحمة الله أقوى من ضعف الإنسان، فهو القائل: "إذا عدتَ إلى الخطيئة فعُد إلى التوبة، ومهما تعددت خطاياك أَشفِقَ منها متى عدت إليّ".

أ– يوحنا يحارب الأصنام

الحادثة التي فجّرت العداوة هي حادثة التمثال الذي أرادته "أودوكسيا" امام كاتدرائية "آيا صوفيا"، لاسترجاع شعبيتها، وبما أنّ التمرّن على الاحتفال بيوم التدشين لازم أعمال البناء والنحت، فما كان يُسمع أثناء إقامة الصلوات سوى الضجيج وأصوات الموسيقى والمغنّين. فارتفع صوت يوحنا يحذّر الشعب من عبادة الأصنام، واحتجّ على هذا الإزعاج، ثم قصد القصر، وشكا همّه إلى الوزير. علمت "أودوكسيا" بالأمر، فغضبت وضاعفت من صخب الاحتفالات. وتهجّم حينئذٍ يوحنا في عظاته على هذه الممارسات، وشبّه "أودوكسيا" بهيروديا التي طلبت رأس يوحنا المعمدان، فيقول: "من جديد هيروديا تغضب، من جديد تحتدّ حنقًا، من جديد ترقص، من جديد تطلب رأس يوحنا على طبق...".

أضف إلى ذلك أنّ أغلبية سكان أنطاكية مسيحيون أيام الذهبيّ الفم، ولكنّ عبادة الأصنام كانت لا تزال شائعة فيها، ولا سيما عبادة "أبولون"، الذي كان يمثّل الشمس.

وكان سكان القرى يعظّمون هذا الإله، ويعتقدون أنّه مركز الحرارة، ومصدر كل خصب، فقال فيها: "بعد الفجر ينثر ملك النهار راية أشعته على الآفاق...، لكن هذا الكوكب عرضة للتقلبات والنقص...، وشمس البرّ الحقيقية هو يسوع المسيح".

ب– يوحنا يحارب الخلاعة والملاهي

كان الأنطاكيون معروفين في الشرق كله بولوعهم بالملذّات، وقد أصبحت مدينتهم مشهورة بما كانت تقدمه من أسباب الخلاعة والملاهي، فقام يوحنا بجرأته المعروفة يحاربها ويقبّحها، ولا سيما تلك التي كانت

تجري في أوقات عظاته، فتلهي الجمهور عن سماعها. وكانت الكنيسة تضيق ليلة الأحد بالمؤمنين، أما في الصباح فإنّها كانت فارغة خالية، إذ كان الشعب يترك الصلاة، ويسرع إلى حضور سباق الخيل، والمركبات والألعاب والمهازل التي كان أكثرها منافيًا للآداب.

فشرع يوحنا يؤنّب ويوبّخ الذين يتردّدون إلى تلك الملاهي، ويلومهم أشدّ اللوم، ويدلّهم على أماكن التسلية والتنزّه التي يمكن فيها ترويح النفس والجسد دون إغاظة الله، فيدعوهم إلى التمتع بجمال الطبيعة وما فيها، ويحثّهم على الابتعاد عن العشرة الرديئة والجماعات المضلِّلة، فيقول: "فإذا كان فيكم إلى الآن من يذهب، بعد استماع التعاليم والمواعظ، إلى الملاعب والملاهي، وحلقات المشعوذين، ومجالس السكّيرين والفسّاق، والمستهزئين، ألا يكون عمله هذا دليلاً على تناسيه التعاليم والعظات؟ أما يضحك عليكم الخوارج الذين يسمعون أقوال شريعتكم، ويرون أعمالكم المخالفة لها؟

ج- محبة يوحنا للفقراء

منذ أن أصبح يوحنا شمّاسًا حتى وكلت إليه مهمة العناية بالفقراء وتوزيع الصدقات عليهم، فرافقهم وعاش معهم ودافع عن حقوقهم، حتى عن اللاجئين الذين كانوا يميلون إلى السلب، فدافع عنهم بقوله: "إنّ الفقير شفيعه فقره، فلا تطلبوا منه شيئًا آخر. وإذا كان الفقير شرّ الناس، وجب علينا سدّ فاقته، وتسكين جوعه، إذ ينبغي لنا أن نشبه أبانا السماوي، الذي يُطلع شمسه على الصالحين والأشرار؛ فلا حاجة إلى السؤال عن وطن الفقير، وطباعه وصناعته، وصحته، فالفقير فاقته وحدها تجعله مستحقًا الصدقة".

ويوم رُسم أسقفًا، ولشدة زهده، باع الأثاث الثمين الذي وجده في بيته، ووزّع ثمنه على الفقراء. بنى مؤسسات خيرية، وهاجم مُحِبّي المال، فقال: "إنكم تسلبون الأرملة، وتدوسون الضعيف الساقط، وتطأون بأرجلكم العدالة والشرف، لكي تزيّنوا بالذهب سروج خيلكم ولجمها، وتموّهوا بلونه الأصفر سقوف بيوتكم ورؤوس أعمدتها... إنّكم تعتنون بطعام كلابكم، وتتناسون البشر المخلوقين على صورة الله، وتتركونهم يموتون جوعًا".

ويحثّ على الصدقة بقوله: "فلنستيقظ من غفلتنا، ونجتهد في نقل أموالنا إلى دار الأبدية، على يد إخوتنا المساكين، لننال الثواب من ربنا ومخلصنا". فكان رسول المحبة، يريد العدالة الاجتماعية بواسطة المحبة، وكان يردد: "من يعطي الفقراء فهو يعطي الله".

د- فضائل يوحنا الرعوية

ما كان يوحنا يعمل لكسب المجد البشري، بل جعل نفسه كُلاً للكل ليربح الكل، ويكسب الأنفس ليسوع المسيح. ولذلك ما بالى بالوشايات والشتائم، ولا عادى أحدًا، بل سالم الجميع وأحبّهم وسامحهم، وعبّر عن ذلك بقوله: "أنت تبغضني وأنا أباركك من كل نفسي، وأحبك حبًا خالصًا... وإن لمتك أحياناً، فذلك ناتج من اهتمامي بخلاصك".

كان كلامه يعرب عن تواضعه وعن محبته لأولاده، فكان يطلب منهم باستمرار أن يذكروه في صلواتهم، ويناشدهم كي ينبّهوه إلى نقائصه". وكان يخطب في الجماعة القليلة، كما يخطب في الجماعة الكثيرة، كان يشجعهم ويعلّمهم، ويقوّي الإيمان ويرسّخه في قلوبهم، ويحثّهم على ممارسة الاسرار.

مارس تقشّفات شديدة في خلواته، وعاش فقيرًا متجردًا، واجتهد في استئصال الرذيلة من نفوس أبنائه، ويحثّهم على العودة إلى بيت الله والتوبة، وقضاء الساعات الطوال في إنشاد مدائح الله والصلوات.

ورغم النكبات التي تعرّضت لها القسطنطينية، والزلازل التي توالت على المدينة، والاضطراب العام، والخوف الشديد، وهروب الزعماء، بقي يوحنا الراعي الصالح وحده في المدينة، يسعى إلى إعادة النظام،

ويسهم في الكفّ عن أعمال النهب، وقد مكّنه من ذلك تأثيره الأدبي، ومنزلته السامية في قلوب أبنائه؛ كان ينتظر عودة أبنائه الذين أحبهم، ويحزن لما أصابهم ويعزّيهم، ويحثّهم على ارتجاء المدينة التي لا تتزعزع أبدًا.

كان يعرف أن يستخرج الأمثولات النافعة لشعبه من خلال الحوادث، فيقول: "ما مرّ ثلاثون يومًا على نكبتنا الهائلة، حتى رجعتم إلى جنونكم، فكيف أعذركم، وكيف أسامحكم؟... فإنّكم لا تزالون عاكفين على البخل والنهب، غارقين في طمعكم!".

واحتمل حسد رفاقه وإخوته في الأسقفية، وإجحاف الأمبراطورة ونفيه، وكل آلامه النفسية، وحمل الصليب ومشى درب الجلجلة حتى الاستشهاد، ومات شهيد الكلمة والحقيقة، أمينًا على تعاليم الربّ مردّدًا: "شيء واحد، يا أولمبيا، يجب الخوف منه، محنة واحدة: الخطيئة! لم أكفّ عن القول، ولن أكفّ عن ترداد أنّ شيئًا واحدًا من شأنه أن يحزّ في نفوسنا: الخطيئة " (الرسالة ١:٧).

كان يحذّر دومًا من التشاؤم، ويدعو إلى قراءة، إرادة الله، والاستسلام لمشيئته، والاتكال على عنايته.

كان الشعب هاجس يوحنا، يخشى دومًا ألاّ يعيره رجال الكنيسة الاهتمام الكافي والرعاية الأبوية الساهرة؛ وكان يتحرّق في غربته عندما تبدو له صورة أبنائه وقد بلبلتهم الحيرة وفقدوا الرعاة الغيورين.

خاتمة

عاش الذهبيّ الفم أمام الكلمة التي جذبته، وجعلت منه نموذجًا في حياة الفقر والتجرد والبطولة الروحية والرعاية اليقظة. قامت شهرته لا على عبقريته أو فلسفته فحسب، بل على المواهبية التي وهبت له، حملها شرارة محبة ودربًا للسلوك والآداب المسيحية.

يدهشك الذهبيّ الفم لما في مواعظه من عمق وروعة أسلوب وبلاغة تعبير، ولما فيها من غزارة في التأليف يحثّك من خلالها على الفضيلة واتباع الربّ، وقد تناديك شروحاته ودراساته إلى تذوّق كلمة الله بهديه، وتجذبك عظاته وتهديك من خلال صوت هذا الراعي للعودة إلى الحظيرة، وإدراك جمالية الحياة الرعوية والحياة الجديدة بالمسيح. فنردّد ونؤكّد ما قاله نيومن:

"أرى أنّ سحر يوحنا الذهبيّ الفم يكمن في لطفه وتعاطفه مع الناس أجمعين، لا في حال قوّتهم، بل في حال ضعفهم... ومع ما كان عليه من اضطرام المحبة الإلهية، لم يفقد شيئًا من شعوره الإنساني، فكان أشبه بعلّيقة الصحراء المحترقة التي لم يذهب اللهيب الذي كان يلفّها بشيء من طبيعتها وجوهرها".

العناصر البيبليّة والرعويّة عند يوحنّا الذهبيّ الفم

الخوري جوزف سلّوم

مقدمــــة

الذهبي الفم، ذاك الوجه الانطاكي، الشهيد مثل معلمه المسيح، شهيد صراحته وشجاعته، شهيد محبته لحقيقة الإنجيل وحرصه على تطبيقه، هو ذاك الحاضر في قلب تاريخ الكنيسة والمساهم في حل مشاكل شعبه.

اكتسب شهرةً تجاوزت حدود الشرق الى الغرب وارتكزت على نزاهته وقداسته وبلاغته: مارس يوحنا الذهبيّ الفم النسك في البراري والجبال وأصبح جسمه نحيلاً، ضعيفًا، أما صوت هذا الكاهن فكان ذا نبرةٍ قويةٍ جبارةٍ تصل إلى القلوب وتحث على التغيير والاهتداء.

دُعِيَ "ذهبيّ الفم" بسبب فصاحته وجمال أسلوبه وروعة كلماته المسبوكة كالذهب. وقرر "أن يقطف لله بواكير كلامه، تلك الموهبة التي أنعم بها الله عليه"، ورغم ذلك ورغم موهبته الخارقة، بقي متواضعًا ولم يسكر بالمجد.

دافع هذا الكاهن عن شعبه وسط الأزمات، وعزم بعد ترقّيه الى الدرجة الأسقفية أن يحيا زاهدًا في قصره الأسقفي، وعمل مدافعاً عن الحق، يحب البؤساء والفقراء ويساعدهم، ولكنه تعرض للنفي، فالرجال المتفوقون بالفضيلة هم أكثر عرضة للمحن.

استشهد عمود الكنيسة ومصباح الحقيقة وبوق الله، تاركًا لنا مؤلفات واسعة في شتى المواضيع تناول بعضها الحياة الرهبانية، ودراسة حول الكهنوت، ومؤلفات منوعة حول التربية والعفة، ومؤلفات في الدفاع عن الدين، ورسائل متنوعة ومتعددة تفوق ٢٣٦ رسالة، وعظاته ودراسات مكتملة لكتبٍ من العهد القديم والعهد الجديد. لم يترك أحد من الآباء، ارثًا أدبيًا وروحيًا مثل يوحنا، لا في حجمه ولا في مضمونه، ويبقى الوجه اللامع في تاريخ آباء الكنيسة لاسيما الآباء اليونانيين.

وأمام هذا الغنى في شخصيته وفضيلته وغزارة مؤلفاته نتوقف في هذه الدراسة على بعدين، أحداهما بيبلي، والثاني رعوي.

١ - العناصر البيبلية عند يوحنا الذهبيّ الفم

يُظهر يوحنا حبّه للطبيعة لما يساعده ذلك في الحياة التأملية وفي صلاته، غير أن ما يزيّن جمال النفس هو الإصغاء إلى كلمة الله ودرس الكتاب المقدس، فيقول:

"المروج حسنة، والبساتين جميلة، ولكن قراءة الكتاب المقدس أحسن وأجمل. هنالك ترى الأزهار التي تذوي وتذبل، وهنا الأفكار تزهر. هنالك يهب النسيم، وهنا روح الله. هنالك السياج شوك، وهنا عناية الله سورنا. هنالك قرّة العين، وهنا منافع القراءة. البستان محدود محصور، والكتب المقدسة منتشرة في الارض كلها. البستان عرضة لتأثير الفصول، والكتب المقدسة لا يؤثر فيها صيف، ولا شتاء، بل هي على الدوام مورقة حاملة الأثمار".

ان معظم أعمال وكتابات الذهبي الفم مؤلفة من مواعظ حول كتب العهد القديم والجديد، تتجلى فيها

آلامه هو قوّة مضاعفة لمجابهة الشرّ. فالبارّ الذي عانى الآلام واحتملها يصبح قادرًا على مقاومة مكايد إبليس ومحاربته بقلبٍ شجاع وقوّة النفس، بالصبر الجميل، وكأنّه واقف على صخرة لا يخاف السقوط(٩٧).

بواسطة الآلام، يستطيع الإنسان أن يحوز على نوعين من المكافآت. المكافأة الأولى هي ملكوت السماوات، والثانية هي الربح الذي يناله بتحمُّله الآلام. هذا الربح هو أوّلاً حالة الفرح الداخليّ(٩٨). ثمَّ هو قوّة النفس في مجابهة كلِّ عدوٍّ ومقاومته، أي التحمُّل بصبر ولفترة طويلة، فيعيش البارُّ في التواضع والإرادة في تحمُّل الشرور.

قيمة إيجابيَّة أخرى للآلام هو دور المحافظة. فالآلام تحفظ الإنسان ضدَّ تعاسة أكبر من أن يكون تعيسًا. لذلك يختبر الإنسان أنّه ضعيف وعرضة للسقوط، وأنَّ قوّته ليس منه بل من ذاك الذي يمنحه القوّة، فيصبح أكثر حكمة وتواضعًا(٩٩).

"البارّ يصبح أكثر فرحًا، عندما يعاقب على هذه الأرض، لأنّه يتجرَّد من كلِّ دنس، بشكل يصبح بكامله مطهَّرًا"(١٠٠).

ويعطي يوحنّا قيمة أخرى للآلام هي أنّها تسمح للشهادة عن الحقائق المسيحيَّة. بقدر ما يثبت الإنسان البارّ في إيمانه بقدر ما يكون مصدر شهادة أمام الوثنيّين. والمثال الأعلى في هذا المجال هو الشهيد. فالشهيد هو المسيحيّ الذي يحمل الشهادة للحقيقة المسيحيَّة، شهادة متجلِّية بالآلام حتّى بذل الدم. هذه الشهادة هي الأعظم التي يستطيع إنسان أن يقدِّمها، والله يهيّئ لمن يبذل نفسه أعظم مكافأة(١٠١).

ويشدِّد يوحنّا على ضرورة حمل الشهادة في الحياة الحاضرة، ولا سيَّما بواسطة الآلام، شهادة عن الحياة المستقبلة وعن القيامة(١٠٢). والتخلّي عن الأمور الأرضيَّة هي جزء من الشهادة التي يقدِّمها المسيحيّ عن الحياة المقبلة. لذا نفهم موقف يوحنّا الرافض لحياة الترف التي يعيشها مواطنوه ولاسيَّما الإمبراطورة ورجال الإكليروس في القسطنطينيَّة.

فآلام المسيحيّ لا تشهد فقط عن حقائق الإيمان، بل هي شهادة عن عمل الله في البارّ. فهي تظهر قوَّة الله في الإنسان، بل حبُّ الله الأبويّ الذي يريد خير أبنائه(١٠٣). فالإنسان بطبعه ضعيف، والبارّ، مثل كلِّ إنسان، هو ضعيف أيضًا، ويعاني من الآلام والمصائب. لكنَّه يتقوّى بما يناله من قوَّة من العلاء: "أنا قويّ بالذي يقوّيني"، يقول بولس الرسول، بالرغم من الشدَّة والآلام التي يتعرَّض لها. و"هكذا نشهد لمحبَّتنا لله، عندما نتألَّم بشجاعة وبدون أن ندع أنفسنا نتكدَّر"(١٠٤).

وأخيرًا، تبني الآلام علاقة خاصَّة بين المسيح والإنسان المتألِّم: "ولهذا السبب نسير على الطريق ذاتها التي سار عليها، وتحت رايته نصبح إخوته، وبمعنى آخر، مسحاء آخرين. ما هذه العظمة التي تمنحنا إيّاها المحن!"(١٠٥).

(٩٧) *Lettres à Ol.* 16, 1d, 46-56, pp. 364-366.
(٩٨) *Ibid.* 16, 1e, 59-63, p. 366.
(٩٩) *De Stat.* 2, 1, PG 49, 33D.
(١٠٠) *In Ep. ad Heb.* 5, 4, PG 63, 51B.
(١٠١) *In S. Iulianum M.* 1, PG 50, 665-668.
(١٠٢) *In Act. Ap.* 47, 3, PG 60, 330D.
(١٠٣) *In Ep. ad Heb.* 29, 1, PG 63, 204B; *In Act. Ap.* 42, 4, PG 40, 302D.
(١٠٤) *In Ep. II ad Thess.* 5, 1, PG 62, 493D.
(١٠٥) *In Ep. ad Philp.* 11, 2, PG 62, 266CD.

الخاتمـــة

يعتبر يوحنّا من أعظم الواعظين في المسيحيَّة. لقد تأثَّر بالمحيط الذي عاش فيه، وبالثقافة التي تلقّاها في محيطه الهلّينيّ، متأثِّرًا بالفلسفة اليونانيَّة التي سخَّرها، ساكبًا عليها النفحة الروحيَّة لتكون في خدمة المسيحيَّة. كان بالإمكان أن نتطرَّق إلى ما أعطته الفلسفة ولا سيَّما الفلسفة الرواقيَّة من أفكار في معالجته لهذا الموضوع لكنَّنا اكتفينا بما قدَّمنا.

موضوع الآلام هو موضوع عزيز على قلب يوحنّا، نراه يعود إليه مرارًا وتكرارًا في جميع عظاته، جاعلاً منه أداة يدفع بها سامعيه إلى الأمام في درب الصليب، نافحًا فيهم روح الرجاء المسيحيّ بغد أفضل، داعيًا إيّاهم إلى التفكير بالحياة الآتية بما فيها من خيرات ونعم وعيش مع الله بسعادة لامتناهية. "فالمكافأة على هذه الشرور، هي السماء وخيراتها التي لا يمكن أن نعبِّر عنها بالكلمة والتي لا تنتهي، لكنَّها تضمن الفرح الأبديّ الذي هي (= الخيرات) مصدره"(١٠٦).

(١٠٦) *Lettres à Ol.* 14, 1b, 15-17, 21-31, pp. 350-352.

"إذا أصيب القريب في ممتلكاته، فالآخر يُصاب في نفسه، فهو محكوم عليه بالفساد والعذاب"(٨١).

في العمل السيّئ يصبح الخاطئ عبدًا ويتغرَّب عن ذاته، وهذا حدثٌ هو ضدَّ طبيعته الحرَّة ويصيب العقل. تصبح نفسه شرّيرة، خبيثة، لا تليق بإنسان حرّ لأنَّها تتصرَّف ضدَّ العقل وتحت تأثير الأهواء. فنتيجة عمل صادر عن الأهواء هو مفجع للإنسان، لأنَّها "تفقد النفس ذاتها من التفكير، وتجعلها شبيهة بالذئب والكلب والحيَّة والأفعى أو أيِّ حيوان آخر"(٨٢). هذا الانحدار الذي وصل إليه الخاطئ ليكون مساويًا للحيوانات الخالية من التفكير، هو جسيم بنظر يوحنّا، المتأثِّر بالعقليَّة اليونانيَّة التي تعطي أهمِّيَّة كبيرة للعقل البشريّ. فهو بمثابة عقاب للخاطئ على أعماله الشرّيرة. فيقول في هذا المجال: "أيُّ شيء يمكن أن يعادل هذه العقوبة، عندما الإنسان المخلوق على صورة الله ويتمتَّع بهذا القدر من الامتياز، أي بالطبيعة العقلانيَّة والمتمدِّنة بكاملها، يسقط إلى هذه الحالة من الحَيْوَنَةِ المتوحِّشة"(٨٣).

ثـمَّ إنَّ العقوبات الناتجة عن الخطيئة هي مرسلة من عند الله، وأنواعها متعدِّدة ومتنوِّعة. وليؤكِّد ما يقول، عاد يوحنّا إلى تاريخ الخلاص، إلى البيبليا، إلى العقاب الذي ناله آدم بعد ارتكابه المعصية. لم يطل هذا العقاب آدم وحده بل الجنس البشريّ بأسره، وجعل الإنسان في حالة بائسة: بؤس جسديّ ونفسيّ، انعطاف إلى الشرّ، آلام، أعمال شاقَّة على الأرض، موت يعاني منه(٨٤).

وحدث أمر مروِّع في مدينته، اهتزَّت الأرض ودُمِّر قسم كبير منها، عندئذٍ أعلن يوحنّا أمام سامعيه: "لم أخف من الهزَّة الأرضيَّة ذاتها، بل من السبب الذي قاد إليها؛ وما السبب سوى الغضب الإلهيّ، وسبب الغضب الإلهيّ هو خطايانا"(٨٥).

هذه النظرة القاسية إلى الآلام كنتيجة عقاب إلهيّ على الخطايا، تجد أمامها نظرة مخفِّفة لها، لا تعود إلى عدل الله، بل إلى خير الإنسان، وهي التبرير بالآلام:

"هذه الآلام التي حدثت من إنسان تجاه آخر، تنجّي هذا الأخير من خطاياه وتكون سببًا لتبريره"(٨٦). "هي فائدة كبيرة لأولئك الذين يتحمَّلون الألم بنبل، وبالتالي، إذا وجد أحد منهم ارتكب خطايا جسيمة، فهذا ينجو من حمل خطاياه الثقيل"(٨٧).

فكرة كاتبنا هي أنَّ الآلام التي يتحمَّلها المؤمن الخاطئ بصبر ونبل، تعمل في الإنسان عملين اثنين: محو الخطايا وعطية العدالة. وعلى هذا الأساس، في كتابته إلى أولمبيا، يظهر فرحه للآلام الكثيرة التي تحمَّلها لأنَّ هذه الشدائد هي تعويض عن خطاياه"(٨٨).

من ناحية أخرى، يستدرك يوحنّا، نجد أنَّ طيبة الله هي التي تبرِّر آلام الخاطئ، فهي إنذار. فعندما يتكلَّم يوحنّا على هيرودُس، يتوقَّف عند حالة وفاته؛ فالدود أكل جسده وكأنَّه عقاب على خطاياه وإنذار لسواه(٨٩).

عندما نقول إنَّ الله يعاقب الإنسان بالآلام على الخطايا التي يقوم بها، ندخل في عدالة الله ويمكننا أن نسمّي الله، الله – القاضي. لكنَّ يوحنّا يفضِّل

(٨١) *Ibid*. 51, 4, PG 60, 357A.
(٨٢) *Lettres à Ol*. 13, 3b, 51-53, p. 340.
(٨٣) *Ibid*. 13, 3c, 65-68, p. 342.
(٨٤) *Ibid*. 10, 3a, 1-19, pp. 248-250.
(٨٥) *De Lazaro* 6, 2, PG 48, 1030 BC.
(٨٦) *Lettres d'exil* 4, 64, p. 81.
(٨٧) *Lettres à Ol*. 17, 3b, 29-31, p. 378.
(٨٨) *Ibid*. 9, 1b, 45, p. 220.
(٨٩) *In Act. Ap*. 27, 1, PG 60, 205B.

أن يسمّي الله، الله – الطبيب. فالعمل العقابيّ عند الله ليس فقط هدفًا لإرضاء عدالته. فيوحنّا يشدِّد على أنَّ الله، في هذا العمل العقابيّ، ينظر إلى خير الإنسان. بهذه النيَّة، يجعل يوحنّا الله طبيبًا يداوي ويكوي الجراح من أجل الشفاء. فالله يستعمل الآلام كدواء فعّال، والدافع إلى ذلك هو طيبته اللامتناهية:

"كما هو الدواء في يد الطبيب، وكذلك الحديد والنار، كذلك هي أيضًا العقوبات في يد الله"(٩٠).

كما أنَّ الدواء مرٌّ هو، والعمليّات الجراحيَّة هي بطبيعتها تسبِّب الأوجاع، لكنَّها فعّالة وشافية وخلاصيَّة، كذلك الآلام التي يرسلها الله للإنسان، هي آلام شفائيَّة، خلاصيَّة. فالله يرسل المجاعة، الطاعون وشرور أخرى ويجعلها على النفس ليشفيها.

لذلك يعتبر يوحنّا أنَّ الخاطئ الذي يتألَّم يجب أن يفرح بآلامه لأنَّها آلام مطهِّرة لخطاياه. كما يعتبر أنَّ الذين لا يتألَّمون "هم الأكثر بؤسًا بين البشر ويتفاقم بؤسهم بغياب أيِّ عقاب"(٩١).

ويعطي أيضًا يوحنّا الله صفة المعلِّم: "هكذا الله هو في الوقت ذاته، قاضٍ وطبيب ومعلِّم. هو يفحص كقاضٍ، ويشفي كطبيب، ويتلمذ كمعلِّم ويقود التائهين في دروب الحكمة"(٩٢).

ب– آلام البارّ

بعدما رأينا لماذا الخاطئ يتألَّم بحسب تفكير يوحنّا الذهبيّ الفم، ننتقل الآن إلى سؤال آخر: لِمَ البارُّ يتألَّم؟

مع هذا السؤال نصل إلى النقطة الجوهريَّة لموضوعنا. من السهل أن يجاوب يوحنّا على السؤال الأوَّل: لِمَ الخاطئ يتألَّم؟ وليس من المستحيل عليه أيضًا أن يجاوب على السؤال الثاني. فالآلام تحمل في ذاتها أيضًا الخير للبارّ وهذا ما حاول يوحنّا أن يرسِّخه في عقول سامعيه.

الفائدة الأولى التي يخطُّها يوحنّا، وبشكل ملحوظ، هي اكتساب المجد (δοξα). فكثيرًا ما يستعمل يوحنّا هذا العبارة بمعانٍ كثيرة. فهو يتكلَّم على مجد الله، مجد الابن بطبيعته، المجد الذي ناله الابن بواسطة الصليب، مجيء الابن الوحيد بمجد أبيه. كما أنَّه كثيرًا ما يمجِّد الله في ختام عظاته ورسائله: "المجد لله على كلِّ شيء"(٩٣). كما يتكلَّم يوحنّا على مجد الإنسان الذي يناله بواسطة الآلام، فقد يكون صحيحًا فيستعمل كلمة (δοξα) أم نافلاً مستعملاً كلمة (κενοδοξια)(٩٤).

فالمجد الذي يناله البارّ بسبب الآلام يتجلّى على هذه الأرض وفي السماء. وعندما يتكلَّم يوحنّا عن هذا المجد يربطه بالنور والإنسان المنوَّر الذي ظهر مجده بعد آلامٍ قاساها محتملاً إيّاها بصبر جميل، فانتشر في كلِّ الأرض. فهذا المجد هو أوَّلاً مكافأة بخاصَّة بسبب البهاء الذي يعطيه والمديح الذي يخلقه، وهكذا يصبح المؤمن الذي نال مجدًا بعد آلام مثالاً يحتذى به. فهو شاهد "تألَّم من أجل معتقدات صحيحة"(٩٥). وهكذا يكون المسيح الأكثر شهرة بين البشر، لأنَّه عانى الآلام الجسيمة وهو الذي لم يعرف خطيئة، فجعله الله الآب المثال الأسمى(٩٦).

أمّا الخير الثاني الذي يناله البارّ من

(٩٠) *De Lazaro* 6, 3, PG 48, 1031 B. Cf. *In Act. Ap*. 54, 3, PG 60, 380A.

(٩١) *De Stat*. 6, 6, PG 49, 89C.

(٩٢) *Ibid*. 7, 4, PG 49, 96B.

(٩٣) Cf. PALLADIUS, *Dialogus de vita S. Joannis Chrysostomi II*, PG 47, 38D. Cf. *Lettres à Ol*. 7, 3a, 4, p. 142.

(٩٤) *In Act. Ap*. 28, 2, PG 60, 212A; *In Matt*. 15, 19, PG 59, 235A.

(٩٥) *Lettres d'exil* 17, 4-5, p. 138; *Sur la Prov*. 23, 3, p. 270.

(٩٦) *In Ep. ad Heb*. 22, 2, PG 63, 156B.

وهنا يستطرد الواعظ في المقاطع الثمانية اللاحقة (١٢-١٩) بموضوعين يتعلقان بدم المسيح الذي يتناوله المعمَّدون الجدد، مؤكّدًا من جهة، بأنه السلاح الأقوى الذي ينالونه في صراعهم مع الشرير، ومشبّهًا هذا الدم برمزه السابق، أي الدم الذي وضع على أبواب العبرانيين في مصر، فحمى أبكارهم من الموت الذي أصاب أبكار المصريين، ومبيّنًا أنّ الشيطان الذي هرب أمام الدم الرمزي، سيهرب بالأحرى أمام الدم الحقيقي، أي دم المسيح. ويؤكد، من جهة ثانية، على قوة هذا الدم الذي سال من جنب المسيح فأعطى المعمودية والأسرار الباقية التي تولد منها الكنيسة، كما ولدت حواء من جنب آدم، مع العلم أنّ هذا الدم هو الغذاء الذي يغذّي به المسيح الذين ولدهم من جنبه.

أخيرًا، يرتكز القديس على ما سلف ليستنتج، في المقاطع المتبقية (٢٠-٢٧)، بأنّ ما يحدث في المعمودية هو عهد مقدس بين المسيح والمعمَّدين، يحلّ محلّ عهد الخروج وسيناء، لأنّ هذا الأخير قد تمزّق بسبب الخطايا، بينما الجديد حقّقه المسيح بأن سمّر صكّ الذنوب على الصليب. وهنا يلجأ إلى مقارنات عديدة بين ما حدث إبان الخروج وما يحدث في المعمودية، مستعملاً كلام القديس بولس الذي يقول إنّ هذا العهد ليس مكتوبًا بالمداد بل بالروح، ويقوم على رفض طغيان الشيطان والاعتراف بسيادة الله الوحيدة، وهنا تلميح آخر إلى أحد عناصر رتبة المعمودية، أعني رتبة طرد الشياطين الكبرى الموجودة إلى الآن في كل طقوس المعمودية، والتي تقوم على نكران الشيطان وعلى الاعتراف بالإيمان. ولا يخلو الأمر طبعًا من تشجيع للمعمَّدين الجدد على عدم التراخي، وتحريض على التقدم من مائدة المسيح التي تحتوي على كل الخيرات.

٢- تحليل لاهوتي

تتميز هاتان الكرازتان بنَفَس لاهوتي قوي، له ثلاثة محاور: بيبلية وأسرارية وكنسية، وهذه الثلاثة مرتبطة فنعرضها معًا.

تركّز العظة الأولى، كما قلنا، على مقابلة المعمودية بسرّ الزواج، مبيّنة أنه زواج روحي يصير بين المسيح والمعمَّدين. لهذه المقابلة أهمية فائقة لأنها تشرح الزواج المسيحي على خلفية بيبلية وأنتروبولوجية مرتكزة على ما جاء في سفر التكوين، حول اتحاد الرجل بزوجته اتحادًا سريًا كاملاً فيصيران جسدًا واحدًا، بل أن الرجل يضحي للمرأة "أبًا وأخًا وزوجًا"، والعكس صحيح. لهذا الاتحاد إذا مفاعيل عديدة، تبدأ بالتحوّل من ارتباط الزوج والزوجة مع العائلة الأصلية، إلى ما هو أكثر من ارتباط، أي إلى "اتحاد" نهائي ودائم في العائلة الجديدة. يفترض هذا الارتباط الجديد تخلاًّ كاملاً عن الماضي وانفصالاً دائمًا عن العائلة الأصلية، ويترتب عليه واجب الزوجين في تبادل الهدايا، علامة على الحب الذي يجمعهما. انطلاقًا من هنا، يفهم يوحنا عرس المعمودية الروحي بين المسيح والمعمد، معتبرًا، بالارتكاز على نص الرسالة إلى أهل أفسس (٥: ٢٥-٢٧) أن المعمودية هي اتحاد كامل بالمسيح. ولذلك فهي تفترض تخلاً كاملاً من المعمَّد عن حياته الماضية بما فيها من وثنية وخطايا – وهي رمز لعائلته الأصلية – ليصير واحدًا والمسيح، الذي لا يأبه لبشاعته وحمأة خطاياه، بل "يرضى بسفك دمه من أجل الزوجة التي ستتحد به"، إذ أنه "أحاط عروسه بالعناية كي يقدسها بدمه الخاص، ويقدمها لنفسه كنيسة مطهَّرة وممجَّدة بماء العماد المقدس. ولقد أراق دمه وعانى الصليب من أجل أن يمنحنا نعمة التقديس وينقينا بغسل الميلاد الثاني".

أما في العظة الثالثة، فيلجأ يوحنا إلى المقابلة بين حقائق سر المعمودية ومفاعيله من جهة، وبعض الحقائق الثابتة في التاريخ الخلاصي، من جهة ثانية.

أول مقابلة مع العهد القديم هي في إطار حثه الموعوظين الجدد على مصارعة الشرير، حيث يؤكّد بأنّ الانتصار على الشرير ينيل المعمَّد الإكليل، ولكنه يؤكّد أيضًا أن انتصار

إلى مناسبات خلاص. لهذا هو ما قال: "لا يحصل شرٌّ للذين يحبّون الله"، بل: "كلُّ شيء يعمل من أجل خيرهم"، أي إنَّ الله يستعمل هذه الشرور عينها لكي يمجِّد الذين ينالون الاضطهاد".

احتاج الواعظ إلى مثَل حيّ، فعاد إلى العهد القديم مع الفتية الثلاثة في أتون النار في بابل (دا ٣: ١٩–٢٥). قال: "ذاك كان وضع أتون بابل. لم يمنع الله أن يُرمى فيه القدّيسون الثلاثة. وحين رُموا لم يمسَّهم اللهيب: تركه يشتعل لكي يجعلهم أهلاً للدهش بواسطة هذه المحنة. وحقَّق أيضًا، بالنسبة إلى الرسل، المعجزات عينها في كلِّ الظروف. فإذا استطاع أناس تنشَّأوا على الفلسفة (الرواقيّون) أن يحوِّلوا الطبيعة إلى ما يعاكسها، مثلاً أن يَحيوا في الفقر ويبدون أكثر ارتياحًا من الأغنياء، أو أيضًا أن يستخرجوا المجد من احتقار به يُحتقَرون، فكم بالأحرى يفعل الله من أجل الذين يحبّونه، ويزيدا!".

شرط واحد لكي تتمَّ عناية الربّ: أن نحبَّه بصدق. وبعد مثَل من العهد القديم، ها هو مثل يسوع المسيح الذي يفهمنا الضرر الذي يناله من لا يحبُّ الله.

"أنظروا اليهود: فظهور عجائبه (= يسوع) واستقامة معتقده، وحكمة تعليمه، سبَّب هلاكهم؛ فبسبب عجائبه، دعوه "حليف إبليس". بسبب معتقده، دعوه "عدوَّ الله". ولقاء هذه العجائب سعوا إلى قتله. فبالرغم من صليبه، وبالرغم من قيوده، وبالرغم من الشتائم، فاللصّ الحامل ألف فظاعة لم ينل سوءًا، بل نعم بفائدة كبيرة. فانظروا "كيف يوجِّه الله كلَّ شيء لخير الذين يحبّونه".

٣– القسم الأخلاقيّ

في الفصل الحادي عشر ينتهي الرسول من القسم العقائديّ ويبدأ بالقسم الأخلاقيّ: "فأناشدكم، أيُّها الإخوة، برأفة الله، أن تجعلوا من أنفسكم ذبيحة حيَّة، مقدَّسة..." (١٢: ١). ويتواصل القسم الأخلاقيّ حتّى الفصل الخامس عشر. وبما أنَّ الذهبيَّ الفم هو الراعي الذي يهمُّه سلوك القطيع، توسَّع في هذا القسم وأطال: إحدى عشرة عظة. أمّا نحن فنقرأ فقط العظة الحادية والعشرين وموضوعها المحبَّة، حيث الأعضاء الكثيرون يعملون معًا، في الجسد الواحد، مهما تعدَّدت "وظائفهم". أمّا نقطة الانطلاق فهي الجسد الواحد:

"استعمل بولس أيضًا التشبيه الذي استعمل في الرسالة إلى كورنتوس لكي يلجم الرذيلة عينها. فكبيرة هي قدرة هذا الدواء، وكبيرة قوَّة هذا المثل للشفاء من هذا الجنون المرَضيّ... لماذا تنتفخون كبرياء؟ ومقابل هذا، لماذا تحتقرون نفوسكم؟ أما نحن كلُّنا جسد واحد موحَّد، صغارًا وكبارًا؟ وبما أنَّنا جسد واحد مرتبط برأس واحد وأعضاء بعضنا لبعض، لماذا يمزِّقنا هذا الجنون؟ لماذا نستحي من أخينا؟ فكما هو عضوُك، أنت عضوُه.

"هكذا يكون التعبير عن الشرف المتساوي والعظيم. ويقدِّم لنا بولس برهانَين يستطيعان أن يقتلعانا من هذا الجنون: أوَّلاً، نحن أعضاء بعضنا لبعض، لا أنَّ الكبير فقط يضمُّ الصغير، بل أنَّ الصغير يضمُّ الكبير أيضًا. ثمَّ نحن كلُّنا جسد واحد موحَّد، بل أفضل من ذلك، قدَّم لنا بولس ثلاثة براهين: بيَّن لنا أنَّ موهبة واحدة أعطيَت لنا. فلا تنتفخوا كبرياء، لأنَّ الموهبة جاءت من الله، وأنتم لا اقتنيتموها ولا وجدتموها. وإذ عالج تيمة (thème) المواهب، لم يقل: واحد نال موهبة أكبر وآخر موهبة أصغر، بل: (موهبة) مختلفة: "فبعضهم هذه وبعضهم تلك" (١كو ٧: ٧).

كلُّ هذا يدعو المسيحيّ إلى التواضع وعيش المحبَّة:

"بعد ذلك، بيَّن كيف تتمُّ هذه الأعمال الحسنة، فذكرَ أمَّ جميع الفضائل: الحبّ المحبّ. "ولتكن المحبَّة صادقة" (١٢: ٩)، لا كذب فيها ولا خداع. فإن كان فيكم هذا الحبّ، لن تحسُّوا حين تصرفون مالكم، ولا حين يتعب جسدكم. لن تحسُّوا بأنَّ كلامكم ثقُل عليكم ولا عرقُكم ولا خدمتكم، بل تحتملون كلَّ شيء بوقار لكي تحملوا العون إلى قريبكم من شخصكم، من

يشرح بعدُ السبب. لا جدوى من ذلك. وبولس يتوقَّف فقط عند الشروح الضروريَّة. وقواعد "الحرب" لا تفرض عليه ذلك، كما على اليهوديّ، أن يقول. ولكن إن طلب واحدٌ منكم أن يعرف هذا الجواب، نقول لهم إنَّنا لم نخسر شيئًا بأن نموت ويُحكَم علينا، شرط أن لا نسيء إلى ذواتنا، بل إنّنا ربحنا بأن نكون مائتين. ربحنا أوّلاً بأن لا نخطأ في جسد لامائت، ثمَّ بأن ننال ألف مناسبة لممارسة الحكمة، فالاعتدال والحكمة والعفَّة والابتعاد عن كلّ شرّ، هي الدروس من حضور الموت وقرب حدوثه.

"بالإضافة إلى ذلك، يعطينا الموتُ أمورًا أخرى أكثر أهمِّيَّة وتفضيلاً على تلك: فهي في أصل سعف الشهداء، وإكليل الرسل. هكذا تبرَّر هابيل، هكذا تبرَّر إبراهيم بذبح ابنه. هكذا يوحنّا (المعمدان) الذي مات لأجل المسيح. هكذا الفتية الثلاثة ودانيال. وإذا شئنا، ليس الموت فقط من لا يقدر أن يسيء إلينا، بل الشيطان نفسه أيضًا.

"ثمَّ يجب أن نقول أيضًا إنَّنا ننال اللاموت (أو: الخلود)، وإنَّنا، بعد أوقات قليلة من المحنة، ننعم بحرِّيَّة تامَّة بالخيرات الآتية وكأنَّ حياتنا الحاضرة هي مدرسة تدريب، حيث المرضى والضيقات والتجربة والفقر وكلُّ ما يبدو لنا مخيفًا، حيث كلُّ هذا يعلِّمنا أن نستحقَّ الخيرات الآتية".

أطلنا الكلام في هذه العظة (العاشرة) لما فيها من لاهوت عميق، ومن نظرة إلى النعمة التي نالها بعد الخطيئة التي فُرضت علينا. ولاحظنا مناخ الصراع مع العالم اليهوديّ الذي كان فاعلاً جدًّا في تلك الحقبة، مع تلمود أوّل ظهر في فلسطين، وتلمود آخر سيظهر في القرن الخامس في بابل، وفيه ما فيه من تهجُّم على المسيحيّين وعقائدهم، ولا سيَّما بتوليَّة مريم، وقيامة الربِّ يسوع الذي لا يُعتبَر نبيًّا بين الأنبياء ولا بارًّا، بل هو ابن زانية. وفي إطار تنبيه المؤمنين، تُرسَم وجوه من العهد القديم، بدءًا بهابيل وصولاً إلى يوحنّا المعمدان. هؤلاء ماتوا، لا شكَّ في ذلك، ولكنَّهم نالوا الإكليل كما شهداء العهد الجديد والرسل.

ب- الله يعمل مع الذين يحبّونه

ذاك هو عنوان العظة الخامسة عشرة حول الرسالة إلى رومة، وموضوعها عناية الله ومحبَّته في المسيح.

"هنا يبدو لي هذا المقطع وكأنَّه يتوجَّه كلُّه إلى الذين يواجهون الأخطار، لا هذا المقطع فقط، بل أيضًا كلُّ ما ذكرناه أعلاه: "آلام الزمن الحاضر لا توازي المجد الذي سيظهر فينا" (٨: ٢٨). "الخليقة كلُّها تئنّ" (آ٢٢). "ففي الرجاء كان خلاصنا" (آ٢٤). بالصبر ننتظره" (آ٢٥). "لا نعرف أن نصلّي كما يجب" (آ٢٦).

"جميع هذه الأقوال موجَّهة إليهم. لأنَّ بولس يعلِّمهم ألاّ يختاروا بشكل منهجيّ ما يعتبرونه مفيدًا، بل ما يلهمهم الروح به، فيحصل مرارًا أنَّ هذه الفائدة الظاهرة لا تحمل إلاّ الأضرار. هم يحسبون إحسانًا، حياة هادئة، بعيدة عن الأخطار. لا عجب إن فكَّروا كذلك، إذ إنَّ بولس نفسه شارك في هذا الرأي عينه. غير أنَّه تعلَّم في ما بعد أنَّ العكس هو ما يفيد، ولبث هذا الوعيُ عزيزًا على قلبه. صلّى ثلاث مرّات إلى الربِّ أن يبعد عنه الأخطار، حينئذٍ سمعه يقول: "تكفيك نعمتي، لأنَّ قدرتي تكمل في الضعف" (٢ كو ١٢: ٩). بعد ذلك، ابتهج في الاضطهاد والإهانة واحتمل ما لا يُحتمل.

"لذلك أنا أرضى بالضعف والإهانة والضيقات" (٢كو ١٢: ١٠). ولذلك قال لهم: "لا نعرف أن نصلّي كما يجب". ولهذا حثَّهم جميعًا على الاستسلام إلى الروح، لأنَّ الروح القدس يعتني عناية كبيرة بنا، وهذا ما يُرضي الله".

أجل، يستسلم المؤمن. فالله يدبِّر الأمور لخيرنا. الله يعتني بنا. قال الرسول: "نحن نعرف أنَّ الله يوجِّه كلَّ شيء لخير الذين يحبّونه" (٨: ٢٨). وشرح يوحنّا: "بهذا اللفظ "كلّ" فهم بولس أيضًا كلَّ ما يبدو لنا نكبة ومصيبة: الضيق، الفقر، السجن، الجوع، الموت أو أيّ شرٍّ آخر. فالله يقدر أن يقلب الأوضاع قلبًا تامًّا لأنَّ علامة قدرته اللاموصوفة تقوم في تخفيف ما ندعوه أثقالاً وفي تحويلها

الشرير على المعمَّد ليس انتصارًا، بل يستجلب عليه العقاب والاندحار إلى جهنم، وهنا يذكر ما حدث بعد خطيئة آدم وحواء، عندما نالت الحية المجربة عقابًا قاسيًا على أثر انتصارها على الإنسان الأول، بدلاً من التمتّع بهذا الانتصار. ومع أنه لم يذكر الرحمة الكبيرة التي أظهرها الله لآدم وحواء بعد السقطة، ولكنّه سبق وأكّد أنّ المسيح وإن كان الحكم في صراع الإنسان مع الشرير، إلا أنه "لا يتوسّط الفريقين في المعركة التي نجابه فيها الشرير، بل يكون لنا بكلّيته... أما أنا، فإذا حصل لي أن تعثّرت، فهو يمدّ لي يده ويجعلني أنتصب، منتشلاً إياي من سقطتي، لأنه قيل: دوسوا الحيات والعقارب وقوة العدو" (لو ١٠: ١٩). من الواضح إذًا أنّ العقيدة الثابتة في تعليم يوحنا البيبلي هي أنّ محبة الله تبقى دائمًا إلى جانب الإنسان، وبالأحرى إذا سقط، وذلك بهدف إقامته من السقطة. هذا هو جوهر الكرازة التي، وإن أظهرت مفاعيل الخطايا السيئة على الإنسان، إلا أنّها تؤكّد له دائمًا جوهر الإيمان المسيحي، ألا وهو أنّ المسيح جاء، لأنه وجد أن خطيئة آدم لم تبقَ مفردة، مع أنها هي التي ذيّلت صك الاستدانة، ولكنها قد أثقلت بالهفوات اللاحقة، "فجلبت علينا اللعنة والخطيئة والموت والدينونة بالناموس. بيد أنّ المسيح أبطل ذلك كلّه مسامحًا إيّانا، كما يقول القديس بولس: لقد محا المسيح الصكّ المكتوب علينا الذي كان ضدّنا بأحكامه، وأزاله مسمّرًا إيّاه على الصليب" (قول ٢: ١٤).

الخبر السارّ إذًا هو في ديمومة المغفرة الإلهية بالمسيح. ولكن لكي يقبل المعمَّد هذه المغفرة المجانية، ويعيش في ضمانة حبّ المسيح له ودفاعه عنه، يحتاج إلى أن يخلع عنه ثيابه، أي الإنسان العتيق، ويلبس الأسلحة الجديدة، أي الإنسان الجديد، المتميز بالبر والإيمان، أي بالثقة التامة بمن حرّره ويدافع عنه. وهذا ما سيعبّر عنه المعمَّدون الجدد في رتبة نكران الشيطان من جهة، وإعلان الإيمان، من جهة أخرى.

المقابلة الثانية مع العهد القديم تأتي في إطار الدعوة إلى الصراع مع الشيطان، إذ يؤكد يوحنا للمعمَّدين الجدد قوة دم المسيح الذي سيتناولونه كسلاح في صراعهم مع الشرير. وهنا يجري مقابلة بين دم الحمل المذبوح الذي لطخ على أبواب العبرانيين ليحميهم من ضربة الملاك المبيد لأبكار مصر. ويؤكد بأن فاعلية ذلك الدم في حماية أبكار العبرانيين ليست من ذاته بل من كونه رمزًا لدم المسيح. فدم الحمل ليس سوى رمز، ومع ذلك أبعد الملاك المبيد عن الأبواب المرشوشة به، فكم بالأحرى دم المسيح الذي هو حقيقة، أن يبعد الشيطان عن فم المعمَّد وقلبه! لا تكمن أهمية هذه المقابلة بين دم الحمل ودم المسيح في وجه الشبه بين الرمز والحقيقة فقط، بل أيضًا في كون الدم الأول قد هيّأ للتحرّر من عبودية مصر في إطار الفصح اليهودي الذي هو عيد العهد القديم ومركز الإيمان اليهودي، كما أنّ دم المسيح هو العهد الجديد الذي هو أيضًا وبشكل كامل ختم التحرّر النهائي للمعمَّدين الجدد من الخطيئة والموت، أي فصح خلاصهم بالمسيح.

هناك مقابلة أخرى مهمّة جدًّا هي أيضًا بين ولادة الكنيسة من جنب المسيح وتكوين حواء من جنب آدم، وذلك في إطار التشديد على كون المعمودية وباقي الأسرار التي تكوّن الكنيسة وتغذّيها قد تدفقت من جنب المسيح المطعون بالحربة، مع تشديد الواعظ على أولوية سرّ المعمودية، ثم باقي الأسرار، بالارتكاز على قول الإنجيل: "فخرج من جنبه ماء ودم"، إذ أنه بحسب يوحنا، الماء يرمز إلى المعمودية، والدم إلى باقي الأسرار. ويكمل في مقابلته الرمزية بالتنبيه إلى أن ولادة الكنيسة حصل بموت المسيح، كما كونت حواء من جنب آدم إبان نشوته، مؤكّدًا بذلك أيضًا على أنّ الموت ليس سوى رقاد. في هذه المقابلة الأخيرة تشديد واضح على ارتباط حدث المعمودية ببعدين مهمّين: البعد الأول هو ارتباط الأساسي مع سرّ الافخارستيا وباقي الأسرار التي هي الغذاء الأساسي للمعمَّد، والعضد له في حياة إيمانه وأمانته للعهد مع المسيح. والبعد الثاني هو ارتباط المعمَّدين

بالكنيسة لأنها هي التي "ولدت من هذين السرَّين، بواسطة غسل الميلاد الثاني والتجديد في الروح القدس". فليست المعمودية انتماء فرديًا أو شخصيًّا للمسيح فحسب، بل هي أيضًا انتماء إلى الكنيسة المكوَّنة من جماعة المعمَّدين معا.

المقابلة الأخيرة مع العهد القديم، نجدها في سياق تشبيه المعمودية بالخروج من مصر ومسيرة الصحراء، حيث يقرأ يوحنا بطريقة رمزية أحداث الخروج ومسيرة الصحراء ليبيِّن للمعمَّدين أن معموديتهم قد أعطتهم اختبارًا مشابهًا لقدرة الله ومرافقته للعبرانيين، بل اختبارًا أعظم وأكمل لأنه، إذا كان "موسى أجود رجال الأرض"، فبالأحرى "أن نخلع هذه الصفة على "موسانا" (المسيح)، لأنّ الروح القدس المساوي له في الجوهر قد آزره..."، ومع أنّ المسيح نفسه قد رافقهم – وهذه استعارة من تفسير بولس الرسول للصخرة الروحية التي كانت ترافقهم، أي المسيح – ، فكم بالأحرى سيسير معنا الآن؛ وإذا كان اليهود لم يستطيعوا أن يحدّقوا بوجه موسى الممجَّد، وهو ليس سوى خادم للسيد، فأنت قد عاينت وجه المسيح في مجده"...

نكتفي بهذا القدر الموجز من التحليل لبعض العناصر اللاهوتية، وننتقل في ما يلي إلى تقديم المفتاح اللاهوتي الأساسي لهاتَين العظتَين، أعني البعد الكريغمي الذي يشكل ركيزة التعليم اللاهوتي والأسراري ومنطلقًا لفهم البعد الأخلاقي والسلوكي، الذي، وإن لم نعالجه هنا، إلا أن عظات الذهبي الفم الثمانية تذخر به.

٣– البعد الكريغمي

لا يمكننا فهم عظات الذهبي الفم إلا من خلال فهم البعد الكريغمي للمعمودية، كما يبرزه دائما في العظات الأربع الأولى، وبشكل خاص في العظتَين الأولى والثالثة اللتَين نحن بصددهما. نتناول إذًا هاتين العظتين من هذا المنظار، لأن لاهوت يوحنا كما غيره من الآباء القديسين، كما بولس والكتاب المقدس كله، يبني تعليمه اللاهوتي والأخلاقي على إعلان الكريغما الذي يساعد الموعوظ على تغيير في ذهنه، فيقوده ذلك حتمًا إلى الإيمان بالعقيدة والأسرار وإلى تغيير مسلكه الأخلاقي.

فما هو إعلان الكريغما في هاتين العظتين اللتَين أسمح لنفسي أن أسميهما كرازتين منذ الآن فصاعدا؟

باختصار، يتضمن الكريغما ثلاثة مراحل، تتّسم كلها بالأسلوب الإعلاني وقد تتداخل أو تأتي الواحدة قبل الأخرى. وهذه المراحل هي: (١) إعلان واقع الخطيئة والموت، – ليس بالمعنى الأخلاقي بل الكياني – الذي كان موجودًا فيه طالب العماد قبل الموعوظية؛ (٢) إعلان الحبّ الإلهي المجاني الذي انتشل الإنسان من واقع الخطيئة وأعطاه المغفرة والحياة الجديدة بالإيمان في المسيح؛ (٣) حثّ طالب العماد على التحول الذهني والكياني من الحياة الماضية إلى الحياة الجديدة. هذه الإعلانات الثلاثة هي التي تتحكّم بالمضمون العقائدي للكرازة؛ ورتبة المعمودية بكل تفاصيلها تُظهِر، من خلال الصلوات والأفعال الأسرارية، ما أعلن عنه في التعليم العقائدي؛ ثم يأتي أخيرًا التعليم الأخلاقي ليبيّن ما هي الثمار المسلكية التي تنتج عن هذا التحوّل الذهني والكياني من الإنسان القديم إلى الإنسان الجديد بالمسيح.

يذكّرنا هذا الأمر بقول المسيح الشهير: "ليس من شجرة رديئة تعطي ثمارًا طيبة، ولا من شجرة طيبة تعطي ثمارًا رديئة! وقوله أيضًا: لا يوضع خمر جديد في آنية عتيقة! وبهذا المعنى قال القديس بولس إن الشريعة الأخلاقية لا تبرّر الإنسان، أي أنها لا تجعله قادرًا على أفعال البر، لأنها تكتفي بإظهار ما هو صالح وما هو سيّء دون القدرة على تغيير ذهنه وقلبه؛ فالإيمان هو الذي يبرّر الإنسان، لأنه يغير قلبه وكيانه من الداخل فيجعله قادرًا على القيام بأعمال البر. والقديس الذهبيّ الفم يتبع عن كثب هذه الحقيقة في كرازته، من هنا قوله في الكرازة الأولى، المقطع ٢٠: "بما أن الإيمان هو أساس التقوى، فحري بنا أن نتوقف

الموتُ أولئك العائشين قبل الشريعة؟ في رأيي، ما سوف نقوله يطابق فكر الرسول مطابقة أفضل.

"وما هو شرحنا؟ قال (الرسول): حتّى الشريعة، كانت الخطيئة في العالم. هذا يعني، في رأيي، أنَّه بعد عطيَّة الشريعة، سادت الخطيئة المولودة من المعصية وسادت، وذلك ما دامت الشريعة موجودة لأنَّ الخطيئة المولودة تستمرُّ (كما قال) إذا لم يكن هناك شريعة. ولكن يقولون: إن كانت هذه الخطيئة المولودة من المعصية قد أنجبت الموت، لماذا، قبل الشريعة، مات البشرُ كلُّهم؟ فإن لم تكن جذور الموت في الخطيئة، فكيف ساد الموت ساعة لم تكن شريعة و لم يكن حساب للخطيئة؟ ذاك هو إذًا البرهان الواضح أنَّ هذه الخطيئة ليست خطيئة تجاوزِ الشريعة، بل هو عصيان آدم الذي خسر كلَّ شيء. وما هو البرهان؟ موت جميع العائشين قبل الشريعة".

لاحظنا هنا كيف ناقش يوحنّا الآراء ليقدِّم في النهاية رأيَه الخاصّ، في شرح الخطيئة التي سبقت الشريعة. وخطيئة إنسان واحد قويَّة، فكيف لا تنتصر قوَّة الله. "أن يعاقَب شخص بدل شخص آخر، أمر لامنطقيّ. ولكن أن يخلص شخص بواسطة آخر، فأمر لائق ويوافق العقل. فإن كان العقاب حصل، فبالأحرى الخلاص حصل. ويقرأ يوحنّا ٥: ١٧ فيتحدَّث عن النعمة التي هي ينبوع حياة.

"هذا ما يريد أن يقوله: من أعطى الموتَ سلاحًا يحارب به الأرض كلَّها؟ هو إنسان واحد أكل من ثمر الشجرة. فإذا كان الموت اتَّخذ مثل هذه القوَّة بذنب (إنسان) واحد، فكيف يمكن للبعض أن يخضعوا بعدُ للموت حين يجدون نفوسهم وقد قبلوا نعمة كبيرة وبرًّا أكبر من الخطيئة؟ ذاك هو السبب الذي لأجله قال (الرسول) في هذا المقطع: لا نعمة واحدة، بل "فيض النعمة".

"فنحن لم نحصل فقط على كمِّيَّة من النعمة ضروريَّة، بل حصلنا على أكثر من ذلك من أجل غفران الخطيئة: نجونا من العقاب، تخلَّصنا من كلِّ شرّ، وُلدنا من علُ، وبعد أن دَفنَّا الإنسان العتيق، قمنا. نلنا الفداء والقداسة وصرنا إخوة الابن الوحيد. أُقمنا وارثين معه وأعضاء جسده. صرنا جزءًا من جسمه واتَّحدنا به كما الجسد بالرأس. هذا كلُّه يدعوه بولس "فيض النعمة" ويبيِّن لنا أنَّنا لم نحصل فقط على دواء لشفاء جرحنا، بل حصلنا على الصحَّة والجمال والشرف والمجد والكرامات التي تتجاوز طبيعتنا بشكل واسع. كان باستطاعة كلِّ واحد منها أن يدمِّر بنفسه الموت. ولكن حين تلاقت جميعُها معًا لن نستطيع أن نرى ظهور أثر للموت ولا ظلّ الموت الذي زال بشكل نهائيّ".

وننهي هذه العظة مع إيراد ٥: ١٩: "وكما أنَّه بمعصية إنسان واحد صار البشر خاطئين، فكذلك بطاعة إنسان واحد يصير البشر أبرارًا". يقول يوحنّا: مثل هذا الكلام يطرح سؤالاً لا يكون بسيطًا. ولكن مع بعض التنبُّه، نحلُّه بسهولة. فما هو هذا السؤال؟ حين يقول بولس إنَّ بمعصية واحد صار الجميع خاطئين. أن يُضحي الإنسانُ الخاطئ مائتًا ويصبح نسلُه مثله، أمرٌ معقول جدًّا. ولكن أن نصير خطأة بمعصية آخر، فهل هذا تسلسلٌ منطقيّ؟ فنحن نوافق أنَّ الإنسان الذي اقترف خطيئة شخصيَّة ينبغي أن يُعاقَب".

أسلوب الذهبيّ الفم أسلوب خطابيّ. يبدو وكأنَّه يحاور الجماعة التي يوجِّه إليها كلامه. وهو أسلوب رعائيّ، حيث يطرح الأسئلة التي يمكن أن يطرحها المؤمنون. كيف نرضى أن نعاقَب بسبب خاطئ آخر؟ وأين هي العدالة الإلهيَّة؟ ويجيب الواعظ في كاتدرائيَّة أنطاكية، بحضور الأسقف فلافيان:

"إذًا، ما معنى "خاطئين"؟ في رأيي، خاضعون للعقاب ومحكوم عليهم بالموت أن يكون الجميع أضحوا مائتين بعد موت آدم، فهذا ما بيَّنه بولس بوضوح وبأشكال عديدة. والسؤال المطروح هنا هو أن نعرف لماذا. هو ما شرحه بعد، لأنَّه ليس بعدُ موضوعه. هنا يحارب اليهوديّ الذي يرتاب ويهزأ بالبرِّ الذي ناله إنسان واحد. لهذا، دلَّ على أنَّ العقاب انتقل من إنسان واحد إلى جميع الناس. ولكنَّه لا

والذين يعبدون ينبغي أن يعبدوا في الروح والحقّ" (يو ٤: ٢٤).

ونتعرَّف إلى حكمة الرسول وتواضعه حين يتحدَّث عن اشتياقه إليهم واهتمامه بتشجيعهم: "أنظروا حكمة المعلِّم. قال: "لكي أقوّيكم". عرف أنَّ أقواله مرهقة، متعبة لتلاميذه. فأضاف: "لكي أشجِّعكم". في الحقيقة، ما زالت مرهقة بالرغم من هذه الملاحظة، بل هو يقول: "لكي يشجِّع بعضنا بعضًا"... ثمَّ يضيف: "بالإيمان المشترك بيني وبينكم" (آ ١١-١٢).

"يا للسماء! أيُّ تواضع هذا التواضع! بيَّن هو أيضًا أنَّه يحتاج إليهم، لا أنَّهم وحدهم يحتاجون إليه. أعطى التلاميذ مكانة المعلِّمين وتخلّى عن كلِّ تفوُّق شخصيّ ليدلَّ أنَّه مساوٍ للجميع. قال: اهتمامنا واحد. فأنا أحتاج إلى تشجيعكم، وأنتم تحتاجون إلى تشجيعي. وكيف يكون هذا ممكنًا؟ "بالإيمان المشترك بيني وبينكم؛ فإن جمعنا في نار واحدة لهائب شعلات عديدة، نخرج شعلة ساطعة. ونقول الشيء نفسه بالنسبة إلى المؤمنين. فحين ننفصل بعضنا عن بعض، نشعر ببعض الإحباط، ولكن حين يرى الواحد الآخر، وحين يضمُّنا الآخرون بين أذرعهم كإخوة في أسرة واحدة، فهذا الاتِّصال يمنحنا تشجيعًا كبيرًا".

٢- القسم العقائديّ

مواضيع عديدة تطرَّق إليها بولس الرسول في هذه الرسالة التي توجز عمق فكره. أمّا نحن فنتوقَّف عند اثنين منها: الخطيئة والنعمة، عناية الله ومحبَّته في يسوع المسيح.

أ- الخطيئة والنعمة

"كما أنَّه بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت، وهكذا عمَّت الخطيئة جميع البشر لأنَّهم جميعًا خطئوا...، فبالأولى أن تسود الحياة بواحد هو يسوع المسيح، أولئك الذين ينالون فيض النعمة وهبة البرّ" (٥: ١٢، ١٧).

"إنَّ أفضل الأطبّاء يعملون كلَّ ما في وسعهم ليجدوا أصول الأمراض، بحيث يصعدون إلى نبع الشرِّ نفسه. هذا ما فعله بولس المطوَّب. قال لنا إنَّنا تبرَّأنا، وبرهن لنا ذلك بواسطة أبي الآباء (إبراهيم) والروح القدس وموت المسيح؛ فهو ما كان ليموت لو لم تكن نيَّته أن يبرِّرنا. والآن هو (بولس) يؤكِّد بدليل آخر البرهان السابق، فيعالج الموضوع من طرف آخر، أي من وجهة الخطيئة والموت. ويتساءل: كيف وبأيِّ طريق دخل الموت إلى العالم؟ من أين جاء وكيف ساد؟".

هكذا بدأت العظة العاشرة في عظات الذهبيّ الفم حول الرسالة إلى رومة: كلام عن الشريعة، عن آدم الأوَّل وآدم الثاني، عن اللاتناسب بين الخطيئة والبرّ الذي حصلنا عليه، عن وفرة النعمة التي هي ينبوع حياة. وبعد كلام عن الخطيئة والضعف البشريّ، يدعونا الذهبيّ الفم إلى أن نعرف وضعنا الجديد كمسيحيّين بعد أن اعتمدنا في موت يسوع من أجل الحياة.

"إذًا، كيف دخل الموت إلى العالم وكيف ساد؟ بخطيئة إنسان واحد. ولكن ما معنى هذا الكلام؟ "لأنَّهم جميعهم خطئوا"؟ بعد سقطة آدم، حتّى الذين لم يأكلوا من ثمرة الشجرة، أضحوا كلُّهم مائتين بسببه. "حتّى الشريعة، كان هناك خطيئة في العالم، ولكن لا حساب للخطيئة حين لا تكون شريعة" (٥: ١٣)

حتّى الشريعة. هنا توقَّف يوحنّا فقال:

"ظنَّ بعضهم أنَّ بولس تحدَّث عن تلك الحقبة التي سبقت عطيَّة الشريعة، أي حقبة هابيل ونوح وإبراهيم، حتّى ولادة موسى. فما كانت هذه الخطيئة في ذاك الزمان؟ ظنَّ بعضهم أنَّه يتكلَّم عن خطيئة اقتُرفت في الفردوس، لأنَّه قيل ما كان بعدُ ترقّق، بل كانت ثمرته بعد في كلِّ نضارتها: بالخطيئة انصبَّ الموت على الجميع، ساد، وأسَّس الطغيان. ولماذا أضاف بولس: "لا حساب للخطيئة حيث لا تكون شريعة"؟

"قال: كان لليهود رأي معاكس فجعل بعضَنا يظنُّ أنَ بولس أراد أن يطرح هذا السؤال: إن لم يكن هناك خطيئة من دون شريعة، كيف أصاب

عليه، بعض الشيء كي نتمكّن من رفع البناء دون خوف، بعد أن نكون قد أرسينا هذا الأساس الراسخ". من جهة أخرى، يبيّن القديس ماهية الإيمان، في معرض تشبيه المعمودية بسر الزواج، بالتوجّه مباشرة إلى طالب العماد قائلاً: "أرأيت كيف أنه بقوله: ليطهرها ويقدسها لنفسه لا كلف فيها ولا غضن، يطلعنا على حالتها المدنسة التي كانت تحياها سابقًا؟ ألا تُمعنوا، يا جنود المسيح الجدد، في هذا كله، غير متوقّفين على جسامة بؤسكم وغير آبهين لفداحة خطاياكم...؟ فها قد وقفتم على سخاء المعلّم وعاينتم فيض نعمته وعظمة عطيته التي منحكم إياها... ألا اقتربوا منه بطيبة خاطر متخلّين عن كل ما فعلتموه حتى الآن، ولتظهر موافقتكم الفكرية التحوّل الحاصل". هذا الإعلان مزدوج في البداية، فهو يتضمّن، من جهة (١) اعترافًا بفداحة الخطايا، ويؤكّد، من جهة أخرى (٢) سخاء المعلم وفيض نعمته، ويليه بعد ذلك إعلان ثالث (٣) أي الدعوة إلى إظهار التحوّل الحاصل من خلال حركتَين: الابتعاد عن الخطيئة والاقتراب من المسيح. وهاتان الحركتان تشكلان جوهر ما نسمّيه رتبة طرد الشيطان الكبرى في رتبة المعمودية، والتي تقوم على نكران الشيطان والاعتراف بالإيمان. كما أنّ رتبة النزول في جرن المعمودية والصعود منه تعبّر بدورها عن جوهر ما تمّ إعلانه: ينزل الإنسان في مياه المعمودية بعد أن يخلع عنه ثيابه القديمة، – وهي رمز لذهنية الإنسان القديم المستعبَد للخطيئة– ويدفن برغبة شديدة، وبقوة السر المقدس، إنسانه العتيق في مياه المعمودية، أي أنه يتنكّر لهذا الإنسان ويتخلّى عنه، ثم يصعد، بقوة السر أيضًا، إنسانًا جديدًا ذا ذهن جديد وقلب جديد، فيلبس الثياب البيضاء علامة على التحول الجوهري في طبيعته التي طُعِّمَت بالطبيعة الإلهية بالمسيح وبختم الروح القدس[٤].

نجد بنية الكرازة نفسها في المقطعين ٢٥–٢٦ من العظة الأولى عندما يتوجه القديس إلى طالب المعمودية، في نهاية تعليمه العقائدي عن الإيمان بالثالوث، إذ يقول: "فاعلم إذن أن ما من خطيئة، مهما كانت عظيمة، بوسعها أن تجرّد المعلّم سخاءه! إذا كان أحد فاسقًا أو زانيًا، مخنّثًا أو لوطيًا، عاهرًا أو سارقًا، جشعًا أو سكيرًا أو عابدَ أصنام، فقدرة العطية وجودة المعلّم هما من الشدة بحيث يمحوان كلّ شيء، جاعلتَين هذا الإنسان أكثر تألّقًا من شعاع الشمس، شرط أن يبيّن عن حسن نية. تأمّل إذًا عظمة عطية الجودة الإلهية، واستعدّ قبل الأوان... بامتناعك عن الشر ومزاولتك الأعمال الصالحة". هنا أيضًا، نجد الإعلانَين الأساسيَّين عن (١) واقع الخطايا، من جهة (فسق، زنى، سرقة، إلخ.)، وعن (٢) قدرة المعلم (المسيح) على محو الخطايا وتغيير الكيان الجوهري للمعمد، من جهة أخرى. مع هذا التأكيد بأنّ الأمر يفترض "حسن نية" لدى طالب العماد، أي الإيمان بهذه القدرة والرغبة في هذا التحوّل. أمّا الإعلان الثالث، أي الدعوة إلى التخلي عن الشرّ ومزاولة الأعمال الصالحة، فيأتي كنتيجة لهذا التحوّل.

يمكننا أن نسوق أمثلة عديدة أخرى، ولكننا نكتفي بنقل حرفي للمقطع ٥ من الكرازة الثالثة، حيث يعبّر الكارز عن جوهر هذا التحوّل في حياة الموعوظ، والذي سيختمه الروح القدس في المعمودية، والذي سيقود المسيحي إلى حياة البرّ ومصارعة الشرير: "تبارك الله الصانع المعجزات وحده" الذي يخلق كل شيء ويجدّده[٥]. فالذين كانوا في الأمس

(٤) يشرح الذهبيّ الفم هذه التفاصيل ومعانيها في العظة الثانية التي لم نتطرق إليها هنا؛ راجع المقاطع ٢٢–٢٧ بشكل خاص.

(٥) لاحظ الكلام عن خلق جديد يمهد للكلام عما يحصل في المعمودية.

أسرى، أضحوا اليوم أناسًا أحرارًا ومواطنين في الكنيسة(٦).

خاتمة: قدمنا في هذه الدراسة عظتين من العظات الثماني في المعمودية، المنسوبة إلى القديس يوحنا الذهبيّ الفم، وحاولنا أن نشرح بعض العناصر اللاهوتية البيبلية والأسرارية والكنسية التي تتضمنها هاتان العظتان، كنموذج للكريغما الذي هو في أساس تنشئة الموعوظين العقائدية والأخلاقية وتحضيرهم لنوال سرّ المعمودية.

عمل الكنيسة الأول، وعلى رأسها الأسقف، لا يقوم فقط على تعليم العقيدة والحثّ على السلوك الأخلاقي، لأنّ ذلك يفترض الإيمان لدى من يسمع! العمل الأول هو التنشئة على الإيمان، الذي يشكل الكريغما – الخبر السار – جوهره. هذا ما كان يعيه تمامًا أساقفة الكنيسة وما يزالون. في الأجيال المسيحية الأولى، كان إعلان الكريغما في أساس تنشئة الذين كانوا يرغبون في أن ينتقلوا من ظلام الوثنية إلى نور المسيحية، وهذا ما بيّناه في دراستنا.

أليوم، يشكّ الكثير من المعمَّدين بالتعليم العقائدي للمسيحية، ولا يفقهون تعليم البيبليا كتاريخ خلاصي، ويضعون موضع الشكّ انتماءهم إلى الكنيسة كجسد، ولا يهتمّون بالأسرار المقدسة، وهم أبعد ما يكون عن قبول تعليم الكنيسة الأخلاقي والاجتماعي. اليوم، وقد عادت الوثنية لتغزو الأرض وتتغلغل في قلوب أغلبية مَن نالوا المعمودية، لا عجب أن الأساقفة، وعلى رأسهم السعيد الذكر البابا يوحنا بولس الثاني الكبير، وخليفته البابا الحالي بندكتوس السادس عشر، يطلقون النداء من أجل بشارة جديدة للمعمَّدين أنفسهم. المعمودية لا تعطي الإيمان بل هي ختم له. والذي لم يصل إليه الخبر السار، ولم يختبر الإيمان، فلا تنفعه المعمودية بشيء! وكما قال السعيد الذكر، البابا بولس السادس: المهم هو التنشئة على الإيمان! إن حصل ذلك قبل المعمودية أو بعدها، المهم أن يحصل!

أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني والمجامع المحلية، وآخرها أعمال المجمع البطريركيّ المارونيّ، تذخر كلها بنصوص عقائدية وكنسية وأخلاقية ورعوية رائعة، ولكنها تشقّ بصعوبة فائقة طريقها إلى التحقق في حياة المعمَّدين والرعية والوطن... فهل نكتفي بالاستمرار في تأليف اللجان؟ أم نقتفي آثار يوحنا الذهبيّ الفم، ونعيد تنشئة المعمَّدين في الرعايا ليستعيدوا إيمان معموديتهم الذي فقدوه، ومن ثَمَّ يصبحون مهتمّين بما نقدّم لهم من تعاليم، وراغبين في عيش الأخلاق الحميدة التي تدعوهم إليها مجامعنا المقدسة؟ وهل نستمرّ في رمي البذور الطيبة على الأرض الحجرة وبين الشوك، أم نهيّء الأرض الطيبة لتستقبل البذور فتثمر ثلاثين وستين ومائة؟

(٦) تعبير آخر عن التحوّل الكياني، من حالة الأسر (للخطيئة) إلى حالة الحرية (في الإيمان)، والمواطَنة الحرة في الكنيسة. هذا التشبيه مهمّ جدًا، لأنّ الذي يكتشف بأنّ الخطيئة تجعله عبدًا، يرغب بذات الفعل، وليس لأنّ أحدًا يفرض عليه ذلك، أن يتحرّر من العبودية. هذا ما نعنيه بالتغيير الذهني الذي يقود إليه إعلان الكريغما. لم يعد الشخص بحاجة إلى من يقول له إفعل كذا، أو لا تفعل! هو بنفسه يرغب في التحول من حالة إلى حالة. وبما أن العبد لا يمكنه أن يحرّر ذاته، كما أنّ الذي يعيش في الخطيئة لا يمكنه التخلّي عنها بقوته، حتى ولو رغب في ذلك، فلا تنفعه العظات الأخلاقية مهما كانت مقنعة! إنه يحتاج إلى مَن يحرّره، وهذا هو جوهر الكريغما، أي إعلان قدرة الله، في المسيح القائم، وفي الروح المحيي، على تحريره مجانًا وبحبّ غير مشروط. إنه الخبر السار الذي قامت عليه المسيحية، والذي من دونه، تتحوّل إلى مجرّد عقيدة جامدة، أو مجموعة أخلاقيات لا تخلّص أحدًا!

بولس بدل شاول؟ لكي لا يحسَّ نفسه في هذا المجال أدنى من الرسل، بل ينعم بذات الامتياز الذي نعِمَ به رئيس التلاميذ (= بطرس)، ويشعر شعورًا حميمًا أنَّه مرتبط بمجموعتهم. وبحقٍّ دعا نفسه "عبد المسيح" لأنَّ هناك أشكالاً كثيرة من العبوديَّة".

ولكن كيف يكون هذا الرسول العظيم "عبدًا"، ونحن نعرف ما كانت عليه العبوديَّة في العالم الرومانيّ بشكل خاصّ؟ لهذا، توسَّع الذهبيُّ الفم في مفهوم العبوديَّة (أو: الخدمة)، قبل أن يطبِّق الكلام على بولس:

"(الشكل) الأوَّل ينتج عن الخلق، كما قيل: "الكون هو في خدمتك" (مز ١١٩: ٩١. كذا في اليونانيّ. في العبريّ: "الكلّ عبيد لك"). وفي موضع آخر: "نبوخذنصَّر عبدي" (إر ٢٥: ٩)؛ فالصُنعُ هو في خدمة ذاك الذي صنعه.

"(وشكل) آخر ينجم عن الإيمان، الذي يقول فيه هو نفسه: "ولكن شكرًا لله! فمع أنَّكم كنتم عبيدًا للخطيئة، أطعتُم بكلِّ قلبكم تلك التعاليم التي تسلَّمتموها، فتحرَّرتم من الخطيئة وأصبحتم عبيدًا للبرّ" (٦: ١٧-١٨).

"(وشكل) آخر أيضًا يرتبط بنوع الحياة التي نعيش. في هذا المجال، نقرأ: "موسى عبدي مات" (يش ١: ٢). لا شكَّ في أنَّ جميع اليهود كانوا عبيدًا، ولكنَّ موسى كان بينهم كلِّهم مشعًّا بحياته. وكذلك كان بولس عبد الله بحسب جميع أشكال العبوديَّة، فتزيَّن بهذا اللقب وكأنَّه أجمل مجدٍ له فقال عن نفسه: "عبد يسوع المسيح"، وارتبط بكلمات التجسُّد، صاعدًا من الأسفل إلى الأعلى. فاسمُ يسوع حُمل من أعلى السماوات بواسطة الملاك حين ولدته العذراء. واسم المسيح يأتي من المسحة، وهذا يخصُّ أيضًا الجسد. وتقولون لي: بأيِّ زيتٍ مُسِحَ؟ (أجيب:) لا بأيِّ زيت، بل بالروح. وفي الحقيقة، هؤلاء هم الذين يدعوهم الكتاب "مسحاء" لأنَّ الرئيسيّ في المسحة هو الروح. أمّا الزيت فهو عرضيّ. (وتقولون:) ولكن أين يدعو الكتاب "مسحاء" أولئك الذين لم يُمسَحوا بالزيت؟ (فأجيب:) هناك حيث قيل: "لا تمسُّوا مسحائي، ولا تسيئوا إلى أنبيائي" (مز ١٠٥: ١٥). هناك، لم يكن كلام عن المسحة بالزيت".

بولس هو الرسول الذي دُعيَ، جُعل جانبًا كما تُجعل الذبيحة الفصحيَّة في خدمة إنجيل الله. قال يوحنّا: "لم يكن متّى ومرقس الإنجيليَّين الوحيدَين، كما بولس لم يكن الرسول الوحيد، غير أنَّ اسم الرسول أُعطيَ بشكل سامٍ لبولس، كما اسم الإنجيليّ هو لمرقس ومتّى".

ب- إيمانكم ذاع خبره

"قبل كلِّ شيء أشكر إلهي بيسوع المسيح من أجلكم جميعًا، لأنَّ إيمانكم ذاع خبرُه في العالم كلِّه. والله الذي أخدمه بروحي، فأبلِّغ البشارة بابنه، يشهد لي أنّي أذكركم كلَّ حين" (١: ٨-٩).

تحدَّث الذهبيّ الفم عن إيمان الرومانيّين الذي بلغ إلى العالم كلِّه. قال: "ماذا؟ هل العالم كلُّه سمع كلامًا عن إيمان الرومانيّين؟ أجل، بحسب بولس. وهذا معقول جدًّا، لأنَّ رومة لم تكن مدينة مجهولة. كانت كما على قمَّة، وبدت منظورة من كلِّ مكان. لاحِظوا هنا قوَّة كرازة بولس! كيف أنَّها في وقت قصير، بوساطة العشّارين والخطأة، احتلَّت عاصمة العالم. كيف أنَّ أناسًا آتين من سورية صاروا أسياد الرومان وموجِّهيهم. وشهد لهم هنا شهادة مضاعفة بسبب أعمالهم الجميلة: آمنوا وآمنوا واثقين بحيث ذاع خبرهم في الأرض كلِّها".

تلك كانت العظة الثانية، حيث الإيمان يقود المسيحيّ في حياته. أمّا العبادة فتكون "في الروح". قال الذهبيّ الفم:

"بيَّن أيضًا شيئًا آخر فأضاف "في روحي": هذه العبادة هي أسمى من العبادة اليونانيَّة ومن العبادة اليهوديَّة. فاليونانيّ كاذب، لحميّ. واليهوديّ حقيقيّ، ولكنَّه أيضًا لحميّ. أمّا عبادة الكنيسة فهي عكس العبادة اليونانيَّة وتسمو عاليًا على العبادة اليهوديَّة. فعبادتُنا لا تتَّخذ بشكل ذبائح الخراف والعجول، والدخان وشحم الضحايا، بل تتمُّ بالنفس في شكل روحيّ. ذاك ما بيَّنه المسيح حين قال: "الله روح،

يوحنّا الذهبيّ الفم
والعظات في الرسالة إلى رومه

الخوري بولس الفغالي
باحث في الكتاب المقدس

"إنّ كنوز الحكمة التي نجدها عند يوحنّا (الذهبيّ الفم) العالِم، هي وافرة بشكل خاصّ في تفسيره للرسالة إلى الرومانيّين. وأظنُّ... أنّه لو أراد بولس الإلهيّ أن يقدِّم في لغة أثينة أقواله الخاصّة، لما كان تكلَّم بشكل مغاير عن هذا المعلِّم (يوحنّا) الشهير، الذي تفسيره لافتٌ بالمضمون والمبنى الرائع والعبارة المميَّزة".

ذاك ما كتبه إيزيدور (+٤٣٥) الراهب البيلوسيّ (بيلوسيون، قرب بورسعيد في مصر) في الرسالة الخامسة (٥: ٢٣). فماذا في شرح هذه الرسالة التي وعظها يوحنّا الذهبيّ الفم في أنطاكية، والتي اعتبرت تفسيرًا مميَّزًا بين تفاسير الآباء، وأجمل ما تركه الذهبيّ الفم من مؤلَّفات؟

بعد أن نتعرَّف إلى عظات يوحنّا في هذه الرسالة، نتوقَّف عند طريقة التفسير الكتابيّ التي أخذ بها من كان تلميذ ديودور الطرسوسيّ، مؤسِّس مدرسة أنطاكية التفسيريّة. نستبق فنقول إنّ الطريقة في تفسير العهد الجديد، تختلف عن تفسير العهد القديم، كما سبق ودرسنا في **مجلّة المسرّة** (٢٠٠٧، ص ٧٠٩-٧٣٩). لا شكّ، في البداية نقرأ النصّ ونحاول أن نستخلص منه العبرة الروحيّة والدراسة الخلقيّة. ولكنّ العهد القديم يجب أن يوصلنا إلى العهد الجديد وشخص يسوع المسيح. أمّا التفسير اليوحنّاويّ للعهد الجديد، فهو يعرف أنّنا نعيش التدبير الخلاصيّ في كماله، بحيث لا نحتاج إلى قفزة جديدة. ففي المسيح يسوع نلنا الملء كلَّه ومعه نبلغ إلى الكمال.

١- الرسالة إلى رومة

جاءت الرسالة إلى رومة في قسمين كبيرين، القسم العقائديّ والقسم الأخلاقيّ. وتبع الذهبيّ الفم هذه القسمة وراح في الخطِّ البولسيّ، فقدَّم أجمل عرض حول الحياة المسيحيَّة. ولكن قبل عرض الموضوع الأساسيّ الذي يعلن أنّ الإنجيل هو قدرة الله لخلاص كلِّ مؤمن، نتعرَّف في مقدِّمة الرسالة إلى بولس وإلى أهل رومة.

أ) مقدِّمة وتمهيد

اعتنى بولس أو كاتبه (= ترتيوس، ١٦: ٢٢) عناية خاصَّة بهذه الرسالة التي جاءت تتوِّج الرسائل الكبرى، ولا سيَّما ١ و٢ كورنتوس، ثمَّ غلاطيا وفيليبي. فطرح السؤال الأساسيّ: من هو الرسول؟ ما هو دور الإيمان في قيادة المسيحيّ؟

أ- من بولس عبد المسيح ورسوله

انطلق الذهبيّ الفم من بداية الرسالة: "من بولس عبد المسيح يسوع، دعاه الله ليكون رسولاً، واختاره ليعلن بشارته التي سبق أن وعد بها على ألسنة أنبيائه في الكتب المقدَّسة، في شأن ابنه الذي، في الجسد، جاء من نسل داود، وفي الروح القدس، ثبت أنَّه ابن الله، في القدرة، بقيامته من بين الأموات، ربّنا يسوع المسيح" (١: ١-٤).

بولس هو عبد يسوع المسيح. ويبدأ يوحنّا في العظة الأولى، فيشرح النصَّ عبارة عبارة، ولا يخرج عنه، كما اعتاد أن يفعل في مقاطع أخرى. يقول:

"لماذا بدَّل له الله اسمه؟ ولماذا دعاه

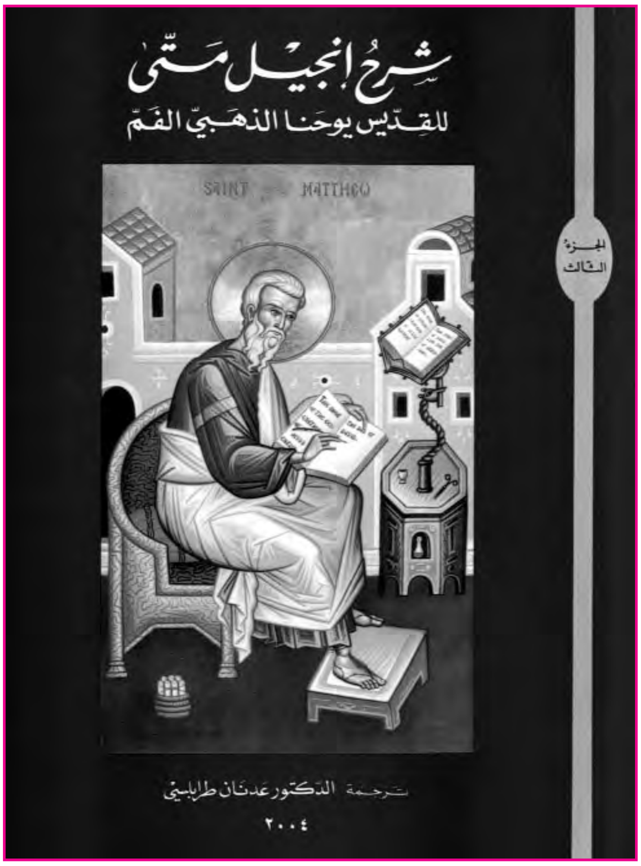

الفهرس

مقدمة الجزء الثالث ١١
مقدمة ١٥

الاصحاح الخامس عشر ٢٧
الاصحاح السادس عشر ٤٩
الاصحاح السابع عشر ٧٩
الاصحاح الثامن عشر ١٠٥
الاصحاح التاسع عشر ١٣٨
الاصحاح العشرون ١٥٨
الاصحاح الحادي والعشرون ١٧٦

ملحق الدراسات الكتابية : ٢٠١
١- نبوات المسيح عن آلامه ٢٠٢
معمودية المسيح وتجربته في البريّة ٢٠٣
رفض يسوع في الناصرة ٢٠٥
النبوة الأولى عن الآلام ٢٠٦
تجلّي المسيح والنبوّة الثانية عن الآلام ٢٠٨
النبوّة الثالثة عن الآلام ٢٠٩

٢- الأسبوع الأخير في أورشليم ٢١١
حجب يسوع لدوره المسياني عن عامة الشعب ٢١١
دخول يسوع المظفّر إلى أورشليم (الشعانين) ٢١٣
تطهير الهيكل ٢١٧
محاولة اصطياد يسوع بثلاثة أسئلة ٢٢٠
مثل الفعلة الأشرار ٢٢٣
حديث يسوع عن الحوادث الآتية قبل نهاية الدهر ٢٢٤
مصادر دراسة «نبوات المسيح عن آلامه» ٢٢٧

٣- مَن يقول الناس إني أنا؟ ٢٢٨
يسوع النبي ٢٣٠
يسوع المعلّم rabbi ٢٣٤
يسوع المسيح خريستوس ٢٣٥
يسوع ابن داود ٢٣٩
يسوع ابن الانسان ٢٤١
ألقاب يسوع في الكنيسة الأولى ٢٤٦
مصادر دراسة من يقول الناس إني أنا ٢٥٩

٤- تاريخ الصلب (اليوم الشهر والسنة) ٢٦١
يسوع والصلب ٢٦٤
ساعة الصلب ٢٦٤
تاريخ شهر الصلب ٢٦٦
محاولات التوفيق بين الإزائية ويوحنا ٢٧١
مقارنة تأريخ الصلب بين الإزائية ويوحنا ٢٧٢
الفكرة الأولى ٢٧٢
الفكرة الثانية ٢٧٣
الفكرة الثالثة ٢٧٤
الفكرة الرابعة ٢٧٥
تاريخ سنة صلب المسيح ٢٧٦
مراجع دراسة تاريخ الصلب ٢٧٩

كرازتان للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم في المعموديّة

الأب دانيال كستورا

إنّ النصّ الذي بين أيدينا هو كرازتان كانتا قد أُلْقِيَتَا في أنطاكية زمن صوم عام ٣٨٨[١]، وَجَّهَهما الذهبيّ الفم إلى جماعة مؤلّفة بالكامل من موعوظين، لإعدادهم للمعمودية التي كانت تُمنح للذين بلغوا أو تخطوا سن المراهقة، وكان عددهم يصل إلى حد الألف. الكرازة الأولى ألقيت ثلاثين يوماً قبل المعمودية، بينما الثانية يمكن تحديدها يوم الثلاثاء في الأسبوع المقدس.

تعود شواهد هذا النص إلى الترجمة الفرنسية، الموضوعة أصلاً في اليونانية، وهو ينتمي إلى سلسلة تدعى كرازات بابادوبولس (Papadopulos)، وهي مؤلفة من أربع كرازات.

عملنا هذا، الذي يختص بالكرازتين الأوليين، اعتمدنا فيه على كتاب پْيادَاچِل[٢].

١) المضمون

يخاطب الكاتب الموعوظين الذين يستعدّون لنيل العماد، وهو يضعهم في حالة انتظار مشوّقة لهذا الحدث المصيريّ لحياتهم، لأنه من خلاله يُمْنَحُون مغفرة جميع خطاياهم، وحياة جديدة. يقدّم هذا النص الكثير من الأوصاف والتسميات لهذا السر الذي يبدو غنيًا جدًا، ولذلك يتطلب تعمقًا فكريًا وردًا إيمانيًا والتزامًا حياتيًا. رغم ان العماد هو عمل النعمة الإلهية، فعلى من ينالها أن يتعامل معها من خلال سلوك أخلاقي جديد. يقدم الكاتب معاني روحية للعماد ووصفًا للاحتفالات المعمودية.

أ – العرض الأدبي

إن النص الحاضر مؤلّف من كرازتين مستقلتين، مرتبطتين في الوقت نفسه بالمعنى، ويوجد فيهما تسلسل وثيق.

الكرازة الأولى مقسّمة إلى خمسة أجزاء متصلة بعضها ببعض.

في الجزء الأول (الفصلان ١–٢) توجد دعوة إلى انتظار العماد.

في الجزء الثاني (الفصول ٣–٥) يوجد موضوع متعلّق بوقت منح العماد. يقول يوحنا إنه حتى يستطيع العماد أن يعطي ثماره الحقيقية، يجب إعطاؤه خلال الحياة وليس عند الموت. كثيرون كانوا ينتظرون لينالوا العماد قبل الموت بقليل، نظرًا إلى مفهومهم لهذا السر. يتطلّب العماد تغييرًا في السلوك والتزامًا حياتيًّا، ولذلك كان البعض يعتبره ثقلاً ويؤخّرونه حتى آخر حياتهم، وبهذه الطريقة كان يُطبّق وكأنه عمل سحري.

في الجزء الثالث (الفصلان ٦–٧) يعرض الحالات الخلقية الضرورية

(١) هناك خلاف بالنسبة إلى تاريخهما، فنحن نتبنى فكرة أوغوسط پْيادَاچِل الذي يحدده في عام ٣٣٨؛ راجع A. Piedaguel, *Introduction aux "Trois Catéchèses Baptismales de Jean Chrysostome"*, Sources Chretiennes n. 366, Cerf, Paris, 1990.

(٢) المرجع السابق.

لجهوده، فقد كَبَح شهوته وصَبَرَ: "من المفيد أكثر أن أبقى متّحدًا بهذا الجسد" (فل ١: ٢٤).

كذلك، لا تبدو لبولس الخليقة المرئية ولا الخليقة التي يتخيّلها العقلُ كافيتَيْن للتعبير عن كلّ قوّة محبّته وغَيْرته؛ كان يتصوّر طريقة أخرى للوجود، وكان يذهب إلى حدّ افتراض المستحيل، ليعبّر هكذا عمّا كان يشتهي. لكنّ يوحنّا كان يغتذي من الجراد ومن عسل البرّ (مت ٣: ٤)، لكنّ بولس، في وسط مساكن الناس، عاش كيوحنّا في الصحراء؛ لم يكن يأكل الجراد ولا عسل البَرّ؛ كان غذاؤه أكثر بدائية؛ لم يكن يأخذ حتى الغذاء الضروريّ للحياة لأنه كان مأخوذًا بغَيْرة التبشير. لكنّ يوحنّا أظهر في وجه هيرودوس حريّة كبيرة في الكلام (مت ١٤: ٤)، أما بولس فلم يهاجم طاغيةً واحدًا، أو اثنين، أو ثلاثة، بل آلاف الطغاة، كهيرودوس مثلاً، الذين أسكتَهم، ولْنَقُلْ بطريقة أفضل، طغاة أكثر وحشيّة أيضًا.

١٠ - بولس والملائكة

لم يبقَ لنا سوى المقارنة بين بولس والملائكة؛ لِنَدَعْ، إذًا، تحت أقدامنا، الأرض؛ لِنَصْعَدْ إلى أعالي السماوات، ولا يَشْكُوَنَّ أحدٌ جرأةَ خطابنا، فإنّه، إن كان الكتاب المقدس قد أعطى يوحنا اسمَ "ملاك"، كما أعطاه للكهنة، فما الذي يُثير العجَب أن يُقارَن من قِبلنا الذي يتفوّق عليهم جميعًا بالقِوى العليا؟ على ماذا تقوم عظمة الملائكة؟ على أنهم يعتنون جيّدًا بأن يطيعوا الله. إنّ ما يعبّر عنه داود هكذا، في تعجّبه: "قوى مملوءة قوة، تنفّذ ما يقوله" (مز ١٠٢: ٢٠). تلك هي العظمة التي لا تُقارن، حتى لو كانت عشرة آلاف مرّة غير جسدانية؛ إنّ أعلى درجة من طوباويّتهم، هي هذه: إنها طاعتهم، وهو أنّ هذه الطاعة ليست أبدًا ناقصة. بولس أيضًا حفظ تلك الطاعة الكاملة؛ فإنه لم يتمّم فقط كلام الله، بل وصاياه، وأكثر من وصاياه، وهذا ما بيّنه بهذه الكلمات: "إذًا فأيّ أجرٍ لي؟ هو أنّي، حين أبشّر، أَمْنَحُ الإنجيلَ مجّانًا" (١ كو ٩: ١٨). ما هي أيضًا العَظَمة التي يُعْجَب بها النبيّ في الملائكة؟ "الذي يجعل ملائكته أرواحًا، وخدّامه لهيب نار" (مز ١٠٣: ٤). بولس هو الدليل الواضح على ذلك؛ كنسيم، وكنارٍ، عَبَرَ العالَمَ كلَّه وطَهَّرَه. لكنّه لم يَنَلْ بعد السماء. هذا ما هو بالحصر عجيبٌ بكلّ معنى الكلمة. أيضًا على الأرض، رجل كهذا، في جسد مائت، كان يضارِعُ القوى غير الجسديّة فضيلةً.

الخاتمـــة

أيّ شجب إذًا قد لا نستحق نحن لدى رؤية إنسان جمع في ذاته وحده كلّ الفضائل، ولا نجهد ذاتنا في اقتفاء ما هو أقلّ من تلك التي مارسها؟ فلنفكِّرْ في ذلك، ولنعملْ على أن نُفْلِتَ من تهمة كهذه، ولنجهد ذاتنا للوصول إلى هذه الغَيرة، من أجل أن نتمكّن من أن نحصل على الخيرات ذاتها، بنعمة ربنا يسوع المسيح وصلاحه، الذي له المجد والقدرة، الآن ودائمًا، وإلى أبد الآبدين، آمين.

يديه إلى الفقراء وإلى البؤساء الجياع. لكن الديدان والكلوم كانت تسبّب لأيوب آلامًا قاسية لا تُطاق؛ أنا أوافق، لكن إذا ما قارنتم معها ضربات السوط التي تلقّاها بولس خلال العديد من السنوات، والجوع المتواصل، والعري، وقيود الحديد، والسَجْن، والأخطار، والمؤامرات التي كان يحوكها ضدّه أقرباؤه، والغرباء، والطُغاة، والأرض برمّتها، وأضيفوا إليها آلامًا أَمَرَّ أيضًا، أعني الآلام التي عاناها لأجل الذين يسقطون، والقلق على كل الكنائس، والنار التي كانت تلهبه في كلّ مرّة كانت هناك عثرة، ترون أنّ النفْس التي كانت تقاسي كل هذا كانت أصلب من صخر، وكانت لها القوّة لتنتصر على الحديد وعلى الألماس. ما قاساه أيوب في جسده، تحمّلَته نفْسُ بولس، وكلُّ ديدان أيوب كانت تعذّبه بقساوة أقل ممّا كانت تفعله رؤية المعاثر في نفْس الرسول الطوباوي. من هنا، منابع الدموع التي كانت تتدفّق باستمرار من عينَيْه، ليس فقط خلال ساعات النهار، بل الليل، وليس هناك من امرأة، فريسة آلام الإيلاد، تتمزّق بألمٍ أكبر من ألمه. وكان يقول: "يا أولادي الصغار، الذين لأجلهم أشعر من جديد بآلام الإيلاد" (غل ٤: ١٩)[٥].

٨ – موسى وبولس

مَنِ الذي، بعد أيوب، نبدي إعجابنا به؟ موسى، بالتأكيد، لكنّ هذا الأخير أيضًا يرى بولسَ فوقَه بكثير. من بين فضائل عظيمة وعديدة، إنّ ما يوجد في نفس موسى القديسة هذه إلى هذا الحدّ، والتي ترفعه خاصة، وهي إكليله، هو أنه أراد أن يُمْحى من كتاب الله من أجل خلاص اليهود (خر ٣٢: ٣٢). لكن، هل أراد موسى أن يَبيد مع الآخرين؟ إنّ بولس قد وافق –لأجل الآخرين، وليس معهم، كونهم مخلَّصين– على أن ينحطّ عن المجد الأبديّ. لقد جاهد موسى ضدّ فرعون، لكن بولس كان يصارع ضدّ إبليس كلّ يوم؛ الأول كان يتحمّل كلّ أتعابه لصالح شعبٍ واحد، أما الآخر فكان يقاسي العناء الأقسى لصالح الأرض كلّها، وكان يغطّيه ليس العرق فقط، بل، وبدل العرق، الدم الذي كان يجري من كلّ جسده؛ لم يكن يجتاز فقط البلدان المأهولة، بل الأماكن غير المأهولة أيضًا؛ ليس فقط اليونان، بل أصقاع البرابرة أيضًا.

٩ – يشوع (بن نون)، وصموئيل، والأنبياء وبولس

بإمكاني أن أعرض أمامكم يشوع (بن نون)، وصموئيل، والأنبياء الآخرين، ولكن، من أجل أن لا أُطيل هذه الخطبة، فلن نعرض إلا الرئيسيّين منهم؛ فإن كان بولس يبدو أسمى منهم، فلن يعود هناك مجالٌ للشك في تفوّقه على الآخرين.

مَن هم الرئيسيون بين الأنبياء؟

بعد أولئك الذين تكلّمنا عليهم، مَن هم، إن لم يكونوا **داود، وإيليا، ويوحنا**؛ أحدهم هو سابق للمجيء الأول، والآخر لمجيء الرب الثاني، وبالتالي يُدْعَى هذا وذاك إيليا. ما الذي يميّز **داود**؟ إنهما تواضعه ومحبّته لله؛ ولكن، أبهذين الأمرَيْن هو متفوّق على بولس، الذي لا يبقى دونَه؟ ماذا لدى **إيليا** من مثير للإعَجاب؟ أنه أغلق السماء، أتى بالجوع، أنزل النار؟ أنا لا أعتقد! فَلْنُبْدِ إعجابَنا به بمحبّته للربّ، محبّة حارقة أكثر من النار. لكن، إذا ما اعتبرتم غيرة بولس، لوجدتموه مساويًا لإيليا بالسموّ، وهو يعلو على الأنبياء الآخرين. فماذا يمكننا أن نقارن مع هذه الأقوال التي كانت توحيها لبولس غَيْرتُه على مجد الرب، أي "أودّ أن أكون أنا نفسي محرومًا، مفصولاً عن المسيح، في سبيل إخوتي، أقربائي بالجسد" (روم ٩: ٣)؟

ولأنّ السماوات والأكاليل وكل جوائز المعركة قد اقترِحَت عليه كهدف

---

[٥] "يا أولادي الذين أعود أتمخّض بهم حتّى يُصَوَّر المسيح فيكم" (ترجمة الكسليك).

لنيل هذا السر. يعلم يوحنا أن العماد نعمة من الله وأنه عطية غفران جميع الخطايا دون ارتباط باستحقاقات المعمَّد. ولكن، إلى جانب مجانية حب الله ورحمته، هناك قبول لهذه النعم أو رفضها من قبل الإنسان. وكل من يقبله ينال القوة ليغيّر سلوكه الحياتي، بل كان يمنح العماد كختم للذين سمعوا وآمنوا بالكلمة المعلَنة لهم، وبدأت تظهر فيهم ثمارها. لذلك نرى اهتمامًا كبيرًا من قبل يوحنا لسلوك مستمعيه.

الجزء الرابع (الفصول ٨–١٥) يقدّم بعض التسميات للعماد ويفسّرها. إن الكرازة للعماد هي نقل وديعة الإيمان إلى الأعضاء الجدد الذين يندمجون في الكنيسة. إن الكرازة إعلان كلمة الله بالفعل وجزء مهم للتقليد وعنصر أساسيّ له. موقع الكرازة هو بعد سماع الكرازة (الخبر السار). الأشخاص الذين سمعوا هذا الإعلان وقرّروا بأن يرتدّوا إلى إيمان المسيح، لا يعرفون بعد هذا الإيمان. لذلك عليهم اكتشافه المنظّم من الكرازة. تختلف هذه الأخيرة عن العظة التي هي التعليم العاديّ لجماعة المؤمنين الذين يعرفون مضمون إيمانهم، وتُعتبر تعمقًا[٢].

الجزء الخامس (الفصول ١٦–٢٣) يعالج بتوسّع آداب السلوك الأخلاقية المختصة بالمعمّد. على الإنسان أن يكون دومًا وفي كل حين معاهدًا وساهرًا على سلوكه، وعلى الأخصّ باحترام كرامة جسده العظيمة، التي تنبع من دعوة الإنسان إلى أن يصبح من خلال العماد مسكنًا للروح القدس، وابنًا لله الآب بلبسه جسد المسيح السريّ.

ينتقل القديس في عرض أفكاره ليصل إلى اللسان الذي ينعته بأنه سيف وسبب الموت، وبأنه من أخطر أعداء الجسد، وقد "أمات الناس أكثر ممّا أماتت الحروب والمعارك" (١ ك ١٧/ ٩–١٠).

الكرازة الثانية مقسمة إلى أربعة أقسام:

في الجزء الأول (الفصلان ١–٢) يوجد رابط مع الكرازة السابقة وتصميم للكرازة الحالية.

الجزء الثاني يتناول جوهر سر العماد اللاهوتي والروحاني، وهو مؤلّف من ثلاث فقرات: حول زمن العماد، وهو زمن الفصح (الفصل ٣)؛ حول موت وقيامة المسيح اللذين يشبهان موتنا وقيامتنا (الفصلان ٤–٥)؛ حول طرد الشيطان: رتبته ومعناه (الفصلان ٦–٧).

كان العماد يُمنح في عيد الفصح، وخاصة في الليلة الفصحية، لأن حدث الفصح هو الأنسب معنويًا لهذا السر"، لأن ملكنا قد انتصر في هذا الوقت على الحرب ضدّ البرابرة (الشياطين)... إنّه في هذا الوقت حطّم الخطيئة، وقضى على الموت وأخضع الشيطان وقبض على السجناء. إنّنا نحتفل باليوم الحاضر ذكرًا لهذا الانتصار" (٢ ك ٣ / ١٥–٢٢).

في الواقع، يتمّ هذا التطهير عبر موت الإنسان القديم وولادة إنسان جديد. يمكننا تحقيق هذا التحوّل من خلال اتّحادنا بموت المسيح وقيامته، فيقول: "إنّ الرب قد صُلب على خشبة، وأنت كُن مصلوبًا بالعماد، لأنّ العماد أيضًا صليب وموت، ولكن موت الخطيئة وصليب الإنسان العتيق" (٢ ك ٣ / ٤١–٤٣). "ففي الوقت ذاته الذي فيه نموت، فيه نقوم" (٢ ك ٥ / ١٦–١٧).

طرد الشيطان رتبة تحضيرية للاتحاد مع المسيح، وهو عملية أمر استبعاد الشيطان من شخص الموعوظ، ليأتي المسيح ويسكن فيه. كان الموعوظون يتقدّمون إلى طارد الشيطان بمشاعر التوبة، حفاة القدمين، لابسين قميصًا بسيطًا فقط، وكانوا يقفون رافعين أيديهم نحو السماء، مثل السجناء يلتمسون حريتهم، ولكن ما كانوا يطلبونه هو غفران الخطايا، وكرامة أبناء الله بالتبنّي

(٢) راجع J. Daniélou, *La catéchèse aux premiers siècles*, Fayard-Marme, Paris, 1968, p. 15-20

(راجـــع ٢ ك ٦). حـيـنـئـذ كـان طـاردو الشـيـطـان يـطـلـقـون بـعـض الـعـبـارات المألوفة، وهكذا كان يتم التطهير أكثر من مرّة خلال فترة الصوم.

الجزء الثالث يدور حول القَسَم: تـفسيره (الفصل ٨) وقصـة هيـرودس وقَـسَـمُـه، مع التعليق على الرقص (الفصل ٩).

نـجد مـوضـوع "القَسَم" أحد أهمّ الموضوعات التي يركّز عليها يوحنا الذهبيّ الفم في كرازته.

إحدى العادات التي يرفضها يوحنا ويحتجّ عليها باستمرار في وعظه هي الرقص؛ فعندما يرقص المرء يعطي أهمية قصوى لجسده، فينفعل هذا بكامل أحاسيسه وأهوائه، ويصبح ضبطه من الأمور الصعبة، حينها يكون فريسة سهلة أمام المجرِّب وأمام جميع أنواع الرذائل، وبالأخص الجنسية منها، كما حدث مع هيرودس الذي قطع رأس يوحنا المعمدان بعدما شاهد رقص ابنة هيرودية.

الـجـزء الأخـيـر هـو الـخـاتـمـة (الفصل ١٠).

ب – خلفيات النص

يظهر بوضوح من النصّ أنّ عند الكاتب خلفية كتابية نظرًا إلى كثرة الشواهد الكتابية المذكورة بانتظام، وإلى الدقّة التي من خلالها يختار الشاهد المناسب لحديثه. كان الكتاب المقدس مصدر إلهامه الرئيسي، وقاعدته الوحيدة للسلوك، ووسيلته الوحيدة ليهدي النفوس[٣].

تعلم الذهبيّ الفم التفسير الكتابي من ديودورس الطرسوسي المعلّم بدون منازع في ذاك العصر. تتبيّن من أسلوب تفسيره عناصر خاصة بمدرسة انطاكية. تأثر يوحنا في طريقة تفسيره بالرهبان السريان أكثر من اليونانيين[٤]. تأثير أوريجانس وأثناثيوس واضح فيه، ومن الملاحظ في ذلك الوقت التبادل الفكريّ بين الرهبان السريان والمصريّين.

يرتكز على خلفية خطابيّة (بلاغيّة) واضحة، درس في مدرسة أنطاكيا مع زميله تيودوروس المبسوسطي، على يد معلّم البلاغة ليبانوس.

هناك تأثير من اختباره الرهباني السابق على النص. المثل الأعلى للحياة الرهبانية يبقى بالنسبة إليه المثل الأعلى للحياة المسيحية.

٢) الأسلوب

يتناول الكاتب الموضوع بشكل تفسير لاهوتيّ للأسرار، مبينًّا جميع أبعاده بشكل خلاصة إيمانية وفكرية. يعتمد باستمرار على مستندات كتابية؛ فقد استشهد في هاتين الكرازتين خمسين مرة بالكتاب المقدس بطريقة مباشرة، وخمسة وخمسين مرة أشار إليه ضمنيًا.

أ – المنهجية الأدبية

هدف الكاتب هو تعليم أناس يُعتبرون غير عالمين بالموضوع، فلذلك أسلوبه بسيط، والنص هو كرازة تعليمية.

الكرازة هي قبل كلّ شيء عرض كامل، وفي الوقت ذاته ابتدائي، للسرّ المسيحيّ. لا تتعمق الكرازة في تفاصيل التفسير، بل تهدف إلى الضروريّ، وتُعطي الجوهر ذاته للإيمان.

الخاصة الثانية للكرازة ينالها الموعوظ في الوقت الذي يستعدّ فيه للعماد.

الميزة الثالثة والأساسية هي أن الكرازة تنشئة شاملة للحياة المسيحية، مبنية على معطيات الإيمان. نجد أيضًا في الكرازة وجهًا طقسيًا، متعلقًا بالرّتب الخاصة بالدخول وبطرد الشيطان وبالبركات. وبهذه الطريقة

---

(٣) راجع A.M. Malingrey, "Sentences des sages chez Chrysostome", dans *Jean Chrysostome et Augustin*, Beauchesne, Paris, 1975, p. 199.

(٤) راجع R. Leconte, *St. Jean Chrysostome, exégète syrien*, Paris, 1942, chap. 3.

ما كان ينبوع النِعَم هذا يُسَدّ، على قدر ذلك كان يتدفّق بقوّة، وعلى قدر ذلك كان يسكب من هذه المياه التي تعطي الصبر.

٥ – يعقوب وبولس

لكنّ ابنه يعقوب، في الكتاب المقدّس، يثير الإعجاب بقوّته الكامنة في نفسِه. أيّ نَفْس من ألماس تستطيع أن توازي صبرَ بولس؟ ليس هذا عبوديةً لمدّة أربع عشرة سنة، بل ما يوازي مدّةَ حياته كلّها، وقد قاساها لأجل عروسة المسيح؛ فهو لم يُحْرَق بحَرِّ النهار وبجليد الليل فقط، بل تألّم ألف مرة بسبب الثلوج، والأمطار، وبَرَد المحنة؛ يومٌ يتلقّى ضرباتِ السَوْط، ويومٌ الحجارةَ وهي تتساقط على كلّ أعضائه، يومٌ آخر أيضًا كان عليه أن يصارع الوحوش المفترسة، ومرة أخرى الأمواج العاتية، وليلاً نهارًا الجوع والبَرْد؛ في كلّ مكان، ومقابل ألف معركة، كان ينتزع (٢كو ١١: ٢٣–٣٣) النعاج من فم إبليس.

٦ – يوسف وبولس

أمّا يوسف فكان الطُهْرَ بالذات! قد أخشى ما يثير السخرية، إذا ما عظّمتُ، انطلاقًا من هنا، مَن صَلَبَ ذاتَه لأجل العالم (غل ٦: ١٤)، والذي لم يكن ينظر فقط إلى ما في الأجساد من مُغْرٍ، بل كلّ الأشياء البشرية بذات العين كما الغبار والرماد؛ كان كميْتٍ لا إحساس لديه أمام ميت. وإذ كان دقيقًا ومتنبّهًا إلى رَدْع كلِّ وَثْباتِ الطبيعة الفاسدة، لم يُعانِ أبدًا، ولا في أية مناسبة، أيًّا من هذا الضعف الذي تخضع له سرعةُ العطب البشرية.

٧ – أيوب وبولس

هل يثير أيوبُ الإعجاب لدى كلّ الناس؟ نحن بحقّ نبدي إعجابنا بهذا المصارع العظيم، الذي يمكن مقارنته مع بولس من حيث صبره، وطهارة حياته، والشهادة التي أدّاها لله، لا بل بالبسالة التي أظهرها في جهاد شهير، وبالنصر العجيب الذي كلّل معاركه. لكنّ معارك بولس لم تدم عدّة أشهر فقط، بل عدّة سنوات؛ لم يكن يمسح بالخَزَفات ما ينزّ ويخرج فاسدًا من أعضائه؛ لم يكن يبقى ممدّدًا على المزبلة، بل كان يهاجم فم الأسد الروحيّ، وألف ألف مرّة، مجاهدًا ضدّ التجارب؛ كان أصلب من صخر. لم يكونوا فقط ثلاثة أصدقاء، أو أربعة، بل كلّهم كانوا يهينونه: جاحدون، وإخوة كَذَبَة، ومستهزئون، ومحقِّرون. لكن هل كانت ضيافة أيوب رائعة، كما أيضًا همّه تجاه الفقراء؟ نتحفّظ جيّدًا على أن ننكر ذلك، لكننا نجد كلّ ذلك أدنى من فضائل بولس، كما الجسد هو أدنى من النفْس. ما كان أيوب يصنعه للأجساد العليلة، كان بولس يمارسه للأنفس المريضة، مقوِّمًا كلّ الأذهان العرجاء، وموشّحًا العقول الفقيرة العارية بثوب الحكمة. وإذا ما اعتبرنا المنافع بالذات التي تتوجّه إلى الأجساد، كان لبولس كلّ التفوّق الذي يرفع الجائع والفقير، مُعينًا العَوَز، إلى أعلى من الغنيّ الذي يعطي ممّا يفيض عنه. كان مسكن أيوب مفتوحًا لكل مَن يأتي إليه، أمّا نفْسُ بولس فكانت تتفتّح للأرض برمّتها، إذ كان يُقيم استقبالاً لجميع الشعوب. من هنا كلماته: "لم تَضِق أحشائي لأجلكم، لكنّ أحشاءكم ضاق لأجلي"[(٤)].

كانت لأيوب قطعانٌ لا عَدَّ لها من العجول والنعاج، وكان نديَّ الكفّ تجاه الفقراء؛ أمّا بولس فلم يكن يمتلك شيئًا سوى جسده، لكنه كان يجد فيه ما يسدّ به حاجات المعوزين؛ من هنا كلماته: "هاتان اليدان قد خدَمَتا حاجاتي وحاجات الذين كانوا معي" (أع ٢٠: ٣٤). كان ينسب دَخْلَ عمل

(٤) حرفيًّا: "لستم متضايقين بسببنا، لكنكم متضايقون في داخلكم" (ترجمة مارونية)؛ "لستم عندنا محصورين، بل في داخلكم أنتم محصورون" (ترجمة الكسليك).

على يد أخٍ لم يكن له ما يتشكّاه منه، فإنّ بولس قد حماه أولئك الذين كان يريد أن يقتلعهم من شرورٍ لا عَدَّ لها، الذين لأجلهم قاسى كلّ ما تألّمه.

٢ – نوحٌ وبولس

كان نُوحٌ رجلاً صدّيقًا في وسطِ ناسِ زمانه (تك ٦: ٩)، و لم يكن له من مثيل بينهم جميعًا، وبولس كان دون مثيلٍ له بين الناس في كل الأزمنة. نجا نُوح وحده مع بنيه، وبولس، بدوره، رأى العالَم مغمورًا تحت طوفان جديد أكثر رعبًا من القديم؛ لم يَصنع فُلْكًا من ألواح (خشبية)؛ وبدلاً من هذه الأخيرة، نظم الرسائل؛ لكنه لم يخلّص اثنين، أو ثلاثة، أو خمسة من أهله، بل خلّص من الخطر الكونَ كلَّه الذي كانت تغمره اللجج. لم يُحصَر فُلْكُه في عبورِ مكانٍ واحد، بل كان يضمّ الأرض حتى حدودها الأخيرة؛ إذاً، والآن أيضًا، يُدْخِلنا بولس في هذا الفُلْكِ الذي بُنِيَ لكي يخلّص الجماهير؛ الحَمْقَى المُعْدَمِينَ من العقل أكثر من انعدام الحيوانات يحوّلهم، جاعلاً منهم كائناتٍ أهلاً لأنْ تنافس القوات العُلْوية، وفي ذلك نَصْرٌ للفُلْكِ الجديد على فُلْكِ ذاك الزمان...؛ فهذا الأخير تلقّى غرابًا، وترك غرابًا يخرج منه؛ تلقّى ذئبًا، و لم يلطّف شهوة الافتراس لديه؛ أمّا بولس فقد صنع أفضل من ذاك، إذ تلقّى ذئابًا، فجعل منها نعاجًا، وحوّل البازَ والصقر إلى حمائم؛ كلّ ما كان غباوة وشهوة افتراس طرده من الطبيعة البشرية، وأحلّ مكانه نعومةَ الروح؛ والآن أيضًا يَعُومُ الفُلْكُ الذي لا ينكسر على الأمواج، إذ لا قدرة لعواصف الفساد على تشقيق ألواح كهذه: هو الفُلْكُ من يسود على الأمواج التي يمخرها، وهو الفُلْك مَن يسكت العاصفة؛ وهذا حقٌّ، فإنّ الذي يضمّ الألواح إلى بعضها ليس القار ولا الزفت، بل الروح القدس.

٣ – إبراهيم وبولس

أنظروا الآن إبراهيم: الجميع يُعْجَب به؛ عندما سمع هذه الكلمات: "أخرج من أرضك ومن قرابتك" (تك ١٢: ١)، ترك الوطن، والمسكن، والأصدقاء، والأهل؛ لقد كان أَمْرُ اللهِ كلَّ شيء بالنسبة إليه. نحن أيضًا، واعلموا ذلك جيّدًا، نبدي إعجابَنا بهذه الطاعة. ولكن مَن يستطيع أن يُقارنَ ذاتَه مع بولس؟ فهو لم يترك لأجل يسوع وطنَه، ومسكنَه، وأهلَه فقط، بل العالَمَ بالذات؛ أكثر من ذلك، احتقر السماء بالذات، وسماء السماء، و لم يَسْعَ إلاّ في إثْر شيء واحد، هو محبّة يسوع. إسمعوه هو نفسه يبيّنه لكم، يقوله لكم: "لا الأشياء الحاضرة ولا المستَقبلة، ولا علو ولا عمق... تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله" (روم ٨: ٣٨ و٣٩).

قد يُقال إنّ إبراهيم، إذ عرّض ذاته للمخاطر، انتزعَ ابنَ شقيقه من يد الأعداء، لكنّ بولس لم يخلّص فقط ابن شقيقه، ولا ثلاث وخمس مُدُن، بل الأرض بكلّيّتها، و لم ينتزعها من أيدي البرابرة، بل من أيدي الأبالسة بالذات، مواجهًا كلَّ يوم أخطارًا لا عَدَّ لها، على حساب مِيتاتِه الخاصّة، ومؤمِّنًا للآخرين أمانًا كُلّيًّا. لكن، هل كمال الفضيلة وإكليل الحكمة يعودان إلى مَنْ ضحَّى بابنه؟ هنا أيضًا، سنجد أن المقام الأولّ يعود إلى بولس؛ فهو لم يُضَحِّ بابنه، بل بذاته، وأكثر من ألف مرّة، كما قلتُ قبل قليل.

٤ – إسحق وبولس

بماذا نعجب في إسحق؟ بين الكثير من الفضائل، صَبْرُه؛ فقد كان يحفر آبارًا، وكان يُطْرَدُ من ممتلكاته (تك ٢٦: ١٥، ١٨، ٢٠، ٢٢)، و لم يكن يُقاوِم؛ وكلّما كانت الآبار تُمْلأ، كان ينتقل إلى مكان آخر؛ لم يكن يَنْقَضّ، مع كلّ ذويه، على الذين كانوا يعذّبونه، بل كان ينسحب، تاركًا في كل مكانٍ الأراضي التي كانت له، كي يُشبع جَشَعَ أعدائه. أمّا بولس فلم يَرَ فقط أبارًا، بل جَسَدَهُ الخاصّ مغطًّى بحجارة مكدّسة فوقه؛ لم ينسحب كإسحق، بل كان يذهب إلى الذين كانوا يرجمونه؛ كان يريد، وبكلّ قوّة أن يخطفهم معه إلى السماء. وعلى قدْر

تمثّل الكرازة عملاً رعويًا كاملاً: ابتداءً من الدخول في الحياة المسيحية بفضل معرفة سر الإيمان، والدخول إلى آداب السلوك المسيحي والاندماج مع الجماعة المسيحية.

الميزة الأخيرة للكرازة هي أنها تكوّن الجزء الأثبت في التقليد المسيحي، نظرًا إلى تركيزها على جوهر الإيمان المسيحي. الإيمان الذي يقدّم في الكرازة هو النقل الشفهيّ للوديعة الموحى بها.

تتمثّل بنية الكرازة، من جهة بالتطور في الزمن من خلال عدة مراحل تقود إلى العماد، ومن جهة أخرى في وجود عدة طرق للتنشئة المسيحية. إلى جانب التنظيم على مراحل، توجد ثلاثة أبعاد كبرى للكرازة: البعد العقائديّ، البعد الخلقيّ والبعد السرّيّ. في الكرازتين الحاضرتين يندمج البعد الخلقيّ مع البعد العقائديّ ويُمثّل امتداده(٥).

يعطي يوحنا موقعًا مركزيًا لسر المسيح الفصحيّ، ويشدّد كثيرًا على الطابع التكفيريّ لموت المسيح وعلى الفداء من الخطيئة.

كمبدأ عام يقدّم الكاتب جميع أفكاره من خلال صور الحياة اليومية، وأمثال واستعارات. ففي الكرازة الثانية (٣، ١٤-١٨)، مثلاً، يقول: "إن ملكنا انتصر على الحرب ضد البرابرة؛ في الواقع الشياطين كلهم برابرة، بل أكثر وحشية من البرابرة". صور أخرى يستعملها هي المريض، الأمبراطور، الزواج...، وهو يربطها بنص من الكتاب المقدّس. بهذه الطريقة هو يحاول أن يقنع المستمعين إليه عبر شاهدين: الخبرة البشرية المعترف بها من قبل جميع الناس، وكلمة اللّه، التي يعترف بمصداقيتها جميع الذين يؤمنون بالمسيح.

يستعمل يوحنا الكتاب المقدس بطرق مختلفة كي يشير إلى مؤلّف الكتب. في بعض الأحيان يُدخل آية بدون أي مرجع لها. وعندما يتكلم في الكرازة الثانية (٤ / ٣٣-٣٥) عن عمل المسيح الفادي، يفسّر إنجيل متّى، ثم يلحق الاية ٢:٢٢ من رسالة القديس بطرس الأولى وبدون أي مرجع يكمل شرحه.

يقدّم أحيانًا آيات ويضعها على فم الرب من خلال عبارات ثابتة مثل: "يقول الرب" أو "قال الرب".

يقدم أيضًا آيات وينسبها إلى مؤلف ونبيّ بدون أي ذكر لاسمه. مثلاً في الكرازة الأولى (١٧/٩-١٠) يقول: "كان المؤلّف يفسّر ذلك بقوله"؛ في بعض الأحيان يستعمل التعبير: "تقول الكتب المقدسة" (الكرازة الثانية، ٣/٤٠-٤١).

كثيرًا ما يستشهد بمقطع من الكتاب المقدس، ويُدخله شاهدًا صريحًا بأنه يرجع إلى "الرسل" أو إلى بولس، أو إلى داود أو أشعيا، ألخ، كما في الكرازة الأولى (١٠/١٤-١٧).

فَلْنرَ الآن كيف يستعمل يوحنا هذه الشواهد. كثيرًا ما نجد شواهد بشكل متسلسل مرتبطة ببعض من خلال حروف أو عبارات مثل "وأيضًا"، أو "ومن جديد"، أو "وفي مكان آخر"، أو بدون أي صيغة ربط. تدور هذه الشواهد في بعض الأحيان حول كلمة ما، مثلاً في الكرازة الأولى (١٧/٩-١٣)، عندما يتكلم عن الشيطان. تدور الشواهد، في أماكن أخرى، على موضوع واحد، عندما يتناول مثلاً التحرر من خلال طرد الشياطين في الكرازة الثانية (٦/٢٧-٢٩). إنه يقدّم أيضًا شبه استشهادات، يجمع فيها أفكارًا وكلمات من كتب مختلفة، كما في الكرازة الثانية (٣/٤٠-٤١). إلى جانب ذلك، يمكننا الافتراض أنه كانت لديه نصوصٌ أو مخطوطات كتابية تختلف قليلاً عن نصوص. أحيانًا لا يستشهد بطريقة حرفية، ولكنه يُدخل آيات من الكتاب المقدس من خلال أسلوبه وكلماته الخاصة؛ ففي الكرازة الثانية (٦/١٣-١٥)، مثلاً، يقول: "كما مشى عبدي أشعيا عاريًا وحافيًا، هكذا سيمشي

---

(٥) J. Daniélou, *op. cit.*, p. 15-20.

أبناء اسرائيل إلى الأسر عارين وحُفاة". لا يستعمل يوحنا آيات فقط بل أيضًا قصة كاملة من الإنجيل ليسند فكره؛ في الكرازة الثانية، الفصل ٩، يروي بطريقة غير حرفيّة قصة هيرودس ويحلّلها، مستندًا على النصوص التالية: مر ٦: ٢١-٢٩ متّى ١٤: ٦-١٦ [(٦)].

يقدم كل موضوع على حدة، مبتدئًا بإعلان فرضية (thèse)، ثم يقدم عكسها (antithèse) (مستخدمًا في كثير من الأحيان عبارة "في الواقع")، ويختم بخلاصة (synthèse)، كما في الكرازة الأولى (١٩/٨-٢١).

يفسّر الكتاب المقدّس تفسيرًا مثل كل المدرسة الأنطاكية.

ينطلق يوحنا من المعنى الحرفيّ للنص، ثم يؤوّله على الواقع الحاليّ لكي يمرّر رسالته الروحية، أو الرعوية، أو الخلقية. لا يبتعد عن المعنى الحرفيّ والتاريخيّ لنصّ الكتاب المقدس؛ فعندما يروي، مثلاً، قصة هيرودوس، ومن ضمنها رقص ابنة هيروديا، فهو يستغل الفرصة ويقول: "إسمعوا، أيها الرجال والنساء، أنتم جميعًا الذين تكرمون موائدكم بمثل هذا الرقص وبأغاني تناسبهم، ليست هذه زلاّت صغيرة، حتى ولو ظهرت بريئة. إن هذا المظهر البريء هو الذي يجعل منها كارثة كبيرة، لأنه لا يؤخذ منها الحذر كثيرًا" (٢ ك ٩/ ٢١-٢٦).

ب- الأسلوب اللغوي والأدبي

الأسلوب الأدبيّ المستعمل هو النثر.

يستخدم المؤلف لغة نقية، إبداعية وواقعية، كما أن أسلوبه مباشر، وصريح وحيوي سهل. إنه غني بالصور، التي يستعملها الكاتب بأوصاف دقيقة. في الواقع كان يلقي الكارز كرازته شفهيًا، ونظرًا إلى هدفه التعليميّ يجوز الاستنتاج بأنّه كان يعتمد كثيرًا على الاتصال المباشر مع الموعوظين؛ فقد يتكلم بصفة المتكلم المفرد، وبشكل مباشر إلى المستمعين.

٣) الأبعاد

أ - البعد الراعوي

أوّل ميزة رعوية ليوحنا الذهبيّ الفم هي أسلوبه التعليميّ التربويّ. إنّ تعليمه ليس مقيّدًا بإيصال عقائد أو سلسلة من الحقائق، بل عنده قبل كلّ شيء همّ لإعطاء الشعب ما هو بحاجة إليه. ففي الكرازة الثانية كان قد صمّم بأن يشرح جميع الرتب، ولكنّه خلال حديثه غيّر اتّجاهه (٢ ك ١/٢٧-٣٠). رأى ضرورة تركيز على عادات السلوك، خاصة القَسَم، فغيّر خطّته. يجب الأخذ بعين الاعتبار الإطار الذي نتكلم فيه، ووضع المستمعين الذين نتوجه إليهم، وما الأخطار التي يتعرضون لها.

يتميّز أسلوبه التعليمي أيضًا بإعطاء كلمة ما، وانتظار أن تعطي ثمارها، كما في الكرازة الأولى. بعدما نبّه إلى خطورة القَسَم (١ ك ٢٣/٢-٦)، إبتدأ حديثه، في الكرازة الثانية، بالسؤال عن تحقيق هذه الكلمة: "هل انتزعتم من فمكم عادةَ القَسَم المحتقرة؟ لأني لم أنْسَ ما قلته لكم، ولا ما وعدتموني به حول هذا الموضوع" (٢ ك ١/١-٥).

يضع المؤلّف نفسه في مستوى المستمعين ذاته بصفته مسيحيًّا مثلهم، وهو يطلب منهم الصلاة لأجله. وهذا بعد مرحلة معيّنة فقط: "لأن من الآن صار مسموحًا لكم بأن تصلّوا أيضًا من أجل معلّميكم" (٢ ك ٣٣-٣٤).

ب- البعد الروحي

يشدّد يوحنا كثيرًا على أنّ العماد يطهّر من جميع أنواع الخطايا: "حَنَثٌ أو قَسَمٌ، دعارة أو زنى، أو حتى جميع الرذائل" (٢ ك ١٠ /٢٧-٢٩). لذلك لا يمكن إطار العماد إلاّ أن يكون جوّ سعادة وعيد في الكنيسة.

يُعتبَر الله العريس، والنفس القابلة للعماد هي العروس، ومن خلال العماد يتمّ اتحادهما الصوفي (١ ك ٢/٣٠-٣٤).

يمنح العماد المسيحي ملكية روحية وسماوية بعمل الروح القدس

(٦) A.M. Malingrey, art. cit., p. 201-202.

والتي لا تروي الأرض، بل توقظ خِصْبَ الفضيلة في نفوس البشر. أيّ كلام لا يكون دونَ كمالٍ كهذا؟ أيّ كلام يقدر على أن يؤدّي مدحًا يليق بمَن ينبغي أن يُعظَّم؟ إنّ كلّ الفضائل البشريّة مجتمعةً في نَفْسٍ واحدة، وكلّ واحدة من هذه الفضائل على أعلى الدرجات، ليس فقط الفضائل البشرية، بل تلك التي للملائكة، وكل كلمة عظيمة لا تكفي لِمدْحِ هذه العظمة كما يليق! لكن، أهذا سبب لكي نصمت؟ كلاّ، هذا، على العكس، سببٌ، وسببٌ حاسم لكي نتكلّم، لأنه الموضوع الأعظم للمديح الذي يتحدّاه كمالُ الفضيلة، ويفوق كلَّ مديح، وكلَّ استفاضة خطابيّة؛ وهزيمتنا هنا هي أفضل من كلِّ الانتصارات المحتملة للكلمة. من أين نبدأ مدائحنا؟ من أين، إنْ لم يكن بِتَبْيَانِ ما أَسْلَفْنا، وعرفنا أنه يمتلك الفضائل التي نراها في كلّ الناس؟ فإنّه، مهما كانت العَظَمَة التي أبْدَاها الأنبياء، أو الآباء، أو الأبرار، أو الرسل، أو الشهداء، إجمعوا كلَّ هذه الفضائل، تجدون أنّ بولس قد أنتجَها كلَّها معًا في شخصه من جديد، وعلى درجةٍ عاليةٍ جدًّا من الكمال، إلى حدّ أنّه لا أحد، بما عنده من الأفضل، يستطيع أن ينافسه في ذلك.

١ – هابيل وبولس[٢]

أنظروا، لقد قدّم هابيل ذبيحة (تك ٤: ٤)، من هنا شهرةُ اسمه؛ ولكن إذا نَظرتم مَليًّا في ذبيحة بولس، لرأيتُم أنه يفوق الآخر كما تفوق السماءُ الأرض. وكون ذبيحة واحدة لم تَكْفِهِ، عن أيّة واحدة منها تريدون أن أكلّمكم؟ ففي كلّ يوم كان (بولس) يقدّم ذاته ذبيحةً (١كو ١٥: ٣١)، وكان يفعل ذلك بطريقة مضاعفة، فيموت كلّ يوم من أجل يسوع، ويجول في كلّ مكان لأجل ذلك (رج ٢ كو ٤: ١٠). كان يواجه دون كَلَلٍ المخاطر، ويضَحِّي بنفسه بطيبة خاطر، مميتًا في ذاته الطبيعة اللحميّة، ذبيحة حقيقيّة لله، أو بالأحرى ذبيحة مفضَّلَة على تلك القديمة؛ فإنّه لم يكن يذبح عجولاً ولا نعاجًا، بل كان يضحّي بذاته كلَّ يوم، وبطريقة مضاعفة. من هنا الثقة التي كانت تدفعه إلى أن يقول: لقد تلقَّيتُ النَضْحَ لكي أُضَحَّى[٣] (٢ تيم ٤: ٦). إنّ هذا النَضْحَ يعني أنه قد أفاضَ دَمَهُ هو بالذات.

إعلموا جيّدًا أنّه لم يَكْتَفِ بهذه الذبائح، بل إنّه، وبعدما تكرّس كلّيًّا لله، قرّب أيضًا تقدمةً من الشعوب، ومن الأقطار، ومن البحار؛ لقد حَلّقَ فوق بلدان الإغريق، فوق بلدان البرابرة، فوق كل المدى الذي تَلُفُّهُ الشمسُ، وكان يطير كَنَسْرٍ، كان يطير في كلّ مكان، ليس كمجرّد مسافر، بل كان يقتلع أشواك الخطايا، مُفيضًا كلمةَ التقوى، ومبدّدًا الضلال، وجالبًا الحقيقة. من البشر كان يصنع ملائكةً، أو بالأحرى من الأبالسة كان يصنع ملائكةً، هؤلاء كانوا بشرًا. أيضًا، قُبيل رحيله، وبعد عَرَقٍ كثير، وفوزٍ متكرِّر، ولكي يعزّي تلاميذه، كان يقول: "بل لو أنيّ أُراقُ على ذبيحة إيمانكم وخدمته، فَلأَفْرَحَنَّ وأبتهجنَّ معكم جميعًا. وأنتم أيضًا فافرحوا الفرح نفسه، وابتهجوا معي" (فل ٢: ١٧-١٨). أية ضحيّة تقدر إذًا أن توازي تلك التي ذَبَحَها بولس بسيف الروح، التي قدّمها على المذبح المُقَامِ في أعلى السماوات؟ لقد هلك هابيل بسبب فساد قايين وغَيظه القاتل (تك ٤: ٨)؛ من هنا مجدُ هابيل. أما أنا فَعَلَيَّ أن أبيّن لكم أنه، على قدر ما هناك من موتى، آلاف الموتى، على قدر ذلك أمضى هذا الرسول الطوباويّ من الأيام يبشّر بالرب. والآن، إذا كنتم تريدون أن تعتبروا موت بولس، ليس فقط الموت الروحانيّ، بل الحقيقيّ، فإنكم ستلاحظون أنّه، إذا كان هابيل قد قُتِل

(٢) عناوين المقاطع وأرقامها هي إضافة منا.

(٣) حرفيًّا: "أمّا أنا فذَبيحةٌ يُراقُ دَمُها وساعةُ رَحيلي اقترَبَت" (الترجمة المشتركة)، أو: "فهاءنذا أُراق، وقد حضر وقت انحلالي" (ترجمة الكسليك).

مديح يوحنّا الذهبيّ الفم للقديس بولس

تحقيق الأب أيوب شهوان
أستاذ مادة الكتاب المقدس في جامعة الروح القدس – الكسليك

تقديم

إذا ما استعرضنا مجملَ ما خلّفه لنا الذهبيّ الفم من مؤلّفات، تَبَيَّن لنا، وبشكل ملفت، أنّ للقديس بولس الرسول موقعًا هامًّا في فكره وحياته، في عظاته وتعاليمه؛ فهو لا يَمَلُّ من مدح بولس المرّة تلو الأخرى، ومن الاستزادة كلّما رأى ذلك مناسبًا، كما تشهد على ذلك آثاره المكتوبة التي تضجّ بالكلام العطر على رسول الأمم. ولدينا على ذلك برهانٌ من فمه بالذات، إذ يقول في مستهلّ عظته حول غُرَّة الشَّهْر عند الرومان ما يلي: "مؤخَّرًا، بينما كنتُ أمدحُ بولس الطوباوي، ارتعشتم فرحًا، وكأنكم رأيتموه هو بالذات حاضرًا أمامكم. أريد أن أعود اليوم أيضًا إلى الموضوع ذاته، الخ". من الواضح إذًا أنّ "رغبتَه في العودة تكرارًا إلى الموضوع ذاته" ترتبط بمسلسل من التعليم، وتشير بالتالي إلى ما خصّ به القديس بولس عندما وضع المدائح السبعة المرفوعة إلى هذا الأخير. ويبدو أكيدًا أنّ هذه المدائح قد أُلقِيَت في أنطاكيا، لأنّ الذهبيّ الفم يذكر، في المديح الرابع، اسمَ دَفْنِه (Daphné)، التي كانت ضاحية من ضواحي هذه المدينة؛ ويشهد، في بداية المديح السادس، أنه ألقاها متقاربةً الواحدة من الأخرى؛ مع هذا ليس من السهل تحديد تاريخ إلقائها بدِقَّة.

لن يكون هنا ممكنًا إدراج كلّ المدائح الموجَّهَة إلى القديس بولس، لذلك سنكتفي بالأولى منها، نظرًا لغنى مضمونها، وتنوّع لوحاتها، وبُعدها التعليميّ الواضح المعالم. لقد نقلنا نصّها عن الفرنسيّة، آملين أن يُتاح لنا أو لغيرنا نقْل كلّ مدائح الذهبيّ الفم للقديس بولس إلى العربية[١].

العظة الأولى

لقد جمع القديس بولس، وبدرجة عالية، كلّ ما هو حَسَن وعظيم، ليس فقط بين الناس، بل أيضًا بين الملائكة. فهو يمتلك كلَّ فضائل هابيل، ونوح، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وموسى، وداود، وإيليا، ويوحنا المعمدان، والملائكة. حقلٌ مزخرف جدًّا بالفضائل، بستانٌ روحيّ، بإمكاننا أن نقول ذلك من دون خشية، هكذا لمعت نفسُ بولس الطوباويّ؛ فإلى الكثير من أزاهير النعمة الإلهية، عرف أن يضمّ حكمةً إلهيّة من هذه النعمة التي من فوق. لقد كان هذا إناءًا مختارًا؛ اجتهد بشكل مجيد في أن يتطهّر، فَسَكَبَ له فيضُ الروح كلَّ عطاياه. ومن هذا الينبوع دَفَّقَ لنا أنهارًا عجيبة، ليس فقط أربعة أنهار، كما في الفردوس، بل تيارات عديدة من المياه الروحيّة التي تجري باستمرار،

---

(١) بعد أن أنجزنا هذه الترجمة لنشرها على صفحات **مجلة بيبليا**، علمنا أنّ الخوري بولس الفغالي قد أدرج الموضوع عينه، ولكن بطريقة مختلفة وبالإيجاز، في مؤلّفه الذي ظهر حديثًا: **بولس الرسول بعد ألفَي سنة**، سلسلة دراسات بيبلية ٣٦، لبنان ٢٠٠٨، ص ٤٠٢–٤٠٨، خاصة ٤٠٢–٤٠٥.

(١ ك ١/١٣-١٦)، ويصير هو بذاته قصر الملك (٢ ك ٧/١٠-١٥).

إن قمة هذا الاتحاد الصوفي مع الله هي الإفخارستيا: إنها سر قداسة (١ ك ٢/٢٤-٢٦).

ضد جميع هذه العظائم التي حضّرها الرب ويريد أن يعطيها للإنسان، يقوم عمل الشيطان الذي يدفع إلى قبول الخطأ مع كل نتائجه. في الواقع، جميع الخطايا متسلسلة مع بعضها: كل خطيئة تجرّ خطيئة أخرى. للابتعاد عن الخطايا، وخاصة الكبرى منها، من الضروري أن نتجنّب فرص الخطايا. ففي الكرازة الثانية، مثلاً، عندما يتناول قَسَم هيرودس، يتكلّم عن الشيطان.

ج- البعد الخلقي

يساعد اللّهُ النفسَ في هذا الصراع من خلال إعطائها الحشمة، وهي الخفر في النظر، الزهد، أي الاعتدال في السلوك الأخلاقي، وقد اعتبر الآباء أنه عطية العفة بذاتهان وضبط النفس، أي الاحترام والتبجيل (رج ٢ ك ٩/٣٩-٤٠). في موضوع آخر يحدثنا الذهبيّ الفم عن الطهارة، فيقول بأن هذه الأخيرة ليست نتيجة لأمور خارجية فقط، بل نابعة من داخل الإنسان. هو يتنجس عندما يعمل أعمالاً ميتة (رج ١ ك ١٠/٥-٧).

د - البعد الليتورجي

إنّ تعليم يوحنا الذهبي الفم وكرازاته مرجع أساسيّ في الكنيسة، وخاصة بالنسبة إلى مراحل الليتورجية العمادية. يقدّم لنا يوحنا مسيرة التنشئة المسيحية، مقسّمًا إياها إلى إحدى عشرة مرحلة: تسجيل الاسم، والتعليم اليوميّ، وطرد الشياطين، ونكران الشيطان، والانضمام إلى المسيح، والمسحة الأولى قبل العماد، والمسحة الثانية قبل العماد، وخلع الثياب، والمعمودية بالتغطيس، وقبلة السلام، وأخيرًا التناول. في هاتين الكرازتين نجد إشارة مباشرة إلى الشياطين (١ ك ٧؛ ٢ ك ٦-٧)، والعماد (١ ك ٨-١٥؛ ٢ ك ٤-٥)، وتناول الإفخارستيا (١ ك ١-٢؛ ٢ ك ١). عندما كان الموعوظ يطلب تسجيل اسمه لنيل العماد في الليلة الفصحية، كان يدخل في جماعة الذين سينوّرون (Illuminandi).

كان تسجيل الأسماء يتمّ في بدء الصوم، وكان يستمر ثلاثين يومًا قبل الفصح.

بالنسبة إلى فعل العماد بحدّ ذاته، كان الموعوظون يخلعون ثيابهم قبل دخولهم في الحوض المقدّس، وكان الكاهن يغطّس جسد المرشّح في الماء، واضعًا يده على رأسه وهو يقول: "يُعَمَّد فلان باسم الآب والابن والروح القدس". هذه هي طريقة العماد في أنطاكيا، علمًا أن المياه يجب أن تكون جارية (١ ك ٢/٣٢).

بعد خروج المعمَّد الجديد من الماء، كان يلبس ثوبًا أبيضًا يسمّيه يوحنا الرداء الملكي (١ ك ٢/٢٨).

يتكلّم الذهبي الفم أيضًا عن تاج لامع (١ ك ٢/٣٠)، وهو يرمز إلى الملوكيّة الروحيّة للمعمَّد، أو إن إكليلاً من قطن على رأس المسيحيّ الجديد، علامة لحالته الحرّة الجديدة.

كان المعمَّدون الجدد يتوجّهون بعد التغطيس إلى المذبح ليتناولوا الأفخارستيا المقدّسة، التي كانت تُعطى تحت الشكلَين أسوةً بجميع الكنائس في القرون الأولى.

الخاتمـــة

تقدّم هاتان الكرازتان لنا فكرة عن الأهمية الكبرى التي كانت تُمنح لتعليم الموعوظين للعماد. ولقد فقدنا فترة التحضير لهذا السرّ، نظرًا لمنح العماد للأطفال. إذا لم يقم بهذه التنشئة والدَا الطفل أو المسؤولون عنه، سيظلّ هذا السرّ ناقصًا لأنه، يتطلّب موقفًا إيمانيًا مسؤولاً من المسيحي.

لا يمكن هذه التنشئة أن تتمّ إلاّ عن طريق الكرازة المباشرة الصادرة من الشهادة الشخصيّة ومن الأمانة لتعليم الكنيسة الجامعة. قلب الانسان لا يتغيّر عبر الأجيال والأزمنة، لذلك يمكننا تطبيق كرازات يوحنا الذهبي الفمّ على مؤمنيّ اليوم، عالمين أنّ الحياة المسيحية مسيرة مستمرة نحو الاتحاد الكامل بالله الآب.

يوحنا الذهبي الفم
يواجه أونوميوس والأنوميّين

الخوري بولس الفغالي
باحث في الكتاب المقدّس

سنة ٣٨٦–٣٨٧، ألقى الذهبيّ الفمّ سلسلة عظات ردًّا على الأنوميّين، وشدَّد على أنَّ الله لا يُدرَك[١]. كان يوحنّا كاهنًا جديدًا، فاستفاد من خبرته حين كان شمّاسًا في كنيسة أنطاكية، فعرف حياتها الحميمة. أمّا مدينة أنطاكية فكانت في ذلك الوقت ملتقى الحضارات والتعاليم والآراء[٢]، من الوثنيَّة إلى اليهوديَّة، وإلى مختلف أشكال المسيحيَّة. وسنة ٣٩٧، ألقى سلسلة ثانية من العظات، بعدما صار أسقف القسطنطينيَّة، عاصمة الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الثانية، وبالتالي المدينة المسيحيَّة الثانية بعد رومة، عنوانها المساواة بين الآب والابن[٣]. فمن هم الأنوميّون؟ وماذا نعرف عن مؤسِّسهم أونوميوس ورفاقه؟ أمّا القسم الثاني والأهمّ فيتطرّق إلى يوحنّا الذهبيّ الفمّ في مواجهته لهذه البدعة.

١– الأنوميّون والهرطقة الأنوميَّة

الأنوميّون جماعة ارتبطت بالأريوسيّين، فأعلنت أنَّ ابن الله يختلف[٤] عن الآب. ظهروا في التاريخ حوالي سنة ٣٦٠ في خطِّ أئيتيوس وأونوميوس، فشكَّلوا الوجهة المتطرِّفة في "الحزب" الأريوسيّ[٥].

(١) Jean CHRYSOSTOME, *Sur l'incompréhensibilité de Dieu*, Cerf, Paris (SC 28 bis), 1970 (2ème éd.). Une première éd. paraissait en 1951; elle donnait le texte de la Patrologie Grecque (48, 701-748) qui reproduisait l'édition de Montfaucon (œuvres complètes, t. I, 2ème partie, Paris, 1718). La nouvelle éd. a profité de la source manuscrite très riche en grec. Mais aussi en syriaque (p. 76-79); Le Londoniensis, British Museum Add. 14567. Cf v-57 (Wright cod 597).

(٢) بولس الفغالي، **الخلاصة الكتابيَّة والآبائيَّة**، الرابطة الكتابيَّة، ٢٠٠٦، دراسات بيبليَّة، ٣٣، ص ٣٣٥–٣٤٦.

(٣) Jean CHRYSOSTOME, *Sur l'égalité du Père et du Fils*, Paris, Cerf (Sc 396), 1994. Un titre secondaire: Contre les Anoméens, Homélies VII-XII.

نقرأ هذه العظات مع التي سبقتها في **الآباء اليونان** ٤٨: ٧٠١–٨٠٢.

A. M. MALINGREY, «La tradition manuscrite des homélies de Jean Chrysostome De incomprehensibili», *Studia Patristica* X (Berlin, 1970) TU 107, p. 1970; Id, «Prolégomènes à une édition des homélies de Jean Chrysostome Contra Anomeos» dans *Studia Patristica* XXII, Louvain, 1989, p. 154-158.

(٤) ανομοιος و dissemblable.

(٥) G. BARDY, "Anoméens", in *Catholicisme*, I (Paris, 1948) col. 609.

نشير إلى أنَّهم وجدوا مؤرِّخًا مدافعًا في شخص Philostorge وُلد حوالي سنة ٣٧٠ في الكبادوك. توفّي بعد سنة ٤٢٥، لأنَّ ولنطينيان الثالث هو آخر من يُذكر في **التاريخ الكنسيّ**. هذا "التاريخ" هو، بحسب فوتيوس الذي قرأ الكتاب وأوجزه مرّتين، تقريظ (εγκωμιον) للهراطقة، واتّهام (φογος και κατηγορια) لأصحاب الإيمان القويم (PHOTIOS, *Bibl. Codex*, PG, 103, 72).

فإنَّ Philostorge هو أنوميّ حتّى العظام. أعلن أنَّ "أئيتيوس وأونوميو وحدهما أبرزا العقائد التي أخفيَتْ في تضاعيف الزمن". وأعلن أنَّه يكره تعليمًا يقول: إنَّ الابن شبيه بالآب بحسب الجوهر. مثل هذا القول يُعتبَر تجديفًا في نظره (G. FRITZ, "Philostorge" *DTC*, 12, col. 1495-1498).

نورد هنا وصف Philostorge لدفاع أونوميوس أمام الكهنة في القسطنطينيَّة نهاية سنة ٣٦٠ أو سنة ٣٦١: "بعض الكهنة في Cyzique اتَّهموا أونوميوس لدى أودوكسوس بأنَّه علَّم أنَّ الابن لاشبيه بالآب. انطلقوا من عبارة "شبيه" ولكن لا بحسب الجوهر، لكي يتَّهموه بأنَّه أكَّد لاشبهَ الآب بالنسبة إلى الابن. ثمَّ اتَّهموه بأنَّه بدَّل الطقوس القديمة، وأنَّه تلاسن مع الذين لا يقاسمون كفره. عند ذلك، حصلت بلبلة في كنيسة القسطنطينيَّة...، فقدَّم أونوميوس مرافعته أمام كهنة القسطنطينيَّة، وربح القضيَّة لدى الذين افتعلوا الضجَّة، فانتقلوا إلى الرأي المعاكس، بل صاروا شاهدين متحمِّسين لتقواه"، **التاريخ الكنسيّ** ٦: ١، **الآباء اليونان** ٦٥: ٥٣٢–٥٣٣.

خاتمة

ثمانٍ وثمانون عظة حول إنجيل القدّيس يوحنّا، نقلها إلى العربيَّة في القرن الحادي عشر الشمّاس عبدالله بن الفضل الأنطاكيّ، فجاءت كلُّ عظة في قسمين: القسم العقائديّ، والقسم الأخلاقيّ، هذا إذا استطعنا أن نقسم بين موضوعين لدى يوحنّا الذهبيّ الفم. فهذا القدّيس الذي اشتعل بغيرة النفوس، أراد قبل كلِّ شيء أن يحرِّك القلوب من أجل حياة مسيحيَّة وسط عالم صاخب، سواء في أنطاكية أو في القسطنطينيَّة. فإن هو قدَّم العقيدة، فلكي يقوِّي المؤمنين في تعلُّقهم بالمسيح. وإن دافع بشكل خاصّ عن مجمع نيقية في وجه الخصوم من آريوسيّين وأنوميّين، فلكي يبعد خطر الضلال عن سامعيه. فسواء كان المعلِّم أو المدافع، فهو قبل كلِّ شيء ذاك الذي يربّي شعبه. كما الأب والأمّ يربِّيان الأولاد، وهو يريد منهم قبل كلِّ شيء أن يتحلَّوا بالفضائل والصفات الحسنة لكي يكونوا شاهدين للمسيح وسط عالم ما زالت الوثنيَّة مسيطرة على أفكاره وعاداته. من أجل هذا كانت هذه العظات، التي ابتعدت عن الشرح الذي سينتشر بعد ذلك الوقت في الكنيسة. فالكتاب، كما قال بولس الرسول، "يفيد في التعليم والتفنيد والتقويم والتأديب في البرّ، ليكون رجلُ الله كاملاً، مستعدًّا لكلِّ عمل صالح" (٢تم ٣: ١٦-١٧). ذاك كان هدف يوحنا الذهبيّ الفم حين قدَّم عظاته حول إنجيل القدّيس يوحنّا.

الطريق عددٌ من الأفكار، فليعتزل في سرِّ قلبه، ولا يستمع إلى أعدائه الذين يريدون أن يدخلوا لكي يسرقوا. هكذا نتعزّى حين نراكم تعطون الحصاد الكثير والوافر. فإن سهرنا هكذا على نفوسنا، وإذا سمعنا بعناية كلام الله، نتخلَّص من كلِّ اهتمامات هذا الدهر، إن لم يكن في الحال فشيئًا وشيئًا. ولنتصرَّف إذًا بحيث لا يُقال فينا: "لهم سمّ كسمِّ الحيَّة، كأفعى صمّاء تسدُّ أذنها" (مز ٥٧: ٥).

في العظة الثالثة، بدأ الواعظ وطلب من السامعين أن يكرِّسوا للربِّ يومًا في الأسبوع. تقودون أولادكم إلى المسارح وحلبات السباق. أمّا أن تعطوا بعضًا من وقتكم، فتتذرَّعون بأنَّ عليكم أن تهتمُّوا بأولادكم. ولكن يهمُّكم المجد الباطل الذي يُعمي الفكر ويدعوه إلى الكذب ورفض الحقّ. فاليهود خافوا أن يُطرَدوا من المجمع، فخسروا خلاصهم حبًّا بالآخرين؛ فالذي يطلب هكذا مجد العالم، لا يقدر أن يقتني المجد الآتي من عند الله. لهذا وبَّخهم يسوع هكذا: "كيف يمكنكم أن تؤمنوا، حين تطلبون مجد الناس ولا تطلبون المجد الآتي من الله؟" (يو ٥: ٤٤).

في العظة الرابعة، شدَّد الواعظ على الغضب. هو تحرُّك عنيف، أكثر جماحًا من النار. فلنمسك هذه البهيمة ونكبحها. نمسكها بمخافة الدينونة المقبلة؛ وحين يغيظك صديق، أو يثيرك أحد أقاربك، فكِّر في كثرة الخطايا التي اقترفتها ضدَّ الله. وحين تغضب لا تفكِّر في الانتقام.

وتجاه الرذيلة، الفضيلة. هي بالنسبة إلى النفس كالصحَّة للجسد. ونحن نطلبها بحرِّيَّة، لأنَّ الله لا يكرهنا بل يريد أن يقنعنا. فيكفي أن نمشي معه. العشّار (متّى) صار رسولاً. والمضطهد والمجدِّف الكافر (بولس) صار معلِّم الكون. والمجوس كانوا معلِّمي اليهود. واللصُّ صار مواطن السماء. والزانية شعَّت بإيمانها الكبير. السامريَّة دعت مواطنيها إلى يسوع المسيح وكأنَّها أخذتهم في شبكة. والكنعانيَّة أخرجت الروح النجسة من ابنتها (العظة ١٢).

ففي حياة الفضيلة يضيء نوركم للناس. قال سفر الأمثال: "طريق الأبرار تشعُّ كالنور" (أم ٤: ١٨). تضيء الذين في الداخل، كما تصل إلى الخارج. فيبقى علينا أن نضع الزيت في مصابيحنا (العظة ١٣).

وشبَّه يوحنّا الذهبيّ الفم نفسه، بذلك المشاهد الذي شجَّع الأبطال لكي يجاهدوا ويركضوا فينالوا إكليل الظفر. فعمله هو عمل المربّي الذي يهتمُّ بالرعيَّة كما الوالدون بأولادهم. وإن توسَّل وحثَّ ووبَّخ ولام وامتدح، فيجب أن لا يستاء المؤمنون. ذاك ما نقرأ في نهاية العظة الرابعة عشرة:

"لا تستاؤوا أن نحثَّكم مرارًا لتعيشوا حياة بسيطة، فاضلة. فإرشاداتنا ليست اتِّهامًا بأنَّكم مهملون، بل تدلُّ فقط على الآمال الطيِّبة التي نضعها فيكم. وفي النهاية، ما نقوله وما سوف نقوله بعد، لا يتوجَّه إليكم وحدكم، بل إلينا أيضًا، فنحن أيضًا نحتاج الدروس عينها. فمع أنَّها في أفواهنا، فهذا لا يعني أنَّها لا تعنينا؛ فالكرازة تصلح الخاطئ، وتبعد عن الخطيئة الإنسان الخيِّر البعيد عنها، فنحن أيضًا لسنا بلا خطيئة. والدواء مشترك بيننا وبينكم، والعلاجات تُقَدَّم لنا جميعًا، أمّا الشفاء فيرتبط بإرادتنا. فالذي يستعمل الدواء كما ينبغي، يستعيد الصحَّة، والذي لا يضع الدواء على جرحه، يزداد السوء فيه ويمضي إلى الدمار. فلا نتذمَّر من المعالجة، بل نبتهج حين الكرازة توجعنا وتمرمرنا، لأنَّ الثمرة تكون ألذّ. لا ننسى شيئًا، لا نهمل شيئًا من أجل الوصول إلى الحياة الأبديَّة محرزين من الجراح والكلوم التي سبَّبتها للنفس أسنانُ الخطيئة. هكذا نكون جديرين بأن نمثل أمام ربِّنا يسوع المسيح، ولا نُسَلَّم في ذلك اليوم الرهيب إلى قوى العذاب والانتقام، بل إلى تلك التي تدخلنا في ميراث السماوات المعدِّ للذين يحبّون الله. أدعوه لكي يشركنا فيه جميعنا بنعمة ورحمة ربِّنا يسوع المسيح الذي له المجد والسلطان في جميع دهور الدهور. آمين (العظة ١٣).

هذه البدعة التي قدَّمت تعليمًا ضالاً، جذريًّا، متشبِّثًا، حملت اسمها من اليونانيَّة: "لاشبيه" (حاشية ٤). الابن لاشبيه بالآب. وهكذا رفضت الجوهر الواحد[٦] والجوهر المشابه[٧]. وفي النهاية، جعلت أداة النفي أمام "شبيه" ارتبط اسمهم بالأنوموس، كما بأونوميوس وأئيتيوس، فدُعوا الأونوميّين والأئيتيوسيّين. واتَّخذوا اسمين آخرين مع أصحاب الأريوسيَّة المشدَّدة، الذين اعتبروا أنَّ الابن أُخذ من العدم[٨]، من اللاشيء، وأنَّه من جوهر غير جوهر الآب[٩].

منذ البداية، لاتاريخ للأنوميّين سوى تاريخ رئيسهم: إئيتيوس وأونوميوس. فحين كان الانقسام، في عهد الإمبراطور كونستانس، بين خصوم إيمان نيقية، شكَّل هذان حزبًا ودافعا عن قضيَّة مشتركة مع سائر الأريوسيّين، فأعلنوا أنَّ الآب أسمى من الابن، أو رفضوا الجوهر الواحد (أوموأوسيُّوس) والجوهر المشابه (أومويّ أوسيُّوس)، كما كان في سينودس سيرميوم سنة ٣٥٧، أو سينودس أنطاكية سنة ٣٥٨، في أيّام الأسقف الأريوسيّ أودوكسوس. غير أنَّه في تلك السنة عينها، أي سنة ٣٥٨، هاجم الأريوسيّون الوسط الأنوميّين في اجتماع أنقيره ثمّ سيرميوم، وحُرِم "أونوميو". وأُرسل إلى المنفى[١٠] أونوميوس وأئيتيوس[١١] وأهلُ حزبهما[١٢]. ولكنَّ المنفى لم يدم طويلاً. فعرض أقاق، أسقف قيصريَّة، عبارة أريوسيَّة مخفَّضة تأخذ بلفظ "أومويوس" (شبيه) في شكل غامض، وترذل "أنومويوس" (لاشبيه). كتب أئيتيوس وأودوكسوس إلى العديدين لمساندة تعليم "الجوهر الآخر" المغاير لجوهر الآب. نجحت جماعة أقاق في القصر الإمبراطوريّ، فأُرسل أئيتيوس إلى المنفى. أمّا أونوميوس فسانده أودوكسوس المنتقل من كرسيّ أنطاكية إلى كرسيّ القسطنطينيَّة، فصار أسقف ميسية[١٣] (تركيّا الحاليَّة).

ولكن برزت صعوبات بين أونوميوس وأودوكسوس، فتكوَّن حزبان. الأنوميّون ارتبطوا بأونوميوس

(٦) ομοουσιος (ομο ουσια)

(٧) ομοιουσιος (ομοιος / ουσια)

(٨) "من لاكائن"، εξ ουκ οντων

(٩) ετερο ουσιος (ετερος ουσια)

الاسم الأوَّل Exonucontiens

الاسم الثاني Héteroousiens

(١٠) لم يكن منفى أونوميو بالسهل. أُرسل أوَّلاً إلى Halmiris. ولكن جاء القوطيّون واحتلُّوا المدينة، فنُقل إلى قيصريَّة الكبادوك، موطن باسيل، فرفض السكّان استقبال من عامل أسقفهم بقساوة. أخيرًا، أعيد إلى مزرعته في Dakora، في سفح جبل Argée في الكبادوك؛ Voir *Philostorge*, HE, X, 6, éd. Bidez, p. 128, SC 396, p. 15; M. SPANNEUT, «Eunomius de Cyziques», in *Dict. D'Hist. et de Géo. Eccl.*, t. 15, col. 1399-1405.

(١١) نشير إلى أنَّ Aétius (Aèce) هو معلِّم أونوميو. لُقِّب "باللاديني" (ο επικλθεις αθεος). S. Athanase, *De Synod.* II, 6, PG 26, 689; Socrate, *Hist. Eccl.*, II, 35, PG 67, 297. ولد في البقاع اللبنانيّ Coelésyrie. النقطة الأساسيَّة في هرطقته، كما قال إبيفان أسقف سلامين في كتاب **الهرطقات** ٧٦: ٢. **الآباء اليونان** ٤٢: ٥١٧: "تجرَّأ أئيتيوس فقال: إنَّ الابن لا يشبه الآب (ανομοιον)، ولا يماثل (τη θεοτητι) الآب على مستوى اللاهوت. ونتج بالضرورة عن هذا الطرح طرحان آخران: الابن هو من جوهر آخر (ετερας ονσια). لهذا دعي حزبه héterousiens. وبما أنَّ الابن مخلوق (κτιστος)، جاء الابن من لا شيء (εξ ουκ οντων)، لهذا دعيت جماعته ex-ouc-ontiens.
V. ARMONI, "Aétius", *DHGE*, t. 1, col. 667-668

(١٢) إليك كيف جاء قرار المنفى: "الأوغسطيّان (أركاديوس وهونوريوس) إلى أوطيخايانس، المدير في الحاكميَّة (prétoire). ليُطرَد إكليروس البدعة الأنوميَّة والمونتانيَّة من الحياة المشتركة، ومن الدخول إلى جميع الحواضر وإلى جميع المدن. فإن أقام بعضهم في ضيعة من الضياع وثبت عليهم أنَّهم جمعوا الشعب أو نظَّموا اجتماعًا، فليُنفوا على الدوام. وصاحب الضيعة يُعاقَب أقسى معاقبة كما المسؤول الخاصّ على الضيعة، حيث يتبيَّن أن عُقدت هذه الاجتماعات القاتلة والمحرَّمة، شرط أنَّهما عرفا وما أخبرا". وجاء التوقيع مع التاريخ، ٤ آذار ٣٩٨. SC 396, p. 16-17

(١٣) Cyzique en Mysie

ودُعوا أونوميّين، وأصحاب أودوكسوس صاروا أريوسيّين[١٤]. عندئذٍ، قام أونوميوس برسامات في حزبه، بحيث يكون له أسقف في القسطنطينيّة، وتوسَّعت هذه البدعة في أيّام يوليان الجاحد الذي ساندها نكاية بأصحاب الإيمان القويم. وفي سينودس انعقد في أنطاكية، سنة ٣٧٢، في أيّام أوزويوس، طلب بعض الأساقفة إعادة اعتبار أئيتيوس وأعلنوا التعليم الأنوميّ بوضوح: الابن لا يشبه الآب أبدًا[١٥]، على مستوى المشيئة، كما على مستوى الجوهر[١٦]. انقسامات عديدة من الداخل، بعثرت هذه البدعة، ولا مجال لذكرها[١٧].

ب- التعليم الأنوميّ

التعليم الأنوميّ[١٨] حول الثالوث، هو إجمالاً، تعليم الأريوسيَّة في بدايتها. يكفي أن نقابل اعتراف أريوس الإيمانيّ الذي رفعه إلى الإسكندر، أسقف الإسكندريَّة أوَّلاً، ثمَّ إلى أثناسيوس[١٩] مع فعل إيمان أونوميوس[٢٠] أو بالأحرى مع مُلخَّص لتعليمه نقرأه في نهاية دفاعه الأوَّل[٢١]. والكلام يقع في ثلاث مقولات:

إله واحد لامولود (αγεννητος). فاللامولود هو جوهر الله؛ ذاك هو الطرح الأوَّل. قال أونوميو: "نعترف بإله واحد حسب مفهوم الطبيعة φυσικη εννοια، وتعليم الآباء". ذاك هو تعليم الرواقيّين: ما صار الله من ذاته (παρ’ εαυτου) ولا من غيره (παρ’ ετερου). والطرح الثاني: اللامولود لا يمكن أن يلد. لا يقدر أن يقاسم طبيعته مع الذي يلد، ولا أن يشبَّه به. وأنهى أونوميوس كلامه: واحد هو إله الكون، لامولود ولا مقابل له (ασυγκριτος)[٢٢].

والابن. هو وحيد أيضًا (μονογενης). دُعيَ فرع (γεννημα) وخليقة مصنوعة (ποιημα). وهكذا بان الفرق في الجوهر بين الآب والابن. فالابن لم يُولَد ساعة كان موجودًا. وبما أنَّ الآب لم يُولَد، لا نستطيع القول إنَّ هناك لامولودَين. ثمَّ، لا يمكن أن يضاف شيء على الله. هذا لا ينفي أن يكون الابن فوق الخلائق. "وحده وُلد وخُلق بقدرة اللامولود، فصار أكمل خادم لإتمام كلِّ عمل وكلِّ قرار من لدن الآب" (**الكتّاب الشرقيّون** ٣٠٥، ص ٢٦٥).

أمّا الروح القدس، فهو الثالث في الترتيب وفي الطبيعة. وهو أوَّل خليقة خلقها الابن. هو لا يشارك في الألوهة ولا في القدرة على الخلق، دوره دور التقديس ودور التعليم (ص ١٨٦-١٨٧).

نلاحظ في عرض أونوميوس المنطق اليونانيّ الذي يفرض نفسه على العقيدة[٢٣]. وبعد ذلك، يستند إلى الكتاب المقدَّس. نورد هنا مقطعًا من الدفاع (٣٠٥، ص ٢٧٧-٢٧٨):

"وفي أيِّ حال، ولئلاّ أعطي فكرة بأنَّنا نعنِّف الحقيقة، باستنباطاتنا واستدلالاتنا، بحسب افتراء رُفع إلينا وانتشر، نقدِّم برهانًا من الكتب المقدَّسة

(١٤) THEODORET, *Histoire des hérésies*, IV, 3, PG 83, 421.

(١٥) κατα παντα ανομοιος

(١٦) SOCRATE, *Histoire Ecclésiastique*, II, 45, PG 67, 360.

(١٧) SOZOMENE, *Histoire Ecclésiastique*, VII, 17, PG 67, 1464.
NICEPHORE CALLISTE, *Histoire Ecclésiastique*, XII, 30; PG 146, 842.

(١٨) X. LE BACHELET, “Anoméens”, *Dict. de Th. Cat.*, t. 1, col. 1322-1326.

(١٩) *De synodis*, par. 15, PG, t. 26, col. 706-708.

(٢٠) εκθεσις πιστεως, PG, 30, 868.

(٢١) *Apologie*, PG, 30, 868.

(٢٢) *Apologie* 11, SC 305, p. 257.

(٢٣) J. DANIELOU, “Eunome l’Arien et l’exégèse platonicienne du Cratyle”, *Revue des Études Grecques*, 69 (1956) 412-432.

(٢٤) في ف ١-٢٠ من **الدفاع**، لا نجد سوى بضعة إيرادات كتابيَّة، هي خر ٣: ١٤ (١٧: ٢)؛ مز ٥٥: ٢٠ (١٠: ١١)؛ يو ١: ٣ (١٥: ١٥)؛ ٥: ١٩ (٢٠: ٢٦)؛ ١٤: ٢٤، ٢٨ (١١: ١٢)؛ ١٧: ٣ (١٧: ٢)؛ روم ٨: ١٨ (٣: ٧)؛ ١كور ٨: ٦ (٥: ١، ٣)؛ ١٢: ٧ (٥: ٥)؛ ٢تم ٢: ٢٥ (١٩: ١٠). مع ف ٢١ تكثر ولاسيَّما في ف ٢٦.

بشريَّتنا، لا ليتركها في ما بعد، بل ليسكن فيها على الدوام. فلو لم يُرِدْ أن يحتفظ بها على الدوام، لما كان كرَّمها وجعلها على العرش الملكيّ، وإذ حملها معه جعلها موضوع سجود لكلّ الجيش السماويّ: الملائكة، رؤساء الملائكة، العروش، السلطات، الرئاسات، القوّات. أيُّ عقل، أيُّ لسان يستطيع أن يتمثّل الكرامة العظيمة التي منحها الله لطبيعتنا، هذه الكرامة التي هي في الوقت عينه مهيبة وفائقة الطبيعة؟ أيُّ ملاك؟ أيُّ رئيس ملائكة؟ لا، لا أحد في السماء ولا على الأرض يقدر على ذلك...

"لهذا ننهي عظتنا هنا: في الصمت. وذلك بعد أن ندعوكم إلى رفع آيات الشكر إلى هذا الإله الكثير الإحسان".

٣- الذهبيّ الفم، المربّي

لاحظنا حتّى الآن أنَّ الذهبيّ الفم لا يشرح إنجيل يوحنّا كما نشرحه في أيّامنا. ننطلق من النصّ، نقرأه قراءة حرفيَّة. نحاول أن نكتشف المعنى الروحيّ. كلاّ، بل النصُّ الكتابيّ هو مناسبة لعرض العقيدة، وسند لما يريد أن يقول الكاهن لرعيَّته والأسقف لأبرشيَّته.

إلى الآن رأينا كيف أنَّ هذا الواعظ عرض الحقيقة، وردَّ في الوقت عينه على الخصوم. ذاك هو القسم الأوَّل من العظة. والقسم الثاني، يتوقَّف عند الحياة المسيحيَّة العمليَّة. هذا ما قاله في نهاية العظة الحادية عشرة: "إذًا، لنمجِّد حنان الله من أجل هذه الإحسانات العديدة، لا بكلامنا فقط، بل أكثر بكثير، بأعمالنا، لكي نقتني الخيرات المقبلة التي أتمنّاها لي ولكم بنعمة ورحمة ربِّنا يسوع المسيح الذي به ومعه يكون المجد للآب والروح القدس، الآن وفي دهر الدهور. آمين".

وهكذا تمرُّ الفضائل المسيحيَّة والرذائل التي يجب أن نتجنَّبها، كما "نسمع" مع السامعين في أنطاكية، في نهاية القرن الرابع، كلامًا يحثُّنا على العيش المسيحيّ. ففي العظة الأولى، يقابل الواعظ بين الذهاب إلى المسرح والمجيء إلى الكنيسة. وينهي كلامه: "أنتم الذين تنشَّأتم في أسرارنا المقدَّسة، تعرفون بأيِّ شروط قبلناكم، وما وعدتمونا به، أو بالأحرى ما وعدتم به يسوع المسيح، لأنَّه هو الذي نشّأكم: تعرفون ما قلتُم له، أيَّ كلام أعطيتم له حول أبَّهات الشيطان، كيف كفرتم بالشيطان وبملائكته، وكيف وعدتم بعدم العودة إليها. فمن حنث بوعوده عليه أن يخاف أن لا يكون جديرًا بهذه الأسرار".

في العظة الثانية، طلب الواعظ من السامعين أن يتحرَّروا من الأمور الكثيرة، لكي يكون لهم الانتباه الكامل بحيث يقرأون إنجيل يوحنّا ويستفيدون: "فاحتفظوا، أيُّها الإخوة الأعزّاء، بأن تفكِّروا في الكنيسة بأشغالكم المبينيَّة، بل بالأحرى حين تعودون إلى بيوتكم تحدَّثوا بما تعلَّمتم هنا. فينبغي أن تكون لكم هذه الأشياء أثمن من أيِّ شيء آخر، هذه تصيب النفس، وتلك تصيب الجسد، بل ما نعلِّمكم يفيد الجسد والنفس...".

ويواصل الواعظ كلامه: "إذًا نعتني فنكون متنبِّهين لقراءة الكتاب المقدَّس وشرحه، بحيث لا نتعب في ما بعد في فهمه، إذا كنّا قد فهمنا المبادئ والأسس. وإن تعبنا بعض التعب في البداية، نكون بعد ذلك في حال قادرة على تعليم الآخرين، كما يحثُّنا القدّيس بولس؛ فإنجيل الرسول القدّيس يوحنّا، رفيع جدًّا وسامٍ، والعقائد فيه كثيرة. فلا نسمعه بتهامل. أتوسَّل إليكم، يا إخوتي الأحبّاء، وأنا أشرحه لكم شيئًا فشيئًا، لكي يسهل عليكم أن تفهموا كلَّ شيء وأن لا تنسوا شيئًا. وينبغي أن نخاف أن لا يُلفَظ علينا القولُ الذي تفوَّه به يسوع المسيح حين قال: "لو لم أكن أتيتُ وكلَّمتهم، لما كانت عليهم خطيئة" (يو ٥: ٢٢). أيُّ امتياز يكون لنا على الذين لم يسمعوا شيئًا، إن خرجنا من العظة و لم نحمل معنا شيئًا، فاكتفينا بالإعجاب بالكلام؟ فتصرَّفوا بحيث نرمي الزرع في الأرض الجيِّدة. تصرَّفوا هكذا إذا كنتم تريدون أن تشجِّعونا وتشجِّعونا. وإن كان لأحد شوك، فليحرقه بنار الروح القدس. وإن كان له قلب قاسٍ، عنيد، فليليِّنه بنار الروح القدس. وإن هاجمه في

البشريَّة إلى هذه الحالة من التعاسة، تأنَّس الابن ليرفعها. في التجسُّد أخذ الابنُ بشريَّتنا لئلاّ يتركها بعد، وها هي جالسة على العرش الملكيّ ويعبدها الجيش السماويّ كلُّه.

"ولكن، لماذا استعمل القدّيس يوحنّا هذا الفعل: "صار"؟ لكي يُغلق فم الهراطقة، لأنَّ هناك من يعتقد أنَّ المسيح لم يصر إنسانًا حقًّا، وأنَّ كلَّ ما يتعلَّق بالتجسُّد هو ظاهر، مجاز، وهم. فاستعمل الإنجيليّ القدّيس هذا اللفظ "صار" لكي يستبق هذا التجديف: هو ما أراد أن يتكلَّم هنا عن تبدُّل في الجوهر (حفظنا الله من هذا الفكر)، بل أن يبيِّن أنَّه اتَّخذ البشريَّة حقًّا وحقيقة. فحين قال القدّيس بولس: "إنَّ يسوع المسيح افتدانا من لعنة الشريعة حين صار هو نفسه لعنة لأجلنا" (غل ٣: ١٣)، ما أراد أن يقول إنَّ جوهره انفصل وانحرم من المجد وإنَّه سقط في اللعنة. فلا الشياطين أنفسهم، ولا أكثر الناس جنونًا وغرابة يستطيعون أن يكونوا بهذا الإحساس الغريب والكافر في الوقت عينه".

نلاحظ النعوت في إطار الكلام الذي اعتاد يوحنّا الذهبيّ الفم وعصره، على الخصوم: غرابة، جنون، جهل... بعد ذلك يشرح النصَّ الكتابيّ كما يجب أن يُشرَح.

"هذا ما لم يعنِه الرسول القدّيس، بل إنَّ يسوع اتَّخذ على عاتقه اللعنة التي استوجبناها. فما سمح أن نكونُ بعدُ خاضعين لها فحرَّرنا منها. وكذلك في هذا الموضع، قال القدّيس يوحنّا: "الكلمة صار بشرًا". هو ما بدَّل جوهره إلى بشر، بل لبث ما كانه من قبل بعد أن أخذ البشريّ. فإن قال هؤلاء الهراطقة إنَّ الله قادر على كلِّ شيء فتحوَّل إلى البشريّ، نجيبهم إنَّه يقدر على كلِّ شيء ما دام الله. لكن إن استطاع أن يتقبَّل تبدُّلاً وتبدُّلاً إلى البشر، فكيف يكون الله؟ كلُّ تبدُّل، كلُّ تحوُّل، بعيد كلّ البعد عن هذه الطبيعة التي لا يصل إليها الفساد. لهذا قال النبيّ: "فهي تبيد وأنتَ تبقى، وكلُّها كالثوب تبلى، وكاللباس تغيِّرها فتتغيَّر، أما أنت فلا تتغيَّر وسنوُّك يا ربّ لن تفنى" (مز ١٠٢: ٢٧-٢٨).

طريقتان في إفحام الخصم: طريقة المنطق السليم، حيث الإنسان يفكِّر فيعود إلى جادَّة الصواب، وطريقة الاستناد إلى نصِّ الكتاب المقدَّس. نحن لا ننسى أنَّنا في إطار المدرسة الأنطاكيَّة، حيث التشديد على "الحرف"، على لفظ من الألفاظ يكون برهانًا من أجل العقيدة. هنا لاحظنا الفعل "صار". فيحثُّ يوحنّا الذهبي الفم عن عبارات يرد فيها هذا الفعل، لكي يبيِّن أنَّ الخصم أخطأ التفسير. وقبل ذلك أشرنا إلى لفظ "الله" ("تِيُوسْ") الذي ورد بدون أل التعريف، فما استطاع بعدُ أن يدلَّ على الله الآب، بل على اللاهوت، والمثل المعروف جدًّا هو مع "حتّى" في إطار الكلام عن بتوليَّة مريم، في المقطع حول ميلاد يسوع (مت ١: ١٨-٢٥). قال النصُّ الكتابيّ: "ولكنَّه ما عرفها حتّى ولدَت ابنَها فسمّاه يسوع" (آ٢٥). حينئذٍ قال اليهود ومن سار في خطِّهم على مرِّ العصور: "إذًا، بعد أن ولدت مريم يسوع، عرفها يوسف، بمعنى أنَّه كانت مساكنة زوجيّة! معاذ الله!" أورد الذهبيّ الفم عددًا كبيرًا من الآيات حيث ترد الأداة "حتّى" εως على مثال ما في المزمور ١١٠: "قال الربُّ لربّي: إجلس عن يميني حتّى أجعل أعداءك موطئًا لقدميك" (آ١-٢). ويشرح الذهبيّ الفم: هل توقَّف هذا بعد أن صار الأعداء موطئًا لقدمي هذا الملك؟ ويطبِّق الكلام على مريم العذراء.

فاللفظ "صار" هو هنا لكي يمنع الظنَّ بأن تجسُّد الكلمة وهمٌ وسراب. لهذا قال الإنجيليّ: "وسكن بيننا". ولكن كيف حصل ذلك؟ أجاب الواعظ: لا تسألوني. الله وحده يعرف. هنا يدخلنا الواعظ في إطار اللاهوت الخفائيّ، الذي يقول الشيء لكي يتراجع عنه لأنَّه يسمو على الإدراك البشريّ. ونحن لا ننسى أحد كتب يوحنّا الذهبيّ الفم: الله لا يمكن إدراكه. فلا يبقى لنا سوى الدخول في السرّ.

"تأمَّلوا هذا السرّ، أيُّها الإخوة الأحبّاء، هذا السرّ الرهيب الذي لا يمكن ولوجه؛ فالكلمة لبث دومًا في هذا البيت (في البشريّ). فقد ارتدى

عينها[٢٤]. هو إله واحد تعلنه الشريعة والأنبياء. هذا الإله، يعترف به المخلِّص على أنَّه الإله الوحيد (μονογενης). قال: "أمضي إلى إلهي وإلهكم" (يو ٢٠: ١٧). هناك إله واحد (μονος) حقيقيّ (αληθινος؛ يو ١٧: ٣). واحد حكيم (σοφος؛ روم ١٧: ١٦)، واحد صالح (αγαθος؛ مت ١٩: ١٧)، واحد قدير (δυνατος؛ ١تم ٦: ١٥)، واحد مالك الخلود وعدم الموت (αθανασιαν؛ ١تم ٦: ١٦). ولكن لا يتبلبل أحد أو يقلق فكره. فنحن لا نستعمل ما قيل لكي ننكر ألوهيَّة الوحيد (του μονογενους θεοτητος)، أو حكمته، أو خلوده، أو صلاحه، بل لنشدِّد على سموِّ الآب، لأنَّنا نعترف بإله وحيد، ربّنا يسوع المسيح، اللافاسد واللامائت، والحكيم والصالح. ولكنَّنا نقول عن تكوينه (συστασεως)، وعن كلِّ ما هو أنَّ الآب هو علَّة (وجوده)، وهو اللامولود، ولا علَّة لجوهره (ουσιας) ولا لصلاحه. ذاك هو المدلول الذي تقدِّمه المعطيات التي عُرضت سابقًا[٢٥].

ج- الردّ على الأنوميّين

أوّلاً: الأنوميَّة والأريوسيَّة

قبل كلام عن الذهبيّ الفم، نتذكَّر أنَّ الأنوميَّة جاءت في خطِّ الأريوسيَّة، كما أوجزها أريوس في هذا المقطع من "تاليا"[٢٦] أو "الوليمة": "ندعو الله αγεννητος (لامولود)، تجاه ذاك الذي هو في الطبيعة (γεννητος، مولود). ندعوه (αναρχος، لازمنيّ) تجاه الذي هو في الطبيعة، في الزمن". هاتان الصفتان هما ما ينطبق على الله لوصف طبيعته، ولا ينطبقان إلاّ على الله، وعلى الله وحده، وبالتالي لا يمكن أن ينطبق على المسيح. هنا نفهم الصراعات التي دارت حول هاتين الصفتين في مجمع نيقية سنة ٣٢٥[٢٧]. فإذا كانت اللفظتان αγεννητος وαναρχος لا تصفان المسيح، فالابن لا يشبه الآب. فدُعيَ الذين يقولون هذا القول: "اللاشبيهيّون" أو ανομοιοι.

شدَّد الأنوميّون على αγεννητος، على أنَّه الاسم الخاصّ بالله، الذي يعبِّر وحده عن جوهره: "إذا تبيَّن أنَّه لم يُوجَد قبل ذاته، وأنَّ لا شيء آخر وُجد قبله، بل أنَّه هو ذاته قبل كلِّ شيء، فهذا يعني أنَّ اللامولود مترابط به، أو بالأحرى أنَّه هو ذاته جوهره اللامولود"[٢٨].

من هذه الصفة (اللامولود) استخرج أونوميوس نتيجتين: الأولى، لا يعود استنباط الأسماء إلى البشر، بل إلى الله وحده الذي احتفظ لنفسه بوضع اسم للأشياء قبل وجودها[٢٩]. وبما أنَّ الله دعا نفسه αγεννητος، فقد أعلن الإنسان الإمكانيَّة بأن يعرف جوهره. يكفي أن نعرف معنى "لامولود" لكي نفهم كلَّ شيء عن الله (**الينابيع** ٣٠٥، ص ٢٥٩). والنتيجة الثانية: الله لا مولود، إذًا هو بسيط ولا ينقسم: هو لا يلد. كما لا يمكن أن يشارك المولود في طبيعته الخاصَّة (**الينابيع** ٣٠٥، ص ٢٥١). وهكذا نكون أمام تأكيدين: معرفة جوهر الله معرفة تامَّة، وإنكار المساواة بين الآب والابن (**الينابيع** ٣٩٦، ص ٨-١٠).

---

(٢٥) كلّ تشبيه بين الآب والابن هو بحسب النشاط (SC 305, p. 279)، مع العلم أنَّ نشاط اللامولود يختلف عن جوهره (ص ٢٨٣). "كلُّ ما يمكن قوله هو أنَّ الابن صورة الآب، بحسب كو ١: ١٥-١٦.

(٢٦) *Thalie ou le Banquet*, Des fragments ont été conservés par ATHANASE, *Oratio I contra Arianos*, 1, 5-6, PG. 26, 20-24; Ch. KANNENGIESSER, “Où et quand Arius composa-t-il la Thalie?”, *Kyriakon, Festschrift Quasten* I, Münster, 1970, p. 346-347. نشير إلى أنَّ "تاليا" هي مجموعة من القطع فيها النثر والشعر، ألَّفها أريوس لكي يجعل فكره قريبًا من الأشخاص الأمِّيّين أو القليلي الثقافة، والذين لا يستطيعون الولوج في لطائف المقالات اللاهوتيَّة (Philostorge, HE, II, 2, PG. 65, 465).

(٢٧) E. BOULARAND, *L’hérésie d’Arius et la foi de Nicée*, 2 vol. Paris, 1972; M. SIMONETTI, *La crisi ariana nel IV secolo* (Studia Ephemeridis “Augustiniarum” 11) Roma, 1975.

(٢٨) أثناسيوس، **الخطبة الأولى ضدّ الأريوسيّين** (حاشية ٢٦)، الآباء اليونان ٢٦: ٢٤.
αι ουσιαι του πατρος και του νιου... ανομοιοι
تختلف الأقانيم الثلاثة الواحد عن الآخر على مستوى الجوهر (ονσια) وعلى مستوى المجد (δοξα).

(٢٩) Daniélou, *op. cit.* (n 23), p. 416, 421.

ثانيًا: غريغوار وباسيل

اتّهم أونوميوس، فكتب دفاعًا (أبولوجيّا) أوّل احتفظ لنا التاريخ به: بدأ فربح ودّ السامعين، وقدّم نفسه على أنّهم يتّهمونه ويفترون عليه(٣٠)، هو الضعيف الذي يُظلَم ويُطلَب منه أن يدافع عن نفسه. فردّ باسيل بأنّ أونوميو دُعيَ إلى مجمعين، واحد في سلوقية سنة ٣٥٩. تهرّب مع "محازبيه" فحُكم عليهم غيابيًّا، والثاني إلى القسطنطينيّة سنة ٣٦٠، حين كان الحزب الأريوسيّ قويًّا، وصار أونوميوس أسقفًا. إذًا، هذا الدفاع الذي يقدّمه أونوميوس هو مهزلة وحيلة. وهكذا تحدّى باسيل أونوميوس بأن يقدّم جوابًا(٣١).

جاء كلام باسيل في ثلاثة كتب أو مقالات، λογοι. الأوّل مع عنوان: "من أبينا القدّيس باسيل رئيس أساقفة قيصريّة في الكبادوك، ردّ على دفاع أونوميوس الكافر(٣٢). ردّ على طروح أونوميوس حول اللامولود. والثاني ردّ على هرطقة أونوميوس في ما يتعلّق بالابن. قال باسيل: "في براهينه حول إله الكون، أعدّ أونوميوس قدر المستطاع، تجاديفه βλασφημιας على ابن الله. منذ الآن، يفلت لسانه على الإله الوحيد μονογενει θεω(٣٣). والكتاب الثالث يعالج مسألة الروح القدس: "ما إن شبع (أونوميوس) من تجاديفه على الابن الوحيد (مونوجين) حتّى عاد إلى الروح القدس ليقول فيه أقوالاً توافق نواياه" (**الينابيع** ٣٠٥، ص ١٤٤–١٤٥).

في سنة ٣٦٤–٣٧٨، أي في عهد وَالِنس، عاش الأنوميّون حقبة صعبة. مات أئيتيوس سنة ٣٦٥–٣٦٦. وأرسل أونوميوس مرّة أخرى إلى المنفى. وفي نهاية سنة ٣٨٧، نشر "دفاع الدفاع"(٣٤) ردًّا على ردّ باسيل. ضاع الكتاب. ولكن وُجدت مقاطع عديدة عند غريغوار النيصيّ في كتابه: ضدّ أونوميوس(٣٥). فالقدّيس غريغوار كتب مقالات أربعة ضدّ أونوميوس. الأوّل، ردّ على دفاع الدفاع (جاء بعد ١٤ سنة على كتاب باسيل). والثاني جاء مثل الأوّل. في الثالث ردّ غريغوار على هجوم آخر على باسيل. والرابع جاء نقدًا قاسيًا على اعتراف إيمانيّ أعلنه أونوميوس أمام تيودوز(٣٦).

وبعد غريغوار النيصيّ، انبرى غريغوار النزينزيّ، الذي صار أسقف القسطنطينيّة، للردّ على أونوميوس. ألقى خمس عظات(٣٧)، جمعها البندكتان

---

(٣٠) حين دافع أونوميوس عن نفسه أمام الشعب، صفّقوا له "لأنّه أورد، في الوقت المناسب، النصّ الكتابيّ: "ها هو دفاعي أمام خصومي" (١كور ٩: ٣).

(٣١) BASILE de CÉSARÉE, *Contre Eunome* I (SC 299) Paris, Cerf, 1982, p. 163.

(٣٢) المرجع السابق ص ١٤١: δυσσεβους هو لا يعرف التقوى

(٣٣) BASILE de CESAREE, *Contre Eunome* II (SC 305) Paris, Cerf, 1983, p. 10-11.
ردًّا على أنّ الابن هو "نسل وخليقة"؛ فأونوميوس يحوّل كلمات الكتاب المقدّس (أع ٢: ٣٦). اختبأ أونوميوس وراء المبدأ اللغويّ، فلاحقه باسيل إلى هناك.

(٣٤) مرافعة تردّ (υπερ της απολογιας πολογια) على مرافعة. كتاب جاء في ثلاث مقالات (λογοι).

(٣٥) EUNOMIUS, *The Extant Works, Text and Translation*, éd. R. P. Vaggione, Oxford, 1987, *Liber Apologeticum*, 7, p. 79; κατα ευνομιου: Plusieurs traits en 380-381. *Contra Eunomium*, ed. Jaeger; *Refutatio confessionis Eunomiani*, Leyde, ²1960
هنا نتذكّر أنّ غريغوار النيصيّ هو شقيق باسيل، وقد واصل عمله في أكثر من مجال، ولا سيّما في مؤلّفه **الأيّام الستّة** *Héxaméron*

(٣٦) J. QUASTEN, *Initiation aux Pères de l'Église*, t. III (Paris, 1962) p. 368-369.

(٣٧) GRÉGOIRE de NAZIANZE, *Discours* 27-31 (SC 250), Cerf, Paris 1978. L'édition des Bénédictins de Saint-Maur est reproduite dans PG. 36.
وكان كتّاب آخرون ردّوا على أونوميوس (M. SPANNEUT, "Eunomius de Cyzique", *DHGE* (Paris, 1963) col. 404).
ديديم الأعمى، تيودور المصيصيّ، كيرلّس الإسكندرانيّ... L. DOUTREFEAU, "Le De Trinitate est-il l'œuvre de Didyme l'aveugle?", *RSR*, 45 (1957); B. PRUCHE, "Didyme l'aveugle est-il bien l'auteur des livres *Contra Eunomius*, IV et V attribués à Basile de Césarée?", *Studia Patristica*, X, Berlin, 1970. TU 107, p. 151-155.
نشير إلى أنّ جيروم قدّم لائحة بالذين عارضوا أونوميو (**الآباء اللاتين** ٢٣: ٣٤٧). ثمّ كانت لائحة ثانية، أوسع في FABRICIUS-HARLES, *Bibliotheca Graeca*,vol. IX, Hamburgi 1804, p. 208-209.

على تفاسيرهم المدجَّلة، مستندًا إلى أقوال حول الضعف البشريّ عند يسوع، حول خوفه وآلامه. وتوسَّع في تعاليم التنازل الإلهيّ.

في العظة السادسة، توسَّع الواعظ في يو ١: ٩: "أرسل رجلٌ من لدن الله. اسمه يوحنّا". هذا كان سفير الله لدى البشر. ولكن ما حيلتنا والضلال؟

"فكيف يستطيع الهراطقة أن يؤكّدوا أنَّ المقطع القائل: "كان في صورة الله" لا يبيِّن أنَّ الابن مساوٍ للآب، لا لفظ "الله" ("تيُو" في اليونانيَّة) لا يسبقه أل التعريف. ولكن ها هو موضع (يو ١: ٩) بدون أل التعريف. فيقول: ليس الكلام على الآب. ولكن ماذا يجيبون أيضًا حول هذه الكلمات للنبيّ: "أنا أرسل أمامك ملاكي الذي يهيِّئ لك (أنت) الطريق" (ملا ٣: ١؛ م ١١: ١٠). فالضميران "أنا" و"أنت" يعنيان شخصين اثنين.

"جاء ليشهد، ليؤدِّي شهادة للنور. قد يقول قائل: هل الخادم يشهد لسيِّده؟ ولكن حين ترون السيِّد يتقبَّل شهادة خادمه، بل يأتي إليه ويعتمد على يده مع اليهود، أما تكونون في دهشة أعظم وفي شكٍّ أكبر؟ ولكن ينبغي أن لا تندهشوا أو تضطربوا، بل ينبغي أن تُعجَبوا بطيبة الله اللاموصوفة. وإن لم يلبث أحدٌ مأخوذًا بالدوار والاضطراب، فيسوع المسيح يقول له ما قال ليوحنّا (المعمدان): "أتركني أفعل في هذه الساعة، لأنَّ هكذا نُتمُّ كلَّ برّ" (مت ٣: ٥). وإن تضاعفت وحشتُه، يقول له ما قال لليهود: "أنا لا أقبلُ شهادةً من إنسان" (يو ٥: ٣٤).

"فإن لم يكن في حاجة إلى هذه الشهادة، لماذا أرسل يوحنّا من لدن الله؟ لم يكن ذلك لأنَّ الكلمة احتاج إلى هذه الشهادة. لو قلنا ذلك لكان قولُنا كفرًا، ولكن لماذا؟ أعلمنا يوحنّا نفسه ذلك حين قال: "لكي يؤمن الجميع على يده". ولكن بما أنَّ يسوع المسيح قال بعد أن تكلَّم عن يوحنّا: "هناك آخر يشهد لي وأنا أعرف أنَّ شهادته لي حقّ"، وها هو يقول الآن: "أمّا أنا فلا آخذ شهادة من إنسان". يبدو للمجانين والجهّال أنَّه يعارض نفسه بنفسه بواسطة هذه الأقوال الأخيرة. لهذا يأتي الشرحُ في الحال: "ولكنّي أقول هذا لكي تخلصوا" (يو ٥: ٣٤). فكأنَّه يقول: "أنا الله. والابن الحقيقيّ لله، الذي صدر عن هذا الجوهر الخالد والمغبوط. ولا يمكن أن أنقصَ في طبيعتي. غرتُ على خلاص العالم، فانحدرتُ وتواضعت حتّى أردتُ أن أكلِّف إنسانًا بأن يشهد لي".

ويعود الواعظ إلى موضوع التنازل في العظة الحادية عشرة:

"والكلمة صار بشرًا وسكن بيننا. فبعد أن قال الإنجيليّ القدّيس إنَّ الذين قبلوه وُلدوا من الله وصاروا أولاده، أورد السبب اللاموصوف لمثل هذه الكرامة العظيمة، وهي: الكلمة صار بشرًا. ثمَّ: أخذ الربُّ شكلَ عبد. بما أنَّه الابن الحقيقيّ لله، جعل نفسه ابن البشر ليجعل البشر أولاد الله. فحين يقترب السامي ممّا هو وضيع ودنيء، يرفعه دون أن يؤذي مجدَه الخاصّ في شيء. وذاك ما حصل في شخص يسوع المسيح؛ فهو ما قلَّل طبيعته في هذا الاضطهاد العميق، ولكنَّه رفعنا إلى مجد لا يُوصَف، نحن الذين لبثنا في العار وفي الظلمات: فملك يتكلَّم بحبّ ولطف مع فقير ومع شحّاذ، لا يعيِّر ولا يعمل شيئًا قبيحًا، فيجعل هذا المسكين مشهورًا ويغطّيه بالمجد تجاه العالم كلِّه. فإن كان ذاك الذي ارتدى الكرامات البشريَّة المستعارة، يستطيع أن يعاشر من هو أدنى منه ولا يسيء إلى نفسه، فبالأحرى يكون الأمرُ حقيقيًّا بالنسبة إلى هذا الجوهر الخالد والمغبوط الذي ليس فيه شيء مستعار ولا عرضيّ أو عابر، بل جميع صفاته ثابتة وأبديَّة. ولذلك، حين تسمعون هذا الكلام "والكلمة صار بشرًا" فلا تضطربوا ولا تشكِّكوا؛ فالجوهر "الإلهيّ" لم يتحوَّل إلى "بشر". فمثلُ هذه الفكرة كفرٌ: فالله لبث على ما هو حيث أخذ شكل عبد".

ولماذا هذا الكلام؟ ليردَّ على الهراطقة الذين قالوا إنَّ الكلمة تجسَّد في الظاهر، لا في الحقيقة، وذلك في خطٍّ بدعة برزت في بداية الكنيسة. فالظاهريَّة أعلنت أنَّ جسد المسيح كان في الظاهر فقط. فأنكرت واقع آلام المسيح وموته بعد أن وصلت الطبيعة

والسواقي وتجارة السمك؟ قد لا ننتظر خطابًا آخر من صيّاد! ولكن لا تخافوا. لن نسمع شيئًا من هذا النوع. بل هو يحدِّثنا عن الأمور السماويَّة، عن أمور لم يعرفها أحدٌ قبله. إنَّه يعلِّمنا عقيدة سامية، وخلقيَّة رفيعة، وفلسفة جميلة بقدر ما نستطيع أن نستقي من كنوز الروح القدس، وقد نزلت الآن من السماء. أو بالأحرى، قد لا يكون الملائكة أنفسهم الذين في السماء قد عرفوا ما سوف يعلِّمنا قبل أن يتكلَّم.

"أسألكم: هل هذه لغة صيّاد، أو رجل بلاغة، لغة سفسطائيّ أو فيلسوف، أو إنسان متعمِّق في العلوم البشريَّة؟ كلاَّ ثمَّ كلا. فما من عقل بشريّ يستطيع أن يقدِّم الفلسفة أو أن يُعمل العقل حول الطبيعة المغبوطة واللامائتة، حول القوى الخاضعة لها، حول الخلود والحياة الأبديَّة، حول الأجساد المائتة التي سوف تصبح لامائتة، حول العذاب المقبل والدينونة، حول الحساب الذي يجب أن يؤدّيه كلُّ واحد عن أقواله وأعماله وأفكاره، حول معرفة الإنسان وحول معرفة العالم: ما هو الإنسان حقًّا، بخلاف ما يبدو أن يكون وما هو كذلك. بمَ تقوم الفضيلة، وبمَ تقوم الرذيلة؟".

رفع الذهبيّ الفم يوحنّا الإنجيليّ إلى قمَّة المعرفة الفلسفيَّة، وطرح المواضيع الأساسيَّة التي يعالجها الإنجيل بطريقة تتعدّى المفهوم البشريّ. فهل يستطيع مفكِّرو العالم الوثنيّ أن يصلوا إلى هذا المستوى؟ لا، يقول الواعظ، فكلُّ ما يقولونه هو هذر وسخافة.

"حرَّك أفلاطون وفيتاغور بعض هذه الأسئلة، أمّا سائر الفلاسفة فلا يستحقّون أن يُدعوا (كذلك) لأنَّهم جعلوا نفوسهم موضوع هزء. فأشهرُهم لدى الوثنيّين، الذين يُعتبَرون عندهم أمراء العلم قد سمَّيتهم. نحن مدينون لهم مثلاً ببعض مقالات حول الجمهوريَّة والشرائع. كلُّ هذا لم يمنعهم بأن يكونوا موضع هزء بسبب آراء يستحي منها الأطفال وجماعة النساء وتقلُّبات المجتمع واحتقار الزواج. صرفوا حياتهم كلَّها لكي يُعلنوا هذه السخافات. ولكن لا شيء أشنع من معتقداتهم حول طبيعة النفس: علَّموا أنَّ نفوس البشر تصبح كالذباب والذباب الصغير، كالنبات. (وعلَّموا) أيضًا أنَّ الله ذاته هو النفس، وفظاعات أخرى. وهم لا يستحقُّون اللوم بسبب ذلك فقط، بل أيضًا بسبب تناقضاتهم التي لا عدَّ لها: تبلبلوا مثل قنال (Euripe) في مدٍّ وجزر في إحساساتهم وفي معتقدهم، فما كان لهم شيء حقيقيّ أو متين يقولونه".

هؤلاء هم الفلاسفة. أمّا الصيّاد (يوحنّا) فقد قُبل في معبد السماء، وتكلَّم بإلهام من الربّ، فما عرف كلامُه ضعف الكلام البشريّ. أمّا الفلاسفة فما قُبلوا في هذا البلاط السماويّ، بل إنَّ أفلاطون ورفاقه فاستقبلهم طاغية هو ملك صقلِّية. من أجل هذا، كان الذهبيّ الفم معارضًا للفلاسفة ولا سيَّما تعليمهم حول التقمُّص وانتقال النفس من جسد إلى آخر.

"أحد فخاخ إبليس يقوم بأن لا يحفظ الاعتدال ولا الوسط، بل أن يدفع من طرف إلى آخر، أولئك الذين سمَّمهم بمعتقد سيِّئ. تارة يقول أفلاطون، تكوَّنت النفس من جوهر الله، وطورًا، وبعد أن يكون رفعها عاليًا وبشكل شرّير، يُلبسها العار في مبالغة أخرى ينقلها إلى الخنازير وإلى الحجر وإلى أحقر الحيوانات ولكنَّ هذا يكفي حول معتقَد الفلاسفة. بعد أن أطلنا الكلام أكثر ممّا يجب. ونكون على صواب إن توقَّفنا أطولَ من ذلك لو كانت له فائدة قليلة. ولكن بما أنَّنا تكلَّمنا عنهم على قدر ما يجب، لكي نكشف عندهم العار والخزي، ما أوردناه عنهم أكثر من كافٍ...".

ب- في وجه التعاليم الضالَّة

عدوّان كبيران، هما في الواقع ينطلقان من نظرة واحدة إلى الابن تبعده عن الآب. أثارت الآريوسيَّة ألوهيَّة المسيح واعتبرته مخلوقًا من المخلوقات وإن كان أرفع منها. أمّا الأنوميَّة فرأت أنَّ الابن لا يشبه الآب، وبالتالي هو أدنى منه.

استعمل الأريوسيّون، والأنوميّون بشكل خاصّ، النصوص اليوحنّاويَّة، لكي يقدِّموا البرهان على الاختلاف الجوهريِّ بين الآب والابن. ردَّ الواعظ

ودعوها "الخطب اللاهوتيَّة"، وفيها وصل غريغوار إلى النضج الكبير في دراسة العقيدة حول الثالوث. العظة الأولى هي مقدِّمة للعظات الأربع الباقية، وتعالج الشروط المطلوبة لمناقشة الحقائق اللاهوتيَّة: "إلى الماهرين في الكلام يتوجَّه هذا الكلام. بداية ننطلق من الكتاب المقدَّس: "ها أنا عليك، أيَّتها الوقحة" (إر ٥٠: ٣١): على مستوى التعليم وطريقة السماع والتفكير" (الينابيع ٢٥٠، ص ٧٠-٧١). أمّا العنوان فهو: "مقدِّمة الجدال ضدَّ الأنوميّين".

في العظة الثانية، عالج غريغوار اللاهوت، بشكل حصريّ، أي وجود الله، وطبيعته، وصفاته، بقدر ما الفكر البشريّ يستطيع أن يحدِّد ويفهم. "نضع في رأس هذا الكلام، الآب والابن والروح القدس، الذين هم موضوع (العظة): ليكن الأوَل راضيًا، والثاني معينًا، والثالث ملهمًا. أو بالأحرى، تأتي الألوهيَّة الواحدة، المميَّزة في الاتّحاد، والمجتمعَة في التمييز. يا للعجب!" (العظة ٢٨، الينابيع ٣٠٥، ص ١٠٠-١٠٣).

وبيَّنت العظة الثالثة وحدة الطبيعة بين الأقانيم الإلهيَّة الثلاثة، ولا سيَّما لاهوت اللُّوغُس ومساواته مع الآب (العظة ٢٩). والعظة ٣٠ تفنِّد اعتراضات الأريوسيّين حول لاهوت الابن، وطريقة استعمال النصوص الكتابيَّة استعمالاً كاذبًا. وأخيرًا يدافع غريغوار عن ألوهيَّة الروح القدس في العظة ٣١ مع ردٍّ على الماقيدونيّين[٣٨].

٢- يوحنّا الذهبيّ الفم

بعد كلام عن علاقة الذهبيّ الفم بالأنوميَّة، نتوقَّف عند كتابين من كتبه (حاشية ١، حاشية ٣) أو بالأحرى، سلسلة مواعظ طُبعت في جزأين، فجاءت بشكل دِبْتيكًا مع درفتين تقدِّمان "لاإدراكيَّة الله" و"مساواة الآب والابن".

أ- يوحنّا والأنوميَّة

اهتمَّ يوحنّا مرَّتين بالأنوميّين، مرَّة أولى حين كان كاهنًا، ومرّة ثانية حين صار أسقف القسطنطينيَّة. مثل هذا الانقسام في عاصمة الإمبراطوريَّة، أضعف عمل الكنيسة وحدَّ من شهادتها ولا سيَّما بين اليهود، وبين الوثنيّين الذين لبثوا كثُرًا في نهاية القرن الرابع.

فهذه البدعة، التي ظهرت سنة ٣٥٠ في أنطاكية، صارت الضلالة الكبرى سنة ٣٨٠. ونظرتها إلى معرفة الله، لخَّصها أونوميوس نفسه: "الله لا يعرف عن ذاته شيئًا لا نعرفه؛ فكيانه واضح له كما هو واضح لنا. فكلُّ ما نعرفه عنه، يعرفه هو أيضًا، وكلُّ ما يعرفه عن ذاته، نجده فينا بسهولة وبدون اختلاف"[٣٩]. الجوهر الإلهيّ بسيط جدًّا، ولهذا تسهل معرفتُه. إذًا، الأب وحده الله، بسبب بساطته، ولا يشاركه أحد في كيانه. خلق الابن ونقل إليه قدرته، نشاطه، لا لاهوته، ليكون أداة في يده في خلق الكون. وأوَّل خلائق الابن هو الروح.

عند هذا الحدّ وصلت الديانة المسيحيَّة مع نظام يستند إلى جدال فارغ، سفسطائيّ. لم نعد أمام اللاهوت (تيولوجيّا)، بل أمام التقنيَّة (تكنولوجيّا)[٤٠]. تفكير منظَّم، عدوٌّ كبير. ففهم يوحنّا الذهبيّ الفم أنَّ مهمَّته تقوم في محاربة تأثيرهم، والعمل على إعادتهم إلى الكنيسة الجامعة. أحسَّ أنَّه ليس أمام هرطقة ماتت ودُفنت، بل أمام ضلالة حاضرة، حيَّة، ساحرة ببساطتها ووضوحها الكاذب، ورفْعها للعقل البشريّ مع التشديد على التقوى والحياة النسكيَّة. لهذا، عمل يوحنّا على الدفاع عن الإيمان القويم وعن جدِّيَّة الحياة المسيحيَّة.

أعلن الذهبيّ الفم أنَّه ضدَّ الأنوميّين ونظرتهم التعيسة إلى الله. انتظر وانتظر طويلاً، وعدد من الأنوميّين كانوا يسمعون مواعظه ويطلبون منه أن يرجئ

(٣٨) QUASTEN (n. 36), p. 347-348.
(٣٩) SOCRATE, *Hist. eccl.*, IV, 7 (PG 67, 474B).
(٤٠) THEODORET, *op. cit.* (n. 14): θεολογιαν, τεχνολογιαν.

المواقف القاسية. ولكنَّهم الآن يطلبون منه أن يعالج الموضوع. يتحدّونه، بل يتخيَّلون أنَّهم انتصروا عليه. وقضيَّة الإيمان القويم قضيَّة خاسرة. فقبل يوحنّا التحدّي بحماس المتأكِّد من النصر وإحقاق الحقيقة، وبمحبَّة تريد أن تعيد إلى الحظيرة هذه النفوس الضالَّة، المريضة، التائهة بعد أن يستنيروا. وخاض أسقف القسطنطينيَّة المعركة لا يثنيه عن عزمه شيء. يمكن أن يتوقَّف بسبب ظرف طارئ، ولكنَّه يعود سريعًا[٤١]. وأوَّل كلام له كان لاإدراكيَّة الله.

هنا يتوسَّل يوحنّا قوَّة الخطابة عنده. فسامعوه يعجّون بالحياة، مزيج من فئات مختلفة، مشغوفون بالخطابة، كما بالجدالات اللاهوتيَّة[٤٢]. قال يوحنّا في كتابه حول الكهنوت (الينابيع ٢٧٢، ص ٣٠٢، سطر ٤٩-٥٢): "أما تعلَمُ أيَّ اندفاع نحو البلاغة يسيطر اليوم على نفوس المسيحيّين؟ والذين يهتمّون بها هم أهل للاحترام، لدى الوثنيّين كما لدى المسيحيّين". وفي المعنى عينه قال غريغوار النيصيّ: "امتلأت المدينةُ كلُّها بالجدالات: الشوارع، والأسواق، والساحات، والأحياء، وبيّاعو الثياب، والذين يقفون وراء مكاتب الصيرفة، والذين يبيعوننا الطعام. إذا تحدَّثت عن المال، حادثك الواحد عن المولود واللامولود. وإن حصل واستعلمت عن ثمن الخبز، يجيبك: الأب هو الأكبر، والابن خاضع له. وإن تساءلت: هل الحمّام جاهز؟ يعلن لك آخر أنَّ الابن خرج من اللاكائن. لا أعرف كيف أدعو هذا الهيجان أو هذا الجنون، أو هذا الشيء الذي يشبه وباء تكثر فيه الحجج والاعتراضات"[٤٣].

همّ يوحنّا الأوَّل عرضُ الفكر المسيحيّ عرضًا أمينًا، ليقاسم يقينه مع الذين إليهم يوجِّه كلامه. هذا ما نكتشفه في العظة العاشرة. "بعد أن أخفيتُ (هذا الخير) في فكري، فإذا احتفظت به على الدوام دون أن أشارك فيه أحدًا، يخفُّ ربحي، ومواردي تضعف. ولكن إن قدَّمته للجميع، إن شاركتُ فيه الكثيرين، وإن قسمتُ معهم كلَّ ما أعرف، يزداد غناي الروحيّ من أجل خيري" (الينابيع ٣٩٦، ص ٢٤٠-٢٤١).

ب- لاإدراكيَّة الله

نُشر هذا الكتاب اليونانيّ مع ترجمة فرنسيَّة سنة ١٩٥١، ثمَّ سنة ١٩٧٠، فقدَّم خمس عظات.

أوَّلاً: العظات الخمس

ردَّت العظتان الأولى والثانية على قول أونوميوس بأنَّ الإنسان يستطيع أن يعرف جوهر الله معرفة تامَّة. فكان جواب الواعظ: جوهر الله لا يدركه العقل البشريّ. لهذا ورد اللفظ περι ακαταληπεου. الفعل هو καταλαμβανω، "أخذ"، "أمسك"، "أدرك". نحن لا نقدر أن نمسك الله، وإلاّ كان صنمًا في يدنا. لا ندركه وكأنَّ عقلنا يمكن أن يحيط به. لهذا نقرأ في بداية العظة الأولى: "من أبينا الذي في القدّيسين، يوحنّا الذهبيّ الفم رئيس أساقفة القسطنطينيَّة، في غياب الأسقف[٤٤] حول اللامدرك περι ακαταληπτου، في ردٍّ على الأنوميّين، الخطبة (ογος) الأولى" (الينابيع ٢٨ مكرَّر، ص ٩٢).

وفي الكتاب عينه ص ١٤٠ نقرأ: "منه (= أي يوحنّا) أيضًا. بضعة أيّام (بعد الخطبة السابقة) ردًّا على الأنوميّين، تكلَّم على اليهود. ثمَّ توقَّف عن الكلام بسبب

---

(٤١) حاشية ١، ص ٩-١٤.

(٤٢) كان أسلوب باسيل وغريغوار النيصيّ مغايرًا لأسلوب يوحنّا. لحق بالخصوص خطوة خطوة، في "ملعبهم" لكي يردَّ عليهم. M. VAN PARYS, “Exégèse et théologie dans les livres Contre Eunome de Grégoire de Nysse”, dans *Actes du colloque de Chevetogne* (22-26 sept, 1969) Leyde, 1971, p. 169-196; B. SESBOUÉ, *L’apologie d’Eunome de Cyzique et le Contre Eunome* (*livres I-III/de Basile de Césarée*, Rome, 1980).

(٤٣) هي عظة تعود إلى شهر أيّار سنة ٣٨٣: **حول ألوهيَّة الابن والروح القدس**، **الآباء اليونان** ٤٦: ٥٥٧ب.

(٤٤) نشير إلى أنَّ يوحنّا ألقى هذه العظة وهو بعد كاهن. كان فلافيان غائبًا، فبدأ يوحنّا عظته كما يلي: "ماذا أرى؟ الراعي غائب والخراف قائمون في ترتيب تامّ. ذاك هو أجمل نجاح بالنسبة إلى الراعي، بأن يدلَّ قطيعه على غيرة كبيرة، لا في حضوره وحسب، بل في غيابه أيضًا".

فمك أدينك، فواجه الواعظ الخصم كلامه وردَّ على حجَّته. أنتم تقولون إنَّ الكلمة تواضع، تنازل، فلو كان خليقة، لكان في تنازله أعلن ذلك، ولكنَّه لم يفعل.

"وما ترى أنَّه لم يعمل شيئًا و لم يقل كلمة لكي يمنع أن يُقال إنَّه وُلد، بل قال أشياء أدنى من كرامته وطبيعته، أنَّه تجاور حتّى صفة النبيّ الوضيعة: "أحكم بما أسمع" (يو ٥: ٣٠). وقال: أبي علَّمني ما يجب أن أقول وما يجب أن أعلِّم. هي أقوال تخصُّ فقط الأنبياء؛ فإن كان لا يستحي أن يقول مثل هذا الكلام لكي يستبق هذا الظنّ، فبالأحرى كان تكلَّم هكذا لو أنَّه خُلق لئلاّ يظنَّ أحد أنَّه لامخلوق. لقد كان قال مثلاً: إحفظوا نفوسكم ولا تعتقدوا أنّي مولود من الآب. أنا صُنعتُ وما وُلدتُ، أنا لا أكون من جوهر الآب بالذات، ولكنَّه الآن تصرَّف كلِّيًّا عكس ذلك. قال كلامًا يدفعنا حتّى بالرغم عنا، لكي نأخذ بالشعور المقابل. مثلاً، "أنا في أبي وأبي فيَّ" (يو ١٤: ١٠)؛ وأيضًا: "أنا معكم من زمان طويل ولا تعرفني يا فيلبّا؟ من رآني رأى أبي" (يو ١٤: ٩). وقال: "لكي يُكرم الجميعُ الابن كما يكرمون الآب" (يو ٥: ٢٣)؛ وأيضًا: "كما أنَّ الآب يقيم الموتى ويحييهم، هكذا الابن يُعطي الحياة لمن يشاء" (يو ٥: ٢١)؛ وأيضًا: "أبي يعمل في كلِّ حين، وأنا أعمل مثله" (يو ٥: ١٧). وقال: "كما أنَّ الآب يعرفني، أنا أعرف أبي" (يو ١٠: ١٥)؛ أو: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠). وفي كلِّ مكان يضع "مثل" و"هكذا". يقول إنَّ أباه وهو هما واحد. ويعلن أنَّ لا خلاف بينهما.

بل يدلُّ على قدرته ويكشفها، بهذه الأقوال وبكثير غيرها. كما حين يقول (للبحر): "أسكُتْ، أصمتْ!" (مر ٤: ٣٩). أو: "أريدُ فاطهر" (مت ٨: ٣، للأبرص)، أو: "آمرك أي الشيطان الأطرش والأخرس: أخرج من هذا الولد" (مر ٩: ٢٤). وهذا القول أيضًا: "عرفتم أنَّه قيل للأوَّلين: لا تقتل. أمّا أنا فأقول لكم: من غضب على أخيه بدون سبب استحقَّ حكم الدينونة" (مت ٥: ٢١-٢٢). وهناك فرائض عديدة ومعجزات تكفي لكي تبرهن على قدرته. ماذا أقول؟ بل أكثر ممّا يجب لكي يربح ويقنع كلَّ إنسان لم يخسر بعد الحسَّ والعقل".

كلُّ ما تعلَّمه يوحنّا الذهبيّ الفم من ديودور الطرسوسيّ، معلِّمه في شرح الكتاب، برفقة تيودور المصيصيّ، كلُّ البلاغة التي أخذها، من ليبانيوس الشهير الذي تمنّى أن يكون خليفته يوحنّا الذهبيّ الفم، ولكنَّ المسيحيّين أخذوه منه، كلُّ الفلسفة وطريقة الإقناع، اللتين أخذهما من أندراغاتيوس، كلُّ هذا جُعل في خدمة الوعظ والإرشاد، لكي يسلِّح المؤمنين في وجه الخصوم الذين ينكرون لاهوت الابن، وبالتالي يهدِّدون عقيدة الثالوث. وبعد أن ردَّ على براهين الخصوم أورد الآيات من إنجيل يوحنّا، كما في سبحة، بحيث لا يستطيع الخصم بعدُ أن يجد جوابًا.

٢- الذهبيّ الفم، المدافع

خصوم يوحنّا نوعان: في إطار المسيحيَّة يقف الآريوسيّون والأنوميّون، وفي الإطار العامّ، يقف الوثنيّون، الذين ما زال تعليمهم يُعطى في أماكن عديدة، من أثينة إلى الإسكندريَّة وأنطاكية، وإلى سائر حواضر الإمبراطوريَّة الرومانيَّة. ولن تقفل أثينة أبوابها قبل عهد الإمبراطور، سنة ٥٢٩. ونحن لا ننسى أن ليبانيوس نفسه كان وثنيًّا.

أ- في وجه الفلسفة

هنا نقرأ العظة الثانية التي فيها يبيِّن الذهبيّ الفم أنَّ القدّيس يوحنّا الذي كان فقيرًا وما تعلَّم الآداب والفلسفة، تفوَّق على أشهر الفلاسفة؛ فالكلام الإنجيليّ هو الفلسفة الحقَّة.

"لنرَ، أيُّها الإخوة الأعزّاء، ما تعلَّم هذا الصيّاد (يوحنّا) الذي قضى حياته قرب المستنقعات، وهو منشغل بالشباك والسمك، هذا الرجل الذي من بيت صيدا الجليل، هذا الذي هو ابن صيّاد فقير، بل فقير جدًّا، هذا الجاهل الذي كان جهله عميقًا جدًّا، وقد لبث أمِّيًّا قبل وبعد أن تعلَّق بيسوع المسيح. أما يحدِّثنا عن الحقول

تحدَّث بطرس عن شخص اختير وأُعِدَّ، لأنَّه عن إنسان (الطبيعة البشريّة) يتكلَّم".

أورد الذهبيّ الفم كلام بطرس فميَّز بين الطبيعة البشريَّة والطبيعة الإلهيَّة. وها هو يبيِّن أنَّ بطرس لا يتفرَّد في ما يقول، فيورد كلام بطرس إلى أهل أثينة.

"لماذا تتعجَّبون من كلمات القدّيس بطرس هذه؟ فحين وعظ القدّيس بولس على الأثينيّين، وصف الابن فقط بأنَّه إنسان، فقال: "بواسطة إنسان أعدَّه ليكون الديّان، وأعطى البراهين على ذلك إلى العالم كلِّه، حين أقامه من بين الأموات" (أع ١٧: ٣١). هو ما قال: له شكل الله. ولا قال: إنَّه مساوٍ لله. ولا قال: هو بهاء مجده. وكان على حقٍّ في ذلك. فالوقتُ لم يَحِنْ بعد لكي يقول هذا، فيكفيهم حينئذٍ بأن يؤمنوا أنَّه إنسان وأنَّه أُقيم من بين الأموات. فيسوع المسيح نفسه صُنع هكذا، والقدّيس بولس الذي تعلَّم منه، قدَّمَا كذلك كلام الإنجيل. فيسوع لم يكشف لنا أوّلاً لاهوته، بل إنَّ النبيّ المسيح كان يُنظَر إليه فقط على أنَّه إنسان. وبعد ذلك بواسطة أقواله وأعماله، عرَّفنا من هو في الحقيقة. لهذا استعمل بطرس في البداية مثل هذه الكلمات التي استشهدتم بها أمامي، والتي هي من أولى خطب يسوع إلى اليهود. بما أنَّه لم يكن بعدُ قادرًا أن يعلِّمهم شيئًا عن لاهوت المسيح، كلَّمهم عن طبيعته البشريَّة. وبعد أن تعتاد آذانُهم على ذلك، تصبح جديرة ومستعدَّة لتقبُّل ما يلي من المعتقد. فإن أراد واحد أن يعود إلى الوراء ويقرأ كرازة الرسول هذه، يجد فيها البرهان اليقينيّ لما أقول، ويفهم أنَّ القدّيس بطرس دعا يسوع المسيح إنسانًا، وأن يطيل الكلام عن حاشه (= آلامه) وقيامته وولادته بحسب اللحم (والدم). أمّا في ما يقوله القدّيس بولس عن ابن الله "أنَّه وُلد بحسب اللحم والدم ومن نسل داود" (رو ١: ٣)، فهو لا يعلِّمنا شيئًا آخر بهذا الفعل "وُلد" إلاّ عن التجسُّد، وهو بذلك يثبِّتنا في إحساسنا".

تكلَّم العهد الجديد عن بشريَّة يسوع المسيح، ثمَّ عن لاهوته. ولكنَّ يوحنا، ابن الرعد، كما دعاه يسوع، يشدِّد على "كان"، وما في هذا الفعل من تجاوز للزمن وتطلُّع إلى خارج الزمن، في الأزل أو في الأبد.

"ولكنَّ ابن الرعد يكلِّمنا الآن عن وجوده (= الابن) اللاموصوف، الذي هو قبل جميع الدهور. لهذا فهو لا يقول: "صُنع"، بل "كان"، وهذا ما وجب أن نبرزه هنا بصراحة، لو أنَّه خُلق. خاف القدّيس بولس أن يظنَّ جاهلاً أنَّ الابن كان أكبر من الآب، وأنَّ الآب كان خاضعًا للابن. فمثلُ هذه المخافة جعلته يقول للكورنثيّين: "حين يقول الكتاب إنَّ كلَّ شيء كان خاضعًا له، فمن الواضح أنَّه يستثني الله الآبَ الذي أخضع كلَّ شيء للمسيح" (١ كو ١٥: ٢٦-٢٧). ومن يستطيع أن يظنَّ أنَّ الآب خضع للابن مع جميع الأشياء. ومع ذلك، خاف القدّيس بولس أن يكون هناك أناسٌ يتصوَّرون أفكارًا عبثيَّة بحيث قال: "ما عدا ذاك الذي أخضع له كلَّ شيء". أمّا يوحنّا فكانت له أسباب أكثر أن يخاف أنَّه إن كان الابن مخلوقًا أن يعتقد أحدٌ أن يكون لامخلوقًا وأن يعلِّمنا ذلك قبل أيِّ شيء آخر. ولكن بما أنَّه مولود، فلا يوحنا كان بحقّ قال، ولا أحد آخر، رسولاً أو نبيًّا، إنَّه خُلق، بل الابن وحده، ما كان تأخَّر عن القول لو أنَّه خُلق حقًّا. فالذي يقول عن نفسه عددًا كبيرًا من الأشياء الوضيعة، تنازلاً، أيكون صمت وقال إنَّه خليقة؟ بل اعتقد أنَّه معقول جدًّا أنَّه بالأحرى صمت، وأخفى جزءًا من عظمته وتساميه، وما صمت ولا أخفى ما ينقصه وما أهمل أن يعلن أنَّه لا يمتلكه. إذ أراد أن يعلِّم التواضع للبشر، كان من المعقول أن يحفظ الصمت حول أسمى صفاته. "أمّا هنا، فبالنسبة إلى خلقته المزعومة" لا تستطيعون أن تقدِّموا لي أيَّ سبب هامّ لكي يصمت. لهذا، فالذي ترك عددًا كبيرًا من الألقاب، ما كان يخفي "خلقته" لو أنَّه خلق. فالذي أراد أن يعلِّم التواضع تحدَّث مرارًا في ألفاظ لا تخصُّه ولا تليق به، كيف يمكن أن لا يقول إنَّه خُلق ولو أنَّه خُلق؟".

جاء البرهان هذا على مستوى من

وجود الأسقف، وتذكُّرًا لشهداء عديدين. وعاد الآن إلى الأنوميّين، في كلام عن اللامدرَك". هنا نقرأ النصّ السريانيّ: "مرّت أيّام عديدة تكلّمتُ فيها على الأنوميّين، ثمَّ على اليهود، ثمَّ صمتُّ بسبب اجتماع الأساقفة عندنا، وتذكارات العديد من الشهداء المشهورين التي حصلت. أمّا الآن فنعود أيضًا...". ويتواصل النصُّ كما في اليونانيَّة: "ندخل في الحلبة لكي نقاتل الأنوميّين الكافرين، اللامؤمنين (απιστους). إن استاؤوا حين ندعوهم كافرين، فليبدِّلوا سلوكهم وأنا أبدِّل كلامي. فليتخلّوا عن أفكارهم الكافرة وأنا أتخلّى عن تسمية لائمة. فإذا كانوا لا يختفون تحت الأرض، ساعة يدنِّسون الإيمان بأعمالهم، لماذا يغضبون علينا، نحن الذين نلومهم فقط بكلمات تريهم ما يقومون به من أعمال"[٤٥].

العظتان الثالثة والرابعة تتحدّثان عن استحالة معرفة جوهر الله، حتّى على الملائكة والقوّات السماويَّة. لم ينتظر الذهبيّ الفم العظة الثالثة للكلام عن الملائكة، بل انطلق في العظة الأولى: "إذا شئتَ نترك بولس والأنبياء، ونرتفع إلى السماء: ربَّما نجد هناك أرواحًا تعرف الله في جوهره! إن وُجدت أرواح تنعم بالمعرفة، فهي لا تشاركنا في شيء، لأنَّ المسافة عظيمة التي تفصل الملائكة عن البشر. ولكن إن أردت أن تعرف يقينًا أنَّ ما من قوَّة مخلوقة، وإن تكن علويَّة، تمتلك هذا العمل، فلنسمع الملائكة. ماذا إذًا؟ هل يتحدَّثون في العلاء عن الجوهر الإلهيّ، هل يتجادلون في ما بينهم؟ كلاّ ثمَّ كلاّ. ولكن ماذا يفعلون؟ هم يمجِّدون، يسجدون، يُصعدون على الدوام أناشيد الظفر والسرّ، باحترام عميق. بعضهم يهتف: المجد لله في أعلى السماوات (لو ٢: ١٤). والسرافيم بدورهم: "قدّوس، قدُّوس، قدّوس" (أش ٦: ٣). ويميلون بعيونهم لأنَّهم لا يقدرون أن يحتملوا تنازلَ الله. أمّا الكروبيم فينشدون: "مبارك مجده من موضع سكناه" (حز ٨: ١٢). هذا لا يعني أنَّ الله محصور في موضع ما، لا قطعًا. فكأنَّنا نقول في لغتنا البشريَّة: حيث يكون، أو: كيفما يكون، إن كانت الحكمة بأن نتكلَّم هكذا عن الله، ولكنَّنا لا نمتلك سوى التعبير البشريّ" (**الينابيع** ٢٨ مكرَّر، ص ١٢٦-١٢٩).

والعظة الخامسة واصلت ما قيل عن استحالة إدراك الله. فمثلُ هذه المعرفة محفوظة للابن والروح. انطلق الواعظ من كلمة يوحنّا، ابن الرعد: "ما من أحد رأى الله (εωρακε)، الابن الوحيد الذي في حضن الآب، هو الذي أخبر (εξηγησατο) يجب علينا اليوم أن نتعلَّم في أيِّ موضع قدَّم ابن الله الوحيد هذا الإعلان. قال يوحنّا: "أجاب اليهود". وقال لهم: "ما من أحد رأى الآب سوى ذاك الذي أتى من لدن الله. فهو من رأى الآب" (يو ٦: ٤٦). معنى "رأى" هنا، هو "عرف".

ويواصل يوحنّا كلامه: "ما اكتفى بأن يقول: "ما من أحد رأى الآب"، ثمَّ صمت. فقد نظنُّ هكذا أنّنا لسنا أمام البشر، بل إذ أراد أن يبيِّن أنَّه لا الملائكة، ولا رؤساء الملائكة، ولا القوّات العلويَّة تعرفه، قدَّم ذلك بوضوح بالكلمات التالية. فبعد أن قال: "ما من أحد رأى الآب"، أضاف: "إلاّ ذاك الذي أتى من لدن الله؛ فهو من رأى الآب"[٤٦]. فلو قال فقط: "ما من أحد، لظنّ ربَّما كثيرون من الذين سمعوا كلامه، أنَّ هذا قيل فقط بالنسبة إلى جنسنا البشريّ، ولكن حين قال: "ما من أحد"، وأضاف "سوى الابن"، استبعد الخليقة كلَّها حين ذكر الابن الوحيد (μονογενης). ولكن يقال لي: "هل

(٤٥) راجع **الينابيع** ٢٨ مكرَّر، ص ١٨٦: "حول اللامدرَك. تنازل (συγκαταβασις) لا يحتمله السرافيم". ثمَّ ص ٢٢٨: حول اللامدرَك. ونقرأ الشيء عينه ص ٢٧٠.

(٤٦) مثل هذا القول الذي يفتح الطريق أمام معرفة مميَّزة بين الآب والابن، غير مقبول لدى أونوميوس؛ فالله كشف عن نفسه لكلِّ خليقة حين سمّى نفسه αγεννητος. بهذه الوسيلة وحدها يقدر الابنُ أن يعرف الآب.

يستبعد أيضًا الروح القدس؟ كلاّ ثمَّ كلاّ. لأنَّ الروح ليس جزءًا من الخليقة. وعبارة "ما من أحد" تستعمَل دومًا لتعارض سائر الخلائق. وهكذا، حين يتكلَّم عن الآب، فهو لا يستبعد الابن. وحين يتحدَّث عن الابن لا يزيح الروح القدس"[٤٧].

ثانيًا: اللاإدراك والرعب المقدَّس

ما لاحظناه حتّى الآن هو أنَّ الذهبيّ الفم ترك طريق الفلسفة في الردِّ على أونوميوس، على غرار ما فعل النيصيّ والنزينزيّ، فعاد إلى الكتاب المقدَّس وأورد نصوصه وشرَحَها. أمّا الهدف الأخير، فهو التعليم اللاهوتيّ وبالتالي التصرُّف العمليّ.

ونبدأ باللاإدراك للجوهر الإلهيّ، وهو موضوع هذه العظات الخمس. سبق يوحنّا فقال: "الخير الأعظم هو أن نُدرك أنَّ الله لا يُدرَك (ακαταληπτος) بحسب جوهره" (κατα το ειναι). ثمَّ: "لا نستطيع أن نعرف من الله سوى وجوده وتجلّياته". هذا الكلام الذي يعود إلى فيلون، قد تبنّاه يوحنّا، فدلَّ على تسامٍ جذريّ لله كما في الكتاب المقدَّس.

كيف تصوَّر يوحنّا هذا التسامي الإلهيّ؟ اتَّخذ عبارات تُبرز اللاهوتيّ المُصمِت (apophatique)، الذي يمنع الإنسان من الكلام، ويدعوه إلى الصمت الساجد. منها ما أخذه من بولس الرسول (αορατος)، "ما لا يُرى" (روم ١: ٢٠): "ندعوه إذًا الإله الذي لا يمكن التعبير عنه (ανεκφραστον)، ولا تصوُّره، ولا رؤيته (αορατον) ، ولا إدراكه. ولنعترف أنَّه يتجاوز قدرة كلِّ لسان بشريّ، أنَّه يفلت من قبضة كلِّ عقل مائت. الملائكة لا يستطيعون أن يكشفوه، ولا السرافيم أن يشاهدوه ولا الكروبيم أن يدركوه، لأنَّه غير منظور (αορατον) للسلاطين والرئاسات والقوّات وجمع الخلائق بلا استثناء. لا يعرفه سوى الابن والروح (ص ١٩٠-١٩١).

والصفة الثانية نقرأها عند الرسول (٢كور ١٢: ٤) وخبرته الصوفيَّة. αρρητος: لا يجوز له أن ينطق بما رأى. قال يوحنّا: "بقدر ما هذه القوّات تمتلك الحكمة، وأقرب منّا إلى هذا الجوهر السعيد واللامُقال، فهي تعرف أفضل منّا كم أنَّ طبيعة الله لا تُدرَك. فحين تنمو الحكمة، تُنمي معها السجود والعبادة" (ص ٢٣٢-٢٣٥).

والصفة الثالثة: لا يمكن أن نرويه، أن نخبر به (ανεκδιηγητος). استعملها الرسول في الكلام عن هبة الله (٢كور ٩: ٥). هي من العظمة بحيث لا نقدر أن نتحدَّث عنها. "ماذا تقول؟ أحكامه لا تُسبَر، وطرقه لا تُكشَف، سلامه يتجاوز كلَّ فهم، عطاياه لا يمكن أن نخبر بها. ما أعدَّه الله للذين يحبّونه، لم يصعد إلى قلب بشر، عظمته لا حدود لها. فهمه لا قياس له. كلُّ ما فيه لا يُدرَك. وتظنّ أنَّه يُدرَك هو وحده. فكيف تظنُّ ذلك ولا تكون في قمَّة الجنون؟ أمسكْ بالهرطوقيّ. لا تتركه يُفلت. قل له: ماذا يقول بولس؟ "نحن نعرف بعض المعرفة". فتجيب: لم يَقُل هذا عن الجوهر الإلهيّ، بل عن تدبير الأكوان. اتَّفقنا μαλιστα... إذا كان هذا التدبير لا يُدرَك، فبالأحرى الله ذاته. ولكنَّه يتكلَّم في هذا الموضع عن الله ذاته، لا عن تدبير الكون". فاسمع ما يلي. فبعد أن قال "نعرف بعض المعرفة، ونتنبَّأ قليلاً، أضاف: "الآن أعرف قليلاً، ولكن حينئذٍ أعرف كما عُرفت". من يعرف، الله أم تدبير الكون؟ بل تدبير الكون. إذًا يعرف الله قليلاً εκ μιρους (ص ١٢٤-١٢٧).

وتتوالى الصفات البولسيَّة التي يستعملها الذهبيّ الفم: لا يُسبَر (ανεξερευητος، روم ١١: ٣٣). لا يُكشَف (ανεξιχνιαστος، أي ٥: ٩؛ روم ١١: ٣٣). لا يمكن الوصول إليه (απροσιτος، ١تم ٦: ١٦). قال الرسول: "مسكنه نور لا يُقترَب منه، ما رآه إنسان ولن يراه، له العزَّة والإكرام". والذهبيّ الفم: "ما قال: هو يسكن نورًا لا يُدرَك، بل لا يمكن البلوغ إليه. وهذا أقوى بكثير. يُقال عن شيء إنَّه لا مُدرَك، حين لا يتوصّل

[٤٧] الحاشية الأولى SC 28 bis, p. 272-277.

فأوقفه وقال: "كان مع الله" قبل أن يقول من كان. وإذ خاف أيضًا أن يفكِّر أحدٌ بأنَّ الابن كان كلامًا خارجيًّا أو باطنيًّا، دمَّر هذا الظنَّ والفكر بالتعريف (أل) السابق، كما قلتُ أعلاه وبما قال في ما بعد. هو ما قال: "كان الكلمة في الله"، بل "كان مع الله"، وهكذا دلَّ على أزليَّة أقنومه، فأضاف قائلاً في وضوح أكبر: "كان الكلمة الله".

وجب على الواعظ أن يتجنَّب خطرَين: الأوَّل، أن يُحسَب الكلمةُ الآب، وهكذا يكون الثالوث كلُّه تجسَّد، فما عاد من فرق، على مستوى التدبير الخلاصيّ، بين الآب والابن. والخطر الثاني، أن يتوقَّف المؤمن عند لفظ "لوغوس" الذي يمكن أن يعني في اللغة العاديَّة الكلمة التي تخرج من أفواهنا فلا تعود، أو تلك التي نحتفظ بها في قلبنا، بحيث لا تكون علاقة بعدُ بين الآب والابن. قال: الابن مولود، والآب لامولود. ويواصل الخطيب كلامه على السامعين في أنطاكية:

"أرى أنَّكم سوف تقولون لي: "الكلمة كان الله". هذا حصل لأنَّه صُنع إلهًا. إذًا لا شيء كان يمنع القدّيس يوحنّا أن يقول: "في البدء صنع الله الكلمة". ولكنَّ موسى حين تكلَّم على الأرض لم يقل: "في البدء كانت الأرض، بل قال: "الله صنع الأرض". أو: "الأرض صُنعت". فما الذي كان يمنع يوحنّا من أن يقول: "في البدء صنع الله الكلمة، وها هو"؟ فلو قال موسى: "صُنعت الأرض"، لأنَّه خاف أن يقول أحد إنَّها لم تُصنَع، فكان يوحنّا بالأحرى على حقٍّ أن يخاف، لو كان الابن خُلق، أن يُقال عنه إنَّه لم يُخلَق. فالأرض التي هي منظورة، تعلن بنفسها الخالق كما قال النبيّ (داود): "السماوات تروي مجد الله" (مز ١٩: ١)، ولكنَّ الابن لامنظور وهو، بلا حدود، فوق جميع الخلائق. إذًا، وإن لم تكن هناك حاجة إلى الكلام وإلى المعتقد لكي نتعلَّم أنَّ العالم صُنع، فمع ذلك دلَّ النبيُّ على ذلك بوضوح. وقبل كلِّ شيء كان القدّيس يوحنّا على حقّ أن يقول ذلك عن الابن على أنَّه خُلق".

منذ البداية نلاحظ مناخ الجدال؛ ففي خلفيَّة كلام الواعظ تعليم أريوس مع الفعل "صنع"، وبالتالي خلق؛ فكان ردُّ مجمع نيقية: "الابن مولود (من الآب) غير مخلوق" ولا مصنوع بيد الآب، شأنه شأن العالم.

"فتعترضون أيضًا: ولكنَّ بطرس يقول ذلك بوضوح وجلاء. (أجيب): أين ومتى يقول هذا؟ (فتقولون): حين وجَّه كلامه إلى اليهود، قال لهم: "الله صنعه ربًّا ومسيحًا" (أع ٢: ٣٦). ولكن قولوا لي أنتم أنفسكم: لماذا لم تضيفوا ما يلي: "يسوع هذا الذي صلبتموه"؟ أتجهلون أنَّ هذه الكلمات يرتبط بعضها بالطبيعة اللامائتة (الخالدة) والبعض الآخر بالتجسُّد: إن لم يكن الأمرُ هكذا. وإن طبَّقتم كلَّ شيء على اللاهوت، تستنتجون أنَّ الله يتألَّم، وتبيِّنون لنا ذلك، ولكن إن كان لا يتألَّم، ينتج أيضًا أنَّه لم يُصنَع. فإن كان الدمُ المراق سال من الطبيعة الإلهيَّة واللاموصوفة، وإن كانت هذه الطبيعة، لا اللحم، تمزَّقت وانغرزت فيها المسامير على الصليب، تستند السفسطة التي تقدّمت على العقل. ولكن، إن لم يكن الشيطان نفسه جدَّف مثلَ هذا التجديف، فأنتَ لماذا "تتظاهر بجهلٍ لا مغفرة، جهل لم يلمحْه الشياطينُ أنفسهم؟".

وجاء البرهان الثاني ردًا على هرطقة اعتبرت أنَّ الآب نفسه تألَّم، لأنَّ الابن تألَّم. وكانت النتيجة: الله تألَّم. هو برهان بالمحال فيعارض المنطق والعقل: إذا كان الله يتألَّم فهذا يعني أنَّه صُنع. وإن كان لا يتألَّم فمزج الآخرون الإلهيّ مع البشريَّة، بدوا أنَّهم يجدِّفون تجديفًا لم يعرفْه الشياطين.

"ثمَّ إنَّ هذين الاسمين "ربًّا ومسيحًا" هما اسمَا كرامةٍ ولا يدلاّن أبدًا على الجوهر. واحد يشير إلى القدرة، والآخر إلى المسحة بالزيت. فماذا تقول إذًا عن ابن الله؟ إن هو خُلق، كما أنتَ تقول، كلُّ ما قيل عنه يسقط ولا يكون في محلِّه. فإن لم يكن خُلق من قبل، فيمدُّ الله إليه يده ليدلَّ على اختياره له ويرفعه، فهذا يعني أنَّ لا أصل له ولا بداية دنيئة، حقيرة. ولكن ما هو في ذاته، هو إيّاه بطبعه وجوهره. وحين سألوه إن كان ملكًا، أجاب: "من أجل هذا وُلِدتُ" (مت ١٨: ٣٧). إذا

يوحنّا الذهبيّ الفم
في قراءة إنجيل يوحنّا

الخوري بولس الفغالي
باحث في الكتاب المقدس

مقدمـــة

ثمانٍ وثمانون عظة حول إنجيل القدّيس يوحنّا ألقاها يوحنّا الذهبيّ الفم حوالى سنة ٣٩١، جاءت أقصر من العظات حول إنجيل القدّيس متّى، بحيث لم يتجاوز بعضها العشر دقائق أو الربع ساعة. بعضها قيل في الصباح، وأكثرها في المساء. في الصباح كان يعظ الرجال والنساء أصحاب الغيرة والقادرين أن يستفيدوا من هذا المعلّم الكبير، وبالتالي القادرين أن يحاربوا الهراطقة ويردُّوا على براهينهم. وفي المساء يعظ الجميع وهمُّه همّان: أن "يربّي" المؤمنين في التقوى والفضيلة، ويحذِّرهم من كلِّ أنواع الرذائل. والهمُّ الثاني، إعطاء "السلاح" المناسب في محيط أنطاكية الذي يضجُّ بالضّالين، ويجتذب الناس إلى المسارح والملاعب على حساب الاجتماعات في الكنيسة. ونحن لا ننسى أنَّ الروح الوثنيَّة كانت بعدُ مسيطرة بعباداتها وملاهيها وحياتها الصاخبة.

ذاك هو الإطار الذي قيلت فيه المواعظ حول إنجيل يوحنّا. بعد التعليم، نتوقَّف عند الردِّ على الخصوم. وأخيرًا، نتوقَّف عند الأمور العمليَّة في الحياة المسيحيَّة.

١ – الذهبيّ الفم، المعلم

منذ كان الذهبيّ الفم شمّاسًا، بدأ يعظ في حضرة الأسقف الأنطاكيّ، ميليتيوس، وحين صار كاهنًا بيد الأسقف فلافيان، ضاعف التعليم وشرح الكتب المقدَّسة. ولبث على هذه الحال اثني عشر عامًا، حتّى اختياره ليكون أسقف القسطنطينيَّة. عند ذاك رأى الحاجة عند الشعب، فما توقَّف عن الإرشاد بالرغم من صحَّته الضعيفة وبنيته النحيلة. ولبث على هذه الحال حتّى وفاته، فجاء القلم والحبر يواصلان ما كان الفم يتفوَّه به.

لاهوت الابن ومساواته بالآب

سنة ٣٢٥، حدَّد مجمع نيقية تعليم الكنيسة حول الثالوث، وردَّ على أريوس في ما يتعلَّق بلاهوت الابن، كما نتلو في قانون الإيمان النيقاويّ. لهذا انبرى الآباء يواصلون التعليم في هذا المجال، من أفرام السريانيّ إلى باسيل القيصريّ إلى غريغوار النازينزيّ. ومثلهم فعل الذهبيّ الفم الذي استفاد من يوحنّا "اللاهوتيّ" ليقدِّم العقيدة للمؤمنين، ونقرأ العظة الثالثة التي عنوانها: "في البدء كان الكلمة" (١: ١).

بعد كلام عن تكريس يوم للربِّ خلال الأسبوع، أشار إلى نظرة الهراطقة إلى "الكلمة"، ابن الله. وقبل أن ينهي على المستوى الخلقيّ، كانت البراهين في أزليَّة الكلمة. أمّا نقطة الانطلاق فالفعل "كان".

"ماذا أقول إذًا؟ أقول إنَّ هذا اللفظ "كان" الذي يُقال عن الكلمة، لا يدلُّ إلاَّ على الوجود الأزليّ. فالإنجيليّ قال: "في البدء كان الكلمة". ثمَّ "كان" الذي يأتي بعد ذلك، يعني أنَّ الكلمة كان مع "أحد". بما أنَّ هذا أخصُّ صفة لله، بأن يكون أزليًّا وبدون مبدأ، ذاك ما وضعه الإنجيليّ أيضًا وثبَّته. ثمَّ، إذا خاف أن يفهم أحدُهم هذه العبارة "في البدء كان"، فيقول إنَّ الكلمة كان لامولودًا "مثل الآب". استبق الأمور حالاً،

الدارسون إلى الإمساك به رغم أبحاثهم واستقصاءاتهم. ولكن ما لا يمكن البلوغ إليه (απροσιτος) هو ما يفلت منذ البدء من كلِّ استقصاء، بحيث لا يستطيع إنسان أن يقرِّبه. مثلاً نقول إنَّ البحر البعيد لا يُعرَف، لأنَّ السبّاحين الذين ينزلون فيه ويغطسون لا يستطيعون أن يصلوا إلى أعماقه. ولكن ما ندعوه "لا يمكن الوصول إليه" هو ما يستحيل علينا منذ البدء أن نبحث عنه (τητηθεναι) ولا أن نسبره ερεννηθεναι (ص ١٩٦-١٩٩)[٤٨].

ولماذا هذه الاستحالة؟ لماذا لا يجرؤ الإنسان أن يقترب من الله؟ قيل في الكتاب: هو نار آكلة. لا يُدنى منه. والقُربُ منه لا يُحتمَل (αφορητον): ها نحن نحاول أن ننقلكم مرَّة أخرى، بالكلام، إلى السماء، لا لنمارس فضولاً باطلاً مزعجًا، ولكن لأنّنا معجِّلون لكي ندمِّر حججًا واهية ليست في محلِّها، لدى الذين لا يعرفون أنفسهم، ويرفضون القبول بحدود الطبيعة البشريَّة. في هذا الإطار بيَّنّا وأفضنا أنَّ لا ظهور الله وحسب، بل ظهور ملائكته أيضًا ما استطاع أن يتحمَّله هذا البارّ الذي قدَّمنا لكم خبره كلَّه. أريناكم دائمًا الطوباويّ دانيال، أصفر اللون، مرتجفًا، في حالة قريبة من المائتين، ونفسه تحاول أن تقطع كلَّ رباط بالجسم البشري"[٤٩].

عاد الذهبيّ الفم مرارًا إلى هذه الفكرة. فقال مثلاً عن دانيال: "امتلأت نفسه مخافة، فما استطاع أن يحتمل منظر عبد الرب الآخر الحاضر هنا، ولا أن يتقبَّل لمعان هذا النور. ولهذا تبلبل" (٣: ٢٥١-٣٥١).

في هذا الوضع، لا يعود الإنسان يُمسك بزمام نفسه. هي الدهشة (εκπληξις) تلك عاطفة زكريّا حين ظهر عليه الملاك في الهيكل. لهذا قال له الملاك: "لا تخف يا زكريّا" (لو ١: ١٣). والسرافيم يرتعبون في حضرة الله القدّوس: "هم يميلون بعيونهم، ويبسطون أجنحتهم أمام وجههم، ويقفون منتصبين على ركبهم، ويُطلقون هتافات متواصلة" (ص ٢٣٣).

فالمخافة هي العاطفة الدينيَّة السميا. وطبيعة الإنسان أن يخاف الله (١: ٨٣-٨٤). هي مخافة الإكرام والوقار، التي تفترض تعلُّقًا بالله. ينسحق الإنسان أمام عظمة الله، فيندهش ويتبلبل، ولكنَّه يحسُّ بانجذاب داخليّ. يريد أن يبتعد ولا يقدر (φοβος). خاف دانيال أمام الملاك، فاصفرَّ وجهه. والملائكة أنفسهم يخافون أمام الله. كم هم بعيدون عن موقف الأنوميّين وما فيه من وقاحة (καταφρονειν). هنا يقول الذهبيّ الفم:

"هل لاحظت أيّةَ مخافة تسود هناك، وأيّ استخفاف هنا؟ أولئك (الملائكة) يؤدّون المجد، وهؤلاء (الأنوميّون) يسعون إلى إرضاء روح الفضول (παρι εργαζεσθαι، ٢تس ٣: ١١). أولئك ساجدون، وهؤلاء مهتمّون بأمور تافهة. أولئك يميلون بنظرهم، وهؤلاء يتواقحون ويحدِّقون بنظرهم إلى المجد الذي لا يُوصف. فمن لا يئنّ؟ ومن لا يبكي على مثل هذا الشذوذ وهذا الجنون؟" (ص ١٢٩).

ومع المخافة (φοβος) هناك الرعدة (τρομος)، في عبارة تدلّ إلى بولس الرسول (٢كور ٥: ١٥؛ أف ٦: ٥): "قل لي، هل الله هو من تعتدُّ أن تجعله تحت ناظرك؟ الإله الذي لا بداية له، الذي لا يناله التبدُّل، اللاجسديّ، اللافاسد، ذاك

(٤٨) **الينابيع** ٢٨ مكرَّر، ص ١٧. وهناك كلمات تعود إلى فيلون فيلسوف الإسكندريَّة

απερινοητος: inconcevable (4, 73)

απεριγραπτος: impossible à circoncire (3, 171)

ασχηματιστος: impossible à figurer (σχημα) (4, 186)

αθεατος (2, 147): impossible à contempler

وتبقى الصفة الأهمّ: اللامدرَك. نجد هذه العبارات عند كليمان الإسكندرانيّ، غريغوار النيصيّ...

(٤٩) العظة الثالثة، سطر ٢٢٣-٢٣٧. بدا دانيال مثل حوذي لم يعد يستطيع أن يمسك زمام نفسه، فغدا كالميت. راحت قوَّته. ثمَّ قام وهو يرتجف (εντρομος).

الحاضر في كلّ مكان، الذي يتجاوز كلَّ شيء، ويسمو على الكون كلّه. إسمع الاعتبارات التي يتفوّه بها الكتّاب الملهمون وامتلئ خوفًا (φοβηθητι). "يلقي نظره على الأرض فترتعد" (مز ١٠٤: ٣٢، τρεμειν). إذًا، نظرٌ منه واحد، هو كافٍ ليهزَّ الأرض في كلِّ اتّساعها. "يلمس الجبال فتتحوّل دخانًا" (مز ١٠٤: ٣٢). يحرّك الأرض من تحت السماء بدءًا بأساساتها، فتتأرجح عواميدها (أي ٩: ٦). يهدّد البحر وينشّفه (أش ٥١: ١٠). "رآه البحر فهرب (εφυγεν)، والأردنُّ تراجع إلى الوراء". الجبال قفزت كالكباش، والتلال مثل صغار الغنم" (مز ١١٤: ١٣-١٤). الكون كلّه ارتعش (σαλευεται)، ارتجف (δεδοικε)، ارتعد (τρεμει). وهؤلاء الناس وحدهم (الأنوميّون) يستخفّون بخالقهم، يحتقرونه، يهملونه، بل يهملون سيّد الكون (ص ١٥١-١٦١).

واللفظ الثالث φρικη (horror) هي المخافة المقدّسة في ذروتها. تجعل شعر الإنسان يقف. تُمسك بالإنسان أمام كلِّ ما يلامس الله. أمام تجديف الأنوميّين، يقشعرُّ الذهبيّ الفم. "نعود الآن إلى كلامنا في المرّة الماضية... ونحاول أن نقتلع الجذر القاتل الذي هو أمُّ جميع الشرور، والذي منه نبتت هذه التعاليم التي أخذوا (= الأنوميّون) بها. ما هو جذر جميع شرورهم؟ صدِّقوني. هي قشعريرة تمسك بي حين أذكرها. وأنا أرتجف بأن أتلفّظ بفمي ما يحرّكونه على الدوام في عقولهم. وما هو جذر هذه الشرور؟ تجرّأ إنسان فقال: "أنا أعرف الله كما الله ذاته يعرف ذاته" هل يحتاج إلى ردٍّ مثلُ هذا القول؟ هل يطلب أن نجعل تجاهه البراهين؟" (ص ١٥٤-١٥٥).

هذه المخافة هي عاطفتنا أمام قداسة الله (αγιωσυνη)، وعظمته (μεγαλωσυνη). فلا يبقى لنا سوى أن نمجّده (δοξαζειν)، ونعبده ونسجد له (προσκυνειν)، وأخيرًا نقف أمامه صامتين على مثال إيليّا على جبل حوريب، ευφημειν (ص ١٢٨-١٢٩). ذاك ما يفعل الرسول في بداية رسائله. حين يذكر الله، لا يعجِّل في عرض تعليمه، بل يبدأ بإطلاق المديح اللائق به. اسمع ما كتب إلى أهل غلاطية: "النعمة والسلام لكم من الله أبينا ومن الربِّ يسوع المسيح، الذي بذل نفسه عن خطايانا، لينقذنا من هذا العالم الشرّير عملاً بمشيئة إلهنا وأبينا. له المجد إلى أبد الدهور. آمين" (غل ١: ٣-٥). وفي ١تم ١: ١٧: "لملك الدهور اللامائت واللامنظور، إلى الإله الواحد والحكيم، الإكرام والحمد في الدهور. آمين"[٥٠].

ج- مساواة الآب والابن

في "لاإدراكيَّة الله" قدَّمنا خمس عظات، وها نحن في جزء ثانٍ، عنوانه "مساواة الآب والابن"[٥١]، نقدّم ستَّ عظات[٥٢]. العظات ٧-١٠ تعود إلى سنة ٣٨٦-٣٨٧، يوم كان يوحنّا بعدُ كاهنًا. أمّا العظتان ١١-١٢ فقد ألقاهما يوحنّا سنة ٣٩٨، بعد اختياره أسقفًا على كرسيّ القسطنطينيّة (٣ شباط ٣٩٨).

شدَّدت العظات الخمس الأولى على الله الذي لا يُدرَك. أمّا الستُّ الأخيرة فتدور حول ضلالة أونوميوس الثانية: ليس الابن من جوهر الآب. وبالتالي، ليس مساويًا لله. ونبدأ بالعظة السابعة.

ارتبطت العظة السابعة بما سبقها. ونحن نقرأ ص ١١٤-١١٦[٥٣]: "مجدُ الابن الوحيد، مرّة أخرى، هو موضوعُ عظتنا. منذ وقت قليل، بيَّنّا لكم أنَّ إدراك جوهر (της ουσιας) الله يتجاوز كثيرًا حكمة البشر والملائكة ورؤساء

(٥٠) **الينابيع**، ٢٨ مكرَّر، ص ١٩٤-١٩٥. راجع ص ٣٠-٣٩.

(٥١) **الينابيع المسيحيَّة**، ٣٩٦. راجع حاشية ٣. نتذكَّر **الباترولوجيّا اليونانيَّة** ٤٨: ٧٠١-٨٠٢.

(٥٢) وهكذا تكون العظات إحدى عشرة عظة، لا اثنتي عشرة. فالعظة حول القدّيس Philogone (**الآباء اليونان** ٤٨: ٧٤٧-٧٥٦) قد استعملها Montfaucon على أنّها العظة السادسة لكي تحلَّ محلَّ العظة التي تحمل رقم ۶ (٦) في التقليد المخطوطيّ. غير أنَّ هذه العظة هي، في الواقع، العظة الحادية عشرة (**الينابيع** ٣٩٦، ص ٧، حاشية ١)

(٥٣) نذكر هنا **الينابيع** ٣٩٦، إمّا بحسب العظة، وإمّا بحسب الصفحة.

تفاسير بولسية للذهبيّ الفم
في مجلة بيبليا

إعداد الخوري بولس الفغالي

"غضب الله (روم ١: ١٨) حسب تفسير يوحنّا فم الذهب"، ٦ (٢٠٠٠) ٥٣.

"يوحنّا الذهبي الفم والعظة الأولى في ٢ كورنتس"، ١٨ (٢٠٠٣) ٤٩.

"عظات في الرسالة إلى أفسس: يوحنّا الذهبيّ الفم"، ٢١ (٢٠٠٤) ٥٧.

"عظة الذهبيّ الفم السادسة حول كولوسي"، ٢٣ (٢٠٠٤) ٢٨.

"عظات الذهبيّ الفم في الرسالة الأولى إلى تسالونيكي"، ٢٩ (٢٠٠٦) ٦٣.

"يوحنّا الذهبيّ الفم والعظة الأولى على الرسالة الثانية إلى تسالونيكي"، ٣٠ (٢٠٠٦) ٦٧.

"يوحنّا الذهبيّ الفمّ، في الرسالة إلى أهل فيلبّي"، ٣٣ (٢٠٠٧) ٧٥.

يوحنّا الذهبيّ الفم والليتورجيا

محاضـــرة

الأب نجم شهوان (ر.ل.م.)، "النافور المارونيّ للقدّيس الذهبيّ الفم (+٤٠٧)"،

ضمن سلسلة محاضرات في الدار البطريركيّة – الربوة. يصدر قريباً عن البطريركية عينها.

ويسهم في الكفّ عن أعمال النهب، وقد مكّنه من ذلك تأثيره الأدبي، ومنزلته السامية في قلوب أبنائه؛ كان ينتظر عودة أبنائه الذين أحبهم، ويحزن لما أصابهم ويعزّيهم، ويحثّهم على ارتجاء المدينة التي لا تتزعزع أبدًا.

كان يعرف أن يستخرج الأمثولات النافعة لشعبه من خلال الحوادث، فيقول: "ما مرّ ثلاثون يومًا على نكبتنا الهائلة، حتى رجعتم إلى جنونكم، فكيف أعذركم، وكيف أسامحكم؟... فإنّكم لا تزالون عاكفين على البخل والنهب، غارقين في طمعكم!".

واحتمل حسد رفاقه وإخوته في الأسقفية، وإجحاف الأمبراطورة ونفيه، وكل آلامه النفسية، وحمل الصليب ومشى درب الجلجلة حتى الاستشهاد، ومات شهيد الكلمة والحقيقة، أمينًا على تعاليم الربّ مردّدًا: "شيء واحد، يا أولمبيا، يجب الخوف منه، محنة واحدة: الخطيئة! لم أكفّ عن القول، ولن أكفّ عن ترداد أنّ شيئًا واحدًا من شأنه أن يحزّ في نفوسنا: الخطيئة" (الرسالة ١:٧).

كان يحذّر دومًا من التشاؤم، ويدعو إلى قراءة، إرادة الله، والاستسلام لمشيئته، والاتكال على عنايته.

كان الشعب هاجس يوحنا، يخشى دومًا ألاّ يعيره رجال الكنيسة الاهتمام الكافي والرعاية الأبوية الساهرة؛ وكان يتحرّق في غربته عندما تبدو له صورة أبنائه وقد بلبلتهم الحيرة وفقدوا الرعاة الغيورين.

خاتمة

عاش الذهبيّ الفم أمام الكلمة التي جذبته، وجعلت منه نموذجًا في حياة الفقر والتجرد والبطولة الروحية والرعاية اليقظة. قامت شهرته لا على عبقريته أو فلسفته فحسب، بل على المواهبية التي وهبت له، حملها شرارة محبة ودربًا للسلوك والآداب المسيحية.

يدهشك الذهبيّ الفم لما في مواعظه من عمق وروعة أسلوب وبلاغة تعبير، ولما فيها من غزارة في التأليف يحثّك من خلالها على الفضيلة واتباع الربّ، وقد تناديك شروحاته ودراساته إلى تذوّق كلمة الله بهديه، وتجذبك عظاته وتهديك من خلال صوت هذا الراعي للعودة إلى الحظيرة، وإدراك جمالية الحياة الرعوية والحياة الجديدة بالمسيح. فنردّد ونؤكّد ما قاله نيومن:

"أرى أنّ سحر يوحنا الذهبيّ الفم يكمن في لطفه وتعاطفه مع الناس أجمعين، لا في حال قوّتهم، بل في حال ضعفهم... ومع ما كان عليه من اضطرام المحبة الإلهية، لم يفقد شيئًا من شعوره الإنساني، فكان أشبه بعلّيقة الصحراء المحترقة التي لم يذهب اللهيب الذي كان يلفّها بشيء من طبيعتها وجوهرها".

الملائكة καταλημις، وبمختصر الكلام، الخليقة كلُّها، ولا يعرفه بوضوح سوى الابن الوحيد والروح القدس. أمّا الآن، فينطلق كلامنا على حلبة أخرى من الصراع: نبحث إن كان الابن يمتلك القدرة ذاتها (δυναμις) والسلطان ذاته (εξουσια) والجوهر ذاته كالآب، أو بالأحرى نحن نطلب ذلك لأنَّنا وجدناه مع نعمة المسيح ونحافظ عليه باطمئنان تامّ" (ص ١١٤-١١٧).

إذًا، انتقل الواعظ من "موضوع" إلى "موضوع"، وهذا ما نفهمه من عنوان العظة السابعة: "من أبينا الذي هو بين القدّيسين، يوحنّا الذهبيّ الفم، إلى الذين تركوا الجماعة συναξεως والبرهان بأنَّ الابن هو من جوهر الآب. فإن كانت أقواله وأعماله تمتلك طابع التنازل (ταπεινως)، فلمَ تتمّ هذه ولم تُقَل بسبب نقص في القدرة، ولا بسبب دونيَّة، بل لأسباب مختلفة. هي الخطبة السابعة من الخطب التي تعالج اللامدرَك، والتي تلي سابقاتها" (ص ١١٠-١١١).

ضلَّ الهراطقة فاستعملوا خطأ لفظ "ابن" (υιος) ولفظ "إله" (θεος) فردَّ عليهم الواعظ: "إذا كان للابن القدرة عينها والجوهر عينه، وإن كان يعمل كلَّ شيء بالنظر إلى سلطان سامٍ، فلماذا إذًا يصلّي؟" (٧: ١٤٣-١٤٥). ذاك كان اعتراض الأنوميّين؟ ردَّ يوحنّا على هذا السؤال في أربع محطّات، تعود كلُّها إلى تنازل من قبل المسيح، دون أن ينقص مجده.

والعظة الثامنة واصلت الجدال حول جواب يسوع على طلب أمِّ ابنَي زبدى: "ليس لي أن أعطي ذلك، لأنَّه للذين أعدَّه لهم أبي" (مت ٢٠: ٢٣). كان هذا القول مناسبة فِسَارٍ (herméneutique) يستند إلى الفرق بين المعنى الحرفيّ والمعنى الاستعاري، يجب علينا أن نقرأ الكتب المقدّسة بتفهُّم، وهي تقدِّم الجواب الحقيقيّ للاعتراضات التي يحرِّكها الهراطقة حول تنازل المسيح. ونقرأ كلام يوحنّا (ص ١٩٤-١٩٧):

"حين قدَّموا هذا الطلب، اسمعوا ما أجابهم: "أنتم لا تعرفون ماذا تطلبون!" (مت ١٠: ٣٨). هل نجد أوضح من هذا الكلام؟ أرأيت أنَّهما لا يعرفان ما يطلبان حين يتحدَّثان عن تيجان ومُجازاة وأوليَّة وكرامة، وهم لم يفهموا بعد أنَّ القتال لم يبدأ بعد. حين قال: "لا تعرفون ماذا تطلبون" أفهمنا أمرين: الأوَّل، تكلَّما عن مملكة لم يذكرها المسيح، لأنَّه لم يعلن مملكة أرضيَّة منظورة. الثاني، طلبا الأوَّليَّة وكرامات السماء، وأرادا تجاوز الآخرين بالشهرة والمجد. لم يعبِّرا عن طلبهما في الوقت المناسب، بل في لحظة لم تكن في محلِّها. فليس الوقتُ وقت أكاليل وجوائز، بل وقت قتال وصراع ومجهود وعرق واستعداد وحروب. وإليك ما أراد أن يقول: لا تعرفان ماذا تطلبان حين تتوجَّهان إليّ في هذا الموضوع، وأنتما ما تعبتما، وما تعرَّيتما من أجل القتال، ساعة الأرض كلُّها في الضلال، والكفر يسود، وجميع البشر يهلكون. ما عبرتم بعدُ خطَّ الانطلاق، وما تعرَّيتم من أجل القتال.

"هل تستطيعان أن تشربا الكأس التي أشرب، وتقبلا المعموديَّة التي أقبل؟" (مت ١٠: ٣٨). دعا هنا "الكأس" و"المعموديَّة"، صليبَه وموته. الكأس: إليها يمضي مبتهجًا. والمعموديَّة: بها ينقّي الأرض كلَّها. وليس فقط بسبب ذلك، بل بسبب السهولة التي بها يقوم. كما أنَّ ذاك الذي يعمَّد في الماء يقوم بسهولة دون أن تمنعه طبيعةُ الماء، كذلك ذاك الذي نزل في الموت قام أيضًا بسهولة. لهذا يدعوه معموديَّة..."

العظة التاسعة استندت إلى قيامة لعازر، وإلى الشفاءات العجائبيَّة التي أجراها الرسل، فردَّت على أقوال الأنوميّين حول دونيَّة الابن بالنسبة إلى الآب.

"اليوم لعازر حين قام، يتيح لنا أن نضع حدًّا لشكوك عديدة، مختلفة. فلا أعرف كيف أنَّ هذه القراءة (في سبت لعازر، وقبل أحد الشعانين، كما هي العادة في الكنائس الشرقيَّة) قدَّمت فرصة للهراطقة، ومناسبة رفض من قبل اليهود، لا بحقّ، لا سمح الله، بل نتيجة مهارة نفسهم الفاسدة".

ماذا يقول الهراطقة؟

"من جهة، يقول هراطقة عديدون إنَّ الابن غير مساوٍ (ουχ ομοιος) للآب. لماذا؟ لأنَّ المسيح (كما قالوا) احتاج أن يصلّي لكي يقيم لعازر. فلو لم يصلِّ لما كان أقام الميت (لعازر). وقالوا: كيف أنَّ ذاك الذي وجَّه صلاة هو مساوٍ لمن تقبَّل تضرُّعه؟ فواحد يصلّي، وآخر يتقبَّل صلاة المتضرِّع إليه. هم يجدِّفون، لأنَّهم لا يفهمون كيف تكون الصلاة

تنازلاً، وسببها ضعف الفكر لدى الحاضرين...".

هكذا راعى يسوع الضعف البشريّ، بل هو تنازل وغسل أقدام التلاميذ بمن فيهم يوضاس. وبعد ذلك انتقل يوحنّا إلى اليهود لكي يردَّ عليهم. قالوا: "كيف يعتبر المسيحيّون إلهًا، من جهل الموضع الذي فيه وُضع جثمان لعازر بعد موته؟ فالمخلِّص قال لمرتا ومريم: "أين وضعتموه؟" (يو ١١: ٣٤). فقالوا: هل رأيت الجهل؟ هل رأيت الضعف؟ فالذي يجهل حتّى الموضع، أيكون الله؟

وكان جواب يوحنّا على هذا الاعتراض. إنَّ الله الآب جهل الموضع الذي فيه اختبأ آدم في الفردوس. قال: "آدم، أين أنت؟" (تك ٣: ٩).

العظة العاشرة وازت بين الشريعة القديمة وبين الشريعة الجديدة التي تكمِّل القديمة. تداخلت عند يوحنّا نصوص العهد القديم والعهد الجديد، فوصل الواعظ إلى الكلام عن مساواة تامَّة بين الآب والابن. جاء العنوان كما يلي: "منه (أي من يوحنّا) عظة حول واقع يجعلنا لا نقول ما نعلم ولا ننقله إلى الآخرين، حول الصلوات التي تلاها المسيح، حول سلطانه على كلِّ شيء، حول التفسير الصائب للشريعة القديمة. وأخيرًا، التجسُّد لا يقلِّل من مساواة الابن مع الآب، بل يثبِّتها" (ص ٢٣٨-٢٣٩).

العظة الحادية عشرة هي تفسير لما في تك ١: ٢٦: "نصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا". فصيغة الجمع تدلُّ على أنَّ الابن الوحيد شارك في الخلق لأنَّه في مساواة مع الآب. "في ذلك الوقت، كان يتوجَّه إلى الابن الوحيد" (ص ٢٩٦-٢٩٧).

العظة الثانية عشرة هي تأمُّل طويل حول أعمال المسيح وأقواله، بحسب القراءة التي تُليَت في ذلك اليوم: شفاء المخلَّع. مع العنوان: "أبي يعمل دائمًا وأنا أيضًا أعمل" (يو ٥: ١٧). هنا يشرح يوحنّا الذهبيّ الفم الفصلَ الخامس من إنجيل يوحنّا. في مقطع أوَّل، يدور الكلام حول بركة بيت حسدا. في مقطع ثانٍ يتحدَّث الواعظ عن الشفاء. في مقطع ثالث، نقرأ اعتراض اليهود في ما يخصُّ السبت.

وتنتهي العظة الثانية عشرة ومعها الكتاب: "إذا أردنا أن نصير أصدقاء الله يا أحبّائي، نهتمُّ كلَّ الاهتمام، كلَّ يوم، بهذا الجمال. نتخلَّص من كلِّ نجاسة فنقرأ الكتاب المقدَّس، ونصلّي، ونعطي الصدقات، ونتَّفق بعضنا مع بعض، لكي يرانا الملك المحتجب بما لنفسنا، أهلاً لملكوت السماوات. يا ليتنا نناله بنعمة ربِّنا يسوع المسيح ومحبَّته، فله المجد كما للآب والروح القدس من الآن وإلى الأبد وفي دهر الدهور. آمين" (٣٥٤-٣٥٧).

الخاتمـــة

في إطار الردِّ على بدعة شكَّلت خطرًا على الكنيسة في وقت من الأوقات، بدعة اعتبرت أنَّنا نعرف الله كما يعرف ذاته، بدعة أنزلت يسوع المسيح إلى مستوى الإنسان، بعد أن صرنا آلهة وهو صار إلهنا معنا، فما تميَّز عنّا حتّى على مستوى معرفة الآب وعلاقته بالآب، بدعة استندت إلى الكتاب المقدَّس لتبرِّر موقفها فأعلنت أنَّ الابن لا يشبه الآب، فاتَّخذت اسمها "الأنوميّين" (αν-ομοιοι). في هذا الإطار جاء كلام يوحنّا الذهبيّ الفم. ترك البراهين الفلسفيَّة التي عاد إليها الخصوم مستعملينها سلاحًا على الإيمان، وتوقَّف عند البراهين الكتابيَّة. وهكذا كانت لنا شروح عن آيات عديدة وعن مشاهد. لا، الله لا يُدرَك. فالملائكة لا يدركونه. والابن مساوٍ للآب ولو صلّى أمام قبر لعازر ولو قال هذا القول أو ذاك. وشرح يوحنّا النصوص الكتابيَّة في إطار التنازل الإلهيّ. هذا على مستوى اللاهوت. أمّا على مستوى الكتاب المقدَّس، فبانَ هذا الواعظ في أنطاكية والقسطنطينيَّة تلميذًا لديودور، ورفيقًا لتيودور، وسابقًا لتيودوريه في تفسير للكتاب ينطلق من الحرف والواقع، ليصل إلى الروح والحياة العمليَّة. كلُّ هذا جاء في شكل دفاع وهجوم مع سعي إلى إقحام الخصم. إلاّ أنَّ يوحنّا لبث ذاك الراعي الذي يدعو هؤلاء "الضالّين" للعودة إلى الكنيسة. وهكذا اجتمع فيه همُّ الكنيسة وهمّ المؤمنين، فكان العلم في خدمة المحبَّة، لأنَّ العلم ينفخ أمّا المحبَّة فتبني. بعد ذلك، هل نعجب أن يكون يوحنّا الذهبيّ الفم بعدُ عائشًا معنا بعد ألف وستمئة سنة على وفاته!

تجري في أوقات عظاته، فتلهي الجمهور عن سماعها. وكانت الكنيسة تضيق ليلة الأحد بالمؤمنين، أما في الصباح فإنّها كانت فارغة خالية، إذ كان الشعب يترك الصلاة، ويسرع إلى حضور سباق الخيل، والمركبات والألعاب والمهازل التي كان أكثرها منافيًا للآداب.

فشرع يوحنا يؤنّب ويوبّخ الذين يتردّدون إلى تلك الملاهي، ويلومهم أشدّ اللوم، ويدلّهم على أماكن التسلية والتنزّه التي يمكن فيها ترويح النفس والجسد دون إغاظة الله، فيدعوهم إلى التمتع بجمال الطبيعة وما فيها، ويحثّهم على الابتعاد عن العشرة الرديئة والجماعات المضلِّلة، فيقول: "فإذا كان فيكم إلى الآن من يذهب، بعد استماع التعاليم والمواعظ، إلى الملاعب والملاهي، وحلقات المشعوذين، ومجالس السكّيرين والفسّاق، والمستهزئين، ألا يكون عمله هذا دليلاً على تناسيه التعاليم والعظات؟ أما يضحك عليكم الخوارج الذين يسمعون أقوال شريعتكم، ويرون أعمالكم المخالفة لها؟

ج- محبة يوحنا للفقراء

منذ أن أصبح يوحنا شمّاسًا حتى وكلت إليه مهمة العناية بالفقراء وتوزيع الصدقات عليهم، فرافقهم وعاش معهم ودافع عن حقوقهم، حتى عن اللاجئين الذين كانوا يميلون إلى السلب، فدافع عنهم بقوله: "إنّ الفقير شفيعه فقره، فلا تطلبوا منه شيئًا آخر. وإذا كان الفقير شرّ الناس، وجب علينا سدّ فاقته، وتسكين جوعه، إذ ينبغي لنا أن نشبه أبانا السماوي، الذي يُطلع شمسه على الصالحين والأشرار؛ فلا حاجة إلى السؤال عن وطن الفقير، وطباعه وصناعته، وصحته، فالفقير فاقته وحدها تجعله مستحقًا الصدقة".

ويوم رُسم أسقفًا، ولشدة زهده، باع الأثاث الثمين الذي وجده في بيته، ووزّع ثمنه على الفقراء. بنى مؤسسات خيرية، وهاجم مُحِبّي المال، فقال: "إنكم تسلبون الأرملة، وتدوسون الضعيف الساقط، وتطأون بأرجلكم العدالة والشرف، لكي تزيّنوا بالذهب سروج خيلكم ولجمها، وتموّهوا بلونه الأصفر سقوف بيوتكم ورؤوس أعمدتها... إنّكم تعتنون بطعام كلابكم، وتتناسون البشر المخلوقين على صورة الله، وتتركونهم يموتون جوعًا".

ويحثّ على الصدقة بقوله: "فلنستيقظ من غفلتنا، ونجتهد في نقل أموالنا إلى دار الأبدية، على يد إخوتنا المساكين، لننال الثواب من ربنا ومخلصنا". فكان رسول المحبة، يريد العدالة الاجتماعية بواسطة المحبة، وكان يردد: "من يعطي الفقراء فهو يعطي الله".

د- فضائل يوحنا الرعوية

ما كان يوحنا يعمل لكسب المجد البشري، بل جعل نفسه كُلاً للكل ليربح الكل، ويكسب الأنفس ليسوع المسيح. ولذلك ما بالى بالوشايات والشتائم، ولا عادى أحدًا، بل سالم الجميع وأحبّهم وسامحهم، وعبّر عن ذلك بقوله: "أنت تبغضني وأنا أباركك من كل نفسي، وأحبك حبًا خالصًا... وإن لمتك أحياناً، فذلك ناتج من اهتمامي بخلاصك".

كان كلامه يعرب عن تواضعه وعن محبته لأولاده، فكان يطلب منهم باستمرار أن يذكروه في صلواتهم، ويناشدهم كي ينبّهوه إلى نقائصه". وكان يخطب في الجماعة القليلة، كما يخطب في الجماعة الكثيرة، كان يشجعهم ويعلّمهم، ويقوّي الإيمان ويرسّخه في قلوبهم، ويحثّهم على ممارسة الاسرار.

مارس تقشّفات شديدة في خلواته، وعاش فقيرًا متجردًا، واجتهد في استئصال الرذيلة من نفوس أبنائه، ويحثّهم على العودة إلى بيت الله والتوبة، وقضاء الساعات الطوال في إنشاد مدائح الله والصلوات.

ورغم النكبات التي تعرّضت لها القسطنطينية، والزلازل التي توالت على المدينة، والاضطراب العام، والخوف الشديد، وهروب الزعماء، بقي يوحنا الراعي الصالح وحده في المدينة، يسعى إلى إعادة النظام،

عظات تشرح مواضيع شتّى من الرسالتين.

- **في الرسالة إلى الغلاطيّين**: ترقى إلى الحقبة الأنطاكية (فصح ٣٨٨)، وهي عبارة عن تفسير متتابع للرسالة يشرح الآيات الواحدة تلو الأخرى، ويرصّ فيها الآراء التفسيرية المختلفة.
- **في الرسالة إلى الأفسسيّين**: ٢٤ عظة أُلقيت كلّها في أنطاكية، ما خلا ثلاثًا (السادسة والعاشرة والحادية عشرة) أُلقيت في القسطنطينيّة ما بين ٤٠٣ و٤٠٤.
- **في الرسالة إلى الفيليبيّين**: ١٥ عظة ترقى إمّا إلى الحقبة الأنطاكيّة، وإمّا إلى زمن القسطنطينيّة، ينشط فيها الكلام ضدّ مرقيون وآريوس وبولس السّاموساطي، على كمال الناسوت واللاهوت في المسيح.
- **في الرسالة إلى الكولوسيّين**: إثنتا عشرة عظة أُلقيت في القسطنطينيّة سنة ٣٩٩.
- **في الرسالتين إلى التسّالونيكيّين**: إحدى عشرة عظة في الرسالة الأولى، وخمس في الثانية، ترقى إلى زمن القسطنطينيّة.
- **في الرسالة إلى تيموثاوس وتيطس وفيلمون**: ثماني عشرة عظة في الرسالة الاولى إلى تيموتاوس، وعشر عظات في الثانية، وعشر عظات في الرسالة إلى تيطس، وثلاث عظات في الرسالة إلى فيلمون، ترقى كلّها إلى الحقبة الأنطاكية.
- **في الرسالة إلى العبرانيّين**: ٣٤ عظة أُلقيت في أواخر سنوات البطريركيّة (٤٠٣ – ٤٠٤).

٢– العناصر الرعوية عند يوحنا الذهبيّ الفمّ

يوحنا طبيب ماهر في إضاءة البعد الرعوي، فإنّه يعالج الناس في لطف الآسي، كما يعالجهم بالصراحة والقسوة، عندما تكون الصراحة كشفًا للداء، والقسوة استئصالاً للشرّ والفساد.

وكان هدف يوحنا الوحيد إنماء المحبة المسيحية بين المؤمنين، وقد قضى حياته يحارب الفساد، ولكنه كان يعلم أنّ رحمة الله أقوى من ضعف الإنسان، فهو القائل: "إذا عدتَ إلى الخطيئة فعُد إلى التوبة، ومهما تعددت خطاياك أشفِقَ منها متى عدت إليّ".

أ– يوحنا يحارب الأصنام

الحادثة التي فجّرت العداوة هي حادثة التمثال الذي أرادته "أودوكسيا" امام كاتدرائية "آيا صوفيا"، لاسترجاع شعبيتها، وبما أنّ التمرّن على الاحتفال بيوم التدشين لازم أعمال البناء والنحت، فما كان يُسمع أثناء إقامة الصلوات سوى الضجيج وأصوات الموسيقى والمغنّين. فارتفع صوت يوحنا يحذّر الشعب من عبادة الأصنام، واحتجّ على هذا الإزعاج، ثم قصد القصر، وشكا همّه إلى الوزير. علمت "أودوكسيا" بالأمر، فغضبت وضاعفت من صخب الاحتفالات. وتهجّم حينئذٍ يوحنا في عظاته على هذه الممارسات، وشبّه "أودوكسيا" بهيروديا التي طلبت رأس يوحنا المعمدان، فيقول: "من جديد هيروديا تغضب، من جديد تحتدّ حنقًا، من جديد ترقص، من جديد تطلب رأس يوحنا على طبق...".

أضف إلى ذلك أنّ أغلبية سكان أنطاكية مسيحيون أيام الذهبيّ الفم، ولكنّ عبادة الأصنام كانت لا تزال شائعة فيها، ولا سيما عبادة "أبولون"، الذي كان يمثّل الشمس.

وكان سكان القرى يعظّمون هذا الإله، ويعتقدون أنّه مركز الحرارة، ومصدر كل خصب، فقال فيها: "بعد الفجر ينشر ملك النهار راية أشعته على الآفاق...، لكن هذا الكوكب عرضة للتقلبات والنقص...، وشمس البرّ الحقيقية هو يسوع المسيح".

ب– يوحنا يحارب الخلاعة والملاهي

كان الأنطاكيون معروفين في الشرق كله بولوعهم بالملذّات، وقد أصبحت مدينتهم مشهورة بما كانت تقدمه من أسباب الخلاعة والملاهي، فقام يوحنا بجرأته المعروفة يحاربها ويقبّحها، ولا سيما تلك التي كانت

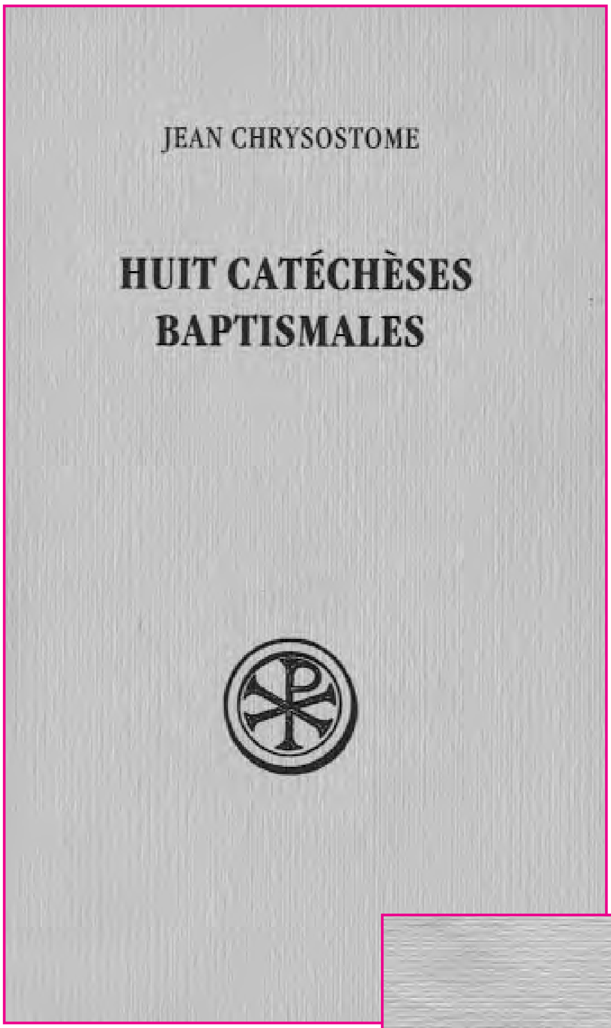
JEAN CHRYSOSTOME
HUIT CATÉCHÈSES BAPTISMALES

JEAN CHRYSOSTOME
COMMENTAIRE SUR ISAÏE

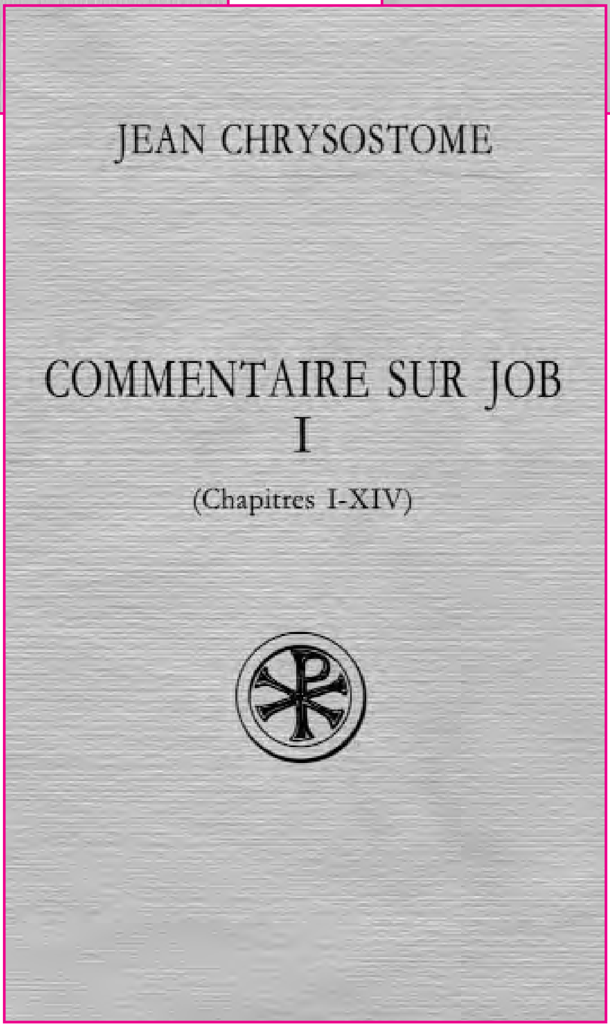
JEAN CHRYSOSTOME
COMMENTAIRE SUR JOB
I
(Chapitres I-XIV)

المعطيات البيبليّة في نافور مار يوحنّا فم الذهب بحسب مخطوط دير الشرفة ٦٢ (القرن السابع عشر)

الأب نجم شهوان (ر.ل.م.)
أستاذ مادة الليتورجيا في جامعة الروح القدس، الكسليك

مقدّمة

يشكّل نافور مار يوحنّا فم الذهب واحدًا من النوافير المتّعبة، ولو بشكلٍ غير متواتر، في طبعات القدّاس الماروني ابتداءً من سنة ١٩٩٢/٤، الذي طُبع في روما، وحتّى سنة ٢٠٠٥، الذي طُبع في بكركي، لبنان، محورًا من محاور لاهوت النوافير السريانيّة المارونيّة، كونه واحد من آباء الكنيسة الكبار، وأحد أقمار كنيسة القسطنطينيّا، ولهذا يأتي ذكره ما بين الذين دافعوا عن الإيمان المستقيم، وعزّزوا هويّة الكنيسة.

وأمّا على صعيد المخطوطات التي ذكرت نافور مار يوحنّا فم الذهب، ما بين النوافير التي صلّتها الكنيسة المارونيّة، فلدينا كمٌّ لا بأس به حضنته المكتبات اللبنانيّة والمكتبات الأوروبيّة، وكلّها كتب صلوات، وليست كتب دراسات. ولهذا يُعتبر نافور مار يوحنّا الذهبيّ الفم، وهو ذات أصل أنطاكي، بحسب دراسات الخوري سركيس، وربّما يؤيّد الكثير من الباحثين فكرته، خاصّة وأنّ يوحنّا قد انطلق من أنطاكيا وأخذ معه تراثها، ولكنّه عدّل في معطيات النافور المعروف بنافور الاثني عشر.

سوف نتوقّف عند وصف المخطوط الذي تحفظه مكتبة دير سيّدة النجاة البطريركيّة للسريان الكاثوليك، الشرفة–درعون، حريصا، وهو يعود إلى تراث الكنيسة المارونيّة، لننتقل بعد وصف المخطوط إلى معطيات النافور الذي اختير للمعالجة، ومن بعد ذلك نعرض العناصر التأسيسيّة للاهوت النافور، خاصّة العناصر التعليميّة، والعناصر البيبليّة التي ولجت هيكليّة هذه الصلوات.

١. وصف المخطوط

ورد وصف لهذا المخطوط في دليل المخطوطات الذي وضعه الأب بهنام سوني[١]، تحت الرقم ٦٩٨، ووضع له عنوان 'كتاب العِبّ للموارنة'، وفيه صلوات وعبادات بحسب طقس الكنيسة المارونيّة. كُتب المخطوط بالحرف الكرشوني[٢] وبالحرف السرياني على السواء، وهو يشتمل على مواضيع متعدّدة: كتاب الاعتراف بالخطايا، مديحة لمار يعقوب المقطّع، صلوات لشمعون الشيخ وعلى النفساء، رتبة العماد، حلّ الخطايا. دخول الإمرأة إلى البيعة، تناول المشرف على الموت، مسحة المرضى، بركة الرماد في مستهلّ الصوم، رتبة القنديل (ستّة قومات)، تفسير الإنجيل للأعياد، رتبة الخاتم (الإكليل)، نافور مار بطرس، نافور مار يوحنّا فم الذهب، نافور الاثني عشر رسولاً.

(١) الأب الدكتور بهنام سوني، فهرس المخطوطات البطريركيّة في دير الشرفة ، بيروت–لبنان ١٩٩٣، ص ٢٥٠.

(٢) كرشوني من الأصل السرياني ܟܪܫܘܢܐ من كلمة ܟܪܫܐ وتعني البطن أو الحشا، وهي تعني هنا اللغة العربيّة المكتوبة بأحرف سريانيّة.

الروحانية الانطاكية المشرقية، وترتكز شروحاته على البعد الرعوي الذي يحياه الإنسان في حياته اليومية. فيوجد دراسات في العهد القديم عن سفر التكوين وصموئيل وداود النبي وشاول والمزامير والأنبياء، وأشهرها شرح كتاب أشعيا. أما في العهد الجديد فهناك شرح لإنجيل متّى بكامله، ولإنجيل يوحنا، ثم شرح لكتاب أعمال الرسل، ولرسائل القديس بولس.

كان الكتاب المقدس المصدر الوحيد لأفكاره؛ طريقته في شرح الأفكار رائعة. عندما يتأمل في نصوصه يبدع. يلجأ الى الصور والتشابيه، مُظهرًا معاني مخفية لا تخطر على بال أحد. يعطي حياةً للكلمات فيجعلها تتحرك أمامنا، وتتطاير من الصفحات لتصل إلى السامع. مخيلته غنية، باهرة، خصبة، ملوّنة، تضفي على عباراته بريقًا وتنوعًا وقوة وروعة.

العظات

أغلب كتابات الذهبيّ الفم عظات يرمي من خلالها إلى التوسّع في شرح الكتب المقدسة، وفكّ رموزها، والإبانة عن مقاصدها السّنيّة. ولقد تلا معظمها على مسامع المؤمنين إبّان خدمته في إنطاكية (٣٨٦–٣٩٧). وبأمانة كليّة لمدرسة أنطاكية التي كانت تخالف مدرسة الإسكندريّة في استخراج المعاني من نصوص الكتب المقدّسة، عكف يوحنا على المعنى الحرفيّ، وأغناه بمكنوناته الروحيّة التي غالبًا ما كان يَعبُر منها إلى نصائح خُلقيّة ومسلكية تصلح لحياة المؤمنين اليومية. ومع إيثاره لكتابات بولس التي أفرد لها نحو نصف عظاته، فإنّه جال جولات واسعة في مختلف كتب العهدين القديم والجديد.

لم نُعطَ الكتابات المقدّسة لكي نُبقيها في الكتب، بل لكي نحفرها، بالقراءة والتأمل، في قلوبنا. الناموس يجب أن يكتب على ألواح من لحم، على قلوبنا (العظة ٣٢ : ٣).

– العظات التفسيرية

أ– العهد القديم

- **في التكوين:** عظات مؤلّفة من سلسلتين متكاملتين، ألقى الاولى منهما في أثناء صوم ٣٨٦، والثانية في سنة ٣٨٨.
- **في المزامير:** عظات تعود إلى نهاية الحقبة الأنطاكيّة، اختار فيها يوحنا ٨٥ مزمورًا تناولها بالتفسير والشرح والتعليق.
- **في أشعيا:** عظات منها ما يرقى إلى الحقبة الأنطاكية، ومنها ما يرقى إلى زمن الأسقفية القسطنطينية.
- **في غموض الأنبياء:** عظات تتناول الأنبياء بصورة عامة.
- **في حنّة:** خمس عظات تعود الى سنة ٣٨٧.
- **في داود وصموئيل:** ثلاث عظات في الزمن عينه.

ب– العهد الجديد

- **في إنجيل القدّيس متّى:** مجموعة من ٩٠ عظة أُلقيت في أنطاكية سنة ٣٩٠، ناهض فيها يوحنا المانويّين، وبيّن أنّ إله العهد القديم وإله العهد الجديد يمثّلان مشترعًا واحدًا، وأنّ ناموس المسيح هو مكمّل لناموس العهد القديم، وناهض الأريوسيّين مُظهرًا أنّ الابن مساوٍ للآب في الجوهر.
- **في إنجيل القدّيس يوحنا:** مجموعة من ٨٨ عظة تمتاز عن سابقاتها بالقِصَر والإيجاز، ألقاها يوحنا حوالى سنة ٣٩١، وضمّنها دفاعًا عن لاهوت الابن ضدّ الأريوسيّين والأونوميّين، مُظهرًا بوضوح التنازل أو التخلي الذي آثره الابن افتداءً للبشرية.
- **في أعمال الرسل:** سلسلتان من العظات تشتمل الأولى منها على أربع عظات تتحدّث عن مقدمة كتاب الأعمال، أُلقيت في فصح ٣٨٨، وتتضمّن الثانية ٥٨ عظة أُلقيت عام ٤٠٠، وتتناول الكتاب كلّه.
- **في الرسالة إلى الرومانيّين:** ٣٢ عظة ترقى إلى الحقبة الأنطاكية، وتعدّ من أنصع ما وصلنا من شروحات آبائيّة لهذه الرسالة.
- **في الرسالتين إلى الكورنثيين:** مجموعة من ٤٤ عظة في الرسالة الأولى، و٣٠ في الثانية، ترقى أيضًا إلى الحقبة الأنطاكية. تضاف إليها سبع

العناصر البيبليّة والرعويّة عند يوحنّا الذهبيّ الفم

الخوري جوزف سلّوم

مقدمـــة

الذهبي الفم، ذاك الوجه الانطاكي، الشهيد مثل معلمه المسيح، شهيد صراحته وشجاعته، شهيد محبته لحقيقة الإنجيل وحرصه على تطبيقه، هو ذاك الحاضر في قلب تاريخ الكنيسة والمساهم في حل مشاكل شعبه.

اكتسب شهرةً تجاوزت حدود الشرق الى الغرب وارتكزت على نزاهته وقداسته وبلاغته: مارس يوحنا الذهبيّ الفم النسك في البراري والجبال وأصبح جسمه نحيلاً، ضعيفًا، أما صوت هذا الكاهن فكان ذا نبرةٍ قويةٍ جبارةٍ تصل إلى القلوب وتحث على التغيير والاهتداء.

دُعِيَ "ذهبيّ الفم" بسبب فصاحته وجمال أسلوبه وروعة كلماته المسبوكة كالذهب. وقرر "أن يقطف لله بواكير كلامه، تلك الموهبة التي أنعم بها الله عليه"، ورغم ذلك ورغم موهبته الخارقة، بقي متواضعًا ولم يسكر بالمجد.

دافع هذا الكاهن عن شعبه وسط الأزمات، وعزم بعد ترقّيه الى الدرجة الأسقفية أن يحيا زاهدًا في قصره الأسقفي، وعمل مدافعاً عن الحق، يحب البؤساء والفقراء ويساعدهم، ولكنه تعرض للنفي، فالرجال المتفوقون بالفضيلة هم أكثر عرضة للمحن.

استشهد عمود الكنيسة ومصباح الحقيقة وبوق الله، تاركًا لنا مؤلفات واسعة في شتى المواضيع تناول بعضها الحياة الرهبانية، ودراسة حول الكهنوت، ومؤلفات منوعة حول التربية والعفة، ومؤلفات في الدفاع عن الدين، ورسائل متنوعة ومتعددة تفوق ٢٣٦ رسالة، وعظاته ودراسات مكتملة لكتبٍ من العهد القديم والعهد الجديد. لم يترك أحد من الآباء، ارثًا أدبيًا وروحيًا مثل يوحنا، لا في حجمه ولا في مضمونه، ويبقى الوجه اللامع في تاريخ آباء الكنيسة لاسيما الآباء اليونانيين.

وأمام هذا الغنى في شخصيته وفضيلته وغزارة مؤلفاته نتوقف في هذه الدراسة على بعدين، أحداهما بيبلي، والثاني رعوي.

١ – العناصر البيبلية عند يوحنا الذهبيّ الفم

يُظهر يوحنا حبّه للطبيعة لما يساعده ذلك في الحياة التأملية وفي صلاته، غير أن ما يزيّن جمال النفس هو الإصغاء إلى كلمة الله ودرس الكتاب المقدس، فيقول:

"المروج حسنة، والبساتين جميلة، ولكن قراءة الكتاب المقدس أحسن وأجمل. هنالك ترى الأزهار التي تذوي وتذبل، وهنا الأفكار تزهر. هنالك يهب النسيم، وهنا روح الله. هنالك السياج شوك، وهنا عناية الله سورنا. هنالك قرّة العين، وهنا منافع القراءة. البستان محدود محصور، والكتب المقدسة منتشرة في الارض كلها. البستان عرضة لتأثير الفصول، والكتب المقدسة لا يؤثر فيها صيف، ولا شتاء، بل هي على الدوام مورقة حاملة الأثمار".

ان معظم أعمال وكتابات الذهبي الفم مؤلفة من مواعظ حول كتب العهد القديم والجديد، تتجلى فيها

هناك دفَّتان في المخطوط تسجِّلان بعض الأحداث التي رافقت تكوين المخطوط، وهي تعود إلى ما بين سنة ١٦٤٩ وإلى سنة ١٦٦٩، وهناك ذيل فيه يقول: "في ١١ كانون أوَّل سنة ١٧٧٩، دخل بملك الحقير يوسف بن نعمة الله غنطوز، ولهذا من المفترض أيضًا أن يكون هذا المخطوط عائدًا إلى القرن السابع عشر، أو إلى القرن الثامن عشر ميلادي.

يقع نافور يوحنَّا فم الذهب، الذي اخترناه للمعالجة ما بين **الورقة ٩٠أ والورقة ٩٤ب**، وهو تحت عنوان "ܬܘܒ ܐܢܐܦܘܪܐ ܕܩܕܝܫܐ ܝܘܚܢܢ ܦܘܡ ܕܗܒܐ" وتعني "أيضًا نافور القدِّيس يوحنَّا فم الذهب" (الورقة ٩٠أ). يُستهلُّ النافور، ما يُعرَف بالـ *Incipit*، بالصلاة التالية: "اللهم ذلك العظيم الأبدي الذي أنت هو الأمان والسلام والمحبَّة وينبوع الرحمة" (الورقة ٩٠أ). ويختم النافور، ما يُعرَف بالـ *Desinit*، بالصلاة التالية: "وارحم واصفح عن أمواتنا، لكيما دائمًا وبجميع الأوقات نمجِّدَكَ ولأبوك الصالح، ولروحك الحيّ القدُّوس الآن وإلى كلِّ أوان وإلى دهر الداهرين. الشعب: آمين. (الورقة ٩٤ب).

قياس المخطوط ٢١٠x ١٥٥x ٣٠مم، نوعيَّة الخط غير أنيقة، ولكنَّه يستعمل اللون الأسود للنصوص، واللون الأحمر للتوجيهات وللعناوين. بالإمكان قراءته بسهولة، وهو يتألَّف من ٩٧ ورقة. يشوب المخطوط بعض المشاكل المنهجيَّة، من حيث توزيع النصوص بشكل متوازن، أو بسبب الزيادات الظاهرة على الهوامش. كما أنَّ عوامل الزمن أضاعت من أطرافه بعض الوريقات، بالإضافة إلى عامل الرطوبة والعثّ التي ساهمت في تشويه بعض معالمه الأولى.

٢. نص المخطوط وترجمته

هناك نوعان من اللغة: السريانيَّة والعربيَّة، ولكن بحرف واحد للغتَين، هو الحرف السرياني. سوف نورِد النصَّ السرياني، وستكون ترجمته ملاصقة له بين هلالَين، وأمَّا النصّ العربي، المخطوط بالحرف السرياني، سنقلبه إلى الحرف العربي مباشرةً، بالحرف الأصيل له، تاركين كتابته كما هي، شهادة على الأدب العربي المسيحي في القرن السابع عشر في الكنيسة؛ أمَّا إذا كان هناك التباس في معنى الكلمة سنشرحه في الحاشية، بالإضافة إلى تصحيح بعض أخطاء الصرف، ولكن مرَّة واحدة لكلّ كلمة وليس في كلِّ مرَّة. كما سنعرض أرقام ورقات المخطوط في بدايتها، لمعرفة بداية الصفحة، ودائمًا بحسب المخطوط، وأمَّا الكلمات أو النصّ الناقص فسنكمله واضعين إيَّاه ما بين قوسَين. هناك ثلاثة أدوار: دور الكاهن، دور الشمَّاس، ودور الشعب. سوف نلاحظ أنَّ النصوص الخاصّة بالكاهن هي شبه كاملة، وأمَّا النصوص الخاصّة بالشمَّاس فلا يوجد منها سوى البدايات أو مستهلّ مداخلاته، وكذلك دور الشعب القليل نسبيًّا وهو نفسه فلا نجد سوى بدايات أجوبته على الكاهن المحتفل. وبالنسبة إلى الروبريكات أو التوجيهات فستكون هي أيضًا بين هلالَين، وإذا اقتضى الأمر لتكملتها سوف تخضع لتدبير ما هو ناقص أيضًا.

«أيضًا نافور القدِّيس إيونيس[٣] فم الذهب»

«صلاة ما قبل السلام»

[الكاهن :] (الورقة ٩٠ب) أللهمَّ ذلك العظيم الأبدي الذي أنتَ هو الأمان والسلام والمحبَّه وينبوع الرحمه، أصلِح يا ربُّ لبيعتِك[٤] واحفظْ العالم بنعمتك، ونصعد لك المجد.

الشمَّاس : (يقول:) ܢܩܘܡ ܫܦܝܪ (فلنقفْ حسنًا)

الكاهن : حلّ يا ربّ مراحمك وابسط

(٣) يوحنَّا.
(٤) بيعتَك.

يمينك الملانة(٥) بركات، وبارك على عبيدك وجواريك، هولاي(٦) الذين الآن منحنين قدّام عظمتك، ونصعد لك المجد.

الشعب : آمين.

الكاهن : قوِّينا(٧) أيُّها الربّ كيما نقدّم لك هذه الذبيحة الروحانيَّة الذي(٨) هي بغير دمّ لأجل خطايا وزلاَّت رعيَّتك، كيما تُمحى وتُغفر جميع خطايانا، ونصعد لك.

الشعب : آمين.

الشمّاس : ܗܒܘ [ܫܠܡܐ ܟܠܢ ܠܚܒܪܗ ܒܚܘܒܐ ܘܒܗܝܡܢܘܬܐ ܕܡܪܥܝܢ ܠܐܠܗܐ. ܬܐ ܒܫܠܡܐ ܐܒܘܢ ܟܗܢܐ ܕܟܝܐ] (ليعطِ كلُّ واحدٍ السلامَ لقريبه بحبٍّ وإيمانٍ يرضيان الله. هلمَّ بسلامٍ يا أبانا الكاهن النقيّ).

«الحوار»

الكاهن : ܠܥܠ ܢܗܘܘܢ [ܡܕܥܝܢ ܘܪܥܝܢܝܢ ܘܠܒܘܬܢ] (لتكن أفكارنا وعقولنا وقلوبنا مرتفعةً إلى العلى).

الشعب : ܐܝܬܝܗܘܢ [ܠܘܬܟ ܡܪܝܐ] (إنَّها لديك يا ألله).

الكاهن : ܢܘܕܐ [ܠܡܪܝܐ ܒܕܚܠܬܐ ܘܢܣܓܘܕ ܒܪܬܝܬܐ] (لنشكر الربَّ متهيِّبين ونسجد له خاشعين).

الشعب : ܫܘܐ ܘܙܕܩ (إنَّه لحقٌّ وواجب).

«تدبير الآب»

الكاهن (يقول سرًّا): ܠܟ ܡܠܟܐ ܕܥܠܡܐ ܠܐܠܗܐ ܐܒܐ ܥܡ ܒܪܐ ܘܪܘܚܐ ܕܩܘܕܫܐ ܙܕܩ ܘܘܐܠ ܫܘܒܚܐ ܟܠܗ ܬܘܕܝܬܐ (لك يا ملك العالمين، أللهمَّ الآب مع الابن والروح القدس، يليق ويجب كل شكر) (يرفع صوته:) جميع الرتبات والطقوس (الورقة ١٩أ) وتغمات(٩) السماويِّين، الملايكه(١٠)، وروسا(١١) الملايكه، الكاروبيم والساروفيم، والجلاَّس والارباب الغير منظورين والغير محصيِّين، بغير سكوت يمدحون ويهلِّلون إذ بأفمام(١٢) غير متجسِّمه وبأصوات غير ملتفظه تسبحة الغلبه، يسبِّحون ويصرخون ويقولون:

«التقديسات المثلَّثة»

الشعب : ܩܕܝܫ ܩܕܝܫ ܩܕܝܫ [ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܚܝܠܬܢܐ ܨܒܐܘܬ. ܕܡܠܝܢ ܐܢܘܢ ܫܡܝܐ ܘܐܪܥܐ ܡܢ ܫܘܒܚܐ ܘܐܝܩܪܐ ܕܪܒܘܬܟ ܡܪܢ. ܐܘܫܥܢܐ ܒܡܪܘܡܐ. ܒܪܝܟ ܕܐܬܐ ܘܕܐܬܐ ܒܫܡܗ ܕܡܪܝܐ. ܐܘܫܥܢܐ ܒܡܪܘܡܐ] (قدُّوس قدُّوس قدُّوس أيُّها الرب القويُّ إله الصباؤوت. السماء والأرض مملوءتان من مجدك العظيم. هوشعنا في الأعالي. مبارك الذي أتى وسوف يأتي باسم الربّ. هوشعنا في الأعالي)

الكاهن (سرًّا:) ܫܪܝܪܐܝܬ ܩܕܝܫܐ ܐܢܬ ܐܠܗܐ ܐܒܐ. ܘܪܘܚܐ ܕܝܠܟ ܩܕܝܫܐ. ܕܡܬܩܕܫ ܐܢܬ ܐܡܝܢܐܝܬ ܥܡ ܒܪܟ ܩܕܝܫܐ ܡܪܢ ܝܫܘܥ ܡܫܝܚܐ. (حقًّا إنَّك قدُّوس أللهمَّ الآب. وروحك القدُّوس. لأنَّك تُقدَّس على الدوام مع ابنك القدُّوس، ربِّنا يسوع المسيح)

---

(٥) الملآنة.
(٦) هؤلاء.
(٧) قوِّنا.
(٨) التي.
(٩) طغمات.
(١٠) الملائكة.
(١١) رؤساء.
(١٢) أفواه.

الخاتمـــة

يعتبر يوحنّا من أعظم الواعظين في المسيحيَّة. لقد تأثَّر بالمحيط الذي عاش فيه، وبالثقافة التي تلقّاها في محيطه الهلّينيّ، متأثِّرًا بالفلسفة اليونانيَّة التي سخَّرها، ساكبًا عليها النفحة الروحيَّة لتكون في خدمة المسيحيَّة. كان بالإمكان أن نتطرّق إلى ما أعطته الفلسفة ولا سيَّما الفلسفة الرواقيَّة من أفكار في معالجته لهذا الموضوع لكنَّنا اكتفينا بما قدَّمنا.

موضوع الآلام هو موضوع عزيز على قلب يوحنّا، نراه يعود إليه مرارًا وتكرارًا في جميع عظاته، جاعلاً منه أداة يدفع بها سامعيه إلى الأمام في درب الصليب، نافحًا فيهم روح الرجاء المسيحيّ بغد أفضل، داعيًا إيّاهم إلى التفكير بالحياة الآتية بما فيها من خيرات ونعم وعيش مع الله بسعادة لامتناهية. "فالمكافأة على هذه الشرور، هي السماء وخيراتها التي لا يمكن أن نعبِّر عنها بالكلمة والتي لا تنتهي، لكنَّها تضمن الفرح الأبديّ الذي هي (= الخيرات) مصدره"(١٠٦).

(١٠٦) *Lettres à Ol.* 14, 1b, 15-17, 21-31, pp. 350-352.

آلامه هو قوّة مضاعفة لمجابهة الشرّ. فالبارّ الذي عانى الآلام واحتملها يصبح قادرًا على مقاومة مكايد إبليس ومحاربته بقلبٍ شجاعٍ وقوّة النفس، بالصبر الجميل، وكأنّه واقف على صخرة لا يخاف السقوط[٩٧].

بواسطة الآلام، يستطيع الإنسان أن يحوز على نوعين من المكافآت. المكافأة الأولى هي ملكوت السماوات، والثانية هي الربح الذي يناله بتحمُّله الآلام. هذا الربح هو أوّلاً حالة الفرح الداخليّ[٩٨]. ثمَّ هو قوّة النفس في مجابهة كلِّ عدوٍّ ومقاومته، أي التحمُّل بصبر ولفترة طويلة، فيعيش البارُّ في التواضع والإرادة في تحمُّل الشرور.

قيمة إيجابيَّة أخرى للآلام هو دور المحافظة. فالآلام تحفظ الإنسان ضدَّ تعاسة أكبر من أن يكون تعيسًا. لذلك يختبر الإنسان أنّه ضعيف وعرضة للسقوط، وأنَّ قوّته ليس منه بل من ذاك الذي يمنحه القوّة، فيصبح أكثر حكمة وتواضعًا[٩٩].

"البارّ يصبح أكثر فرحًا، عندما يعاقب على هذه الأرض، لأنّه يتجرّد من كلِّ دنس، بشكل يصبح بكامله مطهَّرًا"[١٠٠].

ويعطي يوحنّا قيمة أخرى للآلام هي أنّها تسمح للشهادة عن الحقائق المسيحيَّة. بقدر ما يثبت الإنسان البارّ في إيمانه بقدر ما يكون مصدر شهادة أمام الوثنيّين. والمثال الأعلى في هذا المجال هو الشهيد. فالشهيد هو المسيحيّ الذي يحمل الشهادة للحقيقة المسيحيَّة، شهادة متجلِّية بالآلام حتّى بذل الدم. هذه الشهادة هي الأعظم التي يستطيع إنسان أن يقدِّمها، والله يهيِّئ لمن يبذل نفسه أعظم مكافأة[١٠١].

ويشدِّد يوحنّا على ضرورة حمل الشهادة في الحياة الحاضرة، ولا سيَّما بواسطة الآلام، شهادة عن الحياة المستقبلة وعن القيامة[١٠٢]. والتخلّي عن الأمور الأرضيَّة هي جزء من الشهادة التي يقدِّمها المسيحيّ عن الحياة المقبلة. لذا نفهم موقف يوحنّا الرافض لحياة الترف التي يعيشها مواطنوه ولاسيَّما الإمبراطورة ورجال الإكليروس في القسطنطينيَّة.

فآلام المسيحيّ لا تشهد فقط عن حقائق الإيمان، بل هي شهادة عن عمل الله في البارّ. فهي تظهر قوّة الله في الإنسان، بل حبُّ الله الأبويّ الذي يريد خير أبنائه[١٠٣]. فالإنسان بطبعه ضعيف، والبارّ، مثل كلِّ إنسان، هو ضعيف أيضًا، ويعاني من الآلام والمصائب. لكنَّه يتقوّى بما يناله من قوّة من العلاء: "أنا قويّ بالذي يقوّيني"، يقول بولس الرسول، بالرغم من الشدَّة والآلام التي يتعرَّض لها. و"هكذا نشهد لمحبَّتنا لله، عندما نتألَّم بشجاعة وبدون أن ندع أنفسنا نتكدَّر"[١٠٤].

وأخيرًا، تبني الآلام علاقة خاصَّة بين المسيح والإنسان المتألِّم: "ولهذا السبب نسير على الطريق ذاتها التي سار عليها، وتحت رايته نصبح إخوته، وبمعنى آخر، مسحاء آخرين. ما هذه العظمة التي تمنحنا إيّاها المحن!"[١٠٥].

---

(٩٧) *Lettres à Ol.* 16, 1d, 46-56, pp. 364-366.
(٩٨) *Ibid.* 16, 1e, 59-63, p. 366.
(٩٩) *De Stat.* 2, 1, PG 49, 33D.
(١٠٠) *In Ep. ad Heb.* 5, 4, PG 63, 51B.
(١٠١) *In S. Iulianum M.* 1, PG 50, 665-668.
(١٠٢) *In Act. Ap.* 47, 3, PG 60, 330D.
(١٠٣) *In Ep. ad Heb.* 29, 1, PG 63, 204B; *In Act. Ap.* 42, 4, PG 40, 302D.
(١٠٤) *In Ep. II ad Thess.* 5, 1, PG 62, 493D.
(١٠٥) *In Ep. ad Philp.* 11, 2, PG 62, 266CD.

«كلام التأسيس»

ܓܠܝܐܝܬ: ܫܩܠ ܠܦܪܘܫܬܐ ܘܐܡܪ:

ܒܝܘܡܐ ܗܘ ܕܩܕܡ ܚܫܗ ܕܝܠܗ. ܢܣܒ ܠܠܚܡܐ ܒܐܝܕܘܗܝ ܩܕܝܫܬܐ ܘܐܪܝܡ ܥܝܢܘܗܝ ܠܘܬ ܐܠܗܐ ܐܒܘܗܝ ܐܚܝܕ ܟܠ. ܘܐܘܕܝ ܠܗ. ܘܒܪܟ. ܘܩܕܫ. ܘܩܨܐ. ܘܝܗܒ ܠܬܠܡܝܕܘܗܝ ܟܕ ܐܡܪ: ܣܒܘ ܐܟܘܠܘ ܡܢܗ ܟܠܟܘܢ. ܗܢܐ ܕܝܢ ܐܝܬܘܗܝ ܦܓܪܝ ܕܝܠܝ. (جهرًا: يحمل القربانة ويقول:)

في اليوم الذي قبل ألمه. أخذ الخبز بيديه المقدَّستَين ورفع عينَيه نحوك أللهمَّ أبيه الضابط الكلّ. وشكرك، وبارك، وقدَّس، وكسر، وأعطى تلاميذه إذ قال: خذوا كُلُوا منه جميعكم، هذا هو جسدي

(يوضع الجسد على الصينيَّة ويركع. ويأخذ الكاس ويقول:)

(الورقة ٩١ب) ܗܘ ܕܝܢ ܒܬܪܟܢ ܡܢ ܒܬܪ ܕܐܣܒܥܘ. ܢܣܒ ܒܐܝ̈ܕܝܐ ܕܝܠܗ ܕܟܝܬܐ ܟܣܐ ܗܢܐ ܕܟܝܐ. ܘܐܘܕܝ ܠܗ. ܘܒܪܟ. ܘܩܕܫ. ܘܝܗܒ ܠܬܠܡܝܕܘܗܝ ܟܕ ܐܡܪ: ܣܒܘ ܐܫܬܘ ܡܢܗ ܟܠܟܘܢ. ܗܢܐ ܕܝܢ ܐܝܬܘܗܝ ܟܣܐ ܕܕܡܝ. ܕܕܝܐܬܝܩܐ ܚܕܬܐ ܕܠܥܠܡ ܪܐܙܐ ܕܗܝܡܢܘܬܐ. ܕܚܠܦܝܟܘܢ. ܘܚܠܦ ܣܓܝܐܐ ܡܬܐܫܕ ܠܫܘܒܩܢܐ ܕܚܛܗ̈ܐ.

(من ثَمَّ بعدما شبعوا. أخذ في يدَيه الطاهرتَين هذه الكأس الطاهرة، وشكرك، وبارك، وقدَّس، وأعطى تلاميذه إذ قال: خذوا اشربوا منه كلُّكم. هذه هي كأس دمي، للعهد الجديد إلى الأبد سرّ الإيمان، لأجلكم ولأجل الكثيرين يُهرَق لمغفرة الخطايا)

(ويوضع الكاس موضعه ويغطِّيه(١٣) بالنافور الصغير ويركع ويقول:)

«تذكار الابن»

واتقدّم(١٤) وأوصاهم وحرّضهم إذ يقول: كل ما في هذا السرّ تتلذلذون١٥، لموتي وقيامتي تكونوا ذاكرين إلى حين مجيئي.

الشعب : ܠܡܘܬܟ [ܡܪܢ ܡܥܗܕܝܢܢ. ܘܠܩܝܡܬܟ ܡܘܕܝܢܢ. ܘܠܡܐܬܝܬܟ ܕܬܪܬܝܢ ܡܣܟܝܢܢ. ܘܪܚܡܐ ܘܚܢܢܐ ܡܢܟ ܒܥܝܢܢ. ܘܚܘܣܝܐ ܕܚܛܗ̈ܐ ܡܫܐܠܝܢܢ. ܪ̈ܚܡܝܟ ܢܗܘܘܢ ܥܠ ܟܠܢ] (نذكر موتك، يا ربّ، ونعترف بقيامتك، وننتظر مجيئك الثاني، ونطلب منك الرحمة والحنان، ونسألك مغفرة الخطايا. فلتشمل مراحمك كلّنا)

الكاهن : نحن يا ربّ عبيدك الخاطيين(١٦) والجاهلين نذكر جميع احتياط تدابيرك المخلّصة، ولمجيك(١٧) الثاني المخوف الممجّد الذي منه نفزع ونرتعد. طِلبه وتخشُّع لك نقدّم، ومنك لابوك(١٨) نتضرّع إذ نقول:

الشعب : ܪܚܡܥܠܝܢ [ܐܒܐ ܐܚܝܕ ܟܠ. ܪܚܡ ܥܠܝܢ] (إرحمنا أيُّها الآب الضابط الكلَّ، إرحمنا)

الكاهن : ܐܦܚܢܢ [ܡܪܝܐ ܘܚܛܝ̈ܐ ܥܒ̈ܕܝܟ ܡܪܝܐ. ܟܕ ܡܩܒܠܝܢ ܛܝܒܘܬܟ. ܡܘܕܝܢ ܠܟ ܚܠܦ ܟܠܗܝܢ ܘܡܛܠ ܟܠܗܝܢ] (نحن أيضًا، يا ربُّ، أبناءَك الخطأة، فيما نقبل نِعَمَك، نشكرك عنها ومن أجلها كلِّها)

الشعب : ܠܟ ܡܫܒܚܝܢ [ܠܟ ܡܒܪܟܝܢ. ܠܟ ܣܓܕܝܢ. ܠܟ ܡܘܕܝܢ ܘܡܢܟ ܒܥܝܢ. ܚܘܣ ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܘܐܬܪܚܡ ܥܠܝܢ ܘܥܢܝܢ] (إيَّاك نسبِّح. إيَّاك نمجِّد. إيَّاك نبارك. لك نسجد. بك نعترف. ومنك نطلب: فاشفق أللهمَّ علينا وارحمنا واستجب لنا)

الكاهن : ܡܬܪܐܡܐ [...].

الشمّاس : ܐܬܕܟܪܘ [...]

---

(١٣) وتوضع الكأس موضعها وتُغطَّى.

(١٤) وتقدَّم.

(١٥) تتلذَّذون.

(١٦) الخاطئين.

(١٧) مجيئك.

(١٨) لأبيك.

«دعوة الروح القدس»

ܗܫܐ ܕܚܝܠܐ [ܐܝܟ ܫܥܬܐ ܚܒܝܒܝ̈. ܕܒܗ ܪܘܚܐ ܕܩܘܕܫܐ ܚܝܐ ܘܩܕܝܫܐ ܢܚܬܐ ܥܠ ܩܘܪܒܢܐ ܗܢܐ ܕܣܝܡ ܠܩܘܕܫܢ. ܩܘܡܘ ܡܨܠܝܢ ܘܩܝܡܝܢ ܒܕܚܠܬܐ ܘܒܪܬܝܬܐ] (ما أرهبها ساعة، أحبَّائي، ينحدر فيها الروح الحيُّ القدُّوس، ويحلُّ على هذا القربان الموضوع لتقديسنا، فلنقف مصلِّين خاشعين)

الكاهن : (ܩܪܝܬܐ ܕܪܘܚܐ:) (دعوة الروح) ܪܘܚܐ ܕܩܘܕܫܐ (الورقة ١٩٢أ) ܫܕܪ ܡܪܝܐ ܡܢ ܡܥܡܪܟ ܩܕܝܫܐ. ܘܬܐܬܐ ܘܬܫܪܐ ܥܠ ܐܪܙܐ ܗܢܐ ܘܬܥܒܕܝܘܗܝ ܠܗ ܠܐ ܥܢܝܢ. (أرسِلْ يا ربُّ الروح القدُّوس من مقرِّك المقدَّس، وليحلَّ ويستقرَّ على هذا السرّ)

(ويركع ويقول:) ܥܢܝܢܝ ܡܪܝܐ. (إستجِبْني يا ربّ)

الشعب : ܩܘܪܝܠܝܣܘܢ. (كيرياليسون)

[**الكاهن** :] ܘܬܥܒܕܝܘܗܝ ܠܦܓܪܐ ܕܡܫܝܚܐ ܐܠܗܢ. ܠܦܘܪܩܢܢ ܕܟܠܢ ܠܦܓܪܐ ܕܡܫܝܚܐ. (وليجعل هذا السرَّ جسد المسيح إلهنا، ليكون لخلاصنا)

الشعب : آمين.

الكاهن : ܘܬܥܒܕܝܘܗܝ ܠܟܣܐ ܗܢܐ ܕܡܐ ܕܡܫܝܚܐ ܐܠܗܢ. ܠܦܘܪܩܢܢ ܕܟܠܢ ܐܘ ܠܦܓܪܐ ܕܡܫܝܚܐ. (وليجعل هذه الكأس دمَ المسيح إلهنا، ليكون لخلاصنا)

الشعب : آمين.

الكاهن : لكيما جميع الذين يشتركون بهم(١٩) يكونوا وارثين ملكوت السما(٢٠) وفي حياة الجديدة مع قدِّيسيك تتلذذ(٢١) ونصعد لك.

«التذكارات»

(سرًّا:) ܠܪ̈ܥܘܬܐ ܘܡܕܒܪ̈ܢܐ ܕܥܕܬܐ. ܘܠܟܠܗ ܟܗܢܘܬܐ ܐܬܕܟܪ ܡܪܝܐ. (للرعاة ومدبِّري البيعة، وكلِّ الجسم الكهنوتي، أُذكُرْ يا ربّ)

(يرفع صوته:) أضي(٢٢) لنا يا ربّ بنور تعاليمك الإلهيَّة، وأوقات صالحة وحياة هادية(٢٣) وسلامًا وافرًا إمنحنا، ونصعد لك.

(سرًّا:) ܠܥܡܟ ܡܗܝܡܢܐ ܘܪܚܡ ܫܘܒܚܐ ܕܩܐܡ ܒܐܬܪܐ ܗܢܐ ܘܒܟܠ ܕܘܟ ܐܬܕܟܪ ܡܪܝܐ. (أُذكُرْ يا ربُّ شعبَك المؤمن والمستقيم المجد، القائم في هذا المكان وفي كلِّ مكان)

(يرفع صوته:) للمتعوبين(٢٤)، وللمطرودين، وللمرضا(٢٥)، وللحزينين(٢٦)، وللمساكين وللمعتازين، وللغربا، وللبايسين، ولليسرا(٢٧)، وللشحّادين، وللأيتام، (الورقة ١٩٢ب) وللأرامل أقيت(٢٨)، ودبِّر بمراحمك يا ربّ. ونصعد لك.

(سرًّا:) ܠܡܠܟ̈ܐ ܡܗܝܡ̈ܢܐ ܘܫ̈ܠܝܛܢܐ ܥܒ̈ܕܝ ܨܒܝܢܟ ܐܬܕܟܪ ܡܪܝܐ. (أُذكُرْ يا ربُّ الملوك المؤمنين والحكَّام صانعي إرادتك)

(يرفع صوته:) ولنا أعطي(٢٩) وامنح بنعمتك يا ربّ حياة هاديه ولذيذه حتّى نعيش قدّامك، وفي الرحمه ننتظر بأعين الذين يدبّرونا(٣٠)، ونصعد لك.

(سرًّا:) ܠܒܬܘܠܬܐ ܝܠܕܬ ܐܠܗܐ. ܘܠܝܘܚܢܢ ܡܥܡܕܢܐ . (البتول والدة الله، ويوحنَّا المعمدان)

(١٩) بها.
(٢٠) السماء.
(٢١) نتلذَّذ.
(٢٢) أضِئْ.
(٢٣) هادئة.
(٢٤) المتعبين.
(٢٥) المرضى.
(٢٦) والحزانى.
(٢٧) وللغرباء، وللبائسين وللأسرى.
(٢٨) قُتْ.
(٢٩) أعطِ.
(٣٠) يدبِّروننا.

أن يسمّي الله، الله – الطبيب. فالعمل العقابيّ عند الله ليس فقط هدفًا لإرضاء عدالته. فيوحنّا يشدِّد على أنَّ الله، في هذا العمل العقابيّ، ينظر إلى خير الإنسان. بهذه النيَّة، يجعل يوحنّا الله طبيبًا يداوي ويكوي الجراح من أجل الشفاء. فالله يستعمل الآلام كدواء فعّال، والدافع إلى ذلك هو طيبته اللامتناهية:

"كما هو الدواء في يد الطبيب، وكذلك الحديد والنار، كذلك هي أيضًا العقوبات في يد الله"(٩٠).

كما أنَّ الدواء مرٌّ هو، والعمليّات الجراحيَّة هي بطبيعتها تسبِّب الأوجاع، لكنَّها فعّالة وشافية وخلاصيَّة، كذلك الآلام التي يرسلها الله للإنسان، هي آلام شفائيَّة، خلاصيَّة. فالله يرسل المجاعة، الطاعون وشرور أخرى ويجعلها على النفس ليشفيها.

لذلك يعتبر يوحنّا أنَّ الخاطئ الذي يتألَّم يجب أن يفرح بآلامه لأنّها آلام مطهِّرة لخطاياه. كما يعتبر أنَّ الذين لا يتألَّمون "هم الأكثر بؤسًا بين البشر ويتفاقم بؤسُهم بغياب أيِّ عقاب"(٩١).

ويعطي أيضًا يوحنّا الله صفة المعلِّم: "هكذا الله هو في الوقت ذاته، قاضٍ وطبيب ومعلِّم. هو يفحص كقاضٍ، ويشفي كطبيب، ويتلمذ كمعلِّم ويقود التائهين في دروب الحكمة"(٩٢).

ب– آلام البارّ

بعدما رأينا لماذا الخاطئ يتألَّم بحسب تفكير يوحنّا الذهبيّ الفم، ننتقل الآن إلى سؤال آخر: لمَ البارُّ يتألَّم؟

مع هذا السؤال نصل إلى النقطة الجوهريَّة لموضوعنا. من السهل أن يجاوب يوحنّا على السؤال الأوَّل: لمَ الخاطئ يتألَّم؟ وليس من المستحيل عليه أيضًا أن يجاوب على السؤال الثاني. فالآلام تحمل في ذاتها أيضًا الخير للبارّ وهذا ما حاول يوحنّا أن يرسِّخه في عقول سامعيه.

الفائدة الأولى التي يخطُّها يوحنّا، وبشكل ملحوظ، هي اكتساب المجد (δοξα). فكثيرًا ما يستعمل يوحنّا هذا العبارة بمعانٍ كثيرة. فهو يتكلَّم على مجد الله، مجد الابن بطبيعته، المجد الذي ناله الابن بواسطة الصليب، مجيء الابن الوحيد بمجد أبيه. كما أنّه كثيرًا ما يمجِّد الله في ختام عظاته ورسائله: "المجد لله على كلِّ شيء"(٩٣). كما يتكلَّم يوحنّا على مجد الإنسان الذي يناله بواسطة الآلام، فقد يكون صحيحًا فيستعمل كلمة (δοξα) أم نافلاً مستعملاً كلمة (κενοδοξια)(٩٤).

فالمجد الذي يناله البارّ بسبب الآلام يتجلّى على هذه الأرض وفي السماء. وعندما يتكلَّم يوحنّا عن هذا المجد يربطه بالنور والإنسان المنوَّر الذي ظهر مجده بعد آلامٍ قاساها محتملاً إيّاها بصبر جميل، فانتشر في كلِّ الأرض. فهذا المجد هو أوَّلاً مكافأة بخاصَّة بسبب البهاء الذي يعطيه والمديح الذي يخلقه، وهكذا يصبح المؤمن الذي نال مجدًا بعد آلام مثالاً يحتذى به. فهو شاهد "تألَّم من أجل معتقدات صحيحة"(٩٥). وهكذا يكون المسيح الأكثر شهرة بين البشر، لأنَّه عانى الآلام الجسيمة وهو الذي لم يعرف خطيئة، فجعله الله الآب المثال الأسمى(٩٦).

أمّا الخير الثاني الذي يناله البارّ من

(٩٠) *De Lazaro* 6, 3, PG 48, 1031 B. Cf. *In Act. Ap*. 54, 3, PG 60, 380A.
(٩١) *De Stat*. 6, 6, PG 49, 89C.
(٩٢) *Ibid*. 7, 4, PG 49, 96B.
(٩٣) Cf. PALLADIUS, *Dialogus de vita S. Joannis Chrysostomi II*, PG 47, 38D. Cf. *Lettres à Ol*. 7, 3a, 4, p. 142.
(٩٤) *In Act. Ap*. 28, 2, PG 60, 212A; *In Matt*. 15, 19, PG 59, 235A.
(٩٥) *Lettres d'exil* 17, 4-5, p. 138; *Sur la Prov*. 23, 3, p. 270.
(٩٦) *In Ep. ad Heb*. 22, 2, PG 63, 156B.

"إذا أصيب القريب في ممتلكاته، فالآخر يُصاب في نفسه، فهو محكوم عليه بالفساد والعذاب"(٨١).

في العمل السيّئ يصبح الخاطئ عبدًا ويتغرَّب عن ذاته، وهذا حدثٌ هو ضدَّ طبيعته الحرَّة ويصيب العقل. تصبح نفسه شرّيرة، خبيثة، لا تليق بإنسان حرّ لأنَّها تتصرَّف ضدَّ العقل وتحت تأثير الأهواء. فنتيجة عمل صادر عن الأهواء هو مفجع للإنسان، لأنَّها "تفقد النفس ذاتها من التفكير، وتجعلها شبيهة بالذئب والكلب والحيَّة والأفعى أو أيِّ حيوان آخر"(٨٢). هذا الانحدار الذي وصل إليه الخاطئ ليكون مساويًا للحيوانات الخالية من التفكير، هو جسيم بنظر يوحنّا، المتأثِّر بالعقليَّة اليونانيَّة التي تعطي أهمِّيَّة كبيرة للعقل البشريّ. فهو بمثابة عقاب للخاطئ على أعماله الشرّيرة. فيقول في هذا المجال: "أيُّ شيء يمكن أن يعادل هذه العقوبة، عندما الإنسان المخلوق على صورة الله ويتمتَّع بهذا القدر من الامتياز، أي بالطبيعة العقلانيَّة والمتمدِّنة بكاملها، يسقط إلى هذه الحالة من الحَيْوَنَةِ المتوحِّشة"(٨٣).

ثمَّ إنَّ العقوبات الناتجة عن الخطيئة هي مرسلة من عند الله، وأنواعها متعدِّدة ومتنوِّعة. وليؤكِّد ما يقول، عاد يوحنّا إلى تاريخ الخلاص، إلى البيبليا، إلى العقاب الذي ناله آدم بعد ارتكابه المعصية. لم يطل هذا العقاب آدم وحده بل الجنس البشريّ بأسره، وجعل الإنسان في حالة بائسة: بؤس جسديّ ونفسيّ، انعطاف إلى الشرّ، آلام، أعمال شاقَّة على الأرض، موت يعاني منه(٨٤).

وحدث أمر مروِّع في مدينته، اهتزَّت الأرض ودُمِّر قسم كبير منها، عندئذٍ أعلن يوحنّا أمام سامعيه: "لم أخف من الهزَّة الأرضيَّة ذاتها، بل من السبب الذي قاد إليها؛ وما السبب سوى الغضب الإلهيّ، وسبب الغضب الإلهيّ هو خطايانا"(٨٥).

هذه النظرة القاسية إلى الآلام كنتيجة عقاب إلهيّ على الخطايا، تجد أمامها نظرة مخفِّفة لها، لا تعود إلى عدل الله، بل إلى خير الإنسان، وهي التبرير بالآلام:

"هذه الآلام التي حدثت من إنسان تجاه آخر، تنجّي هذا الأخير من خطاياه وتكون سببًا لتبريره"(٨٦). "هي فائدة كبيرة لأولئك الذين يتحمَّلون الألم بنبل، وبالتالي، إذا وجد أحد منهم ارتكب خطايا جسيمة، فهذا ينجو من حمل خطاياه الثقيل"(٨٧).

فكرة كاتبنا هي أنَّ الآلام التي يتحمَّلها المؤمن الخاطئ بصبر ونبل، تعمل في الإنسان عملين اثنين: محو الخطايا وعطية العدالة. وعلى هذا الأساس، في كتابته إلى أولمبيا، يظهر فرحه للآلام الكثيرة التي تحمَّلها لأنَّ هذه الشدائد هي تعويض عن خطاياه"(٨٨).

من ناحية أخرى، يستدرك يوحنّا، نجد أنَّ طيبة الله هي التي تبرِّر آلام الخاطئ، فهي إنذار. فعندما يتكلَّم يوحنّا على هيرودُس، يتوقَّف عند حالة وفاته؛ فالدود أكل جسده وكأنَّه عقاب على خطاياه وإنذار لسواه(٨٩).

عندما نقول إنَّ الله يعاقب الإنسان بالآلام على الخطايا التي يقوم بها، ندخل في عدالة الله ويمكننا أن نسمّي الله، الله – القاضي. لكنَّ يوحنّا يفضِّل

(٨١) *Ibid*. 51, 4, PG 60, 357A.
(٨٢) *Lettres à Ol*. 13, 3b, 51-53, p. 340.
(٨٣) *Ibid*. 13, 3c, 65-68, p. 342.
(٨٤) *Ibid*. 10, 3a, 1-19, pp. 248-250.
(٨٥) *De Lazaro* 6, 2, PG 48, 1030 BC.
(٨٦) *Lettres d'exil* 4, 64, p. 81.
(٨٧) *Lettres à Ol*. 17, 3b, 29-31, p. 378.
(٨٨) *Ibid*. 9, 1b, 45, p. 220.
(٨٩) *In Act. Ap*. 27, 1, PG 60, 205B.

(يرفع صوته:) في طلبات وفي تضرُّعات أوليك[٣١] الذين في تدابير العدل أرضوك أهّلنا. ولجزوهم[٣٢] وقرعتهم يا ربّ، ونصعد لك.

(سرًّا:) ܠܐܒܗܬܐ ܩܕܝܫܐ ܘܡܠܦܢܐ ܒܚܝܪܐ ܘܬܪܝܨܐ ܕܫܪܪܐ. ܐܡܝܢ ܡܪܝܐ. (أُذكُرْ يا ربُّ الآباء القدِّيسين والملافنة الممتحنين والمطَّلعين على الحقّ)

(يرفع صوته:) وعلى أساس الأمانة المستقيمة المجد الذي للأربع مجامع القدِّيسين حقِّق إلى جمعنا بنعمتك يا ربّ.

(سرًّا:) ܠܐܒܗܝܢ ܘܐܚܝܢ ܘܪܒܢܝܢ. ܘܠܟܠܗܘܢ ܥܢܝܕܐ ܡܗܝܡܢܐ. ܐܡܝܢ ܡܪܝܐ. (أُذكُرْ يا ربُّ آباءَنا وإخوتَنا ومعلِّمينا، وجميع الموتى المؤمنين)

(يرفع صوته:) والغير مقبوضين إلى قوّات الظلمه أرويهم، ومن المَسْك الذي لأرواح الشرِّيره (الورقة ٩٣أ) نجِّهم. وأشرقِ علينا وعليهم نور ابنك الوحيد الذي بوصاطته[٣٣] نحن نترجًّا أن نوجد الرحمه وغفران الخطايا الذي لنا ولهم.

الشعب : ܐܚܣܢ [ܐܚܣܝ ܘܫܒܘܩ ܘܫܒܘܩ ܠܢ ܡܫܒܩܢܐ ܘܚܘܣܝܐ ܕܚܛܗܝܢ. ܐܢ ܒܝܕܥܬܐ ܐܘ ܕܠܐ ܒܝܕܥܬܐ] (أرحِمْ أللهمَّ، واغفِرْ خطايانا التي اقترفناها بمعرفةٍ وبغير معرفة)

الكاهن : إسمع لنا أيُّها الربّ لأجل كثرة مراحمك. وخلِّص لنا ولهم من الحكم المزمع. ومن العذاب المحفوظ للمنافقين. لكيما أيضًا بهذا وفي الجميع يتمجّد ويمتدح اسمك المعظَّم بالكلّ والمبارك مع سيِّدنا يسوع المسيح وروحك الحيّ القدُّوس من الآن وإلى كلّ أوان وإلى دهر الداهرين.

الشعب : ܐܝܟܢܐ [ܕܐܝܬܘܗܝ ܗܘܐ ܘܐܝܬܘܗܝ ܘܡܛܠ ܠܕܪ ܕܪܝܢ ܘܠܕܪ ܥܠܡܐ ܕܥܠܡܝܢ ܠܥܠܡܝܢ ܐܡܝܢ] (كما كان هو الآن هكذا يكون إلى الأبد)

الكاهن : ܫܠܡܐ ܠܟܠܟܘܢ (السلام لجميعكم)

الشعب : ܥܡ ܪܘܚܐ ܕܝܠܟ ܐܒܘܢ (مع روحك يا أبانا)

الكاهن : ܢܗܘܐ [..]

الشمّاس : ܒܪܘܟ (الكرازة)

«رتبة الكسر»

الكاهن : ܘܗܝܡܢܢ ܘܩܪܒܢ [ܘܩܪܒܢ. ܚܬܡܢ ܘܩܨܝܢ ܐܘܟܪܣܛܝܐ ܗܢܐ ܠܚܡܐ ܫܡܝܢܐ ܦܓܪܗ ܕܡܠܬܐ ܐܠܗܐ ܚܝܐ] (آمنَّا وتقدَّمنا. نختم ونكسر هذا القربان، الخبز السماوي جسد الكلمة الإله الحيّ)

«الصلاة الربيَّة»

(وأيضًا صلاة أبونا[٣٤] الذي في السماوات)

أللهمَّ ربَّنا العظيم القويّ ذلك الذي أنت بمحبّة ناسوت ابنك الوحيد دعيتنا وقدّمتنا لمواهبك الإلهيَّة الذي[٣٥] بوصاطتها[٣٦] نحن أيُّها الآب لك (الورقة ٩٣ب) ممجِّدين ولروحك القدُّوس ساجدين. ولصلاة الربَّانيَّة تلك الذي[٣٧] علَّمنا ابنك الوحيد معظّمين. إذ في صفاوة العقل وبتظيف اللسان، وبنقاوة الجسد وبنفس مقتنيه دالّة، نقدر ندعيك أللهمَّ الآب السماوي ضابط الكلّ القدُّوس، ونصلّي ونقول أبونا الذي في السماوت.

(٣١) أولئك.
(٣٢) وجزائهم.
(٣٣) بواسطته.
(٣٤) أبانا.
(٣٥) التي.
(٣٦) بواسطتها.
(٣٧) التي.

الشعب : ܢܬܘܕܐ ܡܫܘ [..].

الكاهن : نعم أيُّها الآب الجوّاد الرحوم، ذلك الذي أهّلتنا ندعي(٣٨) لك بنين، خلّصنا من التجارب الصعبه، ونجِّنا من الشرِّير وجميع قوّاته، ومن مكايدة الناس الشرِّيرين. ونصعد لك.

الشعب : آمين.

الكاهن : السلام معكم.

الشعب : ومع روحك.

«رتبة التوبة»

الشمّاس : ܐܪܟܢܘ [ܪܫܝܟܘܢ ܩܕܡ ܐܠܗܐ ܡܪܚܡܢܐ. ܘܩܕܡ ܡܕܒܚܗ ܡܚܣܝܢܐ. ܘܩܕܡ ܦܓܪܗ ܘܕܡܗ ܕܦܪܘܩܢ ܕܡܬܝܗܒ ܒܗ ܚܝܐ ܠܡܩܒܠܢܘܗܝ. ܘܡܩܒܠܝܢ ܒܘܪܟܬܐ ܡܢ ܡܪܝܐ] (إحنو رووسكم أمام الله الرؤوف، وأمام مذبحه الغافر، وأمام جسد مخلِّصنا ودمه المحيي لمن يتناوله، واقبلوا البركة من الربّ)

الكاهن : أيُّها الملك العظيم وضابط الكلّ، ذلك الذي تحت قضيب رياسته(٣٩) جميع الخلايق(٤٠) منحنيين(٤١)، أرسل بركاتك على شعبك هولاي الساجدين الآن (الورقة ٩٤أ) قدّام عظمتك. نصعد لك.

الشعب : آمين.

الكاهن : السلام معكم.

الشعب : ومع روحك.

الكاهن : ܬܗܘܐ [ܛܝܒܘܬܐ ܕܬܠܝܬܝܘܬܐ ܩܕܝܫܬܐ ܐܝܬܝܬܐ ܘܡܬܘܡܝܬܐ ܘܠܐ ܒܪܝܬܐ ܘܫܘܝܬ ܒܐܘܣܝܐ ܥܡ ܟܠܟܘܢ ܐܚܝ ܠܥܠܡܝܢ] (فلتكن نعمة الثالوث الأقدس الكائن والأزليّ وغير المخلوق والمتساوي في الجوهر مع جميعكم يا أخوتي إلى الأبد)

الشمّاس : ܟܠܢ [ܒܕܚܠܬܐ ܘܒܪܬܝܬܐ ܠܘܬ ܐܠܗܐ ܢܚܘܪ. ܪܚܡܐ ܘܚܢܢܐ ܡܢ ܡܪܝܐ ܢܫܐܠ] (لينظر كلُّ واحدٍ منّا إلى الله بتهيُّبٍ وخشوع، وليسأله الرحمة والحنان)

«رتبة المناولة»

الكاهن : ܩܕܝܫ. ܩܕܝܫ. ܩܕܝܫ (ܐ) ܡܪܝ ܣܓܕܐ ܥܕܬܐ. ܒܪܝܟ ܗܘ ܕܝܗܒ ܠܝ ܦܓܪܗ ܘܕܡܗ ܕܐܬܚܣܐ ܒܗ] (قدُّوس. قدُّوس. قدُّوس أنت يا ربّ، تصرغ البيعة. مبارك مَن الذي وهبني جسده ودمه لأتبرَّر به)

«صلوات الشكر»

(الصلاة بعد تناول القربان)

الكاهن : أللهمَّ نقبل إنعامك، ونعترف لاسمك القدُّوس، الذي أهّلتنا نكون مستحقِّين نحن أوليك الذي كنّا غير مستحقِّين لهذه الموهبه الإلهيَّه الذي هو جسد ودمّ ابنك الوحيد، الذي معه لك يليق ويجب المجد والاوقار، والإكرام، والسلطان، مع روحك الحيّ القدُّوس الآن وإلى كلّ أوان وإلى دهر الداهرين. آمين.

الشعب : آمين.

الكاهن : السلام معكم.

الشعب : ومع روحك.

الشمّاس : ܬܘܒ ܘܬܘܒ [..].

الكاهن : أيُّها المسيح إلهُنا الذي بإرادتك انذبحت(٤٢) عوضنا، وجسدك الحيّ أطعمتنا، ودمّك الغافر أسقيتنا. حقِّقنا بمحبَّتك واملأنا من مخافتك، وثبِّت بنا أمانتك، وزيِّنّا في (الورقة ٩٤ب) تدابيرك الغير ملومه، واغفر خطاينا وامحُ آثامنا، وراحم واصفح عن أمواتنا، لكيما دايمًا وبجميع

---

(٣٨) نُدعى.

(٣٩) رئاسته.

(٤٠) الخلائق.

(٤١) منحنين.

(٤٢) ذُبحتَ.

وأخيرًا، "في التألُّم من أجل شخص ما، لا نعمل فقط من أجل خير الآخرين بل نجعل أنفسنا أكثر كمالاً وأهلاً للتمجيد"(٧٣). هذا المبدأ طبّقه يوحنّا على المسيح نفسه: "حقًّا المسيح نفسه تمجَّد عندما خضع للألم"(٧٤)، فنال المجد (δοξα)(٧٥).

فائدة أخرى للمسيح من آلامه هي أنّه اختبرها بذاته، تعلّم بالخبرة الآلام البشريّة. بالطبع عرفها بكونه الله ولكنّه اختبرها في الجسد الذي لبسه عندما خضع لها(٧٦). وبذلك شدّد يوحنا على عدم تأثُّر الله بالألم، جاعلاً الألم فقط للجسد أي للطبيعة البشريَّة التي اتَّخذها ابن الله.

أمّا المظهر الأخير للمسيح من آلامه، بحسب يوحنّا، فهو إظهار حبِّ الله للبشر. فإن كانت عمليَّة الخلق والعناية بالإنسان والعلاقة المميَّزة التي تربط الله بالإنسان الذي جعله على صورته ومثاله، هي كلُّها تدلُّ على حبِّ الله للبشر، فآلام ابن الله هي قمَّة الحبّ الذي أظهره الله عندما بذل ابنه الوحيد في سبيل خلاص العالم.

صليب يسوع وآلامه هما بالنسبة إلى يوحنا مثال قاهر، ضمانة للمؤمنين لمعنى آلامهم الخاصّة وجدواها. فهذه الآلام لها مكانها في مخطط الله كما أنّ صليب المسيح اختاره الله ليحقق الخلاص، بالرغم من أنَّ المؤمنين لا يدركون الآن معنى هذه الآلام بل هي تبقى مصدر شكٍّ بالنسبة إليهم.

٤ – القيمة الإيجابيَّة للآلام

ما فتئ يوحنّا طوال حياته الكهنوتيَّة يعلن أمام سامعيه أنَّ الآلام هي مصدر خير للإنسان. وها نحن نعطي مثلين حول هذه العبارة التي استعملها يوحنّا كثيرًا.

في عظاته حول التماثيل، أمام ساكنيّ أنطاكية الذين توافدوا إلى الكنيسة، بعدما هربوا من غضب الإمبراطور، يعلن يوحنّا فرحه في رؤيتهم بهذا العدد الكبير والمصغي، ودعاهم إلى تقديم آيات الشكران إلى الله لمصائبهم التي بفضلها ينالون خيرات عظيمة(٧٧).

أمّا المثل الثاني، فيعود إلى أواخر حياته في أرمينيا، فهو يشدِّد في رسالة إلى أولمبيا:

"لكي تفهمي، بعدما تدعين نفسك تنظر باتِّجاه مختلف، ما هو الربح (κερδος) الناتج من الآلام، وإن كنّا لا نتألّم من أجل الله"(٧٨).

وحاول بطريك القسطنطينيَّة مرارًا أن يؤكِّد طرحه: مثلاً، النفس المتألِّمة، تشبَّه بالزرع الذي ألقي في الأرض. هي بحاجة إلى كلِّ عناية: الأمطار، سوء الأحوال الجويَّة لتعطي ثمرًا. وحده من يعمل في الحقل يعرف كم أنَّ هذا الشرّ يتكدَّس لأجل خير كبير، هو الثمرة التي نجنيها(٧٩).

كذلك الإنسان. فالنشاطات، والأعمال وعدم النجاح تقود إلى تنشئة الإنسان وتهيئه للحياة(٨٠).

أ– آلام الخاطئ

إذا كان الإنسان الصالح ينال الحياة والخلاص من خلال الألم، لماذا إذًا يتألَّم الشرّير؟ في التفسير العامّ للألم، نرى أنَّه نتيجة الخطيئة. بالنسبة إلى يوحنّا، يستعمل الحجّة أنَّ بعد الخطيئة عقابًا لا بدَّ منه. وقد ركّز يوحنّا على هذه النظرة في مجمل كتاباته. فالخاطئ الذي يتعدّى على شخص آخر يلقى العقوبة:

(٧٣) *In Ep. ad Heb.* 4, 3, PG 63, 40C.
(٧٤) *Ibid.* 4, 3, PG 63, 40D.
(٧٥) *Ibid.* 4, 3, PG 63, 40D: "يسوع نال المجد بآلامه".
(٧٦) *Ibid.* 5, 2, PG 63, 48A.
(٧٧) *De Stat.* 21, 4, PG 49, 220D-221A.
(٧٨) *Lettres à Ol.* 10, 8a, 1-2, p. 268; *ibid.* 10, 10a, 1-2, p. 278.
(٧٩) *In dim. Chan.* 1, PG 52, 449B.
(٨٠) *In Act. Ap.* 54, 3, PG 60, 378D.

أصبح مصدر نِعم وخيرات غزيرة للإنسان. وهي خلاص الإنسان الذي تحقَّق بفضل آلام المسيح. فيقول يوحنّا في هذا المجال:

"وهذا كلُّه، تحمَّله (ابن الله) لأجلك وبسبب طيبته المليئة بالاهتمام، ليلغي طغيان الخطيئة، ليقضي على حصن الشيطان، ليحطِّم أساسات الموت، ليفتح لنا أبواب السماء، ليتخلَّص من اللعنة، ليمحو الخطيئة الأولى، ليعلِّمك الصبر، ليقودك إلى المقاومة، لكي لا يصيبك أيُّ غمٍّ من أشياء الحياة الحاضرة، لا الموت، ولا الشتائم، ولا السخرية، ولا الهجومات، ولا الإذلال، ولا الأفكار الرديئة، ولا ما يشبه هذه"[٥٧].

كما قال يوحنّا في موضع آخر:

"صليب المسيح الذي ظهر للعالم، وبدَّد الخطأ، حوَّل الأرض سماءً، حطَّم قوى الموت، جعل الجحيم غير نافع، قضى على حصن إبليس، أسكت أفواه الشياطين؛ جعل من البشر ملائكة، حطَّم المذابح، وقضى على الهياكل، وغرس هذه الديانة الجديدة، وكان العامل لآلاف الخيرات"[٥٨].

فآلام المسيح أعطتنا خيرات كثيرة: محو الخطيئة الأولى[٥٩]، غفران خطايانا[٦٠]، المصالحة مع الله[٦١]، تمجيدنا بفضل أخوَّتنا للمسيح[٦٢]، غرس الديانة الجديدة، هدم هياكل الوثنيّين ومذابحهم[٦٣].

لم يكتفِ يوحنّا بهذا القدر من الخيرات المستحقَّة بفضل آلام المسيح وصليبه، بل تعدّاها ليذكر القيمة المثاليَّة لآلام المسيح.

لقد شدَّد يوحنّا على هذه القيمة المثاليَّة في كلِّ مواعظه، لذلك يحقُّ لنا أن نلقي ضوءًا سريعًا عليها. فيقول في هذا الصدد: "فالمسيح يعلِّم من خلال الألم وبشكل خاصّ من دقائق آلامه كلِّها"[٦٤].

أمّا أهمُّ التعاليم التي نستخلصها من آلام المسيح فهي:

– أمثولة في الهدوء: "إنتبهوا، من فضلكم، إلى هذا الموضوع، بأيِّ هدوء قام المسيح بهذه الأمور، سلَّم التلميذ إلى أمِّه، تمَّم النبوءات، فتح أمام اللصّ مستقبلاً مليئًا بالرجاء"[٦٥].
– أمثولة في الصبر اليوميّ: "إنتصر على الجميع بصمته، معلِّمًا إيّاكم بمسلكه أنَّه، بقدر ما تتحمَّلون الشرَّ بصبر، بقدر ما تتعالون على من يقومون بها (= الإهانات)، وتصبحون مادَّة للإعجاب العالمي"[٦٦].
– أمثولة في المحبّة البنويَّة[٦٧]، أمثولة في رفض الغضب[٦٨]، أمثولة في الشجاعة أمام الموت[٦٩]، أمثولة في التواضع[٧٠]، أمثولة في اللطف[٧١]، أمثولة في الخضوع لإرادة الله[٧٢].

---

(٥٧) *Ibid*. 8, 7, pp. 136-138.
(٥٨) *Ibid*. 15, 1, p. 214.
(٥٩) *Ibid*. 8, 7, p. 137.
(٦٠) *In Ep. ad Heb*. 2, 3, PG 63, 24B; *Contra Ludos et theatra* 1, PG 56, 170.
(٦١) *In Ep. ad Heb*. 2, 3, PG 63, 24B.
(٦٢) *In Ep. ad Heb*. 5, 1, PG 63, 47C. *In Ep. ad Rom*. 10, 3, PG 60, 477A.
(٦٣) *In Ep. ad Heb*. 4, 3, PG 63, 39C; *Sur la Prov*. 15, 1, p. 214.
(٦٤) *In Ep. ad Heb*. 4, 2 PG 63, 39B; *Ibid*. 28, 2, PG 63, 196AB; *Pater, si possible* 4, PG 51, 38C-40C.
(٦٥) *In Ioan*. 85, 2, PG 59, 461D.
(٦٦) *In Matt*. 87, 3, PG 58, 722C. Cf. *In Ioan*. 84, 1, PG 59, 455A.
(٦٧) *In Ioan*. 85, 2, PG 59, 462BC.
(٦٨) *Ibid*. 84, 3, PG 59, 458A.
(٦٩) *In Ep. ad Heb*. 28, 2, PG 63, 194A.
(٧٠) *Pater, si possibile* 4, PG 51, 39A-40A.
(٧١) *Ibid*. 4, PG 51, 40C.
(٧٢) *Ibid*. 4, PG 51, 38D.

الأوقات نمجّدك ولابوك[٤٣] الصالح ولروحك[٤٤] الحيّ القدّوس الآن وإلى كلّ أوان وإلى دهر الداهرين.

الشعب : آمين.

٣. البعد البيبلي: التعليمي والفدائي

بالمقارنة مع الدراسات التي تحقّقت حول هويّة نافور مار يوحنّا فم الذهب وتلك التي نُسِبَتْ إليه، نلاحظ أنّ هذا النافور الذي بين أيدينا هو من النوافير المنسوبة وليست من النوافير التي تحمل اسمه بالفعل، وذلك بفضل المقارنة التي قمنا بها مع النوافير الأصيلة، إستنادًا إلى الدراسة التي حقّقها كودرينغتون[٤٥]، علمًا أنّ النافور الذي يُعتبر خاصًّا به ليس من عمله الأصلي أيضًا، لأنّه قد حمله معه من مدرسة أنطاكيا، وعدّل نوعًا ما في تكوينه، لأنّه كان كثير الصلوات، كما قد شهد الخوري سركيس على ذلك[٤٦].

إذا ما تصفّحنا بعض الصلوات المركزيّة، التي تشكّل هويّة لاهوت هذا النافور، نلاحظ وجود عناصر بيبليّة تربطنا مباشرةً بالكتاب المقدّس، وهي تعلّمنا الكثير حول هويّة الله الآب، بأنّه "العظيم الأبدي" (مز ٩٩: ٢؛ ملا ١: ٥)، "والأمان والسلام" (مز ١١٩: ١٦٥؛ إر ١٦: ٥) "والمحبّة" (ايو ٤: ٨، ١٦)، "وينبوع الرحمة" (روم ١٢: ١)، ويمينه ملآنة بركات (مز ١٦: ١١)[٤٧].

يتوقّف النصّ أيضًا عند ذكر الثالوث القدّوس، هذه الصيغة الثالوثيّة التي تجد صداها في إنجيل متّى (٢٨: ١٩) وفي رسالة بولس الرسول إلى أهل قورنتس (٢ قور ١٣: ١٣). كما يُستفاد من صلاة "تدبير الآب" لنلاحظ ذكر المراتب السماويّة بكلّ فئاتها أمام الثالوث تقدّم التسابيح التقديسيّة[٤٨]، وهذا يرتبط مباشرةً بالدرجات الكهنوتيّة الكنسيّة التي تختلط بالدرجات السماويّة. إنّ هذا العرض التعليمي الذي يذكر الدرجات العلويّة ويدعو إلى التسبيح المماثل يدلّ على أنّ التسبيح واجب ولكنّه أيضًا يشكّل فعل شكرٍ واعتراف بعظمة الله القادر على كلّ شيء. إنّ تأسيس الدرجات الكهنوتيّة الكنسيّة أتى نتيجة قراءة لاهوتيّة وقانونيّة للواقع التدبيري الكنسي، المرتبط بمعطيات كتابيّة مباشرةً (اطيم ٣؛ فل ١: ١؛ رسل ٦: ٦؛ ١٣: ٣)، كما قد استقى من كتابات البطريرك اغناطيوس الأنطاكي[٤٩]، وقد ترك ما قد كتبه ترتليانس أثرًا عمليًّا في هذا المجال، حيث يقول: "هناك فرق بين الدّرجات وبين عامّة الشّعب، تظهرها السّلطات الكنسيّة"[٥٠].

نرى في هذا المشهد أيضًا ذكرًا للهرميّة الكنسيّة، كما نلحظ ذلك في تعاليم اغناطيوس الأنطاكي: "في ما يتعلّق بالكنيسة، لا أحد يقوم بشيءٍ على الإطلاق خارجًا عن الأسقف. فلتُعتبَر هذه الإفخارستيّا وحدها جائزة بحيث يُحتفَل بها تحت رئاسة الأسقف، أو تحت مَنْ يكلّفه. فحيث يكون الأسقف، هناك تكون الجماعة،

---

(٤٣) وأباك.

(٤٤) وروحَك.

(٤٥) Cf. v. L'Introduction de CODRINGTON H. G., dans "*Anaphoræ Syriacæ*", vol. I, fasc. 2., Rome 1940, p. 152.

(٤٦) KHOURI-SARKIS G., *L'origine syrienne de l'Anaphore Byzantine de Saint Jean Chrysostome*, dans "L'Orient Syrien – ܡܕܢܚܐ ܣܘܪܝܝܐ, Vol. VII, fasc. 1, 1er Trim. 1962, pp. 3-68, p. 15.

(٤٧) صلاة ما قبل السلام، (الورقة ٩٠ب).

(٤٨) الورقة ٩٠ب–٩١أ.

(٤٩) JOHANNY R. *et alii*, Le point théologique 17, dans *l'Eucharistie des premiers Chrétiens*, aux Smyrniotes, éd. Beauchesne, Paris 1976, p. 66. Cf. Aux Magnésiens 6,1; aux Tralliens 2,1-2; 3,1.

(٥٠) 4 Tertullien, *De exhortatione castitatis*, 7,3; CC 2, pp.1024-1025, SC 319.

وأيضًا حيثما يكون المسيح يسوع، هناك تكون الكنيسة الكاثوليكيّة. إنّه من غير الجائز، خارجًا عن الأسقف، أن يحصل معموديّة أو عمل رحمة، ولكنّ الذي يقرّره، يكون وحده مقبولاً أمام الله أيضًا"(٥١). ولهذا يضيف قائلاً: إنّ الأسقف كالمسيح في ما بين جماعة الكهنة –collège des sertybserp، وحضوره ليس سوى ضمانة لوحدة الكنيسة وللحفاظ على الهرميّة التي أرادها الله(٥٢).

وضمن الاعتراف العلني والكنسي بالثالوث، يشرح الكاتب بأنّ هذا الثالوث هو الآب القدّوس، والروح القدّوس، اللذان يُقدَّسان مع الابن القدّوس، الربّ يسوع المسيح(٥٣). هذه المعطيات ترتكز على مراجع كتابيّة مضمونة في الكتب المقدّسة، من العهدَين القديم والجديد، التي تقدّس اسم الله، كونه القدّوس، والقداسة بالذات (لا ١١: ٤٤، ٤٥؛ ١٩: ٢؛ ٢٠: ٣؛ ٢١: ٨؛ ٢٢: ٢، ٣٢؛ هو ٢٤: ١٩؛ مز ٧١: ٢٢؛ ٨٩: ١٨؛ أش ١: ٤؛ ١٢: ٤؛ متّى ٦: ٩؛ لو ١١: ٢)، وقد علّم يسوع تلاميذه تقديس اسم الآب، من خلال الصلاة الربيّة الوارد ذكرها بالنصّ الكامل في إنجيل متّى (٦: ٩–١٣)، والبعض منها في إنجيل لو (١١: ٢–٤)

وتعليقًا على هويّة النصّ، قلنا بأنّ النافور بمجمله ربّما نُسِبَ إلى القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، ولكن، تأكيدًا على هذا القول يعرض "كتاب الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة" قولاً مفاده أنّ "الليتورجيّا المنسوبة إلى يوحنّا الذهبيّ الفم ليس له فيها إلاّ بعض الصلوات. إنّها من وضع عدّة أجيال من المسيحيّين: فالتريصاجيون من القرن الخامس، و "يا كلمة الله" ما بين سنة ٥١١ وسنة ٥١٨، والشيروفيكون من نهاية القرن السادس، وقد يكون الأنافور من القرن الرابع"(٥٤).

وعلى صعيد "كلام التأسيس"(٥٥)، أو ما يُسمَّى "الكلام الجوهري"، نلاحظ الأمانة للنصّ البيبلي الذي تكلّم عن العشاء الأخير، الذي حصل بين يسوع وتلاميذه الإثني عشر، عندما أعطاهم جسده ودمه لمغفرة الخطايا وللعهد الجديد، إستنادًا إلى شهادة الأناجيل الإزائيَّة (متّى ٢٦: ٢٦–٢٩؛ مر ١٤: ٢٢–٢٥؛ لو ٢٢: ١٥–٢٠) بالإضافة إلى شهادة التقليد الكنسيّ الأوّل بحسب رسالة بولس الرسول إلى أهل قورنتس (١ قور ١١: ٢٣–٢٦). ويتابع النصّ الكلام، في "تذكار الابن"(٥٦)، حول وصيَّة يسوع لدى العشاء الأخير، وهي أن يصنعوا أو أن يقيموا تذكاره بواسطة هذا السرّ، المعروف بسرّ الشكر أو الإفخارستيَّا، وذلك بحسب ما ذكر لوقا الإنجيلي (٢٢: ١٩)، وأيضًا بولس الرسول (١ قور ١١: ٢٤–٢٥).

وفي كلامه على "دعوة الروح القدس"(٥٧)، يذكر النصّ كيف أنّ الكاهن المحتفل يتكلّم عن دور الروح القدس الذي يأتي من مسكن الله القدّوس (يو ٣: ٣١)، من لدن أبِ الأنوار (يع ١: ١٧) ليعيننا (روم ٨: ٢٦)،

(٥١) JOHANNY R. *et alii*, Le point théologique 17, dans *l'Eucharistie des premiers Chrétiens*, aux Smyrniotes, éd. Beauchesne, Paris 1976, p. 66.

(٥٢) Aux Magnésiens 6,1; aux Tralliens 2,1-2; 3,1.

(٥٣) الورقة ٩١أ.

(٥٤) المطران كيرلُّس بسترس، الأب حنَّا الفاخوري، الأب جوزف العبسي البولسي، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، يوحنَّا فم الذهب، 'الليتورجيَّا، منشورات المكتبة البولسيّة، طبعة أولى ٢٠٠١، ص ٦٢٢.

(٥٥) الورقة ٩١أ–٩١ب.

(٥٦) الورقة ٩١ب.

(٥٧) الورقة ٩١ب–٩٢أ.

لسامعيه. منذ رسامته الكهنوتيَّة، اختبر يوحنّا المسيحَ المتألِّم. فالمسيح عاش الآلام في جميع مراحلها: الهروب إلى مصر، الغيرة عند تلاميذ يوحنّا المعمدان ورفضهم للمسيح، افتراءات اليهود مع اتِّهامات أسرته بأنَّه سامريّ، منافق، ساحر، عدوّ الله، أكول سكّير، صديق الأشرار والعشّارين. ونهاية حياة يسوع هو الوقت المميَّز لآلامه: جلد، تكليل بالشوك، سخرية، هزء، تجديف، وهو مكبَّل بالسلاسل، مهان، مثخن بالجراح، محكوم عليه، ولا أحد من تلاميذه موجود بقربه(٤٣). وأخيرًا موته على الصليب مع مجرمَين، هو قمَّة الآلام(٤٤).

بآلامه حقَّق المسيح الخلاص الذي ثماره وخيراته لا تحصى ولا تعدّ"(٤٥). "فصليب المسيح، بحسب يوحنّا، هو الخير الأعظم، بفضله نال العالم الخلاص"(٤٦)، لكنَّ ردَّة فعل الناس تجاهه كانت الشكّ"(٤٧).

خضع المسيح للآلام حرًّا وليس مرغمًا أو مضطرًّا(٤٨). لقد وضع حدًّا للأفكار المسبقة لدى أبناء جيله أنَّ الآلام هي عقاب على الخطايا(٤٩). لذلك لم يفهموا حقًّا أسباب آلامه التي عاناها. هذه الأسباب كانت موجودة منذ البدء في مخطَّط الله وفي عنايته السرِّيَّة.

ولكن، من أين يأتي الشكّ عند الناس؟ لقد لحظ ذلك يوحنّا عندما قال: "لا يأتي الشكّ من طبيعة الصليب، لكن من جنون (ανοια) المتشكِّكين"(٥٠). فجهلهم وجنونهم هما مصدر الشكِّ عندهم، لأنَّهم كانوا أمام أعظم خير للإنسان، فحدث الصليب هو خلاص الإنسان، لكنَّهم لم يدركوه. هذا الشكّ أصاب التلاميذ(٥١) أيضًا وقام يوحنّا بشرحه. فبطرس "أوَّل الرسل وأساس الكنيسة ورئيس جوقة التلاميذ"(٥٢) رفض بكلِّ قناعة ما ينبئه معلِّمه عن آلام سيعانيها. وأضاف الذهبيّ الفم أنَّ هذا يعود إلى جهله (αγνοια)(٥٣)، فهو لم يفهم ضرورة الآلام التي خضع لها المسيح حرًّا. لذلك أجاب يسوع بطريقة قاسية: "سرّ خلفي يا شيطان، لأنَّك أنت بالنسبة إليّ مصدر شكّ"(٥٤).

وأخيرًا، هذا التناقض بين آلام المسيح العلنيَّة وقيامته الخفيَّة أراده المسيح بخاصَّة، بحسب الذهبيّ الفم، ليعطي أهمِّيَّة لآلامه، وبالتالي ليظهر "أنَّ الصليب هو اهتمامه الأساسيّ، وكم كان متعلِّقًا بالآلام"(٥٥). ولأنَّ الآلام هامَّة إلى هذه الدرجة، دعاها المسيح "مجده"(٥٦)، كما يقول الذهبيّ الفم.

نرى أهمِّيَّة آلام المسيح ومعناها البيِّنة عندما نصل إلى نتائجها. فموضوع الشكّ عند الناس والرسل،

(٤٣) *Lettres à Ol.* 7, 4b, 17-20, p. 148.
(٤٤) *Ibid.* 7, 4b, 34-36, p. 148.
(٤٥) *Sur la Prov.* 15, 1, p. 215.
(٤٦) *Ibid.*
(٤٧) *Ibid.* Cf. *Lettres à Ol.* 7, 4b-e, 17-180, pp. 148-152.
(٤٨) *In ep. ad Heb.* 28, 2, PG 63, 194A; *ibid.* 33, 3, PG 63, 229B; *In Ioan.* 83, PG 59, 447B; *In Matt.* 82, 1, PG 58, 738C; *Pater, si possible* 3, PG 51, 36A.
(٤٩) يو ٩: ٢.
(٥٠) *Sur la Prov.* 17, 8, p. 229.
(٥١) مت ١٦: ٢٢–٢٣.
(٥٢) *Sur la Prov.* 17, 8, p. 229.
(٥٣) *Ibid.*
(٥٤) *Ibid.*
(٥٥) *Ibid.* 17, 8, p. 229.
(٥٦) *Ibid.* 17, 11, p. 231.

وعمل العناية أيضًا هو أيضًا إعطاء الشريعة الطبيعيَّة والمكتوبة[٣٦] للإنسان، وأهمُّ أعمالها الخيريَّة هي نعمة مجيء ابن الله الوحيد وصلبه[٣٧]. وإحدى وجوه العناية الإلهيَّة هي اهتداء اليونانيين (الوثنيين) إلى الخلاص ورفض اليهود، وأخيرًا عمليَّة الخلاص لهؤلاء ولأولئك[٣٨].

من خلال التعبير اليونانيّ (προνοια) لكلمة "عناية"، يقصد يوحنّا العناية الفائقة كالتي قام بها الله تجاه شعبه اليهوديّ في بريَّة سيناء عندما أعطاه المنَّ السماويّ والمياه المتدفِّقة من الصخرة، وعمود النار مصدر النور في الليل، والهادي في الصحراء[٣٩]. والعناية الإلهيَّة تظهر بشكل خاصّ في النظام الخلقيّ الإنسانيّ، حيث، في مواجهة الألم والشرّ، يظهر دوره السرّيّ.

إذن، تقود العناية الإلهيَّة كلَّ شيء نحو هدف سامٍ[٤٠]، و"تمسك كلَّ شيء بطريقة دقيقة"[٤١]. وعملها يطال الخليقة كلَّها وليس فقط قسمًا منها، كما كان يزعم أرسطو. فيوحنّا مقتنع أشدَّ الاقتناع أنَّ حياة الإنسان ونشاط الخليقة تقودهما العناية الإلهيَّة. وبالرغم من ذلك يبقى هنا شكٌّ حاول يوحنّا مرارًا أن يجد له جوابًا: فمحدوديَّة المعرفة البشريَّة وسموُّ الله هما حواجز لا يمكن تخطّيها لنفهم بشكل مرضيّ معنى الألم والشرّ.

ج- مفهوم آلام المسيح

مع المفهوم الخلاصيّ لآلام المسيح عند يوحنّا، ندخل في صلب المشاكل الكريستولوجيَّة (المتعلِّقة بلاهوت المسيح) والسوتيريولوجيَّة (المرتبطة بالخلاص) في القرن الرابع. طرح آباء الكنيسة نظريّات كثيرة حول معنى آلام المسيح. من بين الآراء المختلفة نتوقَّف عند ثلاثة:

الرأي الأوَّل: يدعى النظريَّة المستيكيَّة أو الطبيعيَّة. هذه النظريَّة ركَّزت على التجسُّد. فالطبيعة الإنسانيَّة الخاطئة والخاضعة للموت، في لحظة التجسُّد، وُضعت في علاقة مع الكلمة الإلهيّ. هذه العلاقة مع قداسة الكلمة الإلهيّ حوَّلتها وقدَّستها ورفعتها.

الرأي الثاني: يُدعى "حقوق الشيطان". مع الخطيئة، خضعت الإنسانيَّة لسلطان الشيطان الذي لا يتركها إلاّ من خلال فدية. هذا الثمن قدَّمه المسيح بدمه وحياته.

أمّا الرأي الثالث فيُدعى "النظريَّة الواقعيَّة" التي تأخذ بعين الاعتبار آلام المسيح. لتعود الإنسانيَّة الخاطئة إلى نعمة المسيح، عليها أن تكفِّر عن خطاياها وترضي العدالة الإلهيَّة. فحلَّ المسيح محلَّ الإنسانيَّة وأخذ على عاتقه اللعنة متحمِّلاً الصليب والآلام، ودفع الجزية لله، وأرضى العدالة الإلهيَّة وصالح الإنسانيَّة مع الله.

في المسألة الكريستولوجيَّة، يوحنّا تلميذ المدرسة الأنطاكيَّة، وأحد أشهر ممثِّليها، ركَّز على ترابط الكلمة – الإنسان. فالكلمة، الذي أخذ الطبيعة البشريَّة، أخذها كاملة بجميع عناصرها. فحارب الأريوسيّين معلنًا ألوهيَّة الابن ومساواته بالآب[٤٢]. وضدَّ الأبوليناريّين، دافع عن النفس البشريَّة عند المخلِّص. فالطبيعتان، وإن كانتا متميِّزتَين، فهما متَّحدتان في شخص المسيح.

أمّا الحدث البارز في حياة المسيح فهو آلامه التي حاول يوحنّا أن يظهرها

(٣٦) *Ibid*. 8, 1, p. 133.

(٣٧) *Ibid*. 8, 6, pp. 135-139.

(٣٨) *Ibid*. 2, 5, p. 63. Cf. *De Incomp*. 1, 5, PG 48, 706B; *Praesente imp*. 1, PG 63, 474C.

(٣٩) *Lettre d'exil* 13, 2-3, p. 118.

(٤٠) *Sur la prov*. 8, 14, p. 143.

(٤١) *De Incomp*. 1, 5, PG 48, 707A.

(٤٢) *In Ep. ad Philp*. 7, 3, PG 62, 232B. *De Incomp*. 7, 2, PG 48, 758B; *In Ioan*. 52, 3, PG 59, 291A.

ويحلّ ويستقرّ على القرابين ليحوّلها إلى جسد المسيح ودمه، تماشيًا بالتمام مع ما قاله يسوع لليهود ولتلاميذه، حول الخبز الحيّ الذي نزل من السماء: "الروح هو المحيي، والجسد لا يفيد شيئًا. والكلام الذي كلَّمتكم أنا به هو روحٌ وهو حياة" (يو ٦: ٦٣؛ رج ١ قور ١٥: ٤٥).

بحسب الدراسة التي حقَّقها سيبستيان بروك يظهر هذا النافور وكأنَّه يدخل في منطق تأسيس النوافير الشرقيَّة، ذات المدرسة الأنطاكيَّة السريانيَّة، التي تذكر أفعال الروح القدس، وهي: ينْزل من السماء، يحلّ، ويقطن، ويستقرّ، ويكمِّل، ويتمِّم، ويحوِّل(٥٨). فهذه الأفعال المرتبطة بعمل الروح القدس، تدلُّ على انتماء النافور إلى التيَّار الأنطاكي السرياني خاصّة، التي ترافق هذه الصلاة من النافور.

وفي ما يختصّ بصلوات "التذكارات"(٥٩)، وهي ذات بعد رعائي، يشمل المحتفل من خلالها كلَّ فئات أبناء الكنيسة: المسؤولين الروحيِّين، الرعاة والمدبِّرين، والجسم الكهنوتي، والمتعبين، والمطرودين، والمرضى، والحزانى، والمساكين، والمعتازين، والغرباء، والبائسين، والأسرى، والشحَّادين، والأيتام، والأرامل، والملوك المؤمنين، والحكَّام الذي يصنعون إرادة الله، والبتول والدة الله، ويوحنَّا المعمدان، والقدِّيسين، والملافنة المتحنين، وفي النهاية يذكر الآباء والإخوة والمعلِّمين، وجميع الموتى المؤمنين.

ففي هذه اللائحة يُورِد المحتفل كلَّ المعمَّدين الذين انتقلوا، والأحياء على السواء، فيكتمل ذكر كلِّ أبناء الله، منظورين وغير منظورين. يُعتبر هذا النصّ صدًى لِما قد ورد في العديد من المراجع الكتابيَّة حول كلِّ هذه الحالات التي يعيش فيها بنو البشر، ولهذا تقوم الكنيسة بالعناية بهم تلبيةً لرغبة إلهيَّة؛ ألا وهي العناية خاصّةً بالأيتام والأرامل (أي ٢٢: ٦-٩؛ مز ٦٨: ٦؛ يع ١: ٢٧)، لأنَّ "الربَّ يحفظُ النُزلاء، ويؤيِّد اليتيم والأرملة" (مز ١٤٦: ٩)، ويكفي مطالعة نص من سفر يشوع بن سيراخ حول موضوع محبَّة الفقير واليتيم والمظلوم، فهو غنيٌّ بالدرس والتوجيه (٤: ١-١٠).

يبدو أنَّ هذه الأحوال التي يعيشها بنو الكنيسة تعكِسُ وجه يسوع المتألِّم (أش ٥٣)، وهو الذي دعا تلاميذه إلى الاعتناء بالفقراء، إذ قال: "الفقراء عندكم في كلِّ حين" (متَّى ٢٦: ١١؛ مر ١٤: ٧).

وفي الصلاة الختاميَّة لـ"الصلاة الربيَّة"(٦٠) (متَّى ٦: ٩-١٣) يتوجَّه المحتفل بالكلام إلى الله الآب، أبِ يسوع المسيح الابن الوحيد، الذي يمنح المواهب الإلهيَّة، ليشكره عليها، ويسجد للروح القدس، ويعظِّم الربَّ الذي علَّم الكنيسة الصلاة الربَّانيَّة. ويرفع الصلاة إلى الله الآب بحقِّ محبَّة ناسوته(٦١)، إذ أصبحت بشريَّته شفيعةً لدى الله تجاه العالم. يرد في هذه الصلاة أيضًا ذكرٌ آخر للثالوث القدُّوس. كما يضع شرطًا لمن سيصلِّيها أن يكون في صفاوة العقل، ونظافة اللسان، ونقاوة الجسد، ودالَّة البنين، وهي صدًى لختام النصّ الإنجيلي (متَّى ٦: ١٤-١٥).

وفي "صلوات الشكر"(٦٢) الختاميَّة للنافور، الموجَّهة إلى الآب من حيث

(٥٨) BROCK S., *Towards a Typology of the Epicleses*, OCA 260 (2000) 173-189.

(٥٩) الورقة ٩٢أ-٩٣أ.

(٦٠) الورقة ٩٣أ-٩٣ب.

(٦١) DE HALLEUX A., *Patrologie et Œcuménisme, recueil d'études,* I. Le Symbole de la foi, Leuven 1990. p. 89.

(٦٢) الورقة ٩٤أ-٩٤ب.

المنطق اللغوي، ولكنَّها تتكلَّم عن العناصر اللاهوتيَّة حول موضوع الثالوث القدُّوس: الآب والابن والروح القدس، كأنَّ النصَّ يكشف عن عملهم الخلاصيّ المشترك، فيرد على لسان المحتفل الاعتراف باسم الله الآب القدُّوس، الذي وهب الكنيسة جسد ابنه الوحيد ودمَه، ولهذا يليق بهما المجد والوقار والإكرام والسلطان مع الروح القدس الحيِّ القدُّوس. إنَّ دليل هذا الاعتراف منوط بتعاليم المجامع المسكونيَّة، ولكنَّه يستند إلى معطيات كتاب الرؤيا، حيث نقرأ: 'وجعلنا مملكة، كهنةً لله أبيه، له المجدُ والقدرة إلى أبد الآبدين. آمين" (١: ٦)، وأيضًا: "وكلُّ خليقةٍ في السماء، وعلى الأرض، وتحت الأرض، وعلى البحر، وجميع ما فيها، سمعتها تقول: "للجالس على العرش وللحمل البركة والكرامة والمجد والعزَّة إلى أبد الآبدين (٥: ١٣). وأمَّا النص التالي فهو موجَّه إلى المسيح الإله، الذي ذُبِحَ بإرادته (يو ١٠: ١٨) عوضًا عن البشر (متَّى ٢٠: ٢٨؛ مر ١٠: ٤٥؛ ١ طيم ٢: ٦)؛ إذ أعطى جسده طعامًا ودمه شرابًا (يو ٦: ٥٣، ٥٥). ويرى الكاتب أنَّ الطعام والشراب هما ضمانة لمغفرة الخطايا والتبرير والصفح. كما يُلاحظ أنَّ هذا النصّ الموجَّه إلى المسيح الإله يشتمل أيضًا على ذكر للثالوث القدُّوس: الآب والابن والروح القدس.

خاتمة

إنَّ ما ورد في هذا المخطوط من تقديم وشرح وتعليق يُبنى أبدًا على معطيات النصّ أوَّلاً ثمَّ على ما يحمله من معانٍ لاهوتيَّة وكتابيَّة وليتورجيَّة، تربطنا بالكتاب المقدَّس أوَّلاً، ثم بآباء الكنيسة كما بالتقليد الذي عاشته الكنيسة المارونيَّة من خلال هذا النافور.

هناك إزدواجيَّة لغويَّة تتراوح بين السريانيَّة والعربيَّة، ولو ظهرت لنا بلباسٍ موحَّد هو ثوب اللغة السريانيَّة، كلغة ليتورجيَّة مفروضة على كلِّ الكنيسة المارونيَّة، خاصَّة بحكم وجودها الحيويّ في الحياة اليوميَّة، لتدلَّ على هويَّة معيَّنة، وعلى انتماءٍ ثقافي وحضاري، وفي النهاية لتشهد على استعمالها، أقلَّه في الكنيسة، ولقد أصدر المجمع اللبناني قرارًا مُلزِمًا بهذا الخصوص[٦٣].

إنَّ هذا النافور بحجمه الصغير يتضمَّن معطيات بيبليَّة جامعة حول موضوع الخلق، والخلاص، والفداء، إذ يربط بين العهدَين القديم والجديد بطريقة متينة، رغم هشاشة اللغة العربيَّة حينها، وأمَّا النصّ السرياني المرتكز الأساسي لتكوين هذا النافور فيشهد على لاهوتٍ كنسيٍّ يرتمي في حضن المجامع، كما في حضن التقليد الكنسي الشرقي العريق.

(٦١) DE CLERCQ C., *Histoire des Conciles d'après les documents originaux*, T.XI (1), Conciles des Orientaux Catholiques (Maronites) IV: Les décrets, I: La foi catholique, N°11, Paris 1949, p. 223-224.

بقواه الخاصَّة، أن يدرك حقيقة وجود الله وأنَّه يملك صفات كالحكمة والعظمة والقوَّة والطيبة، لكنَّه لا يستطيع أن يقيس أو أن يحكم على الطريقة التي فيها الله يتجلّى له. فالإنسان يستطيع أن يعرف "أنَّ الله موجود، دون أن يعرف ماهيَّته. أن يعرف أنَّ الله حكيم، جاهلاً مقدار حكمته، لا يجهل أنَّه عظيم، لكنّه يجهل مقدار عظمته. نعرف أنَّ عنايته تهتمُّ بكلِّ الأشياء بالتأكيد، لكن نجهل كيف تتمُّ تلك العناية"(٢٩).

ذكرنا أنَّ يوحنّا يستند إلى حقيقتين اثنتين: التدبير الخلاصيّ والعناية الإلهيَّة. نتوقَّف في هذه النقطة الثانية على هاتين الحقيقتين.

أ– التدبير الخلاصيّ

ماذا تعني كلمة "تدبير" (οικονομια) بالنسبة إلى يوحنّا الذهبيّ الفم؟ هو يرى أنّ هذه الكلمة تحمل معاني كثيرة؛ ففي معنى أوَّل هي تعني معرفة إدارة الأموال، وكيفيَّة صرفها عند الضرورة(٣٠)، وإدارة الأشخاص(٣١) والمؤسَّسات، وفرض الكاهن(٣٢)؛ بل توصَّل إلى يوحنّا أن يقول إنَّ "التدبير" (οικονομια) هو حكمة (σοφια) وفنّ (τεχνη).

فالتدبير الإلهيّ هو الحقيقة السرِّيَّة التي لا يستطيع الإنسان أن يبلغها. فهو ليس لديه المقدرة أن يفهمه أو أن يشرحه. فالتدبير الإلهيّ هو بمثابة وصفة إلهيَّة وتحمل معنيين: المعنى الأوَّل: في العالم، يعني سير الكون الدقيق، وفي التاريخ، الأحداث التي تحقِّق المخطَّطات الإلهيّة.

بشكل خاصّ، تعني هذه الكلمة (οικονομια) مشروع الله الخلاصيّ للإنسان والذي تحقَّق بيسوع المسيح. هذا المشروع الخلاصيّ يشمل الإنسانيَّة بأسرها، على الصعيد العالميّ، وخلاص كلِّ إنسان على الصعيد الفرديّ.

وعلى ضوء التدبير الإلهيّ، تظهر حياة الإنسان، بحسب نظرة يوحنّا، مقسومة إلى قسمين: القسم الأوَّل، هو الوجود الأرضيّ الذي يخضع له الإنسان وما فيه من آلام ومتاعب وأشغال وهموم. والقسم الآخر، الوجود السماويّ، الذي هو الوجود الحقيقيّ، الحياة الحقَّة (η αληθης ζωη)(٣٣)، حيث تتحقَّق أسمى الاختبارات ونمتلك الخيرات الروحيَّة اللامتناهية(٣٤). لذلك لفهم كامل للأحداث الخاصَّة في الحياة، على الإنسان أن ينتظر النهاية (τελος)، على ضوئها يصبح كلُّ شيء واضحًا.

ب– العناية الإلهيَّة

أمّا الحقيقة الثانية المرتبطة بالألم بشكل مباشر، فهي العناية الإلهيَّة. في الواقع، إنَّ أعداء الله لا بل قسم من المسيحيّين أنفسهم، وهم الذين يرفضون حقيقة الألم، يعتبرون أنَّ الله هو المسؤول عن وجود الألم والشرّ في حياة الإنسان.

ما هو مفهوم العناية الإلهيَّة عند يوحنّا الذهبيّ الفم؟

يعتبر يوحنّا أنَّ العناية الإلهيَّة مرتبطة بشكل مباشر بالإنسان. فوجود هذا الأخير، ونفسه الروحيَّة والعقلانيَّة، وسيطرته على جميع المخلوقات، هي صنع العناية الإلهيَّة(٣٥).

(٢٩) *De incomp.* 1, 5, PG 48, 713D; Cf. *In Ep. ad Heb.* 2, 1, PG 63, 19D.
(٣٠) *In Act. Ap.* 49, 3, PG 60, 337A; *De Stat.* 16, 5, PG 49, 168C.
(٣١) *In Matt.* 24, 2, PG 57, 322C.
(٣٢) *De Sac.* 3, 11, PG 48, 643B.
(٣٣) *Sur la Prov.* 11, 3, p. 180.
(٣٤) *Postquam imp. I* : " Notre destinée n'est pas circonscrite en effet dans les bornes de la vie présente; nous tendons vers une meilleure vie, nous obéissons à de plus hautes espérances, nous nous proposons l'éternelle possession de biens infinis ", PG 63, 473C. Cf. *Sur la Prov.* 11, 3, p. 131.
(٣٥) *Sur la Prov.* 7, 39, p. 131.

غير[٢١]. ليس هناك سوى شيء مؤلم هو الخطيئة؛ أمّا ما عداها، النفي وحجز الممتلكات، والنبذ، والخيانات، كلُّ هذه الحوادث هي خيال، هباء، خيوط عنكبوت...[٢٢] ليست المحنة هي الشرّ بل الخطيئة[٢٣].

ولم يتوقَّف يوحنّا عند هذا الحدّ من التفكير بل توصَّل إلى قناعة داخليَّة فأعلن: "عمل الشرّ هو تحمُّله، وتحمُّل الشرّ هو على العكس قبول الخير"[٢٤]. فماذا يعني يوحنّا بهذا الكلام؟

من يقوم بعمل الشرِّ يتحمَّل عواقبه هو دون سواه. أمّا من يتلقّى الشرَّ من صانعه فهو لا يقبل الشرَّ بل يقبل الخير. فكلُّ شرٍّ من عمل غير عادل يقع على من يرتكبه. "فمن يقوم بعمل غير عادل يعود عليه بالشرّ، فيجعل من نفسه إنسانًا شرّيرًا"[٢٥]. أمّا "ضحيَّة" عدم العدالة، على العكس، إذا استطاعت تحمُّل المحنة، تنال خيرًا، بمعنى أنَّ المحنة تحمل إلى "الضحيَّة" نموًّا خلقيًّا. فالشرط الأساسيّ إذن لقبول خير من جرّاء عمل شرّير غير عادل، هو تحمُّل المحنة بشكل سامٍ حتّى النهاية[٢٦].

خلاصة القول، لقد استند يوحنّا الذهبيّ الفم للوصول إلى مفهوم الشرّ وأصله إلى مصادر ثلاثة: المصدر المانويّ، والمصدر الفلسفيّ، والمصدر المسيحيّ. رفض المصدرَين الأوَّلين؛ فالأوَّل يعتبر أنَّ الشرَّ يأتي من الطبيعة بحدِّ ذاتها؛ والمصدر الثاني يعتبر أنَّ الشرَّ هو نتيجة حتميَّة، يصيب جذور عمل الإنسان، واضعًا الحرِّيَّة على حدة. أمّا المصدر المسيحيّ فيرفض أن يقول إنَّ الشرَّ يأتي من الله أو من الشرّير، بل يشدِّد على أنَّه عمل الإرادة (προαιρεσις) في الإنسان.

أمّا مصدر الألم، بحسب تفكير يوحنّا، فيعود إلى الناحية العقليَّة في الإنسان والتي تتجلّى في الرأي والحكم والتفكير.

٣– علاقة الله بآلام العالم

رأينا في النقطة الأولى أنَّ يوحنّا الذهبيّ الفم ينفي أن يكون الله مصدر الشرّ والألم. لقد استعان يوحنّا بفعل "سمح" ليقول إنَّ الله يسمح بالشرِّ دون أن يكون هو مصدره. فطيبة الله تضمن للإنسان أنَّ السماح الإلهيّ هو لأجل خير الإنسان. بالإيمان يستطيع المؤمن أن يدرك ما هي العلاقة التي تربط الله بآلام العالم والبشر. فيوحنّا الذهبيّ الفم يستند إلى حقيقتين اثنتين، التدبير الخلاصيّ والعناية الإلهيَّة، بواسطتهما يدخل الله في علاقة مع الآلام البشريَّة.

فالضمانة الأعظم ضدَّ كلِّ حرمان مأساويّ يمرُّ به الإنسان المتألِّم هي آلام ابن الله الوحيد، المسيح، الذي يضعه الإيمان أمام المؤمن لتقبُّل وضعه المؤلم. فآلام المسيح هي الضمانة الوحيدة والدافع إلى الثقة المطلقة بتدبير الله الخلاصيّ.

بحسب يوحنّا، لا يعرف الإنسانُ الله إلّا جزئيًّا. وقد أوضح يوحنّا ماذا يعرف الإنسان عن الله. لقد أوحى الله أوَّلاً أنَّه موجود[٢٧]، وبالتالي هي الحقيقة الأولى التي يعرفها الإنسان عن الله. وهذا الوجود الإلهيّ جعل الإنسان قادرًا أن يعرف بعض صفات الله[٢٨]. وهكذا يستطيع الإنسان،

(٢١) *In Ep. ad Heb.* 3, 5, PG 63, 34B.

(٢٢) *Lettres à Ol.* 9, 4e, 53-54, p. 234.

(٢٣) *In Act. Ap.* 15, 4, PG 60, 124B. Cf. *In Ep. ad Heb.* 33, 4, PG 63,232A; *De capto Eutropio* 2, 4, PG 52, 399D; *Lettres à Ol.* 9, 4e, 53-54, p. 234.

(٢٤) هناك مراجع كثيرة تتحدَّث عن هذا المعنى للشرِّ والألم، نأخذ فقط مرجعين: *In Act. Ap.* 7, 3, PG 60, 67; *In Ep II ad Cor.* 23, 6, PG 62, 561D. ويمكننا العودة إلى بقيَّة المراجع في: NOWAK, *ibid.*, p. 76, note 267.

(٢٥) MARC-AURÈLE, *Pensées*, IX, 4. Cf. *Ibid.* II, 1. ÉPICTÈTE, *Entretiens*, IV, V, 10; *ibid.* IV, 1, 127.

(٢٦) *Lettres d'exil* 4, 40, p. 75; *Ibid.* 11, 15, p. 113.

(٢٧) *In Ps.* 49, 2, PG 50, 244BC; *De Incomp.* 1, 5, PG 48, 707A; *De Lazaro* 5, 2, PG 48, 1020D...

(٢٨) *De Incomp.* 2, 4, PG 48, 713D; *Sur la Prov.* 7, 20, p. 21.

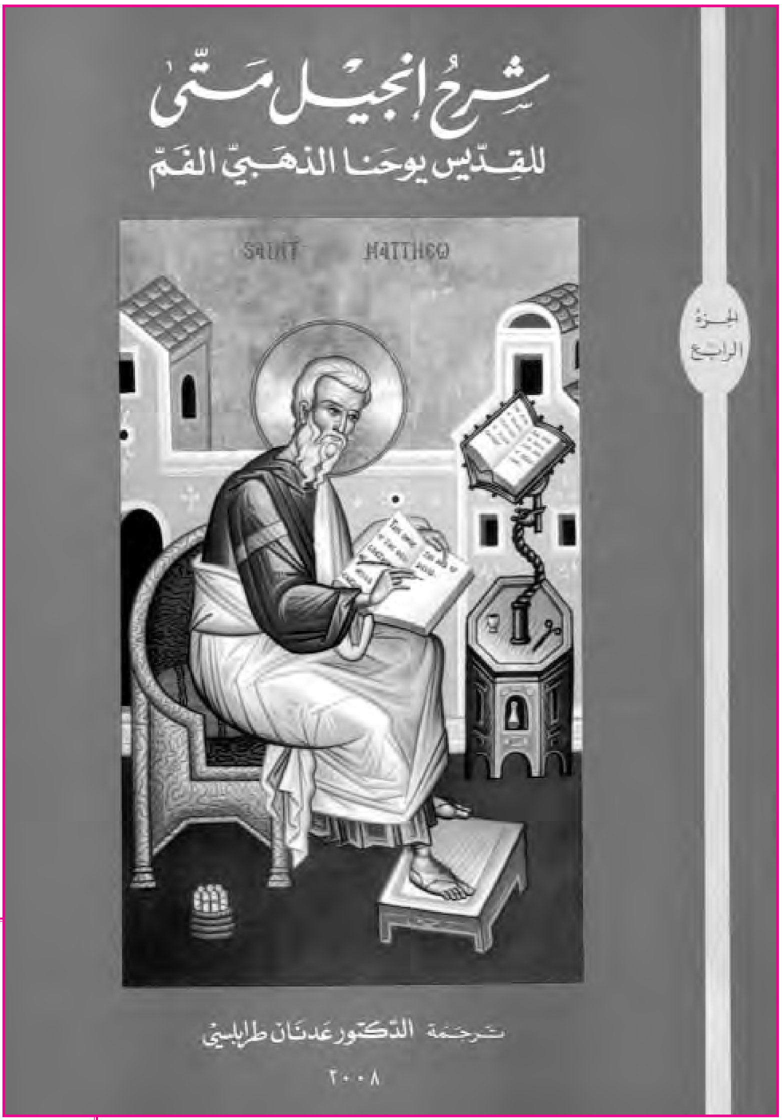

الفهـرس

المقدمة ٣

التمهيد ١٣

شرح إنجيل متّى

الإصحاح الثاني والعشرون ١٥

الإصحاح الثالث والعشرون ٣٩

الإصحاح الرابع والعشرون ٦٣

الإصحاح الخامس والعشرون ٩٨

الإصحاح السادس والعشرون ١١٣

الإصحاح السابع والعشرون ١٦٣

الإصحاح الثامن والعشرون ١٨٩

ملحق الدراسات الكتابية

كلمات الرب على الصليب ٢٠٢

حجاب الهيكل ٢٣٩

الظواهر الخاصة المصاحبة لصلب الرب ٢٤٨

القيامة ٢٦٥

مفهوم الآلام عند يوحنّا الذهبيّ الفم[١]

الخوري أنطوان الدويهيّ

اختبر يوحنّا الآلام في حياته منذ طفولته إلى مماته، فعاش يتيم الأب، مع أمٍّ حنون حاولت أن تغطّي النقص الذي خلّفه زوجها. ولمّا شبَّ انتقل ليعيش في البرّيَّة متنسِّكًا، فعانى من آلام في معدته أعادته إلى الحياة الاجتماعيَّة. وكما اختبر الآلام الجسديَّة، اختبر أيضًا الآلام النفسيَّة وسط جيل مترفٍ منغمس في الملذّات. فنراه يتطرَّق مرّات كثيرة في عظاته إلى موضوع الآلام داعيًا الناس إلى اعتبار الآلام الحاضرة هباء أمام المجد الذي ينتظرهم.

موضوعنا يقسم إلى أقسام ثلاثة. بعد أن نعطي صورة عن حياة يوحنّا الذهبيّ الفم الذي اختبر في حياته الآلام. ننتقل إلى الكلام عن أسباب الآلام والشرّ، ثمَّ عن علاقة الله بآلام البشر، وأخيرًا نتوقَّف عند القيمة الإيجابيَّة للآلام.

١ – يوحنّا والآلام

عندما تكلَّم الذهبيّ الفم بطريقة نظريَّة استند إلى خبرة حياتيَّة مديدة عاشها. لقد اختبر يوحنّا حقيقة الألم الإنسانيّ، وككلِّ إنسان، حاول أن يجد جوابًا على معنى الألم.

عاش شبابه بسلام، مع أمٍّ حنون وأصدقاء طيِّبين. وبالرغم من أنَّه فقد أباه منذ طفولته، لكنَّ ذلك لم يؤثِّر على حياته، كما هي الحال بالنسبة إلى أوريجان بعدما استُشهد أبوه ليونيد. كانت الأرملة التقيَّة غنيَّة تملك ثروة طائلة، تكفيها لأن تؤمِّن لابنها الراحة والابتعاد عن مرارة اليتم. ولم تترك وسيلة لتجعل من ابنها رجلاً محترمًا. وفي مدينة مليئة بالفنِّ والأفراح الدنيويَّة، لم يتأثَّر يوحنّا بها، بل سعى إلى أن يعيش الحياة النسكيَّة في بيته، بعدما ترجَّته أمُّه ألاّ يبتعد عنها، منزويًا في البراري والقفار، تاركة له حرِّيَّة اختيار الحياة التي يريدها بعد وفاتها. فاهتمَّ بأصدقاء له يعانون من الآلام، ووقف إلى جانبهم: صديق تخلّى عن دعوته الرهبانيَّة الأولى بحثًا عن الزواج، راهب في محنة، شابَّة أرملة متألِّمة من فقدان زوجها. وفي سنته الكهنوتيَّة الثانية في أنطاكية، تمَّت حادثة التماثيل، فاضطُرَّ أن يقف إلى جانب رعيَّته، معزِّيًا ومشجِّعًا.

في مدينة كبيرة، يختبئ الشرّ خلف أنواع متعدِّدة: آلام جسديَّة، وآلام نفسيَّة، وآلام جماعيَّة، وآلام فرديَّة. لقد انتفض الشعب على الإمبراطور بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم. بالإضافة إلى هزَّة أرضيَّة هدَّمت قسمًا كبيرًا من المدينة. أوتروب المنعم عليه في البلاط الملكيّ، استُبدل بغيره. أمام هذه المصائب كلِّها، وقف يوحنّا واعظًا معطيًا لكلِّ حدث أمثولة. موقفه

(١) المرجع الأساسيّ لهذا المقال هو: Edward MOWAK, *Le Chrétien devant la souffrance, Étude sur la pensée de Jean Chrysostome*, Coll. Théologie Historique, 19, Beauchesne, Paris, 1973, 240p.

الحتميَّة[١٣]. الشرّ موجود في حميميَّة الكائن البشريّ، في (προαιρεσις) إرادة الإنسان[١٤]. ولكن ماذا يعني يوحنّا بهذه الحميميَّة؟

هو تعبير فلسفيّ من خلاله يشرح يوحنّا مصدر الألم. هو تعبير قائم بذاته، يجب أن لا ندمجه بالنفس (ψυχη)، ولا بالجسد (σωμα) ، ولا بالإرادة ذاتها (βουλησις). فيوحنّا يميِّز بين ملَكة الإرادة (Βουλησις) الموجودة فينا وعمل الإرادة (προαιρεσις) الذي نقوم به والذي يأتي من قرارنا. فملَكة الإرادة هي خاصِّيَّة من خاصِّيّات الطبيعة الإنسانيَّة مثل النفس والجسد، وبالتالي هي صنع الله وهي صالحة. أمّا عمل الإرادة (προαιρεσις) فهي من خاصِّيّات الإنسان ومن صنعه. فهي إذًا مثل "حركة تخرج من ذاتنا، وتمضي إلى النهاية التي نريد نحن أن نصل إليها"[١٥].

والخطوط الرئيسيَّة لهذه الملَكة (προαιρεσις) هي ثلاثة: أوّلاً: **حرّيّتها**. يعلن يوحنّا بشكل قاطع: "نحن أحرار وأسياد لعمل الإرادة (προαιρεσις)"[١٦].

الخطُّ الثاني هو **العنصر الفكريّ** الذي يتدخَّل في قرار عمل الإرادة (προαιρεσις). وهذا الاختيار (γνωμη)[١٧] يقوم في الحكم الذي نحكم به على الأشياء. من المؤكَّد هنا، أنَّه يجب أن لا ندمج هذه الملَكة مع معرفة الخير والشرّ. لقد أعطى الربُّ هذا الدور للضمير (συειδος)، لكن لا يمكن لهذه الملَكة أن تتخطّى امتحان الذكاء. لذلك يعطي الذهبيّ الفم هذه الملَكة أهمِّيَّة كبيرة، لا بل يعتبرها أهمّ من ذات الإنسان (ουσια) وهي التي تكوِّن الإنسان، أكثر من ذاتيَّته، لأنّه ليست ذاتيَّة الإنسان هي التي ترميه في الجحيم أو تقوده إلى السماء بل هذه الملكة التي هي عمل الإرادة الذي يقوم به.

وأخيرًا، هناك الخط الأخير الذي هو **قصد**[١٨] الإنسان. هذا التعبير يستعمله الكثير من آباء الكنيسة؛ فأصل الألم هو "رأي" الإنسان، لأنّ فالألم والفرح هما حصيلة الرأي الخاصّ (προληψις)[١٩]. فليس في طبيعة الأشياء، لكن في رأي البشر -γνωμη) δοξα) تقيم الاستعدادات الحميدة[٢٠].

فالفرح والألم والسعادة إذن، هي أمور متعلِّقة بالرأي والحكم الخاصّ على الأشياء، والإنسان ينشرح أو يتذمَّر من شيء ما، بحسب رأيه الخاصّ.

وفي هذا المجال يتابع الذهبيّ الفم تفكيره فيقول لسامعيه إنَّ عليهم أن يُخضعوا رأيهم لامتحان جدّيّ ويختاروا الأفضل. لهذه الغاية، يقسم يوحنّا الأشياء إلى فئات ثلاث: هناك الجيِّدة (αγαθα, καλα) كالكَرَم والقناعة؛ السيِّئة (κακα) كالبخل والهمجيَّة والوحشيَّة؛ وتلك التي تكون حسنة أو سيِّئة (αδιαφορα) حسب رأي الإنسان وتصرُّفه أو حسب استعماله لذلك الشيء كالثروة، التي يمكن أن تكون مصدرًا للبخل أو للكرم.

من هنا يصل يوحنّا إلى الخلاصة التالية: ليس هناك سوى سبب وحيد معقول للحزن، هو الخطيئة، لا

(١٣) *Postquam presb. Gothus* 6, PG 63, 509B.

(١٤) *In Act. Ap.* 32, 3, PG 60, 238C; *In Ep. ad Heb.* 7, 4, PG 63, 68B; *In Ep. ad Thess.* 3, 4, PG 62, 412B; Cf. *De diab. tent.* 2, 4, PG 49, 261D.

(١٥) *In Ep. ad Rom.* 13, 2, PG 60, 510C.

(١٦) *Postquam presb. Gothus* 6, PG 63, 509A; *En Ep. I ad Cor.* 27, 2, PG 61, 226A; *De diab. tent.* 2, 4, PG 49, 261D.

(١٧) *In Ioan.* 2, 5, PG 59, 37A; *De diab. tent.* 2, 4, PG 49, 261D.

(١٨) *Lettres à Ol.* 13, 1a, p. 28. Cf. A.-M. MALINGREY, dans *Ibid.*, p. 328, n. 1 et p. 186, n. 2.

(١٩) *In Ep. ad Heb.* 20, 2, PG 63, 145C.

(٢٠) *Lettres à Ol.* 10, 1c, 30-31, p. 244. Cf. *Ibid.* 10, 1d, 38-40, p. 244; *Ego Dominus Deus* 4, PG 56, 148D; *In Act. Ap.* 13, 3, PG 60, 110B.

انتظر انتهاء الشتاء آملاً أن تحمل حرارة الصيف بعض الراحة والتعزية، لكنَّه أعلن "أنَّ الصيف لم يكن أقلَّ ضررًا من الشتاء"[٧]. بالرغم من ذلك، لم تؤثِّر صحّته على نفسيّته المرحة. فالصداقات التي تجلَّت من خلال الرسائل التي وردته، ومن خلال الزيارات الكثيرة التي كانت عذبة إلى قلبه، جعلته يشكر الله والأصدقاء من كلِّ قلبه. بالرغم من آلامه، كان يعلن أنَّه يعيش الفرح والهدوء.

لكنَّ الراحة في القوقاز لم تدم طويلاً؛ فلقد هجم الإيزوريّون على البلاد، فاضطُرَّ يوحنّا أن ينتقل إلى قلعة أرابيسوس، فخضعت المنطقة إلى الجوع والطاعون، إذ أخذ قطّاع الطرق يستولون على كلِّ مارٍّ، فوقع في الفاقة وإلى أمور ضروريَّة كثيرة. وبعدما زال الخطر، عاد يوحنّا إلى الراحة في القوقاز أو في مكان مجاور.

في ختام سنة ٤٠٧، أتاه أمر بأن ينتقل من جديد إلى مكان بعيد لا يعرفه فيه أحد، على الضفَّة الشرقيَّة للبحر الأسود، بعدما وجد بعض الراحة في القوقاز مع أصدقاء يحيطونه بكلِّ مودَّة واحترام. عن هذه المرحلة الأخيرة من حياته، لا نعلم الشيء الكثير، لأنَّ رسائله انقطعت، وما نعرفه هو أنَّه كان برفقة جنديّ وحيد أذاقه مرارة النفي أضعافًا، فجعل رحلته أكثر ألمًا ومرارة، فمات يوحنّا على الدرب، في ١٤ أيلول ٤٠٧[٨].

٢- أسباب الآلام والشرّ

الخبرة اليوميَّة للآلام بالنسبة إلى الإنسان، كما بالنسبة إلى يوحنّا الذهبيّ الفم، هي مصدر وحي للألم. فالإنسان المتألِّم يسعى دومًا إلى أن يتخطّى آلامه مفكِّرًا بما يضنيه. ومشاهدة آلام الآخرين تقوده إلى النقطة ذاتها. هذا ما جرى ليوحنّا. فحياته مليئة بالآلام وشعوره المرهف المتعمِّق بحياة كهنوتيَّة، جعلاه في علاقة مباشرة مع آلام الآخرين المتنوِّعة، وبالتالي مع الشرِّ بكلِّ أبعاده.

فالآلام الجسديَّة، والخلل النفسيّ، الاجتماعيّ والدينيّ قادت الكثير من البشر إلى طرح الأسئلة الكثيرة حول موضوع الآلام وموضوع الشرّ. أمّا الذهبيّ الفم، فهو لم يعالج الموضوع دفعة واحدة، بل نرى هذا الأَمْرَ متجلّيًا في جميع كتاباته.

ففي شرحه لإنجيل متّى يتوقَّف يوحنّا عند السؤال البديهيّ: من أين يأتي الشرّ؟

"وتتساءلون: إذًا، من أين يأتي الشرّ؟ فحاوروا أنفسكم؛ يكفي بالنسبة إليّ أن أبرهن أنَّ الشرَّ لا يأتي من الطبيعة ولا من الله – إذًا، يأتي صدفة؟ – هذا أيضًا غير مقبول. إذًا، لا أصل له؟ – خذْ حذرك، أيُّها الإنسان، وابتعدْ من هكذا جنون، أقصد أن أقول من هذه العاطفة التي تقودك إلى أن تجعل للألم وله الشرف ذاته، الشرف الأسمى.

"وتسألني: إذًا، كيف تشرحه؟ بوجود الإرادة وعدم الإرادة. هو نتيجة حرِّيَّة اختيارك وإرادتك الخاصَّة، بدون منازع، ولا أحد يدَّعي العكس"[٩].

من خلال هذا النصّ وغيره، نجد أنَّ مصدر الشرّ، بالنسبة إلى يوحنّا، لا يأتي من الطبيعة التي تُعتبر فاسدة، ولا من الله[١٠]، ولا من مبدأ أبديّ للشرّ[١١]، ولا من الشيطان[١٢]، ولا من

---

(٧) *Epistolae 146 : Theodotio, Nicolao*, PG 52, 699A.

(٨) لمراجعة مراحل آلام يوحنّا في المنفى يمكننا العودة إلى: J.-H. NEWMAN, *Esquisses patristiques*, III, pp. 309-403; A.-M. MALINGREY, *Introduction*, dans JEAN CHRYSOSTOME, *Lettres à Olympias*, pp. 33-53.

(٩) *In Matt.* 59, 2, PG 58, 576 C.

(١٠) In act. Ap. 23, 4, *PG* 60, 183 AC; *Lettres à Ol.*, 14, 1, 1-2, p. 350.

(١١) *In Actes des Apôtres* 2, 4, PG 60, 31B; cf. *In Matt.* 59, 2, PG 58, 576C; *Ibid.* 55, 5, PG 58, 546D.

(١٢) *Daemones non gub. mundum* 1, 6, PG 49, 254B; *De diab. tent.* 2, 1, PG 49, 258D.

أمام آلام الآخرين واضح هو: "أنا أبو الجميع، عليَّ أن أهتمَّ ليس فقط بالواقفين، لكن بالذين سقطوا أيضًا"(٢).

منذ تولّيه السلطة، عرف أنّ محنًا كثيرة تنتظره. فقد نشأ في جماعة مسيحيَّة منقسمة حيث جدالات عقائديَّة ترجمت عمليًّا بحرومات ونفي وفتن. أمّا يوحنّا فوقف في وجه شرّ الإنسان. كما أنَّ ضميره الحيّ يجعله لا يتحمَّل الدسائس التي تتكاثر حول الكهنوت والسلطة: انتخابات فاسدة، امتيازات معطاة عند الولادة وللأغنياء.

نظر يوحنّا إلى الكاهن وما يعانيه من مسؤوليّات جسام: الاهتمام بالأرامل والعذارى، اهتمام غير كافٍ بالمرضى والفقراء... كما يرى إهمال الكهنة في التحضير الكافي لكلمة الله في الوعظ والإرشاد. لقد اختبر في تولّيه كرسيّ القسطنطينيَّة فترة مليئة بالصراعات المؤلمة.

كان الذهبيّ الفم هزيل الصحَّة: فناء تحت الأمراض الجسديَّة، وكان البرد والصقيع عدوَّه اللدود، والحرارة تؤلم رأسه(٣). فالتقشُّفات التي مارسها في بداية حياته في البرّيَّة أضنكت جسده وأرهقت صحَّته. وحياته ككاهن وكبطريرك، المليئة بالأعمال والهموم في جوٍّ من الدفاع والعدائيَّة في القسطنطينيَّة، سبَّبت له الآلام الجسيمة. وأخيرًا الدسائس التي قام بها إخوته الأساقفة وبطريرك الإسكندريَّة تيوفيل، وعدائيَّة الإمبراطورة أودكسيه، هيّأت له النفي والموت.

في مجمع السنديانة، وضع أعداؤه اتّهاماتهم؛ فالجماعة التي يرئسها تيوفيل وأكاسيوس وسفيريوس والملتئمة ضدَّ يوحنّا، أعلنت إنزاله عن منصبه البطريركيّ. وهذا الحكم تحوَّل إلى الإمبراطور الذي رضخ لأمر الأساقفة الذين اجتمعوا لديه ليطالبوه بخلع البطريرك ونفيه. وما إن وصل يوحنّا إلى مكان نفيه (برانيتوم)، حتّى استدعاه الإمبراطور للعودة إلى القسطنطينيَّة، فاستُقبل استقبال الظافرين. لكنَّ الهدوء لم يدم طويلاً؛ فالدسائس الجديدة التي أطلقتها الإمبراطورة مع مجمع الأساقفة المناوئين له، بسبب تهجُّمه عليهم جميعًا بما فيهم الإمبراطورة، جعلت الإمبراطور يصدر أمرًا بنفي جديد. أمّا مكان النفي فكان القوقاز، مدينة صغيرة في أرمينيا. فكانت الرحلة مؤلمة، فالتعب في الطريق، ونقصان الحاجيّات الضروريَّة، الحرارة، والسهر المضني كادت تقضي عليه. طالب مرارًا أن يتغيَّر مكان نفيه لكنَّه لم يلقَ آذانًا صاغية. كما ترجّى من أصدقائه أن يُرسلوا إليه رسائل مظهرين له عن مودَّتهم وتعاطفهم معه: "بالنسبة إلى تغيير موضع إقامتي، لا تُزعجوا أحدًا بعد الآن. ربَّما أرادوا مساعدتي ولكنَّهم لم يستطيعوا... وإن كانوا لا يستطيعون، ألا يمكنهم أن يكتبوا (رسائل)؟"(٤).

في رسائله التي بعثها إلى بعضٍ من أصدقائه، نجد يوحنّا ضعيفًا، تعبًا، متألِّمًا: "إنَّ السفر أكثر ألم من ألف نفي"(٥). لمّا بلغ مدينة القوقاز طلب من صديقته أولمبيا أن توقف الطلب بنقله إلى مكان آخر، لئلاّ يكون أكثر جفافًا، من المكان الذي نفي إليه، فقد وجد في القوقاز اهتمامًا أفضل من المكان الذي نفي إليه سابقًا ولو كان المكان جافًّا والطقس قاسيًا. بسبب حرارة الطقس المتدنِّية، عانى البطريرك المنفيّ آلامًا جسيمة، وسقط في أمراض كثيرة: أوجاع في المعدة، أرق، تقيُّؤ مستمرّ، آلام في الرأس. هذه الأمور كانت بالنسبة إليه، "مدخلاً إلى الموت"(٦).

---

(٢) *Cum Saturninus et Aurelianus* I, 1, Patrologia Graeca (PG) 52, 415A.
(٣) J.-H. NEWMAN, *Esquisses patristiques*, III, p. 331.
(٤) *Lettres à Olympias*, 4, 1B, 19-24, p. 118.
(٥) *Ibid.* 6, 1C, 46-47, p. 128.
(٦) *Ibid.* 12, 1A, 1-26, pp. 316-318.